سِلْسِلةُ إِعْلامُ الأَنَامِ بِعُلوِّ قَدْرِ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

الكتـاب الأول

إيضَـــــاحُ القـــرآنِ المُبِيـــــنِ

لتَفْضِيلِ النَّبيِّ ﷺ على جَميعِ الأَنبِياءِ والمُرْسَلِينَ

تأليف

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

الدكتور : أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استهلال

قال الله تعالى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَوَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) سورة البقرة (253).

قال العلامة ابن كثيررحمه الله :

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كل معجزة لنبي من الأنبياء فهي في الحقيقة معجزة لخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن كلا منهم بشَّر بمبعثه ، وأُمِر بمتابعته ، كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران : **82** ، **81**] - البداية والنهاية (308/6) .

وقال العلامة أبو المعالي محمد بن علي الأنصاريّ الزَّملكانيّ :

(وبيان أنَّ كل معجزة لنبيّ فلنبيّنا أمثالها إذا تمَّ يستدعي كلاماً طويلاً وتفصيلاً لا يسعه مجلدات عديدة) البداية والنهاية (259/6) .

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى:

(قال العلماء:ما أُوتي نبي معجزة ولا فضيلة إلا ولنَبِيّنا مُحمد صلى الله عليه وسلم نظيرها أو أعظم منها) الخصائص الكبرى (304/2) .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى أكمل حمد وأجله وأعظمه وأبلغه وأفصحه وأوسعه وأفضله وأكثره بركة وأحسنه قبولاً لديه وأكثره ثواباً عنده **(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** فالحمد لله.

أحمده تعالى وتبارك وتمجَّد على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأحمده على تفرده بالملك والملكوت (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) فالحمد لله.

أحمده تبارك وتعالى على جميل عطائه وحسن عنايته ورعايته **(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)** فالحمد لله.

أحمده على جميل ستره وعظيم عفوه ومغفرته فلولا ذلك لكان حالنا على شفا جرف هار ومصائب ومهالك، (**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**) فالله أرجو منه المغفرة والحمد لله.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان الباقيان ما بقى أنسي أو جانّ وما تحرك بهما لسان، وما غفل عنهما جنان على سيدنا محمد صاحب الوسيلة والفضيلة الذي أعلى الله قدره ورفع له ذكره وجعله من أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً وأكمل المخلوقات علماً وعملاً، وأشد الخلْق حباً لله وأفضلهم تقرباً إليه وثناءاً عليه، أوتي الحكمة وفصل الخطاب بل أوتي جوامع الكلم الباهر والبيان الظاهر والدعوة التامة والحجة البالغة والأدلة الساطعة والدين الحنيف والطريقة السمحة ، فكان صلى الله عليه وسلم صاحب الخصائص التي لا تعد ولا تحصى من فضل ربه الأعلى ويكفي أن الله صلى عليه وأمر بذلك الملأ الأعلى، وأنه بشره فقال له : **(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)** فكان ذلك العطاء شاملاً للآخرة والأولى.

أما بعد : لقد منَّ الله سبحانه عليَّ وألقيت – في المسجد - ما يزيد على سبعين درساً تحت عنوان : (**السور والآيات المختصة بخير البريات عليه من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات**) - وهي منشورة ضمن صوتيات موقع الشبكة الإسلامية - وواضح من العنوان أن المقصود هو التفسير الموضوعي للآيات التي ورد فيها ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في نيتي أن يتحول ذلك إلى كتاب يُطبع ويتداول بين الناس ولكني من خلال تحضيري للدروس وتتبعي للآيات وجدت أن الموضوع ليس

مجرد كتاب بل هو مشروع كبير ومهم جداً ويحتاج إلى جهود كبيرة ، والعبد الفقير ليس أهلاً لاستقصائه من جميع جوانبه ، ولكن أستعين بالله تعالى لكي أصل إلى ما يمكن القيام به وإخراج شئ يسير من مشروع بهذه الأهمية والضخامة، ومن هنا آثرت أن أجعله تحت عناوين وكل عنوان يُكتب في جزء على حدته ،وذلك لسببين :

الأول : هناك معلومة غير دقيقة بل هي من الخطأ الواضح قد انتشر بين الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر في القرآن في عدد قليل من المرات في القرآن ، بينما الواقع على خلاف ذلك فمن خلال بحثي في هذا الموضوع عثرت على كتاب بعنوان (**معجم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن**) للدكتور محمد زكي خضر حيث كشف عن عدد المرات الصحيح بقوله في مقدمته : (**قد يعجب المرء حين يعلم أن هذا الكتاب قد أتى على (2672)موضع ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الله وهي موزعة على 1203 آية. ويعني ذلك أن ما يقرب من خمس آيات القرآن الكريم فيها ذكر بشكل أو بآخر للرسول عليه الصلاة والسلام**)أهـ

ومما لا شك فيه أنه من الصعب تفسير كل هذه الآيات وجمعها في كتاب واحد تحت العنوان الذي اخترته للدرس – المذكور آنفاً - فقد يصل إلى عشر مجلدات.

الثاني : كتابة الموضوع في أجزاء متفرقة ويأخذ كل كتاب عنوانا يكون أدعى لقراءته بل أيسر في اقتنائه فالطريقة الأولى في التأليف ربما تروق للعلماء المتخصصين أما الطريقة الثانية فهى أفضل لطلبة العلم والمثقفين بل ولعامة المسلمين .

بناءاً عليه لقد اخترت لهذا المشروع أعني التفسير الموضوعي لـ (**السور والآيات المختصة بخير البريات عليه من الله أفضل الصلوات و أتم التسليمات**) عنواناً عاماً وهو :

سِلْسِلةُ إِعْلامُ الأَنَامِ بِعُلُوِّ قَدْرِ النَّبِيِّ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

وهذا هو الكتاب الأول منها وعنوانه [1]:

---

1 / طبع هذا الكتاب في عام 2016 بعنوان فَتْحُ الحَقِّ المُبِينِ في المُوَازَنَةِ بَيْنَ مَا أَكْرَمَ اللهُ بِهِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ وَسَائِرِ الأنبيَاءِ والمُرْسلَيْنَ (في الخصائص والفضائل والمعجزات) ولكن غيرته – لطوله - بعد الاستشارة لبعض الإخوة بالعنوان أعلاه .

إيضَاحُ القرآنِ المُبِينِ لتَفْضِيلِ النَّبيِّ ﷺ على جَميعِ الأَنبِياءِ والمُرْسَلِينَ

وقبل الشروع في موضوع هذا الكتاب أنبِّه القارئ إلى أن ما سيأتي في هذه المقدمة - بعد قليل - يعتبر مقدمة للمشروع بأكمله بل أقول لقد كتبت في هذا الكتاب فصلين – الأول والثاني - هما أيضاً يندرجان تحت التقديم لهذه السلسلة بأكملها، فتناولت في **الفصل الأول بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشروبينت ما لهم من الخصائص .**

*** **** ***

واما الفصل الثاني فقد ذكرت فيه الأدلة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وإنما بدأت بهذه الموازنات لأنه عِلمٌ لم يبحث فيه أحد في القرآن الكريم – فيما أعلم – وإنما كَتَبَ فيه بعض العلماء في السنة النبوية والآثار وأوَّل من تكلم فيه – لا كعلم مستقل وإنما باعتباره باباً من الأبواب – **العلامة ابن كثير رحمه الله** حيث قال : (**باب البينة على ذكر معجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله وأعلى منها خارجة عما اختص به من المعجزات العظيمة التي لم يكن لأحد قبله منهم عليهم السلام**).

ثم قال : (فاستخرت الله حينا من الدهر ثم نشطت لذلك ابتغاء الثواب والأجر وقد كنت سمعت من شيخنا الإمام العلامة الحافظ أبي الحجاج المزي تغمده الله برحمته أن أول من تكلم في هذا المقام الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتابه دلائل النبوة - بسنده - **قال الشافعي رحمه الله : "ما أعطى الله نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقلت أعطى عيسى إحياء الموتى فقال : أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حين بني له المنبر حنين الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك** " ، هذا لفظه رضي الله عنه، والمراد من إيراد ما نذكره في هذا الباب البينة على **ما أعطى الله أنبياءه عليهم السلام من الآيات البينات والخوارق القاطعات والحجج الواضحات وأن الله جمع لعبده ورسوله سيد الأنبياء وخاتمهم من جميع أنواع المحاسن والآيات مع ما اختصه الله به مما لم يؤت أحدا قبله كما ذكرنا في خصائصه وشمائله** ، ووقفت على فصل مليح في هذا المعنى في كتاب

دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني وهو كتاب حافل في ثلاث مجلدات عقد فيه فصلا في هذا المعنى وكذا ذكر ذلك الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد في كتابه دلائل النبوة وهو كتاب كبير جليل حافل مشتمل على فرائد نفيسة وكذا الصرصري الشاعر يورد في بعض قصائده أشياء من ذلك كما سيأتي وها أنا أذكر بعون الله مجامع ما ذكرنا من هذه الاماكن المتفرقة بأوجز عبارة وأقصر إشارة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)[2] اهـ .

*** **** ***

وكتابي هذا وإن كان قد جمع من الآيات والأحاديث ما لم يذكره العلامة ابن كثير إلا أن الفضل عائد إليه في ابتدائه لهذه الموازنة ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أقول ما قاله ابن مالك رحمه الله في مقدمة الألفية متحدثاً عن ابن معطي النحوي:

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائي الجميلا

والله يقضي بهبات و افرة لي وله في درجات الآخرة

ثم جاء بعده العلامة السيوطي (ت911 هـ) وعقد باباً في الخصائص الكبرى - ولم يستوعب جميع الآيات الواردة فيه بل لعله لم يقصد تتبع ذلك من القرآن الكريم ،لأن الناظر في كلامه يجد أنَّ تتبعه لما ورد في السنة النبوية أكثر ، وقد عقد باباً لا يتجاوز العشر صفحات وعنون له بقوله : (**ذكر موازنة الْأَنْبِيَاء فِي فضائلهم بفضائل نَبينَا صلى الله عَلَيْهِ وَسلم**) .

ثم قال : **(قَالَ الْعلمَاء مَا أُوتِيَ نَبِي بمعجزة وَلَا فَضِيلَة إِلَّا ولنبينا صلى الله عَلَيْهِ وَسلم نظيرها أَو أعظم مِنْهَا)** ثم ذكر موازناته لعدد من الأنبياء عليهم السلام .

*** **** ***

وممن تعرض لموضوع الموازنة أيضاً العلامة القسطلاني (ت 923 هـ) في كتابه المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في المجلد الثاني ومنهجه كان قريباً من منهج السيوطي رحمهما الله تعالى وعقد لذلك

---

2 / البداية والنهاية – للعلامة ابن كثير- (6 / 257) .

فصلاً بعنوان : **(فيما خصه الله تعالى – يعني النبي صلى الله عليه وسلم - به من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البينات)** واستغرق ذلك الصفحات (582 -594).

ثم جاء بعدهم العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت942) فعقد بابا في موضوع الموازنة في كتابه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) جمع فيه كلام من تقدمه وقد سلك سبيل من قبله في جمع الرويات الواردة في كتب الحديث والسيرة النبوية ، كما أنه زاد على غيره بالإشارة في بعض الأحيان إلى آيات الموازنة لكن دون استيعاب لها ولا تعرض لتفسيرها.

*** **** ***

بعد الإشارة السريعة إلى مَن تكلم في علم الموازنة أقول : والأصل في ذلك أن تعلم أخي القارئ الكريم : **أن الأمة قد أجمعت على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق . وهو في كلام الأئمة سلفاً وخلفاً كثير، فمن ذلك ما نقل من عقيدة الإمام أحمد إمام أهل السنة أنه : (كان يعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، وخاتم الأنبياء، والشهيد على الجميع)، و أنه كان يقول: (إن بعض النبيين أفضل من بعض ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم).**

وعقد النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح الإمام مسلم باباً بعنوان : (باب تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق) .

وعقد الآجري رحمه الله تعالى باباً في كتابه (الشريعة) فقال: (باب ذكر ما فضل الله عز وجل به نبينا صلى الله عليه وسلم في الدنيا من الكرامات على جميع الأنبياء) .

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى في عقيدته: (فصل: ونعتقد أن محمداً المصطفى خير الخلائق و أفضلهم وأكرمهم على الله عز وجل وأعلاهم درجة و أقربهم إلى الله وسيلة) .

*** **** ***

ومما ينبغي أن يعلم أن ما اختُصَّ به بعض الأنبياء عليهم السلام من الفضائل لا يقتضي ذلك تفضيله على صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون صلوات الله وسلامه عليهم ، فإن المفضول يجوز أن يختص بما ليس للفاضل من غير أن يفضله بما اختص به.

وقد وقع نحو هذا في نبينا صلى الله عليه وسلم وبعض أتباعه من الصحابة رضوان الله عليهم وهم دون الأنبياء في الفضل، فهذا عمر رضي الله عنه أخبره النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان ينفر منه قال صلى الله عليه وسلم: **(والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك)** وعرض له صلى الله عليه وسلم الشيطان في صلاته ولم ينفر منه كما في حديث أبي هريرة.

قال القرافي رحمه الله تعالى في هذا الموضوع : **(و أين عمر رضي الله عنه من النبي عليه السلام، غير أنه يجوز أن يحصل للمفضول ما لا يحصل للفاضل ... ومن ذلك أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أفضل من الملائكة على الصحيح، وقد حصل للملائكة المواظبة على العبادة مع جميع الأنفاس، يُلهم أحدهم التسبيح كما يُلهم أحدنا النفس إلى غير ذلك من الفضائل والمزايا التي لم تحصل للبشر، ومع ذلك فالأنبياء أفضل منهم لأن المجموع الحاصل للأنبياء من المزايا والمحاسن أعظم من المجموع الحاصل للملائكة، فمن استقرى هذا وجده كثيراً)** .

إلى أن قال : **(فعلى هذه القاعدة تخرجت الإقامة والأذان وأن من خواصهما التي جعل الله تعالى لهما أن الشيطان ينفر منهما دون الصلاة، مع أن الصلاة أفضل منهما ، ولا تناقض في ذلك بسبب أن المفضول يجوز أن يختص بما ليس للفاضل)**[3].

*** **** ***

فالحاصل أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق ولا يلتفت إلى غير هذا، ولقد زعم قوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن أفضل من إبراهيم ولا من نوح ولا من آدم عليهم السلام لأن الثلاثة آباؤه، وامتنعوا من تفضيل الابن على الأب، وفضلوه على كل نبي لم يكن أبا له .

3 / أنوار البروق في أنواع الفروق – للعلامة أحمد بن إدريس القرافي المالكي - (146/2).

قال البغدادي رحمه الله تعالى : (وقياسهم يقتضي أن لا يكون أفضل من إدريس ولا من إسماعيل لأنهما أبواه؟ ولم ينصوا عليهما، فهم ينطقون عن جهل وسفه، وكذا يقتضي قياسهم أن يكون الأب الكافر المخلد في النار خير من الابن المؤمن المخلد في الجنة كمن نزل فيهم قوله سبحانه: **(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)** سورة المجادلة (22) .

وقد وردتْ الآياتُ القُرآنيةُ والأحاديثُ النبوية تُصرّحُ بعُلو منزلتِهِ الكريمة- صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ- وأنه أعلى النَّاسِ قدراً، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسنَ وفضلاً .

*** **** ***

وبناءاً على ما سبق أحببت أن أكتب في جانب من الجوانب التي تدل على تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ألا وهي الموازنة بين ما أكرم الله النبي صلى الله عليه وسلم ،وما أكرم به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، ومعرفة تلك الموازنة لها عدد من الفوائد ،منها:

1/ معرفة علو قدر النبي صلى الله عليه وسلم بصورة مفصلة ، إذ الملاحظ أن كثيراً من المسلمين يقرون بأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، وأعلاهم قدراً عند ربه تعالى ،ولكن لو سئل بعضهم عن السبب في هذا التفضيل أو أدلته من الكتاب والسنة أو كيفيته ؟ لا يعرف كيف يجيب ؟ **فكانت معرفة هذه الموازنة ضرورية لتبصير المسلم بتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم.**

2/ الناس بطبيعتهم البشرية يقدرون العظماء ويحترمونهم بل ويحبونهم على قدر ما فيهم من أسباب العظمة ومظاهرها ، ولا شك أن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام هم أعظم البشر وقد توافرت فيهم صفات العظمة وأسبابها بأبهى صورة وأجلاها . وإذا كان الأمر كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظمهم ومظاهر العظمة فيه أخذت جوانب عديدة فكانت هذه الموازنة مما يجلي فيه صلى الله عليه وسلم تلك العظمة ، ومما يزيد في أهميتها أنها موازنة بينه وبين أعظم البشر الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه.

3/ من واجب المؤمن أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم محبة تفوق محبته لكل شيء في هذه الحياة ،ولكي يقوى هذا الحب ويزداد ثباتاً ورسوخاً في القلب لا بد من تغذيته بالمعرفة بالمحبوب صلى الله عليه وسلم ، فمما هو مشاهد في دنيا الناس أنه من الصعب أن تجد إنساناً يحب آخر وهو لا يعرفه ، وإنما يأتي الحب بين الناس بعد أن يتم التعارف والتواصل شيئاً فشيئاً ، فكلما اقتربت من إنسان وتعرفت على جميل صفاته وحسن خلقه ازددت حباً له ، ولكن يظل هذا الحب ضعيفاً هزيلا ما دامت المعرفة ضعيفة أو معدومة ، ومن هنا كانت هذه الموازنة تخدم جانبي الحب والمعرفة بالنبي صلى الله عليه وسلم .

4/ وقد يسأل سائل: لماذا نحب النبي صلى الله عليه وسلم ؟

للجواب نقول : لا يتم إيمان المسلم حتى يحبَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، بل حتى يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم أحبَّ إليه من والده وولده ونفسه والناس أجمعين . عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**) رواه البخاري (15) ومسلم (44).

وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر: يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**) فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (**الآن يا عمر**) رواه البخاري (6257).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما السبب في وجوب محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه أكثر من أي شخص فلأن أعظم الخير في الدنيا والآخرة لا يحصل لنا إلا على يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان به و اتباعه ، وذلك أنه لا نجاة لأحد من عذاب الله ، ولا وصول له إلى رحمة الله إلا بواسطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان به ومحبته وموالاته و اتباعه .

وهو الذى ينجيه الله به من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو الذى يوصّله إلى خير الدنيا والآخرة . فأعظم النعم و أنفعها نعمة الإيمان ، ولا تحصل إلا به وهو أنصح و أنفع لكل أحد من نفسه

وماله ؛ فإنه الذى يخرج الله به من الظلمات إلى النور ، لا طريق له إلا هو ، وأما نفسه وأهله فلا يغنون عنه من الله شيئا ..) [4]اهـ

وقال القرطبي رحمه الله : كان ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " **ما غير لونك؟!** ". قال: يا رسول الله.. ما بي ضر ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك تُرفع مع النبيين، وأنّي إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل لا أراك أبداً، فأنزل الله عز وجل قوله: **(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا)** سورة النساء (69).

رحم الله ثوبان ورضي عنه.. حاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الشاعر:

الحزن يحرقه والليل يقلقه والصبر يسكته والحب ينطقه

ويستر الحال عمن ليس يعذره وكيف يستره والدمع يسبقه

*** **** ***

وأما منهجي في هذه الموازنات أن أذكر الآيات المتعلقة بالنبي أو الأنبياء في قضية معينة أو معجزة معينة ثم أذكر أقوال العلماء والمفسرين في ذلك ، ثم أذكر ما ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك تظهر الموازنة ويظهر تفضيل الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم.

وأما مكونات الكتاب بعد المقدمة فهي تمهيد وخمسة أبواب وكل باب تندرج تحته فصول ومباحث،وسأذكر هنا الأبواب دون الفصول والمباحث لأنها مكتوبة في فهارس الكتاب ، أما التمهيد والأبواب والخاتمة فهي:

---

4 / مجموع الفتاوى- لشيخ الإسلام ابن تيمية – (246/27) .

تمهيد : في بيان مفهوم الموازنة والفضيلة والمعجزة.

الباب الأول : بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر وما لهم من الخصائص .

الباب الثاني : بيان أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام .

الباب الثالث : الموازنة في تفضيل الله للنبي ﷺ فيما اشترك فيه جميع الأنبياء عليهم السلام .

الباب الرابع: الموازنة بين معجزات وفضائل النبي ﷺ ومعجزات وفضائل أولي العزم عليهم السلام.

الباب الخامس: الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعدد من الأنبياء عليه السلام.

الخاتمة : ذكرت فيها الفوائد المستخلصة من هذا الكتاب المبارك إن شاء الله تعالى.

وأخيراً أقول: ثمة فرق بين الخصائص النبوية وبين هذه الموازنات؛ لأن المراد بالخصائص ما انفرد به النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء عليهم السلام فلم يشاركوه فيه وهو عِلْم قائم بذاته وقد أُلِّفت فيه المؤلفات وإن كانت قليلة ، وأما الموازنات فهي تظهر مزية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في العطاء الإلهي الذي شارك جميع الأنبياء عليهم السلام فيما أكرمهم الله به وزاد عليهم في نفس ذلك العطاء . والله أعلم.

*** **** ***

وفي ختام هذه المقدمة أحببت أن أنبهك أخي القارئ الكريم إلى أن ما في هذا الكتاب من علم جهد بشري أراد به مؤلفه الخير لنفسه ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يخلو من تقصير في بعض مباحثه أو خطأ في بعض عباراته أو غفلة عن كتابة بعض المراجع كما أنه قد يختلف معي القارئ في بعض ما أذهب إليه من كلام العلماء في بعض المسائل ، **فينبغي ألا يحول ذلك كله دون الاستفادة مما فيه كما لا ينبغي ألا يترك الدعاء لمؤلفه فالعلم رحم بين أهله ... والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .**

إلهـي:

ما زلت أُعرَف بالإساءة دائماً ويكون منك الصفح والغفران

لم تنتقصنى إن أسأت وزدتنى حتى كأن إساءتى إحسان

منك التفضل والتكرم والرضا أنت الإلـه المنعم المنـان

هذا واللهَ الكريمَ أسأل أن ينفعني بهذه الكتاب وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون سبباً في مغفرة ذنبي ورفع درجتي في الجنة وأن يفعل ذلك بالقارئ الكريم والقارئة الكريمة وأن يجزي خيراً كل من يقرأوه أو ينشره أو يرشد إليه .

كان الفراغ منه يوم الاثنين: 6/ شعبان – 1436 – المو افق 2015/5/25

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

أخوكم : أحمد خضر حسنين الحسن

*** **** ***

تمهيد

في بيان مفهوم الموازنة والخصائص والفضائل والمعجزات

يحتوى هذا التمهيد على ثلاث مصطلحات كان لا بد من الحديث عنها وتوضيح معانيها - بإيجاز شديد - قبل الشروع في فصول الكتاب وهي : الخصائص والفضائل والمعجزات وذلك من خلال المحاور الآتية :

المحور الأول : مفهوم الموازنة لغة واصطلاحاً :

لغةً: مأخوذ من مادة وزن:الوَزْنُ: رَمْزُ الثِّقَلِ والخِفَّةِ. **قال الليث رحمه الله** [5]:الوَزْنُ ثَقْلُ شيء بشيء مثلِه كأَوزان الدراهم، وَزَنَ الشيءَ وَزْناً وزِنَةً. **قال سيبويه رحمه الله** [6] : (اتَّزَنَ يكون على الاتخاذ وعلى المطاوعة،وإنه لحَسَنُ الوِزْنَةِ أَي الوَزْنِ.

قال أَبومنصور رحمه الله [7]:ورأَيت العرب يسمون الأَوْزانَ التي يُوزَنُ بها التمر وغيره المسَوَّاةَ من الحجارة والحديد المَوَازِينَ،واحدها مِيزان،وهي المَثَاقِيلُ واحدها مِثْقال،ويقال للآلة التي يُوزَنُ بها الأَشياء مِيزانٌ أَيضاً .

قال الله تعالى: ﴿**ونَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ**﴾؛يريد نَضَعُ المِيزانَ القِسْطَ.ويقال:وَزَنَ فلانٌ الدراهمَ وَزْناً بالميزان،وإِذا كاله فقد وَزَنَه أَيضاً.ويقال:وَزَنَ الشيء إِذا قدَّره [8].

ووازَنْتُ بين الشيئين مُوَازَنَةً ووِزاناً،وهذا يُوازِنُ هذا إِذا كان على زِنَتِه أَوكان مُحاذِيَهُ. ويقال: وَزَن المُعْطِي واتَّزَنَ الآخِذُ،كما تقول:نَقَدَ المعْطِي وانْتَقَد الآخذُ [9].

4/ لسان العرب- لابن منظور(محمد بن مكرَّم بن على 630-711هـ)،تصحيح:أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي،ط ثالثة،إحياء التراث العربي،بيروت،1999م،ج27،مادة:وزن.

5/ العين - للخليل بن احمد الفراهيدي،ج2،مادة:وزن.

6/ تهذيب اللغة- للأزهري،ج2،مادة:وزن.

7/ سورة الأنبياء،الآية:47

8/ الصحاح"ج6،مادة:مادة:وزن

وقيل : في تفسير قوله تعالى **(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)** سورة الحجر (19) أَي من كل شيء يوزن نحو الحديد الرَّصاص.والمِيزانُ:المِقْدار.

وأَنشد ثعلب[10] :

قد كُنْتُ قبل لقائِكُمْ ذا مِرَّةٍ عِنْدي لكل مُخاصِمٍ ميزانُه

وهناك وجه آخر لمعنى كلمة موزون ذكره الرازي بقوله : (أن أهل العرف يقولون : فلان موزون الحركات أي : حركاته متناسبة حسنة مطابقة للحكمة ، وهذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف ، فكأن المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل ، بالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب ، فقوله : **(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)** الحجر(19) أي : متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة)[11] .

*** **** ***

وقال أحد الباحثين :الموازنة هي الدراسة المقارنة بين نصين أو تفسيرين، إبرازا لمزاياهما وبيانا لأوجه الاتفاق والاختلاف.الموازنة بين الحق والباطل ؛ لإحقاق الحق ونشره وبيان فضله وعلُوّه على غيره ، **وكشف الباطل وبيان بطلانه وإزهاقه منهج قرآني يرد بأساليب متنوعة من مثل قول الله تعالى :** **(أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)** سورة آل عمرن (162) .

وقوله سبحانه : **(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** سورة التوبة (109).

وقوله جل وعلا : **(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)** سورة الرعد (19)، وقوله عز وجل : **(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)** سورة النحل (17).

9/ لسان العرب - ابن منظور،ج27،مادة: (وزن).

11 / التفسير الكبير – للرازي – تفسيرسورة الحجر – الآية (19) .

وقوله تعالى : **(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)** سورة القصص (61) .

وقوله تعالى : **(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)** سورة السجدة (18-21)، وغيرها من الموازنات التي وردت في القرآن الكريم.

وهذا المنهج قد سلكه علماء الإسلام ودعاته في مؤلفاتهم وبحوثهم ودراساتهم في القديم والحديث.[12]

*** **** ***

المحور الثاني : مفهوم الخصائص لغة واصطلاحاً وبيان أقسامها:

الخصائص جمع خصوصية ، وهي مأخوذة من مادة خصص، قال في لسان العرب : خصّه بالشيء يخُصّه خَصّاً وخُصوصاً وخَصُوصِيّةً وخُصُوصِيّةً والفتح أَفصح وخِصّيصَى وخصّصَه واخْتصّه أَفْرَدَه به دون غيره ويقال اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ له إِذا انفرد وخَصّ غيرَه واخْتصّه بِبِرّهِ ويقال فلان مُخِصٌّ بفلان أَي خاصّ به وله به خِصِّيّة.

فأَما قول أَبي زبيد: إِنّ امرأً خَصّني عَمْداً مَوَدَّتَه على التَّنائي لَعِنْدِي غيرُ مَكْفُور

فإِنه أَراد خَصَّني بمودّته فحذف الحرف وأَوصَل الفعلَ وقد يجوز أَن يريد خَصَّني لِمَودّته إِيّايَ فيكون كقوله وأَغْفِرُ عَوْراءَ الكريمِ ادّخارَه قال ابن سيده وإِنما وجّهْناه على هذين الوجهين لأَنا لم نسمع في الكلام خَصَصْته متعدية إِلى مفعولين والاسم الخَصُوصِيّة والخُصُوصِيّة والخِصِّيّة والخاصّة والخِصِّيصَى.

*** **** ***

12 / هذا المحور ملخص من موقع ملتقى أهل التفسير.

الخصائص اصطلاحًا :

قال العلامة الصادق بن محمد بن إبراهيم : (هي الفضائل والأمور التي انفرد بها النبي صلى الله عليه وسلم وامتازبها إما عن إخوانه الأنبياء وإما عن سائر البشر من أمته)[13].

وقيل: هي ما اختص الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وفضَّله به على سائر الأنبياء والرسل عليهم السلام[14].

أقسام الخصائص النبوية : للخصائص النبوية قسمان رئيسان:

الأول : خصائص تشريعية : وهي ما اختص به النَّبيّ -صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ -من التشريعات الإلهية.

الثاني : خصائص تفضيلية : "وهي الفضائل والتشريفات التي كرَّم الله بها نبيَّنا مُحمَّداً- صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ- دون غيره " [15].

*** **** ***

المحور الثالث : مفهوم الفضيلة لغة واصطلاحاً :

أما الفضيلة في اللغة : فهي مأخوذة من مادة فضل ،قال في تاج العروس : وفي المفردات للراغب : الفضل : الزيادة على الاقتصاد وذلك ضربان **محمود** : كفضل العلم والحلم ، **ومذموم** : كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه والفضل في المحمود أكثر استعمالا والفضول في المذموم والفضل إذا استعمل بزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضراب :

- فضل من حيث الجنس.

- وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان.

- وفضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر.

---

13 / انظر كتاب خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء - للعلامة الصادق بن محمد بن إبراهيم - ص (24)

14 / نضرة النعيم في أخلاق النبي الكريم – لمجموعة من العلماء – طبعة وزارة الأوقاف القطرية - (1/ 447) .

15 / خصائص المصطفى-صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ -بين الغلو والجفاء "ص24.

فالأولان جوهريان لا سبيل للناقص منهما أن يزيل نقصه وأن يستفيد الفضل كالفرس والحمار لا يمكنهما اكتساب فضيلة الإنسان والثالث قد يكون عرضيا فيوجد السبيل إلى اكتسابه ومن هذا النحو التفضيل المذكور في قوله تعالى : **(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)** سورة النحل (71). أي في المكنة والمال والجاه والقوة وكل عطية لا يلزم إعطاؤها لمن تعطى له يقال لها فضل نحو قوله تعالى : **(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ)** سورة النساء (32). وقوله تعالى :**(ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** سورة الجمعة (4) متناول للأنواع الثلاثة من الفضائل . انتهى.

*** **** ***

والفضيلة : خلاف النقيصة وهي الدرجة الرفيعة في الفضل والاسم من ذلك الفاضلة والجمع الفواضل . وفضله على غيره تفضيلا : مزاه أي أثبت له مزية أي خصلة تميزه عن غيره أو فضله : حكم له بالتفضيل أو صيره .

والتفاضل بين القوم : أن يكون بعضهم أفضل من بعض . وفاضلني ففضلته أفضله فضلا : غالبني في الفضل فغلبته به وكنت أفضل منه .

وتفضل عليه : تمزى ومنه قوله تعالى : **(يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ)** سورة المؤمنون (24) أي يكون له الفضل عليكم في القدر والمنزلة . أو تفضل عليه : إذا تطول وأحسن وأناله من فضله قال الشاعر:

متى زدتُ تقصيراً تزِدْني تفضُّلا كأنّي بالتقصيرِ أستَوجِبُ الفضْلَا

والفضيلة اصطلاحاً : قال الشيرازي في كتابه الفضيلة: الفضيلة هي الحد الوسط بين الزيادة والنقصان وهذان هما الرذيلة، وربما يكون قول نبي الأخلاق صلى الله عليه وسلم: خير الأمور أوسطها. إشارة إلى هذا.

وقال بعض الحكماء في تعريف الفضيلة : فالفضيلة هي خُلق وضع متوسط بين الإفراط والتفريط أي التوسط بين الإفراط في الزيادة، والتفريط الذي هو النقص أي أن يسلك فيها الإنسان بميزان الاعتدال. لا يبالغ حتى يصل إلى التطرف، ولا يتهاون فيصل إلى الإهمال... فالمبالغة مرفوضة سواء

كانت سلبا أو إيجاباً... وللفلاسفة وأرباب السلوك مدارس في تفسير الفضيلة وتعريفها يرجع إليها في مظانها.

وقال بعضهم : الفضائل جمع فضيلة ، و الفضيلة هي كل أمر حسن استحسنه العقل السليم على نظر الشارع المقدس من الدين و الخلق ، و فضيلة الشيء : مزيته أو وظيفته التي فُقدت منه.

فالفضائل إذن هي كل درجة أو مقام في الدين أو الخلق أو السلوك العلمي أو العملي اتصف به صاحبها .

وجاء في معنى الدعاء الذي يقال بعد الأذان (**اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة**) أن المراد بهذه الدعوة : أعط نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم الفضل في كل شيء، والعلو في الدرجات، فهو علو في الدنيا، وعلو في موقف القيامة، وعلو في الآخرة: علو في الحياة وفي الممات ، فأعطى الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الفضل والعلو في الدارين.

*** **** ***

المحور الرابع : مفهوم المعجزة و أنواعها :

المعجزة لغة : عندنا فعلان : أحدهما: ثلاثي، والآخر رباعي.

الثلاثي: عجز، يعجز فهو عاجز، ومصدر الفعل هو: العجز.

أما الرباعي: فهو أعجز، يعجز فهو معجز ومصدر الفعل هو الإعجاز.

المعجزة إذاً: هو اسم الفاعل المؤنث من فعل ذلك الفعل.

المعجزة في الاصطلاح : لقد تنوعت تعريفات العلماء للمعجزة وتعددت ، إلا أن التعريف الأشهر للمعجزة هو : أنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة ، يظهر على يد مدعي النبوة موافقاً لدعواه.

وبناءاً على هذا التعريف يقول العلماء شروط المعجزة هي:

1 - أن تكون المعجزة خارقة للعادة غير ما اعتاد عليه الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية.

2 - أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدي للمكذبين أو الشاكين أي يتحدى بها النبي كل من كذبه أو شك في نبوته .

3 - أن تكون المعجزة سالمة عن المعارضة، فمتى أمكن أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله ، بطل أن تكون معجزة.أي لا يستطيع أحد من المكذبين أن يأتي بما يعارضها .

4 - أن تقع على يد نبي من الأنبياء عليهم السلام.

أنواع المعجزة : تنقسم المعجزة إلى قسمين:

القسم الأول المعجزات الحسية : مثل: معجزة الإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم ، تكثير الطعام القليل وغيرها.

القسم الثاني : المعجزات العقلية :مثل الإخبار عن المغيَّبات، والقرآن الكريم.

وقد جرت سنة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كل نبي مشاكلة لما يتقن قومه ويتفوقون فيه ، ولما كان العرب قوم بيان ولسان وبلاغة ، كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى هي: القرآن الكريم.

*** **** ***

الباب الأول

بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشروما لهم من الخصائص

الفصل الأول : بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشرعلى الإطلاق.

المبحث الأول : دلالة القرآن الكريم على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشرعلى الإطلاق .

المبحث الثاني : دلالة السنة والنظر الصحيح على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر.

الفصل الثاني : بيان الخصائص التي خص الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام.

الفصل الأول

بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر على الإطلاق

المبحث الأول : دلالة القرآن الكريم على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر على الإطلاق .

المبحث الثاني : دلالة السنة والنظر الصحيح على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر.

المبحث الأول

دلالة القرآن الكريم على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر على الإطلاق

دلت النصوص من الكتاب والسنة والإجماع والنظر الصحيح على أفضلية الأنبياء عليهم السلام على البشر وسوف نتناول في هذا المبحث الأدلة من القرآن الكريم على ذلك [16].

لقد وردت آيات كثيرة تدل على أفضلية الأنبياء على غيرهم من البشر : منها :

1- قوله سبحانه وتعالى في بيان مراتب أوليائه: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) النساء: (69).

فالله قد رتب عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب وبدأ بالأعلى منهم وهم النبيون، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد شق عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة يُرفع مع النبيين في الدرجات العلا فتكون منزلتهم دون منزلته فلا يصلون إليه ولا يرونه ولا يجالسونه، فنزلت الآية مبينة أن من أطاع الله ورسوله يكون من نعيمه في الجنة أن يتمكن من مجالسة الأنبياء ورؤيتهم وزيارتهم، فلا يفوته ذلك ولذلك قال سبحانه: **(وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم)** وقال: **(وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)** وهذه المعية والرفقة لا تعني تساويهم في الدرجة، بل هم متفاوتون، لكنهم يتزاورون ويتجالسون ويأنسون بقربهم كما كانوا في الدنيا، وهذا بفضل الله لاتباعهم الأنبياء, واقتدائهم بهم.

فالآية نص في تفضيل الأنبياء على البشر فهم أفضل أولياء الله وأرفعهم درجة على الإطلاق .

وذكر سبحانه جملة من الأنبياء في آيات من سورة الأنعام ثم قال في آخرها: **(وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)** [الأنعام: 86].

قال ابن سعدي في تفسير الآية : (وكلاً من هؤلاء الأنبياء والمرسلين فضلنا على العالمين، لأن درجات الفضائل أربع وهي التي ذكرها الله بقوله: **(وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)** فهؤلاء من الدرجة العليا) [17]

11/ ملخصا من : مباحث المفاضلة في العقيدة لعبد الرحمن الشظيفي ص (177) – موقع الدرر السنية .

2 - وقوله سبحانه وتعالى: **(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)** [آل عمران: 33].

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : هذه الآية في ذكر الأنبياء خاصة ويشهد لتخصيصها الأنبياء فقط, وأنهم هم المعنيون بتفضيلهم على العالمين دون غيرهم بعدة أمور :

1/ **قوله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى**: والمراد الاصطفاء بالنبوة كما قاله الحسن وغيره [18]،وكذا قد ورد الاصطفاء مراداً به الاصطفاء بالنبوة في عدد من آيات الكتاب عند ذكر النبيين، كقوله سبحانه: **(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ)** [الحج: 75].

وقوله في موسى: **(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي)** [الأعراف: 144]. وقوله: **(وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ)** سورة ص (47).

2/ **أنه قد أطلق سبحانه وتعالى وصف الاصطفاء** وعنى به الرسل خاصة في قوله: **(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)** [النمل: 59].

والرسل هم المصطفون من عباد الله الذين سلم عليهم في العالمين كما بينه سبحانه في كتابه جملة وتفصيلاً كقوله سبحانه: **(وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** [الصافات: 181]. فقوله: **(وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)** كقوله: **(وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)** وقال سبحانه: **(سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)** [الصافات: 79]. وقال: **(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)** [الصافات: 108- 109]. وقال: **(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)** الصافات: (119- 120) .

فكما أطلق سبحانه الاصطفاء في آية النمل وهو مقيد بالاصطفاء بالنبوة فكذا في آية آل عمران هذه .

3/ **أن الله قد ذكر في الآية النبيين آدم ونوحاً ثم ذكر آل إبراهيم وآل عمران** وفيه إشارة إلى أن المراد بالآل الأنبياء خاصة من ذرية إبراهيم وذرية عمران لا عامة المؤمنين .

12/ تفسير السعدي- (200/2).

13/ تفسير الطبري 3/ 157

4/ أن الله قد ذكر آل إبراهيم وآل عمران لأن الأنبياء بعد إبراهيم لم يكونوا إلا من ذريتهما، فجمع ذكرهم في لفظ الآل، وهو سبحانه قد ذكر آل إبراهيم، وآل عمران فقط، ويكون في المؤمنين من ليس من ذريتهم، مما يشهد بأن الآية خاصة بالنبيين .

5/ أن قوله سبحانه: (عَلَى الْعَالَمِينَ) شاهد على أن المراد بالآية الأنبياء من سائر المؤمنين، ذلك أن اصطفاء المؤمنين وتفضيلهم على الكافرين أمر ظاهر ظهوراً يستغنى به عن الذكر، فكيف بتفضيل النبيين واصطفائهم على الكافرين، والنبيون معنيون في الآية بلا خلاف، فأن يكون المراد اصطفاء النبيين وتفضيلهم على سائر المؤمنين أولى، والله أعلم[19] .

هذا، وقد قال بعض المفسرين بأن المراد بآل إبراهيم وآل عمران الأنبياء منهم، وقال بعضهم أن المراد بآل إبراهيم – إبراهيم نفسه.[20]

والحاصل فإن الآية نص في تفضيل الأنبياء على البشر سواء كانت في الأنبياء خاصة وهو الأظهر، أو كانت فيهم و في أتباعهم من المؤمنين عامة، فإنه إذا كان المؤمنون أفضل البشر قد اصطفاهم الله على العالمين فالأنبياء هم الأفضل إطلاقاً بطريق الأولى .

* * * * * * * * * *

14/ تفسير الرازي - (19/8).

15/ زاد المسير- لابن الجوزي - (374/1) .

المبحث الثاني

دلالة السنة والنظر الصحيح على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر

أولا : من أدلة السنة النبوية على أن الأنبياء أفضل البشر ما يلي :

1 - قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أشد الناس بلاء قال: (**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**) [21] وهذا صريح في أن الأنبياء أمثل البشر.

2 - وقال صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وعمر: (**هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين**)[22] .و في هذا الاستثناء الدليل على أن الأنبياء أفضل الأولين والآخرين.

3 – وورد أنه **صلى الله عليه وسلم قال** : (**إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين**) [23].

4 - واستدل ابن تيمية رحمه الله على فضل الأنبياء على سائر الناس بحديث : (**ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر الصديق**) [24].

أما الإجماع : فقد قال ابن تيمية رحمه الله: (وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء).[25]

وقال أيضاً : (**الأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين وبعدهم الصديقون, والشهداء, والصالحون**)[26]. وذكر رحمه الله أن تفضيل بعض الفرق غير النبي على النبي مخالف لإجماع الأمة .[27]

* * * * * * * * * *

16/ رواه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه أحمد في المسند وصححه أحمد شاكر.

17/ رواه الترمذي و ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه

18/ رواه البزاركما في مجمه الزوائد وقال رجاله ثقاة وصححه الإشبيلي في الأحكام الصغرى (905)

19/ ورواه أحمد في المسند و ابن أبي عاصم في السنة.

20/ مجموع فتاوى ابن تيمية (221/11)

21/ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية – لشيخ الإسلام ابن تيمية (417/2) .

22/ مجموع فتاوى ابن تيمية (364/11) .

ثانياً : دلالة النظر الصحيح :

فإن العقل يقضي بكون الأنبياء خير الخلق وأفضلهم، لأنهم رسل الله, والواسطة بينه وبين خلقه في تبليغهم شرعه ومراده من عباده، وشرف الرسول من شرف المرسل وشرف الرسالة، وهم المصطفون من عباد الله ،اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم ولا يختار سبحانه من الخلق إلا أكرمهم عليه وأفضلهم عنده وأكملهم لديه.

قال ابن القيم رحمه الله: (ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً عليًّا على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم, فهم أقرب الخلق إليه وسيلة, وأرفعهم عنده درجة, وأحبهم إليه وأكرمهم عليه، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم, وبهم عرف الله, وبهم عبد وأطيع, وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض).[28]

*** **** ***

وأعلى منازل الخلق إنما تكون في تحقيق العبودية لله عز وجل، ولقد حقق الأنبياء عبوديتهم لله فكانوا عباد الله المخلصين الذين بين سبحانه أنهم هم الذين ينجون من السيئات التي يزينها الشيطان، قال الشيطان - فيما حكاه الله عنه - (**رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) [الحجر: 39- 40]. وقال: (**فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) [ص: 82].

وقد قال الله في حق يوسف عليه السلام: (**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) [يوسف: 24].

---

28 / طريق الهجرتين وباب السعادتين – للعلامة ابن قيم الجوزية - (350) .

فالأنبياء من المخلصين الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه فحققوا العبودية له سبحانه ولذلك نعتهم الله بالعبودية التي حققوها فكانوا خير الخلق فيها وبها.

قال سبحانه : **(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ)** [ص: 45- 47]. وقال سبحانه: **(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 17]

وقال عن سليمان عليه السلام : **(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 30] **وعن أيوب عليه السلام** : **(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 44] **وعن نوح عليه السلام** : **(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)** [الإسراء: 30].

ونعت سبحانه خير خلقه النبي الإمي محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في المقامات الشريفة

فقال في معجزة الإسراء: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)** [الإسراء: 1] ،وقال في مقام الدعوة: **(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)** [الجن: 9].

وقال في مقام الوحي: **(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)** [النجم: 10].

ولقد قام صلى الله عليه وسلم يصلي لله حتى تورمت قدماه، وتفطرتا، فقيل له: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال صلى الله عليه وسلم: **(أفلا أكون عبداً شكوراً)**[29].

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد حققوا العبودية لله فهم أتم الخلق عبودية لله ولذلك فهم أكمل الخلق وأفضلهم.

* * * * * * * * * *

29 / رواه البخاري ومسلم .

وقد اتضح من المبحثين السابقين أمران ظاهرا الدلالة على أفضلية الأنبياء على البشر وهما :

أولاً : أن الأنبياء كانوا خيار أقوامهم قبل نبواتهم فقد عصمهم الله عما يصغر أقدراهم .

ثانياً : أن النبوة اختيار من الله واصطفاء لا تبلغ بكسب ولا بغيره. فجمع الله للأنبياء الفضل من أطر افه ميزهم على خلقه من قبل النبوة, ثم زادهم فضلاً عليهم بالنبوة، فلا يبلغ أحد منزلتهم .

*** **** ***

الفصل الثاني

بيان الخصائص التي اختص الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام

لما كان الأنبياء هم أفضل البشر اختصهم الله بخصائص لم تكن لأحد من البشر سواهم ، وذلك ليتسنى لهم القيام بالمهمة المنوطة بهم والمسؤولية الملقاة على عواتقهم ، وقد اهتم العلماء بتتبعها في الكتاب والسنة والقيام ببيانها ،وقد بلغت خمس عشرة خصوصية ،هذا ملخص من كلامهم :

أولاً : من خصائص الأنبياء أنهم يتنزل عليهم الوحي : خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ}** (الكهف:110).

وقال تعالى : **(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَ أَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)** (سورة النساء :163) .

الوحي : في اللغة يطلق على الإشارة والإيماء ، ومنه قوله - تعالى – **(فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)** (مريم : 11).

ويطلق الوحي : على الإلهام الذي يقع في النفس ، وهو أخفى من الإيمان ، ومنه قوله عز وجل **(وأوحينا إلى أم موسى)** (القصص : 7) ويظهر أن هذا بعناية خاصة من الله تعالى ومنه قوله تعالى : (**وأوحى ربك إلى النحل)** (النحل : 68) .

كما يطلق على الإعلام في الخفاء ، وهو أن تعلم إنسانا بأمر تخفيه عن غيره ، ومنه قوله ، تعالى : (**شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض)** (الأنعام 112) وأطلق على الكتابة والرسالة ، لما يكون فيهما من التخصيص .

ووحي الله إلى أنبيائه هو : ما يلقيه إليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم ، بعد أن يكون أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالملك أو بغير واسطة .

وقال السيد محمد رشيد رضا : عرفه الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد بأنه : عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله ، بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور "[30] . وسيأتي مزيد بيان للوحي وأنواعه في الفصل الثاني من الباب الثالث .

*** **** ***

ثانياً : من خصائص الأنبياء أنهم معصومون : في تبليغ ما أمرهم الله عز وجل بتبليغه، وهم معصومون أيضا من الدنيَّات المخلَّة بالمروءة، ومعصومون كذلك من كبائر الذنوب وقبائحها، ويقع منهم عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم صغار الذنوب، كأكل آدم من الشجر التي نُهي عنها قال تعالى: **{فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ}** [طه:121] .

ولا يتنافى وقوع الصغيرة من النبيّ في كونهم أسوةً وقدوة، لأنّه يسارع إلى التوبة، فيكون قدوة وأسوة للعاصين بأن يسارعوا إلى التوبة والاستغفار، فالأنبياء لا يُقَرُّون على المعصية، ولا يؤخِّرون التوبة، وهم بعدَ التوبة أكملُ منهم قبلها.

وهذه الصغائر من أدلِّ الدلائل على بشريتهم، وهي صغائر نادرة معدودة، لا تقدح في عصمتهم، ولا سبيل فيها إلى النيل منهم والطعن فيهم ، وهذا قول جمهور العلماء ،وهذا في الأنبياء عامة.

أما نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فالذي أدين الله به هو ما ذهب إليه المحققون من أهل العلم أنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الصغائر أيضاً .

يقول القاضي عياض رحمه الله - في كتاب الشفاء - **(وعصمته وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً وعن الصغائر تحقيقاً).**

---

30 / تفسير المنار – للسيد محمد رشيد رضا – سورة الأنعام (112).

وقال النووي رحمه الله تعالى - في روضة الطالبين - ما نصه: (**اتفقوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنما قط والأنبياء قبل النبوة معصومون من الكفرواختلفوا في العصمة من المعاصي وأما بعد النبوة فمعصومون من الكفر ومن كل ما يخل بالتبليغ وما يزري بالمروءة ومن الكبائر واختلفوا في الصغائرفجوزها الأكثرون ومنعها المحققون وقطعوا بالعصمة منها وتأولوا الظواهر الواردة فيها**) وسيأتي مزيد بحث في هذه القضية في موضع آخر من الكتاب إن شاء الله تعالى.

*** **** ***

ثالثاً : من خصائص الأنبياء أنهم من البشر : الذين يستعظمون ومن يستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمُّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره، فالإنسان مؤهَّل لتحمّل الأمانة العظمى قال تعالى: **(إِنَّا عَرَضْنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)**[الأحزاب:72].

وهم عندما استعظموا ذلك لم ينظروا إلى أنّ الرسول ليس جسدًا فقط يأكل ويشرب وينام ويمشي في الأسواق لحاجته، **(وَقَالُواْ مَا لِهَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلأَسْوَاقِ)** [الفرقان:7]، بل له جوهرٌ متمثل في نفخة الله له من روحه، **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى)** [الحجر: 29]، ثم إنّ الرسول يُعدّ للرسالة إعدادًا، قال الله تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: **(وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى)** [طه:41]، وأحاط نبيَّه محمّدًا صلى الله عليه وسلم برعايته من صغره قال تعالى: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ (6) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ}** [الضحى:6-8].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (**أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه** - يعني مرضعته - **فقالوا: إنّ محمدًا قد قتل، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون) ، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره**) رواه مسلم .

(والبشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون أن يكونوا قدوة وأسوة، وإنّها لحكمة تبدو في رسالة واحدٍ من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحسُّ بإحساسهم، ويتذوَّق مواجدهم،

ويعانِي تجارَبهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشو اقهم، ويعلم ضروراتِهم و أثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو قوتَهم واستعلاءهم، ويسير بِهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدِّر بواعثهم وتأثراتِهم واستجاباتِهم، لأنّه في النهاية واحدٌ منهم، يرتاد بِهم الطريق إلى الله، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق. وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة، لأنّه بشر مثلهم، يتسامى بِهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أنّ الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حيّة للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونَها سطرا سطرًا، ويحققونَها معنى معنى، وهم يرونَها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ؛ لأنّها ممثلة في إنسان) اهـ[31].

*** **** ***

رابعاً : من خصائص الأنبياء أنهم خيار البشر في النسب : الرسل ذوو أنساب كريمة، فجميع الرسل بعد نوحٍ من ذريته، وجميع الرسل بعد إبراهيم عليه السلام هم من ذريته، قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَ إِبْرٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتٰبَ}** [الحديد:26]، ولذلك فإنّ الله يصطفي لرسالته من كان من خيار قومه نسبًا .

عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **(إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)** .[32]

وهذا أمر مشتهر معروف قال هرقل ملك الروم: (فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها) رواه البخاري

*** **** ***

31 / في ظلال القرآن (2553/19) .

32 / مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم - (2276)

خامساً : من خصائص الأنبياء أنهم أحرار بعيدون عن الرق : لا يكون الأنبياء والرسل أرقاء أبدًا، فالرقّ نقص بشري، رفع الله أنبياءه عنه، وما حدث ليوسف عليه السلام إنّما هو رقٌّ خارجٌ عن الأصل، فالأصل حريته، والرق طارئ عليه ظلمًا وعدوانًا، وكان نوعًا من أنواع البلاء من الله عليه، ولم يستمر.

قال السفاريني رحمه الله تعالى : (الرقّ وصف نقصٍ لا يليق بمقام النبوة، والنبيّ يكون داعيًا للنّاس آناء الليل وأطراف النهار، والرقيق لا يتيسر له ذلك، و أيضًا الرِقّيّة وصف نقصٍ يأنف منه النّاس، ويستنكفون من اتباع من اتصف بِها، وأن يكون إمامًا لهم وقدوة، وهي أثر الكفر، والأنبياء منَزَّهون عن ذلك) [33]

قلت : أما ما كان من أمر يوسف عليه السلام في صغره فلم يكن استرقاقاً بل تبني وهو تشريف له إذ كان الذي تبناه هو عزيز مصر ، **قال القرطبي رحمه الله تعالى** (فإن قيل : كيف قال أو نتخذه ولدا وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبني ; وكان التبني في الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان في أول الإسلام) [34]اهـ

سادساً : من خصائص الأنبياء أنهم لا يكونون إلا رجالاً : ومن خصائص الأنبياء وسنة الله فيهم أن جعلهم رجالاً، قال تعالى: **{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَآسْأَلُواْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ}** سورة الأنبياء (7) .

قال الشيخ عمر الأشقر رحمه الله : (ومن الكمال الذي حباهم به : أنه اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال ، ولم يبعث الله رسولاً من النساء ، يدلُّ على ذلك : صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم**) الأنبياء (7) .

والحكمة من كون الرسل رجالاً : كان الرسل من الرجال دون النساء لحكَم يقتضيها المقام ، فمن ذلك:

---

33 / لوامع الأنوار البهية (265/2).

34 / تفسير القرطبي لقوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر) الآية .

1 - أنّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال والنساء ، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية ، والتنقل في فجاج الأرض ، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم ، وإعداد الجيوش وقيادتها ، والاصطلاء بنارها ، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء.

2 - الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه ، فهو في أتباعه الآمر الناهي ، وهو فيهم الحاكم والقاضي ، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة : لَمْ يتم ذلك لها على الوجه الأكمل ، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة.

3 - الذكورة أكمل، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء قال تعالى :(**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**) النساء(34) ، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ النساء (ناقصات عقل ودين) متفق عليه .

4 - المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات ، كالحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع ، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية ، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها"[35] .

* * * * * * * * * *

سابعاً : من خصائص الأنبياء أنهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم : هذه خاصية ليست لغير الأنبياء عليهم السلام ، قال صلى الله عليه وسلم: (إنّ عيني تنامان، ولا ينام قلبي) متفق عليه .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الإسراء: (والنبي صلى الله عليه وسلم نائمة عيناه، ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبُهم) رواه البخاري .

ثامناً : من خصائص الأنبياء تخيير الله لهم عند الموت : خصّهم الله بهذه الخاصية، فيخيّرون عند الموت، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبيّ يمرض إلاّ خُيِّر بين الدنيا والآخرة)، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذتْه بحَّة شديدة، فسمعته

[35] / الرسل والرسالات – للدكتور عمر سليمان الأشقر.

يقول: (**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**)،فعلمت أنّه خُيِّر) رواه البخاري (4586).

*** **** ***

تاسعاً : من خصائص الأنبياء أن الأرض لا تأكل أجسادهم: والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء كرامة لهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إنَّ الله عز وجل قد حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام**)[36].

وعنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**) فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ - يَعْنِي بَلِيتَ - فَقَالَ (**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ**) [37].فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى.

عاشراً : من خصائص الأنبياء أنهم أحياء في قبورهم : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (**مررتُ على موسى ليلة أسري بِه عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره**) رواه مسلم في الفضائل - حديث رقم (2375).

*** **** ***

الحادي عشر: من خصائص الأنبياء أنهم يقبرون حيث يموتون: وهذا ممّا خُصّ به الأنبياء بعد موتهم أنّهم لا يقبرون إلاّ حيث يموتون، ولذلك قُبر صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة رضي الله عنها، تحت فراشه الذي مات عليه.

---

36 / أحمد (8/4)، والنسائي في الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم (1374)، و ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب فضل الجمعة (1085)، والحاكم (413/1) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (1301) .

37 / رواه بن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (2212) .

فعن ابن جريج قال: أخبرني أبي أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يدروا أين يقبرون النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**لن يقبر نبيٌّ إلاَّ حيث يموت**)، فأخَّرُوا فراشه، وحفروا له تحت فراشه [38] .

الثاني عشر: من خصائص الأنبياء أنهم مؤيدون بالمعجزات : وهي أشياءٌ خارقةٌ للعادة كناقة صالح وعصى موسى وإحياء الموتى لعيسى ونحو ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَ إِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) متفق عليه .

الثالث عشر: من خصائص الأنبياء أن رؤياهم وحي كما في قصة الخليل عليه السلام : قال تعالى **{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}** (102) سورة الصافات .

وقال تعالى **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}** سورة الفتح(27).

* * * * * * * * * *

الرابع عشر: من خصائص الأنبياء أن سبَّ أشخاصهم كفر بخلاف غيرهم : أجمع جميع العلماء على حرمة سب الأنبياء والاستهزاء بهم ، وأجمعوا على أن من وقع في هذا الأمر العظيم فقد ارتد عن دين الإسلام ، كما أن من وقع في سب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ارتد عن الإسلام ، فالمسلم لا يفرق بين أنبياء الله ورسله ، كما قال سبحانه وتعالى : **(قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)** آل عمران(84).

---

38 / أخرجه أحمد (7/1) بسندٍ منقطع. وأخرجه الترمذي (108) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر، عن ابن أبي مليكة عن عائشة عن أبي بكر، و ابن أبي بكر ضعيف. وأخرجه الترمذي في الشمائل (378)، والطبراني في الكبير (6366) بإسناد صحيح عن سالم بن عبيد الأشجعي أنّ النّاس قالوا لأبي بكر: أين يُدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: في المكان الذي قبض فيه روحه، فإنّ الله لم يقبض روحه إلاّ في مكان طيّب. فعلموا أنّه صدق.

وقال العلامة أحمد الدردير المالكي رحمه الله :(من سب نبياً مجمعاً على نبوته ، أو عرَّض بسب نبي فقد كفر) [39]اهـ . وقال الشربيني رحمه الله تعالى : (من كذب رسولاً أو نبياً أو سبه أو استخف به أو باسمه فقد كفر) اهـ [40].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (مِن خصائص الأنبياء أنَّ مَن سبَّ نبيًّا مِن الأنبياء قتل باتفاق الأئمة وكان مرتداً ، كما أنَّ مَن كفر به وبما جاء به كان مرتداً ، فإن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله)اهـ [41].

الخامس عشر: من خصائص الأنبياء أنهم لا يُورِّثون المال :

- عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّا لا نُورَثُ ما تركناه صدقة) متفق عليه .

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ و افر) [42].

فهذه الأحاديث نص في أن الأنبياء لا يورِّثون المال بل يورِّثون العلم النافع وليس هذا الميراث خاص بأقاربهم بل هو لجميع أتباعهم .

وأما قوله تعالى {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} سورة النمل(16) ،وقول زكريا عليه السلام {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا *يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} سورة مريم (5-6) فالمقصود ميراث النبوة والعلم لا

39 / حاشية الدسوقي على الشرح الكبير" (309/4) .

40 / مغني المحتاج - (429/5) .

41 /الصفدية - (262/1) .

42 / رواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه و ابن حبان في صحيحه والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم (6297)

ميراث المال إذ لو كان النبي كغيره يرث مال أبيه لكان ذِكْره في القرآن مما لا فائدة فيه لأنه مما هو معلومٌ بالضرورة في حق كل وارث ؟.

وبناءً عليه نقول لقد سيقت الآية لبيان ما حصل لسليمان عليه السلام من الخير بعد أبيه وذلك بكونه أصبح نبياً بعد أبيه وذلك فضلٌ عظيمٌ من الله تفضل به عليه .

وهكذا يقال في سؤال زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ولداً إذ لم يكن ذلك خوفاً من أن يضيع ماله بعد وفاته ، وأي حبٍ لهذا المال عند الأنبياء وهم أزهد الناس فيه ؟ فتبين أنه أراد ولداً صالحاً يكون سائراً على منهجه ومنهج الصالحين من أبناء يعقوب عليه السلام ليكون في ميزان حسناته بحسن تربيته وتعليمه ودعائه.

*** **** ***

الباب الثاني

بيان أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام

الفصل الأول : حكم التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام .

الفصل الثاني : الأدلة على أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء.

الفصل الأول

حكم التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام

كان لا بد من بحث هذه المسألة ألا وهي التفضيل بين الأنبياء قبل الشروع في بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم هو خيرهم وأفضلهم وأعلاهم منزلة عند الله تعالة وأعلاهم درجة في الجنة ، وبحثنا في هذه المسألة تندرج تحته ثلاثة أمور:

الأمر الأول : ذكر الأدلة على جواز التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم السلام:

إن تفاضل الأنبياء بعضهم على بعض جائز شرعاً وواقع فعلاً فإن الله عز وجل أخبرنا بذلك فقال : **(تِلْكَ الرُّسل فضَّلنا بعضهم على بعضٍ منهم من كَلَّم الله ورَفَعَ بعضهم دَرَجَاتٍ)** سورة البقرة(253)، فأخبرنا الله أنه فضل بعضهم على بعض درجات ولذلك كان المصطفى من الرسل هم أولو العزم قال تعالى : (**وإذ أخذنا من النَّبيينَ ميثاقَهُمْ ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**) الأحزاب(7) ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم .

قال السيوطي رحمه الله تعالى - في الإكليل في استنباط التنزيل – (قوله تعالى: **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** . استُدلَّ به على جواز التفضيل بين الأنبياء والمرسلين حيث لم يؤد إلى نقص في المفضل عليه والحديث الوارد في النهي عن ذلك محمول على ما إذا خشي منه نق). أي اعتقاد لحوق النقص بالمفضول .

قال القرطبي رحمه الله تعالى - بعد ذكر المانعين من التفضيل - :(**وأحسن من هذا قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات ، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل و إنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليلا**) اهـ .

ثم قال رحمه الله : (قلت : وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل وأعطي من الوسائل ، وقد أشار ابن عباس

رضي الله عنهما إلى هذا فقال : إن الله فضل محمدا على الأنبياء وعلى أهل السماء ، فقالوا : بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : **(وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)** سورة الأنبياء (29) . وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : **(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)** سورة الفتح (1-2) .

قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ . قال : قال الله تعالى : (**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**) ، وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : وما أرسلناك إلا كافة للناس فأرسله إلى الجن والإنس ، ذكره أبو محمد الدارمي في مسنده . وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خير بني آدم : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم أولو العزم من الرسل ، وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين) [43].

* * * * * * * * * *

الأمر الثاني : رد الشبهات التي تمنع من التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم السلام:

يقول العلماء : إن ما ورد من النهي - في بعض الأحادي النبوية - عن تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على موسى صلى الله عليه وسلم أو يونس بن متى صلى الله عليهم وسلم : محمول عند أهل العلم على أنه صلى الله عليه وسلم قاله على سبيل الهضم والتواضع ، أو للنهي عن المفاضلة بين الأنبياء على وجه العصبية والحمية ، أو حذرا من تنقص أحد الأنبياء ، أو غير ذلك من الأسباب التي سنذكرها ، وليس هذا نهيا عن عموم التفضيل ؛ لأنه ثابت بنصوص الكتاب والسنة.

والآن إليك ما ورد من الأحاديث في النهي عن التفاضل وبيان الجواب عنها :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ ، فَقَالَ : لاَ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ : تَقُولُ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَبَا

43 / الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)– قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية من سورة البقرة 253

القَاسِمِ ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا ، فَمَا بَالُ فُلاَنٍ لَطَمَ وَجْهِي ؟ فَقَال : لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟ فَذَكَرَهُ ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِه ، ثُمَّ قَال : (لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي ، وَلاَ أَقُولُ : إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى). رواه البخاري (3414) ، ومسلم (2373).

وعن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) رواه البخاري (3395) ، ومسلم (2377).

أما الجواب عنها : فقد جاء في " الموسوعة الفقهية " (40/ 49) :" مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ ، فَقِيل - : هَذَا كَانَ قَبْل أَنْ تَنْزِل عَلَيْهِ آيَاتُ التَّفْضِيل ، وَقَبْل أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ . فَعَلَى هَذَا : التَّفْضِيل الآْنَ جَائِزٌ -. وَقِيل : إِنَّمَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيل التَّوَاضُعِ.

-وَقِيل : إِنَّمَا نَهَى عَنِ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ لِئَلاَّ يُؤَدِّيَ إِلَى أَنْ يُذْكَرَ بَعْضُهُمْ بِمَا لاَ يَنْبَغِي ، وَيَقِل احْتِرَامُهُ عِنْدَ الْمُمَارَاةِ ، وَقَال ابْنُ عَطِيَّةَ وَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمة الله عليهما : إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ تَعْيِينِ الْمَفْضُول ، بِخِلاَفِ مَا لَوْ فُضِّل مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ.

-وَقَال شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ : الْمَنْهِيُّ عَنْهُ : التَّفْضِيل إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْفَخْرِ وَالْحَمِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الاِنْتِقَاصِ لِلْمَفْضُول.

-وَاخْتَارَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ الْمَنْعَ مِنَ التَّفْضِيل إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي هِيَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ تَفَاضُل فِيهَا ، وَالتَّفْضِيل فِي زِيَادَةِ الأَْحْوَال وَالْخُصُوصِ وَالْكَرَامَاتِ وَالأَْلْطَافِ " انتهى.

وقال ملا علي القاري رحمه الله :" قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) أَيْ : لَا أَقُولُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، وَلَا أُفَضِّلُ أَحَدًا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَة ، فَإِنَّ شَأْنَهُمَا لَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ ، بَلْ نَقُولُ : كُلُّ مَنْ أُكْرِمَ بِالنُّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُمْ سَوَاءٌ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ مَرَاتِبُهُمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ أُكْرِمَ بِالرِّسَالَةِ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) وَإِنَّمَا خُصَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الرُّسُلِ لِمَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ

أَمْرِ يُونُسَ ، وَتَوَلِّيهِ عَنْ قَوْمِهِ ، وَضَجْرَتِهِ عَنْ تَثَبُّطِهِمْ فِي الْإِجَابَةِ ، وَقِلَّةِ الِاحْتِمَالِ عَنْهُمْ ، وَالِاحْتِفَالِ بِهِمْ حِينَ رَامُوا التَّنَصُّلَ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (**وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**) وَقَالَ : (**وَهُوَ مُلِيمٌ**) فَلَمْ يَأْمَنْ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُخَامِرَ بَوَاطِنَ الضُّعَفَاءِ مِنْ أُمَّتِهِ ، مَا يَعُودُ إِلَى نَقِيصَةٍ فِي حَقِّهِ ، فَنَبَّأَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِقَادِحٍ فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنَّهُ - مَعَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ - كَسَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَهَذَا قَوْلٌ جَامِعٌ فِي بَيَانِ مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْبَابِ " اهـ .[44]

الأمر الثالث: أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هم أولوا العزم : وأفضلهم هو نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد بين العلماء أن أفضل الأنبياء جميعا أولو العزم وهم الوارد ذكرهم في قوله تعالى: (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**) {الأحزاب:7}، وفي قوله سبحانه: (**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**)الشورى(13) .

وأفضل أولي العزم إجماعا نبينا محمد صلى الله عليه سلم، ثم إبراهيم على الراجح من أقوال أهل العلم، واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين، فمن أهل العلم من يتوقف عن التفضيل بينهم، ومنهم من قطع بأفضلية موسى بعد إبراهيم، وتوقف في التفضيل بين نوح وعيسى عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

يقول ابن كثير في تفسيره (بتصرف) : ولا خلاف أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور. اهـ**ويقول السيوطي :** ونعتقد أَن أفضل الْخلق على الإطلاق حبيب الله الْمُصْطَفى صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، يليه إِبْرَاهِيم فِي التَّفْضِيل، فَهُوَ أفضل الْخلق بعده نقل بَعضهم الْإِجْمَاع على ذَلِك، وَفِي الصَّحِيح خير الْبَرِيَّة إِبْرَاهِيم خص مِنْهُ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، فَبَقيَ على عُمُومه، فموسى، وَعِيسَى، ونوح الثَّلَاثَة بعد إِبْرَاهِيم أفضل من سَائِر الْأَنْبِيَاء، وَلم أَقف على نقل أَيهمْ أفضل. اهـ

* * * * * * * * * *

44 / مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - للعلامة الملا على القاري- (9/ 3645)

الفصل الثاني

الأدلة على أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام

تبين من خلال الفصل السابق أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بل ومن سائر الخليقة وأنه أكرمهم على الله ، أردنا أن نذكر في هذا الفصل ما تيسر من الأدلة على هذه الأفضلية [45]:

قال الرازي رحمه الله تعالى : أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، وعلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من الكل ، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى : قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء : 107] فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

قال في أضواء البيان : قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

(ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الخلائق إلا رحمة لهم ؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى .

وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلا ، قال : لو فجر الله عينا للخلق غزيرة الماء ، سهلة التناول ، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها ، فتتابعت عليهم النعم بذلك ، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل ، فضيعوا نصيبهم من تلك العين - فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله ، ونعمة للفريقين . ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها .**ويوضح ذلك قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)** سورة إبراهيم (128) .

وقيل : كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه ، وأمنوا به عذاب الاستئصال . والأول أظهر.

---

45 / هذه الأدلة والرباهين ملخصة التفسير الكبير للفخر الرازي لقوله تعالى (تلك الرسل)سورة البقرة 253 وزيادات من تفسير ابن كثير، وغيره من كتب التفسير.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه ما أرسله إلا رحمة للعالمين يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم .

وهذا المعنى جاء موضحا في مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى : **(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** [سورة العنكبوت/ 51] وقوله : **(وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)** [القصص : 86] .وسيأتي مزيد لرحمته صلى الله عليه وسلم للعالمين في الفصل الرابع من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

* * * * * * * * * *

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [الشرح : 4] فقيل فيه لأنه قرن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم بذكره في كلمة الشهادة وفي الأذان وفي التشهد ، ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك.

ويقول الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله الرحيم الرحمن :

ورفعنا لك ذكرك لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره ، والرفع يكون حسيا ويكون معنويا ، فاختلف في المراد به أيضا .

فقيل : هو حسي : في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ، واستشهدوا بقول حسان - رضي الله عنه - وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية :

أَغرُّعليه للنبوةِ خاتمٌ مِن الله مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ

وشَقَّ له مِن اسمه ليُجلَّه فذو العرشِ محمود وهذا محمدُ

* * * * * * * * * *

ومِنْ رَفْعِ الذِّكْر معنى ، أي : من الرفعة المعنوية ، ذكره - صلى الله عليه وسلم - في كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه). اهـ [46]

الحجة الثالثة : أنه تعالى قرن طاعته بطاعته ، فقال : **(مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)** [النساء : 80] وبيعته ببيعته فقال : **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)** [الفتح : 10] وعزته بعزته فقال : **(ولله العزة ولرسوله)** [المنافقون : 8]

ورضاه برضاه فقال : (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ) [التوبة : 62] **وإجابته بإجابته فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)** [الأنفال : 24.]

قلت : وهذه الطاعة المطلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم ترد في حق نبي آخر من الأنبياء بل أمر الله الأنبياء بطاعته صلى الله عليه وسلم كما هو معلوم من آية الميثاق فكان ذلك من أوضح الدلائل على أنه أفضل الآواخر والآوائل .

* * * * * * * * * *

الحجة الرابعة : أن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) [البقرة : 23] وأقصر السور سورة الكوثر وهي ثلاث آيات ، وكان الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن ، ولما كان كل القرآن ستة آلاف آية ، وكذا آية ، لزم أن لا يكون معجز القرآن معجزا واحدا بل يكون ألفي معجزة وأزيد .

وإذا ثبت هذا فنقول : إن الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات ، فلأن يحصل التشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات الكثيرة كان أولى.

* * * * * * * * * *

---

46 / تتمة أضواء البيان – للشيخ عطية محمد سالم - تفسير سورة الشرح .

الحجة الخامسة : أن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم وهي القرآن العظيم أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء.

قلت : وإذا نظرنا في هذه الحجة مع سابقتها علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فاق الأنبياء في باب المعجزات كمّاً أي من حيث العدد فمعجزاته الحسية تزيد على الألف ، فإذا أضيفت إلى معجزة القرآن الذي احتوى على الألفين ومائتي معجزة كان مجموع المعجزات تزيد على الثلاثة آلاف ومائتي معجزة .

وكذلك فاقت معجزاته معجزات الأنبياء من حيث الكيف أي من حيث القيمة المعنوية ويكفي علمنا بأن القرآن كان هو المعجزة وهو مصدر التشريع في نفس الوقت ولم تكن كتب الأنبياء السابقين معجزات بل كانت مصدراً للتشريع فقط .

الحجة السادسة : أن معجزته عليه الصلاة والسلام هي القرآن وهي من جنس الحروف والأصوات وهي أعراض غير باقية ، وسائر معجزات سائر الأنبياء من جنس المعجزات الأخرى - المحسوسة - ثم إنه سبحانه جعل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية إلى آخر الدهر ، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية.

الحجة السابعة : أنه تعالى بعد ما حكى أحوال الأنبياء عليهم السلام قال : **(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)** [الأنعام : 90] فأمر محمدا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بمن قبله ، فإما أن يقال : إنه كان مأمورا بالاقتداء بهم في أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد ، أو في فروع الدين وهو غير جائز ، لأن شرعه نسخ سائر الشرائع ، فلم يبق إلا أن يكون المراد محاسن الأخلاق ، فكأنه سبحانه قال : إنا أطلعناك على أحوالهم وسيرهم ، فاختر أنت منها أجودها وأحسنها وكن مقتديا بهم في كلها ، وهذا يقتضي أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقا فيهم ، فوجب أن يكون أفضل منهم.

* * * * * * * * * *

الحجة الثامنة : أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى كل الخلق وذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر ، فوجب أن يكون أفضل :

- أما إنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى كل الخلق فلقوله تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** [سبأ : 28] .

- وأما إن ذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر فلأنه كان إنسانا فردا من غير مال ولا أعوان وأنصار ، فإذا قال لجميع العالمين : يا أيها الكافرون صار الكل أعداءاً له ، وحينئذ يصير خائفا من الكل ، فكانت المشقة عظيمة ، وكذلك فإن موسى عليه السلام لما بعث إلى بني إسرائيل فهو ما كان يخاف أحدا إلا من فرعون وقومه .

وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فالكل كانوا أعداء له ، يبين ذلك أن إنسانا لو قيل له : هذا البلد الخالي عن الصديق والرفيق فيه رجل واحد ذو قوة وسلاح فاذهب إليه اليوم وحيدا وبلغ إليه خبرا يوحشه ويؤذيه ، فإنه قلما سمحت نفسه بذلك ، مع أنه إنسان واحد ، ولو قيل له : اذهب إلى بادية بعيدة ليس فيها أنيس ولا صديق ، وبلغ إلى صاحب البادية كذا وكذا من الأخبار الموحشة لشق ذلك على الإنسان .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان مأمورا بأن يذهب طول ليله ونهاره في كل عمره إلى الجن والإنس الذين لا عهد له بهم ، بل المعتاد منهم أنهم يعادونه ويؤذونه ويستخفونه ، ثم إنه عليه السلام لم يمل من هذه الحالة ولم يتلكأ ، بل سارع إليها سامعا مطيعا ، فهذا يقتضي أنه تحمل في إظهار دين الله أعظم المشاق ، ولهذا قال تعالى : **(لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا)** [الحديد : 10] .

ومعلوم أن ذلك البلاء كان على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا عظم فضل الصحابة بسبب تلك الشدة فما ظنك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا ثبت أن مشقته أعظم من مشقة غيره وجب أن يكون فضله أكثر من فضل غيره .

*** **** ***

الحجة التاسعة : أن دين محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأديان ، فيلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء.

بيان الأول : أنه تعالى جعل الإسلام ناسخا لسائر الأديان ، والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه السلام : (**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا**) رواه مسلم (1017).

وبيان الثاني : أن يقال لما **كان** هذا الدين أفضل وأكثر ثوابا ، كان واضعه أكثر ثوابا من واضعي سائر الأديان ، فيلزم أن يكون محمد عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء.

الحجة العاشرة : أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم ، فوجب أن يكون هو فضل الأنبياء عليهم السلام .

بيان الأول : قوله تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران : (110) في هذه الآية يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس)[47] .

بيان الثاني : أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة لمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) [آل عمران : 31] وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع ، وأيضا إن محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ثوابا لأنه مبعوث إلى الجن والإنس ، فوجب أن يكون ثوابه أكثر ، لأن لكثرة المستجيبين أثرا في علو شأن المتبوع.

* * * * * * * * * *

47 / تفسير السعدي للآية المذكورة .

الحجة الحادية عشرة : أنه عليه السلام خاتم الرسل ، فوجب أن يكون أفضل ، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

الحجة الثانية عشرة : أن تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون لأمور:

منها : كثرة المعجزات التي هي دالة على صدقهم وموجبة لتشريفهم ، وقد حصل في حق نبينا عليه السلام ما يفضل على ثلاثة آلاف ، وهي بالجملة على أقسام .

ومنها : ما يتعلق بالقدرة ، كإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وإروائهم من الماء القليل ، **ومنها** ما يتعلق بالعلوم كالإخبار عن الغيوب ، وفصاحة القرآن .

ومنها : اختصاصه في ذاته بالفضائل ، نحو كونه أشرف نسبا من أشراف العرب ، وأيضا كان في غاية الشجاعة. وكتب الحديث ناطقة بتفصيل هذه الأبواب.

الحجة الثالثة عشرة : قوله عليه السلام : (**آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة**) وذلك يدل على أنه أفضل من آدم ومن كل أولاده ، وقال : (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**) .

الحجة الرابعة عشرة : قال تعالى مبيناً عنايته برسوله ورعايته له وحفاوته به: ﴿**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ سورة الضحى .

الحجة الخامسة عشرة : روى مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر ، بعثت إلى الأحمر والأسود ، وكان النبي قبلي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس كافة ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تكن لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي ، فهي**

نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئا)[48] وجه الاستدلال أنه صريح في أن الله فضله بهذه الفضائل على غيره.

الحجة السادسة عشرة : قال محمد بن علي الحكيم الترمذي في تقرير هذا المعنى : إن كل أمير فإنه تكون مؤنته على قدر رعيته ، فالأمير الذي تكون إمارته على قرية تكون مؤنته بقدر تلك القرية ، ومن ملك الشرق والغرب احتاج إلى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير تلك القرية فكذلك كل رسول بعث إلى قومه فأعطي من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة ، فالمرسل إلى قومه في طرف مخصوص من الأرض إنما يعطى من هذه الكنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع ، والمرسل إلى كل أهل الشرق والغرب إنسهم وجنهم لا بد وأن يعطى من المعرفة بقدر ما يمكنه أن يقوم بسعيه بأمور أهل الشرق والغرب .

وإذا كان كذلك كانت نسبة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى نبوة سائر الأنبياء كنسبة كل المشارق والمغارب إلى ملك بعض البلاد المخصوصة ، ولما كان كذلك لا جرم أعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله ، فلا جرم بلغ في العلم إلى الحد الذي لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى في حقه : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) [النجم : 10] وفي الفصاحة إلى أن قال : " أوتيت جوامع الكلم " وصار كتابه مهيمنا على الكتب وصارت أمته خير الأمم.

*** **** ***

الحجة السابعة عشرة : وقال تعالى: ﴿**ن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ .

قال المشركون فيه -صلى الله عليه وسلم- ساحر ومجنون ، فدافع الله تعالى عن رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- وردَّ على أعدائه وأخزاهم وبيَّن مكانته -صلى الله عليه وسلم،

قلت : وقد دافع النبي صلى الله عليه وسلم في مرات عديدة ، ليس هذا مجال ذكرها ، وهذا الدفاع لم يكن للأنبياء السابقين بل هو من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم .

---

48 / متفق عليه.

وقال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران (159).

قالت عائشة رضي الله عنها-: (**كان خلقه القرآن**) .رواه البخاري ، ولنا فيه أسوة صلى الله عليه وسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: (**لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- فاحشاً ولا مُتَفَحِشاً وكان يقول: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا**) متفق عليه. وعند مسلم (**أَحَاسِنَكُمْ**) .

قلت : شهد الله له صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق وإذا كان خلقه القرآن فهل يمكن أن يوجد من هو خير منه؟

الحجة الثامنة عشرة : في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك ؟ فقالمحمد : كنت أنا تلك اللبنة**) .

وعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَ أَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فكان هو خير الناس لأهله وفضل على العالمين في ذلك.

الحجة التاسعة عشرة : أن الله تعالى كلما نادى نبيا في القرآن ناداه باسمه (**ياآدم اسكن**) [البقرة : 35] ، (**ونادياه أن ياإبراهيم**) [الصافات : 104] ، (**ياموسى إني أنا ربك**) [طه : 11 ، 12] وأما النبي عليه السلام فإنه ناداه بقوله : (**ياأيها النبي**) [الأنفال : 64] ، (**ياأيها الرسول**) [المائدة : 41] وذلك يفيد الفضل[49] .

* * * * * * * * * *

49 / إلى هنا انتهت الحجج التي ذكرها الرازي في التفسير الكبير عند قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وقمت بحذف بعض الروايات الضعيفة ثم وفقني الله تعالى فكرت خصائص أخرى ، وهي من الخصوصية العشرين إلى الرابعة والعشرين.

ومن الأدلة التي لم يذكرها الرازي رحمه الله :

الحجة العشرون : ومما يَدَلُّ على أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم أنه صلى بهم إماماً في المسجد الأقصى ليلة المعراج ، ولا يقدم إلا الأفضل ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْب جَعْد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني : نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم ،فلما فرغت من الصلاة قال قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام) رواه مسلم (172) .

الحجة الحادية والعشرون : ومما يدل على أنه أفضلهم : ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)** رواه مسلم (في باب الفضائل/4223).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم : قَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **(أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم يَوْم الْقِيَامَة وَأَوَّل مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْر, وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع)**.

قَالَ الْهَرَوِيُّ : السَّيِّد هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمه فِي الْخَيْر ، وَقَالَ غَيْره : هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِب وَالشَّدَائِد , فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ , وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِههمْ , وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ .

وَأَمَّا قَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَوْم الْقِيَامَة) مَعَ أَنَّهُ سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة ، فَسَبَبُ التَّقْيِيد أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَلا يَبْقَى مُنَازِع , وَلا مُعَانِد ، وَنَحْوه ،بِخِلافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ .

* * * * * * * * * *

قَالَ الْعُلَمَاء : وَقَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم) لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا ، بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْر فِي غَيْر صحيح مُسْلِم فِي الْحَدِيث الْمَشْهُور : (أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم وَلا فَخْرَ) ، وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ :

- أَحَدهمَا : اِمْتِثَال قَوْله تَعَالَى : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ) .

- وَالثَّانِي : أَنَّهُ مِنْ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغه إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ , وَيَعْتَقِدُوهُ , وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ ، وَيُوَقِّرُوهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمْ اللَّه تَعَالَى .

وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل على تَفْضِيلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، وَلا بُدَّ مِنْ اِعْتِقَادِ التَّفْضِيل ، فَقَدْ قَالَ اللَّه تَعَالَى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) وَاَللَّه أَعْلَم .أهـ

الحجة الثانية والعشرون : ومما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم فضُل على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ما جاء في الحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه**) صحيح البخاري .

قال العلامة ملا علي قاري رحمه الله: (**من خير قرون بني آدم**) : اعلم أن معنى الخيرية في هذا الحديث ، والاصطفائية ليس باعتبار الديانة ، بل باعتبار الخصائل الحميدة والشمائل السعيدة .

(**قرنا فقرنا**) : قيل إنه حال للتفضيل ، والفاء فيه للترتيب في الفضل على سبيل الترقي من القرن السابق إلى القرن اللاحق ، ويدل عليه قوله : (**حتى كنت**) أي : صرت : (**من القرن الذي كنت منه**) أي : وجدت ، والقرن من الناس أهل زمان واحد ، وقد قال - صلى الله عليه وسلم : **خير القرون قرني.**

وفي شرح السنة : القرن كل طبقة مقترنين في وقت ، قيل : سمي قرنا لأنه يقرن أمة بأمة ، وعالما بعالم ، وهو مصدر قرنت أي : وصلت وجعل اسما للوقت أو لأهله .

وقيل : القرن ثمانون سنة ، وقيل : أربعون ، وقيل مائة اه .

والقول الأول هو المراد هنا ، فالمعنى بعثت من خير طبقات بني آدم كائنين طبقة بعد طبقة حتى كنت من القرن الذي كنت فيه ، ففيه تفضيله على غيره من بني آدم ، وعلى تفضيل أمته على سائر الأمم) اهـ[50].

---

50 / مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - صفحة 3671 مختصراً .

قلت : وفي الحديث دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل بني آدم ما دام قرنه هو أفضل القرون وإلا فلا فائدة من تفضيل القرن ما لم يكن هناك تفضيل للذوات التي وجدت فيه ، ولقد تشرفت الأعوام التي وجد فيها الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وكأني بها تفخر على بقية قرون الدنيا كلها ، وما أشار إليه العلامة ملا علي - رحمه الله - من كون (الاصطفائية ليس باعتبار الديانة ، بل باعتبار الخصائل الحميدة والشمائل السعيدة) فيه نظر لأن الدين هو الذي يُكسب الإنسان الخصال الحميدة . والله أعلم.

*** **** ***

الحجة الثالثة والعشرون : ومما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ما جاء في قوله تعالى : **(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)** الزخرف (45 .

قال القرطبي رحمه الله : قال ابن عباس وابن زيد : لما أسري برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وهو مسجد بيت المقدس - بعث الله له آدم ومن ولد من المرسلين ، وجبريل مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فأذن جبريل - صلى الله عليه وسلم - ثم أقام الصلاة ، ثم قال : يا محمد تقدم فصل بهم ، فلما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قال له جبريل - صلى الله عليه وسلم - : (**سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**) . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (**لا أسأل قد اكتفيت**) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (وكانوا سبعين نبيا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم) .

وفي غير رواية ابن عباس : فصلوا خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعة صفوف ، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ، وكان يلي ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمَّهم بصلاة ركعتين ، فلما انفتل قام فقال : (**إن ربي أوحى إلي أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله ؟ فقالوا : يا محمد ، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من**

دونه باطل ، و أنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا ، وأن لا نبي بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى ابن مريم فإنه مأمور أن يتبع أثرك) [51].

قال القرطبي رحمه الله : هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية[52] .

الحجة الرابعة والعشرون : إن الله تعالى ختم به النبوات والرسالات قال تعالى : **(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)** سورة الأحزاب (40).

قال الرازي رحمه الله تعالى : (وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده ، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى ، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد) [53].

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى : (والآية نص في أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيئين وأنه لا نبي بعده في البشر لأن النبيئين عام ، فخاتم النبيئين هو خاتمهم في صفة النبوءة ،وقد أجمع الصحابة على أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل والأنبياء وعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة ، والأسود العنسي فصار معلوما من الدين بالضرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسول الله للناس كلهم) [54].

والخلاصة : أننا نفضل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء والناس ، للأدلة الواردة في ذلك ، مع حفظنا لحقوق جميع الأنبياء والمرسلين والإيمان بهم وتوقيرهم . والله تعالى أعلم [55].

* * * * * * * * * *

---

51 / تفسير القرطبي لآية الزخرف (45).

52 / السابق نفس الموضع .

53 / التفسير الكبير – تفسير الآية 40 من سورة الأحزاب .

54 / تفسير الآية 40 من سورة الأحزاب التحرير والتنوير .

55 / المصدر: الإسلام سؤال وجواب – بتصرف .

وفي ختام هذا الفصل ننبه على أمرين هامين:

الأول : الكلام في أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الخليقة وأنه أكرمهم على الله تعالى، ليس بِدْعاً من القول، فقد تكلم في ذلك بعض الصحابة وأثبتوه، وتلاهم بعد ذلك التابعون، فمنهم:

- **ترجمان القرآن عبد الله بن عباس . رضي الله عنهما** . حيث قال: **(ما خلق الله عزوجل ولا ذرأ من نفس أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا بحياته، فقال تبارك وتعالى: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)**[56].

- **ومنهم عبد الله بن مسعود حيث قال : (إن الله اتخذ إبراهيم خليلا، وإن صاحبكم خليل الله، وإن محمدا أكرم الخلق على الله، ثم قرأ قوله تعالى: (عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً)** سورة الإسراء (79) [57].

- **ومنهم الحبر الكبير عبد الله بن سلام،** حيث قال: (إن أكرم خليقة على الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فقيل له: رحمك الله فأين الملائكة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي وهل تدري ما الملائكة؟ إنما الملائكة خلق كخلق الأرض وخلق السماء وخلق السحاب وخلق الجبال وخلق الرياح وسائر الخلائق، وإن أكرم الخلائق على الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم) [58].

- **ومن التابعين**: أبو الجوزاء الربعي، حيث قال: ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه أكرم البرية عنده. ذكره القاضي عياض في الشفا.

* * * * * * * * * *

56 / رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده والدينوري في المجالسة، وزاد السيوطي عزوه لابن أبي شيبة و أبي يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبي نعيم والبيهقي معا في الدلائل.

57 / رواه ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي في الدلائل.

58 / رواه الحاكم في المستدرك وصححه، وأسد بن موسى في الزهد والبيهقي في الدلائل، وصححه الألباني .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أثر عبد الله بن سلام ثم قال: وما علمت عن أحد من الصحابة ما يخالف ذلك، وهذا هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم) . اهـ [59] .

الثاني : من دلائل تفضيله صلى الله عليه وسلم ما يحتاج كل دليل منها إلى كتاب كامل يبينه ويفصل القول فيه ومن ذلك:

1 - معجزة الإسراء والمعراج فهي تحتوى على كثير من الفضائل التي اختص الله تعالى بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أفردها بعض العلماء بالتأليف .

2 - تفسير الآية الكريمة : **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)** الفتح(10) .

3- أعطاه الله تعالى مقام التشريع كما في قوله تعالى **(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** الأعراف (157) .

وقوله تعالى **(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)** النساء (105) ونحوهما.

4 - نصرته بالملائكة في بدر والأحزاب وغيرهما كما أشار الله إلى ذلك في آيات منها **(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ)** سورة يس (28) .

5 - النداء بالرسالة والنبوة . وقد أفردها بعض الباحثين بالتأليف.

6 - دفاع الله عنه صلى الله عليه وسلم حيث نفى عنه كل التهم التي ألصقها به الكفار كقولهم ساحر وكاهن ومجنون - حاشاه عليه الصلاة والسلام - وهذا الدفاع معلوم من خلال آيات كثيرة كما في سور القلم والحاقة والحجر والمسد وغيرها.

---

59 / الشبكة الإسلامية (إسلام ويب) – رقم الفتوى : 187707

7 - جعل الله الصلاة عليه قربة كما في قوله تعالى (**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**) الأحزاب (56) . وقد أفردها بعض العلماء بالتأليف كابن القيم في جلاء الأفهام والسخاوي في القول البديع والقسطلاني وغيرهم.

8 - أخذ الله جل وعلا الميثاق من جميع الأنبياء والمرسلين للإيمان به ونصرته كما في قوله تعالى (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**) آل عمران (81) .

9 – عندما أخذ الله الميثاق من الأنبياء قدمه صلى الله عليه وسلم في الذكر على أولي العزم منهم كما في آية الميثاق في قوله تعالى: (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**) سورة الأحزاب الآية (7).

كما قدمه في الذكر في مقام الوحي كما في قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) سورة النساء (163-164) .

*** **** ***

الباب الثالث

الموازنة بين النبي ﷺ وبين جميع الأنبياء في الفضائل المشتركة

مدخل

الفصل الأول : الموازنة بين الميثاق المأخوذ من الأنبياء عليهم السلام والمأخوذ من النبي ﷺ.

الفصل الثاني: الموازنة بين وحي الله تعالى للأنبياء عليهم السلام ووحيه للنبي ﷺ.

الفصل الثالث: الموازنة بين علم الأنبياء عليهم السلام وعلم النبي ﷺ.

الفصل الرابع : الموازنة بين رحمة النبي ﷺ ورحمة الأنبياء السابقين عليهم السلام.

الفصل الخامس : الموازنة بين خُلق النبي صلى اله عليه وسلم وخُلق الأنبياء السابقين عليهم السلام.

الفصل السادس : الموازنة بين أتباعه ﷺ وبين أتباع الأنبياء عليهم السلام في الدنيا والآخرة.

الفصل السابع : الموازنة بين استغفار الأنبياء عليهم السلام واستغفار ﷺ .

الفصل الثامن : الموازنة بين أدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم السلام .

مدخل

لقد اشترك جميع الأنبياء في العطاء الإلهي في بعض الفضائل والنعم وبها كان تميزهم عن البشر في عدد من الصفات والعطاء الإلهي لهم كالوحي والعلم وكونهم بعثوا رحمة لأقوامهم وكذلك ما أيدهم الله تعالى به من المعجزات الباهرة والأدلة الظاهرة (كما سبق بيانه) .

وفي هذا الباب سنبين كيف زاد الله تعالى نبيه ومصطفاه محمداً عليه الصلاة والسلام على ما أكرم به الأنبياء عليهم السلام قبله في تلك الفضائل وهذا أول باب من أبواب الموازنة والتي من أجلها ألَّفتُ هذا الكتاب الذي أسأل الله أن ينفع به أهل الإسلام .

*** **** ***

الفصل الأول

الموازنة بين الميثاق المأخوذ من الأنبياء عليهم السلام والمأخوذ من النبي ﷺ

قال الله تعالى :(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)** الأحزاب (7).

قال ابن الجوزي رحمه الله - في زاد المسير - في تفسيرها : المعنى: واذكر إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم أي: عهدهم وفيه قولان:

أحدهما : أخذ ميثاق النبيين: أن يصدق بعضهم بعضا، قاله قتادة .

والثاني : أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته، ويصدق بعضهم بعضا، وأن ينصحوا لقومهم، قاله مقاتل وهذا الميثاق أخذ منهم حين أخرجوا من ظهر آدم كالذر . قال أبي بن كعب : لما أخذ ميثاق الخلق خص النبيين بميثاق آخر .

*** **** ***

فإن قيل : لم خص الأنبياء الخمسة بالذكر دون غيرهم من الأنبياء؟

فالجواب : أنه نبه بذلك على فضلهم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع; وقدم نبينا صلى الله عليه وسلم بيانا لفضله عليهم . قال قتادة: كان نبينا أول النبيين في الخلق . وقوله: ميثاقا غليظا أي: شديدا على الوفاء بما حملوا . وذكر المفسرون أن ذلك العهد الشديد: اليمين بالله عز وجل .

وزاد الرازي تعليلاً آخر لذكر الرسل الأربعة بقوله : خص بالذكر أربعة من الأنبياء – يعني بعد ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم - وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لأن موسى وعيسى عليهما السلام كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما ، وإبراهيم عليه السلام كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ، ونوحا لأنه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل : فآدم عليه السلام كان أولى بالذكر من نوح عليه السلام . فنقول : خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم

يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما نوح عليه السلام فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للإنذار ، ولهذا أهلك قومه وأغرقوا.

والآن نبين ما زاد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في قضية الميثاق على جميع الأنبياء ألا وهي أن الله أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) آل عمران (81-82) .

للمفسرين قولان في الآية الكريمة :

القول الأول : وهو أن الله تعالى أخذ الميثاق من جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث في حياتهم وهذا القول أشار إليه ابن كثير بقوله :

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم ، عليه السلام ، إلى عيسى ، عليه السلام ، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ، ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ، ولهذا قال تعالى وتقدس : (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ**) أي : لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة (**ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي**) وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، وقتادة ، والسدي : يعني عهدي .

وقد أكد الله تعالى هذا الميثاق بكلمة: (**إصري**) أي : ثقل ما حملتم من عهدي ، أي ميثاقي الشديد المؤكد . قاله محمد بن إسحاق.

وقال علي بن أبي طالب و ابن عمه عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته : لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

*** **** ***

القول الثاني : معنى الآية : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا . : وهذا قول طاوس ، والحسن البصري ، وقتادة ،وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . ولهذا رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه مثل قول علي وابن عباس .

ومما يؤكد هذا المعنى للآية الكريمة ما رواه الإمام أحمد : - بسنده - جاء عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا - قال : فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (**والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، و أنا حظكم من النبيين**).

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، و إنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، و إنه - والله - لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني**) .

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعا ، دائما إلى يوم الدين ، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به) اهـ

* * * * * * * * *

وقد أورد العلامة السيد محمد رشيد رضا إشكالاً حول هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء وأجاب عنه فقال: (ويرد على هذا القول إشكال بناء على أن الميثاق قد أخذ على النبيين أنفسهم وهو أن هذا الرسول ما جاء في عصر أحد منهم . وكان الله - تعالى - يعلم ذلك عند أخذ الميثاق عليهم لأن علمه

أزلي أبدي . وأجيب عنه بأنه ميثاق مبني على الفرض أي إذا فرض أن جاءكم وجب عليكم الإيمان به ونصره) .

أقول : ويكون المراد منه بيان مرتبته - صلى الله عليه وسلم - مع النبيين إذا فرض أن وجد في عصرهم ، وهو أنه يكون الرئيس المتبوع لهم ، فما قولك إذا في أتباعهم لا سيما بعد زمنهم ؟ وإنما كان له - صلى الله عليه وسلم - هذا الاختصاص لأن الله - تعالى - قضى في سابق علمه بأن يكون هو خاتم النبيين الذي يجيء بالهدى الأخير العام الذي لا يحتاج البشر بعده إلى شيء معه سوى استعمال عقولهم واستقلال أفكارهم ، وأن يكون ما قبله من الشرائع التي يجيئون بها هداية موقوتة خاصة بقوم دون قوم) اهـ [60] .

* * * * * * * * * *

أما مفهوم الشهادة في الآية (فاشهدوا) فهو يحتمل عدة معان، منها :

الأول : الظاهر أنه تعالى قال للنبيين المأخوذ عليهم الميثاق : فاشهدوا ، ومعناه من الشهادة أي : ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، وأخذ الإصر ، قاله مقاتل .

الثاني : معنى فاشهدوا ، بينوا هذا الميثاق للخاص والعام ; لكيلا يبقى لأحد عذر في الجهل به ، وأصله : أن الشاهد هو الذي يبين صدق الدعوى ، قاله الزجاج ، ويكون : اشهدوا ، بمعنى أدوا ، لا بمعنى تحملوا .

الثالث : معناه استيقنوا ما قررته عليكم من هذا الميثاق ، وكونوا فيه كالمشاهد للشيء المعاين له ، قاله ابن عباس .

الرابع : (فاشهدوا) خطاب للأنبياء إذا قلنا : إن أخذ الميثاق كان على أتباعهم ، أمروا بأن يكونوا شاهدين على أممهم ، وروي هذا عن علي بن أبي طالب .

* * * * * * * * * *

---

60 / تفسير المنار - للعلامة السيد محمد رشيد رضا - للآية المذكورة .

الفصل الثاني

الموازنة بين وحي الله تعالى للأنبياء ووحيه للنبي ﷺ

المبحث الأول : وحي الله تعالى للأنبياء عليهم السلام .

المبحث الثاني : اختصاص النبي ﷺ بأن الله تعالى جمع له في الوحي مراتب عديدة .

في هذا الفصل سنتناول بعون الله تعالى الحديث حول وحي الله تعالى للأنبياء عموماً ووحيه لنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد شارك الأنبياء عليهم السلام في أنواعٍ من الوحي ثم زاده الله بأنواع أخر زائدة عليهم ، وسيتبين ذلك من خلال مطلبين :

المبحث الأول

وحي الله تعالى للأنبياء عليهم السلام

مما هو معلوم أنه لا تكون النبوة إلا بوحي من الله تعالى ولا نبوة إلا باصطفاء من الله تعالى والنبوة لا تدرك بالاجتهاد في فعل الخير ولا بنحوه ، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في كتابه كما بين درجات الوحي في قوله تعالى : **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)** سورة الشورى (51).

قال في التفسير الوسيط[61] : هذه الآية الكريمة قد دلت على أن تكليم الله تعالى للبشر، وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحى، وهو الإعلام في خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.والوحى مصدر أوحى، وقد غلب استعماله فيما يلقى للمصطفين الأخيار من الكلمات الإلهية.

والثاني: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أى حاجز، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى. عليه السلام- عند ما كلمه ربه- عز وجل-، وهذا الطريق هو المقصود بقوله- تعالى-: **أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ.**

والثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له، وهو المقصود بقوله- تعالى- **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ.**

---

61 / التفسير الوسيط للقرآن الكريم - للإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي – تفسير الآية المذكورة

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عائشة- رضى الله عنها- أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم **(أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس- وهو أشده على- أى: أحيانا يأتينى مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعى ما يقول)** .

قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته صلّى الله عليه وسلّم ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه،وإن جبينه ليتفصد عرقا).رواه مسلم.

والمعنى: وما صح وما استقام لبشر أن يكلمه الله- تعالى- في أيِّ من حال الأحوال إلا موحيا إليه، أو مسمعا إياه ما يريد إسماعه له من وراء حجاب أو يرسل إليه ملكا ليبلغه ما يريده- سبحانه- منه.

قال ابن عاشوررحمه الله:

ومن الوحي مرائي الأنبياء فإنها وحي ، وهي ليست بكلام يلقَى إليهم ، ففي الحديث " إني رأيت دار هجرتكم وهي في حرّة ذاتِ نخل فوقع في وَهْلِي أنها اليمامة أو هَجر فإذا هي طابة. "

وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام مثل حديث " **رأيتُ بَقَراً تُذبح ورأيتُ (واللهُ خيرٌ)** " في رواية رفع اسم الجلالة ، أي رأيت هذه الكلمة ، وقد أوَّل النبي صلى الله عليه وسلم رؤياه البقرَ التي تذبح بما أصاب المسلمين يومَ أحد ، وأمّا «والله خير» فهو ما أتى الله به بعد ذلك من الخير)اهـ

*** **** ***

المبحث الثاني

اختصاص النبي ﷺ بأن الله تعالى جمع له في الوحي مراتب عديدة

لقد اشترك في مراتب الوحي آنفة الذكر جميع الأنبياء عليه السلام ، وقد جمع الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم تلك المراتب وزاده مراتب أخر غيرها لم تقع للأنبياء السابقين عليهم السلام ، وهذا ما سأبينه في النقاط التالية:

الأولى : الرؤيا الصالحة :

وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم وكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: {كان أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق **الصبح**} ، وهذا النوع من الوحي استمر ستة أشهر قبل أن يأتيه جبريل عليه السلام في حراء ، ولا شك أن الرؤى الصالحة استمرت معه صلى الله عليه وسلم إلى آخر حياته بل وكانت كثيرة جدا .

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه:

أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة صُدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إنَّ روح القدس نفث في روعي أنَّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإنَّ الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته} [62]

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه:

وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً، أخرج مسلم من حديث عمر رضي الله عنه الطويل وفيه: (**يا عمر أتدري من السائل؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**) .

---

62 / رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء وصححه الألباني.

الرابعة: أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس، أخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال**) .

الخامسة : أنه كان يرى الملك في صورته التي خُلق عليها:

أخرج الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما سُئل عن تفسير قوله تعالى: **(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)** [النجم: 9-10] قال رضي الله عنه: (**إنه رأى جبريل له ستمائة جناح**) .

السادسة : ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج:

وهذه المرتبة تختلف عن التي بعدها من حيث المكان إذ لم يثبت أن الله تعالى أوحي لنبي وهو في السماء ، وإنما كان وحي الله له صلى الله عليه وسلم بكلام مباشر دون واسطة وهي المرتبة التي تلي هذا المرتبة ودونك الكلام عليها بشئ من التفصيلفي الفقرة .

*** **** ***

السابعة : كلام الله تعالى إياه بلا واسطة ملك كما كلَّم موسى بن عمران عليه السلام:

أخرج مسلم من حديث أنس بن مالك الطويل وفيه: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ،**فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم** فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قلت : **خمسين صلاة** ،قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال : **فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف على أمتي فحط عني خمسا ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمسا** ، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، **قال فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة**

لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه).

قلت : وفي وصوله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المقام من التكريم والتشريف ما لايتخيله بشر ، ولا يخطر قلب إنسان ، وإذا كان موسى عليه السلام كلمه ربه مرة أو مرتين فكلام الله للنبي صلى الله عليه وسلم تسع مرات لأنه خفف عنه في كل مرة خمس صلوات .

فائدة : قال النووي رحمه الله تعالى - في شرحه على صحيح مسلم - :**(قال ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون وغيرهم : سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحكي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنها سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى)** .

*** **** ***

الفصل الثالث

الموازنة بين علم الأنبياء عليهم السلام وعلم النبي ﷺ

المبحث الأول : بيان ما يتعلق بعلوم بعض الأنبياء عليهم السلام .

المبحث الثاني : بيان فضل علم النبي صلى الله عليه وسلم .

مما لا شك فيه أن الأنبياء عليهم السلام هم أعلم الناس بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وهم أيضاً أعلم الناس بدينه وشرائعه وما يتعلق بذلك من أصول وفروع ونحو ذلك.

وبناءاً عليه فلست في حاجة إلى ذكر تفاصيل علومهم وإنما سأشير إلى بعض ما ذكر الله في كتابه فيما يتعلق بعلومهم عليهم الصلاة والسلام ثم أشير إلى ما امتاز به علم النبي صلى الله عليه وسلم وهو موضوع الموازنة في هذا الفصل ، وفيه مطلبان :.

المبحث الأول

بيان ما يتعلق بعلوم بعض الأنبياء عليهم السلام

1/ علم آدم عليه السلام : قال الله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا): البقرة (31) .

لقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في معنى الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام ، ولكن أعدل هذه الأقوال ولعله أجمعها ما قاله الطاهربن عاشوررحمه الله تعالى :

(والظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها ، أو استحضارها ، أو إفادة حصول بعضها مع بعض ، وهي - أي الإفادة - ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداء أسماء الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية ، وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة ، وملك ، وآدم ، وحواء ، وإبليس ، وشجرة وثمرة .

ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى ولذلك نرجح أن لا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني والأحداث ثم طرأت بعد ذلك فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات قرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء برد أي ماء بارد ثم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك فقال الماء بارد أو برد الماء . وهذا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصادر صنف دقيق من نوع الأسماء ، وقد دلنا على هذا قوله تعالى ثم عرضهم .

والتعريف في الأسماء تعريف الجنس أريد منه الاستغراق للدلالة على أنه علمه جميع أسماء الأشياء المعروفة يومئذ في ذلك العالم فهو استغراق عرفي مثل : جمع الأمير الصاغة أي صاغة أرضه ، وهو

الظاهر لأنه المقدار الذي تظهر به الفضيلة فما زاد عليه لا يليق تعليمه بالحكمة ، وقدرة الله صالحة لذلك.

* * * * * * * * * *

2/ بيان أن الله تعالى أثنى بالعلم على عدد من الأنبياء في سورو آيات عديدة منها:

قوله تعالى : (**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**) سورة الأنبياء (78-80) .

قال أحد العلماء : اعلم أن الأنبياء المذكورين في سورة الأنبياء وهم : وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وزكريا ، وذا النون ، كله نسق على ما تقدم من قوله : (**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**) سورة الأنبياء (51) ، ومن قوله : (**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**) واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان ، فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ، ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم.

أما النعمة المشتركة فهي القصة المذكورة وهي قصة الحكومة ، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زينهما عليهما السلام بالعلم والفهم في قوله : (**وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**) ثم في هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها ، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره هاهنا على سائر النعم الجليلة ، مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن . وإذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها.

وليس المقصود الحصر ولكن التنبيه إلى علوم أولئك الكرام عليهم السلام وما فضله الله بهم على جميع البشر.

* * * * * * * * * *

المبحث الثاني

بيان فضل علم النبي ﷺ على جميع علوم الأنبياء عليهم السلام

مما تقد ذكره من علم آدم وعلوم الأنبياء عليهم السلام وثناء الله تعالى عليهم بالعلم والفهم والحكمة، نقول هذا كله توطئة للدخول في بيان فضل الله على النبي صلى الله عليه وسلم بالعلوم التي لم ينلها غيره من الأنبياء عليهم السلام - وهم من هم في علو القدر والمنزلة - فنقول ومن الله نرجو العون والقبول:

وأما علم النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان أعظم من علوم جميع الأنبياء السابقين ، لأن الله تعالى أطنب في الثناء عليه بالعلم في آيات كثيرة كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث ، ولكي لا أطيل اكتفيت بذكر آيتين ، وستة أحاديث ، إليك بيانها :

أما من القرآن الكريم :

الآية الأولى : قوله تعالى : (وَ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) النساء (113) .

- **قال السعدي رحمه الله تعالى :** ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: { **وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** } أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخِرين. والحكمة: إما السُّنَّة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن. وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه. – **قوله تعالى : {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}** وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: { **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ** } { **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى** } .

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاما من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: {**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**} ففضله على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من فضله على كل مخلوق وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها.

وقال الآلوسي رحمه الله : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة أي: القرآن الجامع بين العنوانين، وقيل: المراد بالحكمة السنة، أي وعلمك بأنواع الوحي ما لم تكن تعلم أي: الذي لم تكن تعلمه من خفيات الأمور وضمائر الصدور، ومن جملتها وجوه إبطال كيد الكائدين، أو من أمور الدنيا وأحكام الشرع، كما روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أو من الخير والشر - كما قال الضحاك - أو من أخبار الأولين والآخرين - كما قيل - أو من جميع ما ذكر كما يقال .

ومن الناس من فسر الموصول - ما - بأسرار الكتاب والحكمة أي: أنه سبحانه أنزل عليك ذلك، وأطلعك على أسراره، وأوقفك على حقائقه، فتكون الجملة الثانية كالتتمة للجملة الأولى.

وأما قوله تعالى (**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**) فهذا لا تحويه عبارة، ولا تحيط به إشارة، ومن ذلك النبوة العامة، والرياسة التامة، والشفاعة العظمى يوم القيامة.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) النجم (5) :

في هذه الآية الكريمة بيان لفضل علم النبي صلى الله عيه وسلم وذلك من خلال الثناء على على علمه وهو الوحي، والثناء على معلمه وهو جبريل عليه السلام بقوله (**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ**)).

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين أن الضمير في (**عَلَّمَهُ**) عائد إلى الوحي أي الوحي علمه شديد القوى ، والوحي إن كان هو الكتاب فظاهر ، وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى : (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**) [الشعراء : 193] والأولى أن يقال الضمير عائد إلى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمدا صلى الله عيه وسلم شديد القوى جبريل ، وحينئذ يكون عائدا إلى صاحبكم ، تقديره علم صاحبكم ، وشديد القوى هو جبريل ، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل .

*** **** ***

وقوله تعالى : (شَدِيدُ الْقُوَىٰ) فيه فوائد :

الأولى : أن مدح المعلم مدح المتعلم ، فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ظاهرة .

الثانية : هي أن فيه ردا عليهم حيث قالوا أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام ، فقال لم يعلمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفا وما أوتي من العلم إلا قليلا.

الثالثة : فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام ، فقوله تعالى : (**علمه شديد القوى**) جمع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو ما فهم ما قال ، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها ، وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال : (**شديد القوى**) ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى : (**ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**) التكوير (20-21).

* * * * * * * * * *

والأدلة في القرآن على سعة علمه صلى الله عليه وسلم كثيرة :

ونجمل القول فيها بما قال العلامة عبد الله سراج الدين رحمه الله بقوله : (هذا القرآن الذي أقرأه الله إياه وجمعه له في صدره وعلمه إياه وبينه له قال الله عزوجل : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) سورة القيامة (17-19) **ومعناها (إن علينا) أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك وعلينا إثبات قراءته في لسانك ثم نتكفل لك ببيانه.**

ثم إن هذا القرآن فيه كل شيء كما قال الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وكما قال الله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) فهو وإن كان قليلاً في حجمه وعدد أوراقه ولكن من إعجاز الله عزوجل في قرآنه أنه في أوراقه القليلة يجمع العلوم والفنون ، قال الله عزوجل: (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) ، وإليه يشير قوله

تعالى: (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم).اهـ[63]

* * * * * * * * * *

وأما السنة : فقد وردت أحاديث كثيرة في بيان علم النبي صلى الله عليه وسلم، منها:

1 - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبسَ عنَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ غداةٍ من صلاةِ الصبحِ حتى كِدْنا نتراءَى عينَ الشمسِ فخرجَ سريعًا فثوَّبَ بالصلاةِ فصلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتجوَّزَ في صلاتِه فلمَّا سلَّمَ دعا بصوتِه فقال لنا : (على مصافِّكم كما أنتم) ثم انفتلَ إلينا فقال : (أما إني سأُحدِّثُكم ما حبسني عنكم الغداةَ أني قمتُ من الليلِ فتوضأتُ فصلَّيتُ ما قُدِّرَلي فنعستُ في صلاتي فاستثقلتُ فإذا أنا بربِّي تبارَك وتعالَى في أحسنِ صورةٍ فقال : يا محمدُ ، قلتُ : ربِّ لبَّيكَ ، قال : فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلَى ؟ قلتُ : لا أدري ربِّ ؛ قالها ثلاثًا قال : فرأيتُه وضعَ كفَّهُ بينَ كتِفَيَّ حتى وجدتُ بَرْدَ أناملِه بينَ ثدييَّ فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ فقال : يا محمدُ ؛ قلتُ : لبَّيكَ ربِّ؛ قال : فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى ؟ قلتُ : في الكفَّاراتِ ؛ قال : ما هنَّ ؟ قلتُ : مشيُ الأقدامِ إلى الجماعاتِ والجلوسِ في المساجدِ بعدَ الصلاةِ وإسباغِ الوُضوءِ في المكروهاتِ ؛ قال: ثَمَّ فيمَ ؟ قلتُ : إطعامُ الطعامِ ولينُ الكلامِ والصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ ؛ قال : سَلْ قلِ اللهمَّ إني أسألُكَ فِعْلَ الخيراتِ وتَرْكَ المنكراتِ وحُبَّ المساكينِ وأن تَغفرَلي وتَرحمَني وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّني غيرَ مفتونٍ وأسألُك حُبَّكَ وحُبَّ من يُحبُّكَ وحُبَّ عملٍ يُقربُ إلى حُبِّكَ) قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(إنها حقٌّ فادرسوها ثم تعلَّموها). رواه البخاري والترمذي وقال : حسن صحيح .

وموضع الشاهد قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فتجلَّى لي كل شيء وعرفتُ). وفي رواية (فعلمتُ ما في السماءِ والأرضِ ، ثمَّ تَلا هذه الآيةَ : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ})[64].

63/ كتاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة خصاله المجيدة – ص (13) وما بعدها .

64 / راوه البغوي في شرح السنة –(459/2) وقال : حسن .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في شرحه : (وفيه دلالة على شرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتفضيله بتعليمه ما في السموات والأرض، وتجلى ذلك له مما تختصم فيه الملائكة في السماء وغير ذلك، كما أري إبراهيم ملكوت السموات ولأرض وقد ورد في غير حديث مرفوعاً وموقوفاً أنه :(أُعطي علم كل شيء خلا مفاتيح الغيب الخمس التي اختص الله عز وجل بعلمها، وهي المذكورة في قوله عز وجل: **(إن الله عندَه علمُ الساعَةِ ويُنزّلُ الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ)**[65].

*** **** ***

2 - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (**أوتيت مفاتيح كل شيء الا الخمس إن الله عنده علم الساعة .. الآية**) رواه احمد والطبراني بإسناد صحيح .

3 - وفي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قال : (**قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقاما ما ترك فيه شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه وإنه ليكون منه الشيء قد كنت نسيته فأراه فاذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه**).

قال العلامة المحدث السيد عبدالله الغماري رحمه الله تعالى: قوله (**أوتيت مفاتيح كل شيء**) أي من العلوم والمعارف وسائر المغيبات. قال القاضي عياض في الشفا في فصل ما اطلع عليه من الغيوب وما يكون ما نصه: والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب اهـ ثم أورد جملة منها فليراجع [66].

*** **** ***

---

65 / اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى- تأليف ابن رجب الحنبلي .

66 / الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله صلى اله عليه وسلم – تأليف العلامة الغماري - حديث رقم (37) .

4 - وعَنْ أَسْمَاءَ رضي الله عنها قَالَتْ أَتَيْتُ عَائِشَةَ وَهِيَ تُصَلِّي فَقُلْتُ : مَا شَأْنُ النَّاسِ فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ فَقَالَتْ سُبْحَانَ الله قُلْتُ آيَةٌ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَيْ نَعَمْ فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلانِي الْغَشْيُ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَى رَأْسِي الْمَاءَ فَحَمِدَ الله عَزَّوَجَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : (مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةُ و النَّارُ فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ) [67].

ثم تابع الغماري حديثه قائلا : قوله : (الا الخمس : إن الله عنده علم الساعة) الآية وفي صحيح البخاري عن ابن عمر مرفوعا (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله , ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام الا الله , ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله , ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله , ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله) ومقتضى هذا أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يعلم تلك الخمس , وإليه ذهب الجمهور .

لكن قال الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى : (ذهب بعضهم الى أنه صلى الله عليه وسلم أوتي علم الخمس أيضا وعلم وقت الساعة والروح و أنه أمر بكتم ذلك) اهـ ، وبه جزم كثير من المتأخرين) اهـ.[68]

*** **** ***

5 - وقال أبو ذر رضي الله عنه : (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما)[69]

6 - وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي الله صلى الله عليه وسلم قال (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) رواه البخاري.

قال ابن رجب رحمه الله : (وكونه أعلمهم بالله يتضمن أن علمه بالله أفضل من علمهم بالله ، وإنما زاد علمه بالله لمعنيين:

67 / أخرجه البخاري في صحيحه في عدد من المواطن ورواه مسلم برقم (905) .

68 / الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله صلى اله عليه وسلم – تأليف العلامة الغماري ص(117 – 122) .

69 / قال الغماري في الأحاديث المنتقاة : رواه أحمد والطبراني بإسناد صحيح . والله أعلم.

أحدهما : زيادة معرفة بتفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وعظمته وكبريائه وما يستحقه من الإجلال والإعظام :

الثاني : إن علمه بالله تعالى مستند إلى عين اليقين فإنه رآه - أي الله - إما بعين بصره أو بصيرته ، كما قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : رآه بفؤاده مرتين .

وعلم الصحابة بالله مستند إلى علم اليقين ، وبين المرتبتين تباين ، ولهذا سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يرقيه من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين بالنسبة إلى رؤية إحياء الموتى)[70] اهـ-

*** **** ***

70 / فتح الباري شرح صحيح البخاري - لابن رجب الحنبلي- (89/1) – بتصرف يسير.

الفصل الرابع

الموازنة بين رحمة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمة الأنبياء عليهم السلام

المبحث الأول : بيان اتصاف الأنبياء عليهم السلام بالرحمة .

المبحث الثاني : بيان اتصاف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة .

المبحث الأول

بيان اتصاف الأنبياء عليهم السلام بالرحمة

وصف الله تعالى في كتابه النبوة التي أعطاها للأنبياء بأنها رحمة ، وقد ورد ذلك في حق عدد منهم مما يدل على أنهم متصفين بالرحمة .

ومن الأدلة على ذلك قوله سبحانه: **(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** البقرة: (105)، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يختص برحمته: أي: بنبوته، خصَّ بها محمداً صلى الله عليه وسلم. وهذا على المشهور في تفسير **(الرحمة)** في هذه الآية .

ومن هنا حكى الله تعالى قول نوح عليه السلام: **(وَ آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ)** (هود:28)، أي: نبوة ورسالة. وقول صالح عليه السلام **(وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً)** هود (61) .

ولهذا كانت الرحمة صفة الأنبياء والمرسلين، وسمة الأولياء والصالحين، وقد سجل القرآن شفاعة بعض الأنبياء لأقوامهم قال تعالى على لسان خليله: **(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌرَحِيمٌ)** سورة إبراهيم (36) ، وأخبر عن المسيح عليه السلام قوله: **(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْلَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُالْحَكِيمُ)** سورة المائد(118) .

يقول الشيخ زيد بن مسفر البحري[71] :

من معانيها : - **أي الرحمة** -النبوة :ومن الأدلة (**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ**)الرحمة هنا : هي النبوة ، كيف تكون النبوة رحمة ؟ تكون النبوة رحمة من وجوه متعددة لا تحصر عند التأمل تجد أن أنواع الرحمة وأن أصنافها وأشكالها تدخل في هذه النبوة :

من بين هذه الصور :أن النبوة رحمة للناس ما الدليل ؟ قال تعالى: **(أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ*رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** سورة الدخان (5-6) .

---

71 / الموقع الرسمي له - باختصاروتصرف

قوله : **(رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)** يعني : بالمرسل إليهم ،لو خلت الأرض من النبوة : لحل فيها الظلم والفساد ،تحل فيها السرقة يحل فيها الزنى ،النهب ، السلب ،كل ما تتصوره من أنواع الفساد يكون فيها .ما الدليل ؟ ما البرهان الساطع على هذا ؟

انظر إلى حال الصحابة قبل أن تأتيهم النبوة على لسان الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ؟ كيف كان حالهم ؟ حالهم :أن الرحمة قد انتزعت من قلوبهم ،كانوا يأتون إلى بناتهم ، يأتي الواحد إلى ابنته وقد وضعتها أمها ويدفنها في التراب وهي حية ،أليست هذه قسوة ؟ بلى، لكن لم ؟ لأن هؤلاء لا يسيرون على نوروهدى من الله ،هذه صورة من صوررحمة الله : أن أرسل إليهم الأنبياء).

*** **** ***

المبحث الثاني

بيان اتصاف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة

لقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام الحظ الأوفر من هذه الرحمة وقد ورد ذلك في عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، سأقف مع ثلاث آيات أربعة أحاديث على حسب ما يقتضيه المقام ، فأقول راجيا من الله السداد والقبول :

أما الأيات القرآنية ، فهي :

الآية الأولى : قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء(107) .

قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : (يخبر تعالى أن الله جعل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، أي : أرسله رحمة لهم كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة ، سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)** [إبراهيم : 28 ، 29] ، وقال الله تعالى في صفة القرآن : **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)** فصلت : (44) اهـ .

قلت : وما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله هو قول كثير من المفسرين إلا أن العلامة الفخر الرازي رحمه الله له تفصيلات مهمة حول الآية الكريمة حيث يقول : قوله تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** الأنبياء (107) فيه مسائل:

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان رحمة في الدين وفي الدنيا :

- **أما في الدين :** فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم ؛ لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم ، فبعث الله تعالى محمدا - صلى الله عليه وسلم - حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق ، وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام ، وميز الحلال من الحرام ، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت

همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قرينا له ؛ قال الله تعالى : (**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**) إلى قوله : (**وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**) فصلت :(44) .

- **وأما في الدنيا :** فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه . فإن قيل : كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟

قلنا : الجواب من وجوه :

أحدها : إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ، ثم هو منتقم من العصاة . وقال : (**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا**) [ق : 9] ثم قد يكون سببا للفساد .

وثانيها : أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق ، وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة ؛ قال تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) [الأنفال : 33] لا يقال : أليس أنه تعالى قال : (**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**) [التوبة : 14] ؛ وقال تعالى : (**لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ**) [الأحزاب : 73] لأنا نقول : تخصيص العام لا يقدح فيه .

وثالثها : أنه عليه السلام كان في نهاية حسن الخلق ، قال تعالى : (**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [القلم : 4] وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ادع على المشركين ، قال : (**إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا**) وقال في رواية حذيفة : إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة) اهـ .

* * * * * * * * * *

وتأمل ذلك الموقف البديع ، لنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم ، وقد كذبه أهل الطائف وآذوه أذى بالغا ، وهو إنما كان يدعوهم إلى أن يوحدوا الله ، ولا يريد منهم شيئا سواه ففي الحديث :

أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟

قَالَ : (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ !! وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ !! فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ؛ فَمَا شِئْتَ ؛ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ !! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) رواه البخاري (3231) ومسلم (1795).

*** **** ***

و قد بين العلامة ابن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام كيف بلغت رحمته صلى الله عليه وسلم العالمين، حيث يقول : (إنَّ عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته:

أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة .

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب الله عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم. وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون : فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوراة وغيرها. وأما الأمم النائية عنه: فإن الله رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض. فأصاب كل العاملين النفع برسالته) اهـ .

وقال بعض أهل العلم : إِذَا تَأَمَّل العبدُ النَّفْع الْحَاصِل لَهُ مِنْ جِهَة الرَّسُول صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَخْرَجَهُ الله به مِنْ ظُلُمَات الْكُفْر إِلَى نُور الْإِيمَان ، عَلِمَ أَنَّهُ سَبَب بَقَاء نَفْسه الْبَقَاء الأَبَدِيّ فِي النَّعِيم السَّرْمَدِيّ , وَعَلِمَ أَنَّ نَفْعه بِذَلِكَ أَعْظَم مِنْ جَمِيع وُجُوه الانْتِفَاعَات , فَاسْتَحَقَّ لِذَلِكَ أَنْ يَكُون حَظّه مِنْ مَحَبَّته أَوْفَر مِنْ غَيْره.

وَلَكِنَّ النَّاس يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ اِسْتِحْضَار ذَلِكَ وَالْغَفْلَة عَنْهُ ، وكلّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيمَانًا صَحِيحًا لا يَخْلُو عَنْ وِجْدَان شَيْء مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّة الرَّاجِحَة ،غَيْر أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ .

فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَة بِالْحَظِّ الأَوْفَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا بِالْحَظِّ الْأَدْنَى , كَمَنْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي الشَّهَوَات مَحْجُوبًا فِي الْغَفَلات فِي أَكْثَر الأَوْقَات ،لَكِنَّ الْكَثِير مِنْهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَته، بِحَيْثُ يُؤْثِرهَا عَلَى أَهْله وَوَلَده وَمَاله وَوَالِده،غَيْر أَنَّ ذَلِكَ سَرِيع الزَّوَال بِتَوَالِي الْغَفَلَات ، وَاَللَّه الْمُسْتَعَان)[72].

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) سورة التوبة (128) .

ونحن سنتحدث عن الشاهد في الآية فيما يتعلق برحمته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى في ختامها (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)لأن الكلام على الآية كاملة يطول ويخرجنا عما نحن فيه .

قال في التفسير الوسيط :

قوله : **بالمؤمنين رءوف رحيم** : أى: شديد الرأفة والرحمة بكم- أيها المؤمنون- والرأفة عبارة عن السعى في إزالة الضرر، والرحمة عبارة عن السعى في إيصال النفع، فهو صلى الله عليه وسلم يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم.

72/فتح الباري شرح صحيح البخاري – لابن حجر – (59/1) .

قال بعضهم: لم يجمع الله- تعالى- لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه قال «**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**» وقال عن ذاته- سبحانه- **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**) .

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: { **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** } خلاصته: إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد؛ لأن مشقات التكليف تنتهي بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف، وما يخطر على باله من أشياء، يجده فوراً؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم. وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التي كانوا يقومون بها لأنفسهم.

فالثري الذي كان يطهو طعامه قبل الثراء، يستأجر طاهياً؛ ليعد له طعامه، والفلاح الذي كان يبني بيته لنفسه، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبني له، وكل الأعمال التي تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش في رضا الله وبأسرار كلمة (**كُن**) .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء في هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بان الرسول صلى الله عليه وسلم يتميز بكل المواصفات الموحية: من أنه بشر، وأنه حريص عليهم، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التي تنجيهم من المشقات الأبدية، وأنه رءوف بهم ورحيم .

* * * * * * * * * *

الآية الثالثة : قول الله عزوجل : (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الأحزاب/6.

قال ابن كثير رحمه الله :(قد علم الله شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدمٌ على اختيارهم) .

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله :(يخبر تعالى المؤمنين خبرا يعرفون به حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرتبته ؛ فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة ، فقال : (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) : أقرب ما للإنسان ، وأولى ما له نفسه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أولى به من نفسه ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم ، **فرسول الله أعظم الخلق منة عليهم من كل أحد ، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من خير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه . فلذلك وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس ، أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقدم مراد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنا من كان ، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم ، وألا يقولوا حتى يقول ، ولا يقدموا بين يديه) . اهـ

وحاصل ما ذكره أهل العلم في بيان ذلك أن غضب الله والنار هما أعظم مرهوب للعبد ؛ ولا نجاة منها إلا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله والجنة هما أعظم مطلوبه ، ولا فوز بهما إلا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.

*** **** ***

وأما الأحاديث النبوية الشريفة ، فمنها :

1/ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ، ادع على المشركين ، قال :(**إني لم أبعث لعانا ، وإنما بعثت رحمة**) . انفرد بإخراجه مسلم .

2/ عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**) رواه مسلم ونحوه في البخاري .

الفَراش : قَالَ الْخَلِيل : هُوَ الَّذِي يَطِيرُ كَالْبَعُوضِ وَأَمَّا (**الْجَنَادِب**) فَجَمْع جُنْدُب وَالْجَنَادِب هَذَا الصِّرَار الَّذِي يُشْبِهُ الْجَرَاد .

أَمَّا (التَّقَحُّم) فَهُوَ الإِقْدَامُ وَالْوُقُوعُ فِي الأُمُور الشَّاقَّة مِنْ غَيْر تَثَبُّت .وَ (الْحُجَز) جَمْع حُجْزَة وَهِيَ مَعْقِد الإِزَار وَالسَّرَاوِيل.

وَمَقْصُود الْحَدِيث أَنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَبَّهَ تَسَاقُط الْجَاهِلِينَ وَالْمُخَالِفِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَشَهَوَاتهمْ فِي نَار الآخِرَة , وَحِرْصهمْ عَلَى الْوُقُوع فِي ذَلِكَ , مَعَ مَنْعه إِيَّاهُمْ , وَقَبْضه عَلَى مَوَاضِع الْمَنْع مِنْهُمْ , بِتَسَاقُطِ الْفِرَاش فِي نَار الدُّنْيَا , لِهَوَاهُ وَضَعْف تَمْيِيزه , وَكِلاهُمَا حَرِيصٌ عَلَى هَلَاكِ نَفْسه , سَاعٍ فِي ذَلِكَ لِجَهْلِهِ) شرح مسلم ، للنووي

3/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**) رواه البخاري .

4/ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : **أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني) الآية وقال عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)، فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال الله : (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)** رواه مسلم .

*** **** ***

يقول دكتور محمد حسن قسام:

أما كون النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوصف مرة بأنه رحمة للعالمين، و أخرى بأنه رحمة للذين آمنوا، فلأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رحمة عامة و رحمة خاصة، أما الرحمة العامة فهي للعالمين، و أما الخاصة فهي للمؤمنين، فالمؤمنون داخلون إذن في رحمة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لهم مرتين.

و لكن لا بد أن نتأمل معنى " العالمين " لندرك مدى عمومية رحمة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالعالمين جمع عالم، و هذا يعني أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس رحمة لعالم واحد و

هو عالم البشر، بل هو رحمة لكل العوالم، و إنما استنبطنا أنه رحمة للكل من كون العالمين جمعاً و قد دخلت عليه لام الاستغراق و الجمع و لام الاستغراق من ألفاظ العموم، فنستنبط من هذا أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم رحمة لكل عالم يصدق عليه لفظ عالم، فهو رحمة لعالم الإنس و رحمة لعالم الجن و رحمة لعالم الملائكة و رحمة لعالم الحيوان و رحمة لعالم النبات وغيرها من العوالم، و هذا لا مبالغة فيه، و ليس إشارة غامضة بل هو صريح نص قرآني، فليت شعري ماذا يقول من يتهمنا بالزيادة في تعظيم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ماذا يقول عما يدل عليه هذا النص القرآني؟

حقاً إن ما في هذه الآية هو قمة تعظيم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم و البيان الواضح في مدى علو قدره صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يوضح أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد بلغ في صفة الرحمة العظيمة منتهاها، فكان رحمة لكل العوالم عموماً ورحمة للمؤمنين خصوصاً.

و أما وصفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه رحيم فلقد ورد في قوله تعالى: (**فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) التوبة (128) ؛ وقد تقدم تفسير بعضها وسيأتي تفسير باقيها في الفصل التالي إن شاء الله تعالى .

و لدى التأمل في وصف " **رحيم** " نجد أنه جاء مشتقاً على وزن " فعيل " و هو أحد صيغ المبالغة، و يفيد الوصف بصفة من أمثلة المبالغة شيئين رئيسين: هما المبالغة و التكرار، فوصف الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصفة رحيم يعني أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد بلغ منتهى صفة الرحمة و أعلى درجاتها، و كذا يعني أنها هي الصفة الغالبة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كل أحواله، و لقد استنبطنا كونها الصفة الغالبة عليه من كون صيغة المبالغة تفيد التكرار، و هذا يعني أن الرحمة تتكرر منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً، وهذا يعني بالتالي أنها الصفة الغالبة عليه في أحوله و أخلاقه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.[73]

*** **** ***

73 / من مقال بعنوان مكانة النبي صلى الله عليه وسلم - صيد الفوائد.

و يقول الشيخ زيد بن مسفر البحري [74]:

قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم في مقام الرسالة: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**) الأنبياء (107) انظروا : (**لِّلْعَالَمِينَ**) ما هو العالَم ؟ **هو كل ما هو سوى الله من الإنس والجن والطير والبهائم والحشرات.**

كيف تكون النبوة رحمة حتى بالبهائم ؟ أوَما علمت حديث النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال :(**دخلت امرأة النارفي هرة : حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**).

ونهى النبي عليه الصلاة والسلام أن تصبر البهائم :أي تحبس ثم ترمى بالنبل،لأن هذا من باب التعذيب لها.

ولذا : الإسلام سبق الأمم كلها في الرحمة بالحيوان :لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام بعيرا قد ضمر بطنه فإذا به عليه الصلاة والسلام يأتي إليه ، وإذا بهذا البعير يبكي ؟ فقال : من صاحب هذا البعير ؟ قالوا : إنه لغلام قال : إنه يشكو إليّ أنه يجيعه ويكلفه[75] .

وهو عليه الصلاة والسلام لما رأى أناسا يركبون على ظهور دوابهم بالساعات الطوال قال (**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة**).

ولا تعجب أن تكون النبوة رحمة حتى بالكفار تكون رحمة بالكفار ،ولذا : فالكافر يدخل ضمن العالمين : (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**) الأنبياء (107) .

النبي عليه الصلاة والسلام ضرب أروع أمثلة الرحمة حتى مع أعدائه في شدة الحرب ؟ ماذا كان يقول عليه الصلاة والسلام ؟قال - كما عند مسلم - :(**لا تقتلوا وليدا**) نهى عن قتل النساء والأطفال من العدو أليست هذه رحمة بالكفار ؟ بلى قال عليه الصلاة والسلام : (**لا تمثلوا**) بمعنى :أنه لا يؤتى

---

74 / الموقع الرسمي له بتصرف .

75 / ونص الحديث : عن عبد الله بن جعفر قال : (أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا من الناس وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفا أو حايش نخل فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه ناضح له فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه وسراته فسكن فقال من رب هذا الجمل فجاء شاب من الأنصار فقال أنا فقال ألا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكاك إلى وزعم أنك تجيعه وتدئبه) رواه الإمام أحمد قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

إلى كافر بعد ما قتل ويجدع أنفه أو تقطع أذنه أو يشوه نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك كله بمن ؟ بالكفار فهي رحمة من الله.

والصور متعددة : لكن الإنسان عند التأمل يجد أنواعا وأطرافا من رحمة الله بهم أن جعل لهم هذه النبوة ولذا قال تعالى :(**وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) القصص47

(**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**) طه (134). فجاء النبي صلى الله عليه وسلم لكي يدحض حجتهم وقولهم.

*** **** ***

الفصل الخامس

الموازنة بين خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم وخُلُق الأنبياء عليهم السلام

المبحث الأول : حديث القرآن عن خُلُق الأنبياء عليهم السلام .

المبحث الثاني : بيان كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مما لا يحيط به وصف .

المبحث الأول

حديث القرآن عن خُلُق الأنبياء عليهم السلام

لعل من نافلة القول أن نذكِّر القارئ بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا جميعاً على جانب كبير من حسن الخلق ولين الجانب في تعاملهم مع الخلق كما أنهم متصفون بجميل الصفات من حلم وجود وكرم وصدق وأمانة وتواضع ورحمة وشفقة وزهد في الدنيا وتحمل لأذى الخلق ونحو ذلك ، ومرادي من هذا الفصل إشارات سريعة مقتبسة من القرآن الكريم لبيان ذلك في حق الأنبياء عليهم السلام في مطلب ، ثم أثني ببيان حسن خلقه صلى الله عليه وسلم في مطلب آخر :

المتصفح لآيات القرآ الكريم يجد ذلك كله واضحاً بيناً مجملاً ومفصلاً :

فمن الإجمال قوله تعالى : {**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**} [الأنعام:90].وسيأتي تفسيرها في المطلب الثاني إن شاء الله تعالى.

ومن التفصيل في أخلاق الأنبياء ما جاء في حق الخليل عليه السلام:

قَوْله تعالى : **(إِنَّ إِبْرَاهِيم أَوَّاهٌ لَحَلِيمٌ)** سورة التوبة (114).

قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله :

(الأواه : الكثير التأوه والتحسر وإنما يتأوه إبراهيم من خشية الله ، ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أبيه ، ويطلق الأواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله . **وأصل التأوه** قول **أوه أو آه** (**بالكسر منونا وغير منون**) أو **واه** ، أو **أوه** . وعن ابن عباس فيه روايات منها : أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة .

والحليم : الذي لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ، ولا يستخفه الجهل أو هوى النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور ، واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب)اهـ باختصار .

*** **** ***

وقال القرطبي رحمه الله تعالى :

(**والحليم** : الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذي لم يعاقب أحدا قط إلا في الله ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان إبراهيم عليه السلام كذلك) اهـ

ومما جاء في وصف الخليل عليه السلام أيضاً : قَوْله تعالى : { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ** } هود (75) في هذه الآية زاده تبارك وتعالى هنا صفة أخرى ألا وهي : { **منيب** } ومعناها – كما قال ابن عاشور - من أناب إذا رجع ، وهو مشتق من النوب وهو النزول . والمراد التّوبة من التقصير ، أي محاسب نفسه على ما يَحذر منه. وحقيقة الإنابة : الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه .

ومن التفصيل في أخلاق الأنبياء ما جاء في حق هود عليه السلام:

قال – تعالى – في سورة الأعراف - : { **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68).**

هذا مشهد عظيم من مشاهد الأنبياء – عليهم السلام - في دعوتهم إلى الله – تعالى – فيه عبر وعظات لأولي العقول النيرات.

فبدأ نبي الله هود عليه السلام خطابه لقومه بقوله : { **يَا قَوْمِ** } على سبيل الرفق بهم والتلطف في العبارة معهم استجلاباً لودهم ، وتليناً لقلوبهم حتى لا تحجُبَ كلماتِهِ عن قلوبهم أنفةُ عجب ، أو حمية كبر يزينها الشيطان في نفوسهم متذرعاً بخشونة لفظ أو فظاظة خلق.

ثم بدأهم بالمقصد الأعظم الذي لأجله ترسل الرسل بأبين عبارة وأوضح خطاب (**اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**).

فقابلوه بعتو وصلافة وقلة أدب ووقاحة بأبشع الأوصاف و أقذع العبارات ، فنسبوه إلى : (خفة العقل وطيشه) و: (كذب اللسان و افترائه) .

فكان في جوابه لهم في هذه الآيات دلالة ظاهرة ، وبرهان قاطع على تمكن نبي الله تعالى هود عليه السلام من الأخلاق الفاضلة والسمت الحسن ورسوخ الفضيلة في قلبه بحيث لم تستثره جهالة القوم ، ولا غلظ طباعهم ، ولا قبح ألفاظهم لما قالوا له : { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } . بل قابل ذلك بحلم الكرماء وصفح النبلاء وتقاضى عنه كأنه لم يسمعه بحكمة وعلم ورفق ولين (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَ أَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) .

ولم يقل لهم : « بل أنتم السفهاء » لكرامةِ رَدِّ الرسلِ ، ومعاملتِهم للجهلةِ الْحَمْقَى بالتي هي أحسنُ . وهذا معنَى قولِه : {وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} " [76]

وستجد مواقف مشابهة لنوح وصالح وشعيب عليهم السلام في التعامل مع أولائل السفهاء الكفرة المسيئين لهم.

*** **** ***

ومن التفصيل في أخلاق الأنبياء ما جاء في قصة يوسف عليه السلام:

قال تعالى - حكاية عن يوسف عليه السلام - : **{قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَاحِمِينَ}**[يوسف : 92] .

مما امتازت به دعوة الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام - أنها لا نصيب فيها لحظوظ أنفسهم فهم أكمل العباد في تجريد الحق عند تعاملهم مع الخلق .

كيف لا يكونون كذلك وهم أكمل الناس عقلاً ، وأصفاهم سريرة ، وأكرمهم خلقاً ، وأسمحهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وألينهم عريكة. ولذا صفْحُهم أكمل الصفح بلا لوم ولا عتب لأنهم يخالطون الناس بلا نفس ، وانظر إلى مقابلة يوسف لأخوته بعد ما لاقاه منهم {**قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَاحِمِينَ**}[يوسف : 92] .

---

76 / العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير – تحقيق الشيخ خالد بن عثمان السبت – (3/ 480) .

قال ابن القيم رحمه الله : " ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال : كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس ، فتأمل ما أجل هاتين الكلمتين مع اختصارهما وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى وتوسط النفس بينك وبين خلقه فمتى عزلت الخلق حال كونك مع الله تعالى وعزلت النفس حال كونك مع الخلق فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم وشمروا إليه وحاموا حوله والله المستعان " اهـ [77] .

وقال ابن جزي رحمه الله : " فكأنه أسقط حق نفسه بقوله : لا تثريب عليكم اليوم ، ثم دعا إلى الله أن يغفر لهم حقه " [78]

وهذا منتهى حسن الخلق حيث جمع لهم بين العفو وترك العقوبة بل والتعنيف واللوم بل زاد على ذلك بأن طلب لهم المغفرة دون أن يطلبوها منه بل تطوع بها في الحال رغبة في ستر عيوبهم والتجاوز عن عقوبتها .

ومما يستأنس به في الباب ما ذكره القرطبي – رحمه الله : " قال عطاء الخرساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ألم تر قول يوسف – عليه السلام -: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم} ، وقال يعقوب – عليه السلام - :{سوف أستغفر لكم ربي}" [79]

وقال السعدي – رحمه الله - : " فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين "[80] .

* * * * * * * * * *

---

77 / مدارج السالكين : 326/2

78 / التسهيل لعلوم التنزيل : 748/1

79 / الجامع لأحكام القرآن : 258/9.

80 / تيسير الكريم الرحمن : ص/ 404

المبحث الثاني

بيان كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مما لا يحيط به وصف

اعلم أن الكلام عن أخلاقه الشريفة وصفاته المنيفة يحتاج إلى عدد من المجلدات الكبيرة ، ودون مبالغة [81]، ولكن على حسب المقام أكتفي بذكر ثلاث آيات وبعض الأحاديث النبوية:

أما الآيات القرآنية :

الأولى : قوله تعالى : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) سورة الأنعام(90) .

قال الفخر الرازي : في الآية مسائل :

المسألة الأولى : لا شبهة في أن قوله : (**أولئك الذين هدى الله**) هم الذين تقدم ذكرهم من الأنبياء ، ولا شك في أن قوله : (**فبهداهم اقتده**) أمر لمحمد - عليه الصلاة والسلام - ، وإنما الكلام في تعيين الشيء الذي أمر الله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدي فيه بهم:

فمن الناس من قال : المراد أنه يقتدي بهم في الأمر الذي أجمعوا عليه ، وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والأفعال وسائر العقليات.

وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم.

وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في شرائعهم إلا ما خصه الدليل ، وبهذا التقدير كانت هذه الآية دليلا على أن شرع من قبلنا يلزمنا.

*** **** ***

---

81 / من الكتب الوافية في أخلاقه صلى الله عليه وسلم ووصل إلى عدد من المجلدات الكبيرة موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - المؤلف: فريق كبير من المتخصصين بإشراف: الشيخ صالح بن حميد - يقع في 12 مجلدا خمسة منها في اوصاف أخلاقه الشريفة صلى الله عليه وسلم وشملت الصفات المستحبة 200 صفة .

المسألة الثانية : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا - صلى الله عليه وسلم - أفضل من جميع الأنبياء - عليهم السلام - ، وتقريره : هو أنا بينا أن خصال الكمال ، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجمعا لهاتين الحالتين ، وموسى - عليه السلام - كان صاحب الشريعة القوية القاهرة والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس صاحب التضرع ، فثبت إنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ؛ لأن الغالب عليه كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف .

ثم إنه تعالى لما ذكر الكل أمر محمدا - عليه الصلاة والسلام - بأن يقتدي بهم بأسرهم ، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، ولما أمره الله تعالى بذلك ، امتنع أن يقال : إنه قصر في تحصيلها ، فثبت أنه حصلها ، ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان متفرقا فيهم بأسرهم ، ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يقال : إنه أفضل منهم بكليتهم . والله أعلم.

وقال في تفسير المنار: وقد شهد الله تعالى بأنه جاء بالحق وصدق المرسلين ، وأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فعلم بهذا أنه كان مهتديا بهداهم كلهم ، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم ، لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم ، إلى ما هو خاص به دونهم ; ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم فقال : (**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) سورة القلم (4). **وأما فضائله وخصائصه الوهبية فأمر تفضيله عليهم فيها أظهر** ، وأعظمها عموم البعثة ، وختم النبوة والرسالة ، وإنما كمال الأشياء في خواتيمها ،صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

قال السعدي – رحمه الله - : (**أُولَئِكَ**) المذكورون (**الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**) أي: امش -أيها الرسول الكريم- خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امتثل صلى الله عليه وسلم، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ، استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل الرسل كلهم) اهـ

قلت : هذا كلام صحيح وحق في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه مجمل وتفاصيله موجودة في كتب السيرة النبوية والأحاديث الشريفة ، فلا يكاد نبي من الأنبياء السابقين تعرض لموقف ظهر فيه حسن خلقه إلا وتعرّض النبي صلى الله عليه وسلم لموقف مثله أو أشد منه فتجد منه التخلق بالخلق الكريم في الوقت المناسب.

ولربما يسأل سائل فأين الميزة هنا وما وجه الموازنة فالجواب أن تلك الأخلاق كانت مفرقة في الأنبياء عليهم السلام فاجتمعت فيه صلى الله عليه وسلم. ورحم الله البوصيري حيث أشار إلى هذا المعنى بقوله:

فاق النّبيّين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدانُوه في عِلمٍ ولا كَرَمِ

وموضع الشاهد في الشطر الأول (**وفي خُلُقٍ**) أي كان عنده من مكارم الأخلاق ما فاق بها جميع الأنبياء عليهم السلام فلم يدانوه فيها. أي لم يكونوا مقاربين له في خلقه على ما هم عليه من جميل الخلال ومكارم الأخلاق ، فالفرق بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم بيّن وواضح.

ثم قال بعد ذلك بثلاثة أبيات:

منزَّهٌ عن شَريكٍ في محاسنِهِ فجوهرُ الحُسنِ فيه غيرُ منقسِمِ

قال الأستاذ محمد يحي الحلو في شرحه للبيت :(المعنى : لِرسول صلى الله عليه وسلم من المحاسن والصفات المعنوية والظاهرة ما جعل كل إنسان بعيدا عن أن يشاركه فيها، فمعدن الحسن فيه كامل لا يقبل الجزئية)[82]اهـ .

* * * * * * * * *

الثانية : قوله تعالى (وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) سورة القلم (4).

قال القرطبي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : وإنك لعلى خلق عظيم فيه مسألتان:

82 / البردة شرحاً وإعراباً - للأستاذ محمد يحي الحلو - (66/1)

الأولى : قوله تعالى : وإنك لعلى خلق عظيم قال ابن عباس ومجاهد : " على خلق " : على دين عظيم من الأديان ، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه . وفي صحيح مسلم عن عائشة أن خلقه كان القرآن . وذكر أقولاً أخر ثم قال:

وحقيقة الخلق في اللغة : هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خُلُقا لأنه يصير كالخلقة فيه . وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذو الفضول ضن على المو لى وعادت لخيمها الأخلاق

أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

قال القرطبي رحمه الله تعالى : ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال . وسئلت أيضا عن خلقه عليه السلام ، فقرأت قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات ، وقالت : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك ، ولذلك قال الله تعالى : **(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)**. ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى . **وقيل :** سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، يدل عليه قوله عليه السلام : **(إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق ، وكمال محاسن الأفعال)**[83] .

وقيل : لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . انتهى باختصار.**وعن سفيان بن عيينة رحمه الله** تعالى أنه كان يقول : **(إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر ، فعليه تعرض الأشياء،على خلقه وسيرته وهديه ، فما و افقها فهو الحق ،وما خالفها فهو الباطل)**[84].

* * * * * * * * * *

83 / مشكاة المصابيح – للعلامة محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب التبريزي - حديث رقم (5770) .

84 / الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع- للعلامة أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي -(9/1) .

فائدتان :

الأولى : قال في التفسير الوسيط: والتعبير بلفظ " **على** " يشعر بتمكنه صلى الله عليه وسلم ورسوخه فى كل خلق كريم . وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون ، لأن الجنون سفه لا يحسن معه التصرف .

أما الخلق العظيم ، فهو أرقى منازل الكمال ، فى عظماء الرجال. وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من ثناء من الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم.

الثانية : قال الإمام ابن كثير عند تفسيره ، لهذه الآية ما ملخصه : قال قتادة : ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة عن معنى هذه الآية فقالت : ألست تقرأ القرآن؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن. . ومعنى هذا ، أنه صلى الله عليه وسلم صار امتثال القرآن أمرا ونهيا ، سجية له وخلقا وطبعا ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا ما جبله الله عليه من الخلق الكريم ، كالحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة.

وكيف لا يكون صلى الله عليه وسلم جماع كل خلق عظيم وهو القائل : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [85].

الثالثة : قوله تعالى : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) سورة التوبة (128) .

قال الرازي : فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ في هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم. وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير

---

85 / رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (273) وأحمد والحاكم وغيرهم وقال الألباني في "السلسلة الصحيحة" 1 / 75 : و هذا إسناد حسن و قال الحاكم : " صحيح على شرط مسلم " و و افقه الذهبي.

الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان. فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير، ثم قال للرسول عليه السلام: فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتفت إليهم وعول على الله وارجع في جميع أمورك إلى الله (**فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ**) [التوبة: 129] وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن ونهاية الكمال.

المسألة الثانية : اعلم أنه تعالى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بخمسة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } وفي تفسيره وجوه - أقربها إلى الصواب وجهان - :

الأول: يريد أنه بشر مثلكم كقوله: { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ } [يونس: 2] وقوله: {إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} [فصلت: 6] والمقصود أنه لو كان من جنس الملائكة لصعب الأمر بسببه على الناس، على ما مر تقريره في سورة الأنعام .

والثاني: { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } أي من العرب قال ابن عباس: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي عليه السلام بسبب الجدات، مضرها وربيعها ويمانيها، فالمضريون والربيعيون هم العدنانية، واليمانيون هم القحطانية ونظيره قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ } [آل عمران: 164] والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم .

الصفة الثانية: قوله تعالى: { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } اعلم أن العزيز هو الغالب الشديد، والعزة هي الغلبة والشدة. فإذا وصلت مشقة إلى الإنسان عرف أنه كان عاجزاً عن دفعها إذ لو قدر على دفعها لما قصر في ذلك الدفع، فحيث لم يدفعها، علم أنه كان عاجزاً عن دفعها، وأنها كانت غالبة على

الإنسان. فلهذا السبب إذا اشتد على الإنسان شيء قال: عز علي هذا، وأما العنت فيقال: عنت الرجل يعنت عنتاً إذا وقع في مشقة وشدة لا يمكنه الخروج منها،

ومنه قوله تعالى:{ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنْكُمْ }[النساء: 25] وقوله:{وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ }[البقرة: 220] وقال الفراء: { مَا } في قوله: { مَا عَنِتُّمْ } في موضع رفع، والمعنى: عزيز عليه عنتكم، أي يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه.

والصفة الثالثة: قوله: { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } والحرص يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة.

واعلم أن على هذا التقدير يكون قوله: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} معناه: شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وبهذا التقدير لا يحصل التكرار. قال الفراء: الحريص الشحيح، ومعناه: أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار، وهذا بعيد، لأنه يوجب الخلو عن الفائدة.

*** **** ***

والصفتان الرابعة والخامسة : قوله: {بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه. - وقد سبق بيان هذا في الفصل السابق -

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} :أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: (**بعثت بالحنيفية السمحة**) .

وفي الصحيح: (**إن هذا الدين يسر، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه**) .

{ **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** } أي: على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم،ثم ذكر رحمه الله آثاراً تدل على حرصه صلى الله عليه وسلم على الأمة :

1/ عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) رواه الطبراني .

2/ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا و إني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب) رواه أحمد .

3/ عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: (إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك، إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رِياضاً مُعْشِبة وحِياضاً رِواءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لَنَتَّبِعَنَّهُ، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه) رواه أحمد .

4/ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء، قال عكرمة: أراه قال: في دم، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، ثم قال: (أحسنت إليك) قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أن كفوا، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال: (إنك إنما جئتنا تسألنا، فأعطيناك، فقلت ما قلت) فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، وقال: " أحسنت إليك؟ " فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم) فقال: نعم، فلما جاء الأعرابي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن صاحبكم كان جاء فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه، فزعم أنه قد رضي، كذلك يا أعرابي؟ " فقال الأعرابي:(نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة، فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها، وأنا أعلم بها، فتوجه إليها، وأخذ لها من قتام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رحلها، وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال، لدخل النار)[86].

وكمال حسن الخلق في الأدب ولم يكن أحد أكمل منه أدبا صلوات الله عليه فقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم :(أدبني ربي فأحسن تأديبي)[87] .

*** **** ***

فائدة : ذكر مؤلفو موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من أخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم 200 صفة وهي :

1-الابتهال -2الاتباع -3الاجتماع -4الاحتساب -5الإحسان -6الإخاء -7الإخيات -8الإخلاص -9-الأدب -10الإرشاد -11الاستئذان -12الاستخارة -13الاستعاذة -14الاستعانة -15الاستغاثة -16الإستغفار-17الإستقامة -18الإسلام -19الأسوة الحسنة -20الإصلاح -21الاعتبار-22الاعتذار-23الإعتراف بالفضل -24الاعتصام -25الإغاثة -26إفشاء السلام -27إقامة الشهادة -28أكل الطيبات -29الألفة -30الأمانة -31الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -32الإنابة -33الإنذار -34الإنصاف -35الإنفاق -36الإيثار-37الإيمان -38البر-39بر الوالدين -40البشارة -41البشاشة -

86 / مسند البزار2/465 , وفي سنده ضعف , وذكره ابن الجوزي في كتابه الوفا بتعريف فضائل المصطفى 305.

87 / رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص 1 ، ونسبه السخاوي في المقاصد ص 29 للعسكري في الامثال وضعفه وضعفه ايضاً الألباني انظر سلسله الاحاديث الضعيفه 101/1 -102 وقال شيخ الاسلام ابن تيميه : إن معناه صحيح ، ولكن لا يعرف به إسناد ثابت (انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيميه 375/18).

42البصيرة والفراسة -43البكاء -44التأمل -45التأني -46التبتل -47التبليغ -48التبين (التثبت) -
49التدبر -50التذكر -51تذكر الموت (قصر الأمل) -52التذكير -53التسبيح -54التعارف -
55التعاون على البر والتقوى -56تعظيم الحرمات -57التفاؤل -58تفريج الكربات -59التفكر -
60التقوى -61التكبير -62تكريم الإنسان -63تلاوة القرآن -64التناصر -65التهليل -66التواضع -
67التوبة -68التوحيد -69التودد -70التوسط -71التوسل -72التوكل -73التيسير -74التيمن -
75الثبات -76الثناء -77جهاد الأعداء -78الجود -79الحجاب -80الحج والعمرة -81الحذر -
82حسن الخلق -83حسن السمت -84حسن الظن -85حسن العشرة -86حسن المعاملة -
87حفظ الأيمان -88حفظ الفرج -89حق الجار -90الحكمة -91الحكم بما أنزل الله -92الحلم -
93الحمد -94الحنان -95الحوقلة -96الحياء -97الحيطة -98الخشوع -99الخشية -100خفض
الصوت -101الخوف -102الدعاء -103الدعوة إلى الله -104الذكر -105الرأفة -106الرجاء -
107الرجولة -108الرحمة -109الرضا -110الرغبة والترغيب -111الرفق -112الرهبة والترهيب -
113الزكاة -114الزهد -115الستر -116السخاء -117السرور -118السكينة -119السلم -
120السماحة -121السماع -122الشجاعة -123الشرف -124الشفاعة -125الشفقة -
126الشكر -127الشهامة -128الشورى -129الصبر والمصابرة -130الصدق -131الصدقة -
132الصفح -133الصلاة -134الصلاح -135صلة الرحم -136الصمت وحفظ اللسان -
137الصوم -138الضراعة والتضرع -139الطاعة -140طلاقة الوجه -141الطمأنينة -
142الطموح -143الطهارة -144العبادة -145العدل والمساواة -146العزة -147العزم والعزيمة -
148العطف -149العفة -150العفو -151العلم -152علو الهمة -153العمل -154عيادة المريض -
155غض البصر -156الغيرة -157الفرار إلى الله -158الفرح -159الفضل -160الفطنة -161الفقة
-162القسط -163القصاص -164القناعة -165القنوت -166القوة والشدة -167قوة الإرادة -
168كتمان السر -169الكرم -170كظم الغيظ -171كفالة اليتيم -172الكلم الطيب -173اللين -
174مجاهدة النفس -175محاسبة النفس -176المحبة -177المداراة -178المراقبة -179المروءة -
180المسارعة في الخيرات -181المسؤلية -182المعاتبة -183معرفة الله - عز وجل -184المواساة -
185النبل -186النزاهة -187النشاط -188النصيحة والنواصي -189النظام -190النظر والتبصر

-191الهجرة -192الهدى -193الورع -194الوعظ -195الوفاء -196الوقار -197الوقاية -198الولاء والبراء -199اليقظة -200اليقين.

قلت : وأراهم –حسب رأيي الضعيف أنهم قد قصروا تقصيرا بالغاً في استقصاء أخلاقه العظيمة صلى الله عليه وسلم لأن هناك من العلماء من أوصل أسماءه الشريفة إلى ما يزيدعلى الأربعمائة اسم – منهم السيوطي – وكل اسم يشتمل على خلق من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أو منقبة من مناقبه . والله أعلم .

*** **** ***

الفصل السادس

الموازنة بين أتباعه ﷺ وبين أتباع الأنبياء عليهم السلام في الدنيا والآخرة

مدخل .

المبحث الأول : ذكر نموذجين من تعامل أصحاب الأنبياء عليهم السلام .

المبحث الثاني : صور من تعامل الصحابة الكرام مع النبي ﷺ .

مدخل

مما هو معلوم أن الأنبياء عليهم السلام لم يألوا جهداً في أداء الرسالة ودعوة الخلق إلى الحق . وقد تفاوتوا في استجابة الناس لدعوتهم والإيمان بهم يوضح ذلك الحديث الذي أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وأما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) .

وأخرج رواه البخاري أيضاً من حديث عمران بن حصين وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل النبيَّ والنبيَّان يمرون معهم الرهط والنبيَّ ليس معه أحد حتى رُفِعَ لي سواد عظيم قلت: ما هذا؟! أمتي هذه؟ قيل هذا موسى وقومه، قيل انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم قد ملأ الأفق، ثُمَّ قيل انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل هذه أمتك ويدخل الجنَّة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب) الخ الحديث.

ولقد كان الفرق كبيراً جداً بين أصحاب الأنبياء وبين الصحابة الكرام الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك من خلال مطلبين :

*** **** ***

المبحث الأول

ذكر نموذجين من تعامل أصحاب الأنبياء عليهم السلام

لكي يبين هذا الفرق ويظهر نأخذ نموذجين من أصحاب الأنبياء السابقين وهما أصحاب موسى عليه السلام وأصحاب عيسى عليه السلام ، ولننظر كيف كان يتعامل كل فريق مع النبي الذي صحبوه ،لأنهما أعظم أمتين مع أعظم رسولين حاشا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

أولاً : صور من تعامل أصحاب موسى معه عليه السلام :

مما هو معلوم أن أصحاب موسى عليه السلام قد أساءوا الأدب معه في موافق كثيرة ووجد من العنت والعناد منهم ما لا يخط ر على بال ، فلا يكاد يأمرهم بأمر أو ينهيهم عن شئ إلا وبادروا بالمخالفة أو المناقشة كما هو واضح من قصة أمرهم بذبح البقرة وأمرهم بدخوا الأرض المقدسة وغيرها ، ومعلوم أيضاً صنيعهم بعد عبورهم البحر حيث طلبوا عبادة الأصنام ، ولا مجال لسرد تلك الوافق كلها بل أكتفي بذكر موقفين :

الأول : سار موسى عليه السلام بقومه في اتجاه البيت المقدس. أمر موسى عليه السلام قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها.

وها قد جاء امتحانهم الأخير. بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق. جاء دورهم ليحاربوا -بوصفهم مؤمنين- قوما من عبدة الأصنام.

رفض قوم موسى عليه السلام دخول الأراضي المقدسة. وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم. كيف جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكا يرثون ملك فرعون، وآتاهم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ.

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال. قالوا: إن فيها قوما جبارين، ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء.

و انضم لموسى وهارون عليهما السلام اثنان من القوم ، تقول كتب القدماء إنهم خرجوا في ستمائة ألف. لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال. وراح هذان الرجلان يحاولان إقناع

القوم بدخول الأرض والقتال. قالا: إن مجرد دخولهم من الباب سيجعل لهم النصر. ولكن بني إسرائيل جميعا كانوا يتدثرون بالجبن ويرتعشون في أعماقهم.وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة: **(فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)** المائدة (24) هكذا بصراحة وبلا التواء.

أدرك موسى عليه السلام أن قومه ما عادوا يصلحون لشيء. مات الفرعون ولكن آثاره في النفوس باقية يحتاج شفاؤها لفترة طويلة. عاد موسى إلى ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. دعا موسى على قومه أن يفرق الله بينه وبينهم.

وأصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذي فسدت فطرته من بني إسرائيل. كان الحكم هو التيه أربعين عاما. حتى يموت هذا الجيل أو يصل إلى الشيخوخة. ويولد بدلا منه جيل آخر، جيل لم يهزمه أحد من الداخل، ويستطيع ساعتها أن يقاتل وأن ينتصر.

قال تعالى في سورة المائدة:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَ آتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (23) قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).

*** **** ***

الموقف الثاني : مكث موسى عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله. ويبدو أن نفوسهم كانت ملتوية بشكل لا تخطئه عين الملاحظة، وتبدو لجاجتهم وعنادهم فيما يعرف بقصة البقرة.

فإن الموضوع لم يكن يقتضي كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى عليه السلام ،كما أنه لم يكن يستوجب كل هذا التعنت.

وأصل قصة البقرة أن قتيلا ثريا وجد يوما في بني إسرائيل، واختصم أهله ولم يعرفوا قاتله، وحين أعياهم الأمر لجئوا لموسى ليلجأ لربه. ولجأ موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة. وكان المفروض هنا أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم.

غير أنهم بدءوا مفاوضتهم باللجاجة فاتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوا، واستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم. أفهمهم أن حل القضية يكمن في ذبح بقرة.

إن الأمر هنا أمر معجزة، لا علاقة لها بالمألوف في الحياة، أو المعتاد بين الناس. ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل في الجريمة الغامضة التي وقعت، لكن متى كانت الأسباب المنطقية هي التي تحكم حياة بني إسرائيل؟ إن المعجزات الخارقة هي القانون السائد في حياتهم، وليس استمرارها في حادث البقرة أمرا يوحي بالعجب أو يثير الدهشة.

لكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل. مجرد التعامل معهم عنت. تستوي في ذلك الأمور الدنيوية المعتادة، وشؤون العقيدة المهمة. لا بد أن يعاني من يتصدى لأمر من أمور بني إسرائيل.

وهكذا يعاني موسى عليه السلام من إيذائهم له واتهامه بالسخرية منهم، ثم ينبئهم أنه جاد فيما يحدثهم به، ويعاود أمره أن يذبحوا بقرة، وتعود الطبيعة المراوغة لبني إسرائيل إلى الظهور، تعود اللجاجة والالتواء، فيتساءلون: أهي بقرة عادية كما عهدنا من هذا الجنس من الحيوان؟ أم أنها خلق تفرد بمزية، فليدع موسى ربه ليبين ما هي.

ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم، وتحدد البقرة أكثر من ذي قبل، بأنها بقرة وسط. ليست بقرة مسنة، وليست بقرة فتية. بقرة متوسطة.

إلى هنا كان ينبغي أن ينتهي الأمر، غير أن المفاوضات لم تزل مستمرة، ومراوغة بني إسرائيل لم تزل هي التي تحكم مائدة المفاوضات. ما هو لون البقرة؟ لماذا يدعو موسى ربه ليسأله عن لون هذا البقرة؟ لا يراعون مقتضيات الأدب والوقار اللازمين في حق الله تعالى وحق نبيه الكريم، وكيف أنهم

ينبغي أن يخجلوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذه اللجاجة والمراوغة. ويسأل موسى ربه ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة. فيقول أنها بقرة صفراء، **فاقع لونها تسر الناظرين.**

*** **** ***

وهكذا حددت البقرة بأنها صفراء، ورغم وضوح الأمر، فقد عادوا إلى اللجاجة والمراوغة. فشدد الله عليهم كما شددوا على نبيه وآذوه. عادوا يسألون موسى أن يدعو الله ليبين ما هي، فإن البقر تشابه عليهم، وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرث ولا لسقي، سلمت من العيوب، صفراء لا شية فيها، بمعنى خالصة الصفرة. انتهت بهم اللجاجة إلى التشديد. وبدءوا بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة. أخيرا وجدوها عند يتيم فاشتروها وذبحوها.

وأمسك موسى عليه السلام جزء من البقرة - وقيل لسانها - وضرب به القتيل فنهض من موته. سأله موسى عن قاتله فحدثهم عنه - وقيل أشار إلى القاتل فقط من غير أن يتحدث - ثم عاد إلى الموت. وشاهد بنو إسرائيل معجزة إحياء الموتى أمام أعينهم، استمعوا بآذانهم إلى اسم القاتل. انكشف غموض القضية التي حيرتهم زمنا طال بسبب لجاجتهم وتعنتهم.

قال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ (68) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** سورة البقرة.

*** **** ***

نود أن نستلفت انتباه القارئ إلى سوء أدب القوم مع نبيهم وربهم، ولعل السياق القرآني يورد ذلك عن طريق تكرارهم لكلمة "ربك" التي يخاطبون بها موسى.

وكان الأولى بهم أن يقولوا لموسى، تأدبا، لو كان لا بد أن يقولوا: (**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**) ادع لنا ربنا. أما أن يقولوا له: فكأنهم يقصرون ربوبية الله تعالى على موسى. ويخرجون أنفسهم من شرف العبودية لله. انظر إلى الآيات كيف توحي بهذا كله. ثم تأمل سخرية السياق منهم لمجرد إيراده لقولهم: (**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**) .

بعد أن أرهقوا نبيهم ذهابا وجيئة بينهم وبين الله عز وجل، بعد أن أرهقوا نبيهم بسؤاله عن صفة البقرة ولونها وسنها وعلاماتها المميزة، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر العثور عليه في البقر عادة.

ساعتها قالوا له: (**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**) . كأنه كان يلعب قبلها معهم، ولم يكن ما جاء هو الحق من أول كلمة لآخر كلمة. ثم انظر إلى ظلال السياق وما تشي به من ظلمهم: (**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**)

لقد قاسى موسى عليه السلام من قومه أشد المقاساة، وعانى عناء عظيما، واحتمل في تبليغهم رسالته ما احتمل في سبيل الله. كما رأيت في هذين الموقفين .

*** **** ***

ثانياً : صور من تعامل أصحاب عيسى معه عليه السلام:

جاء في مقال بعنوان قصة حواريي عيسى عليه السلام (موقع الشبكة الإسلامية) :

في ختام سورة الصف مدح سبحانه الحواريين، ودعا المؤمنين إلى التشبه والاقتداء بهم، فقال سبحانه: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**) (الصف:14).

فالآية هنا تأكيد لما جاء في آية آل عمران من دعوة عيسى المؤمنين من بني إسرائيل إلى نصرته، والالتزام بما جاء به، بقوله على سبيل الامتحان؛ لقوة إيمانهم: مَنْ الجند المخلصون، الذين اعتمدَ عليهم بعد الله سبحانه في نصرة دينه، وفي التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته؟ فأجابوه بقولهم: نحن أنصار دين الله تعالى، ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا في سبيل تبليغ دعوته عز وجل، ومن أجل إعلاء كلمته سبحانه.

وكان جواب الحواريين لعيسى عليه السلام عندما دعاهم إلى اتباع الحق -كما تقدم-: نحن أنصار دين الله، ونحن الذين سنثبت على العهد، أما بقية بني إسرائيل، فقد افترقوا إلى فرقتين: فرقة آمنت بما جاء به عيسى عليه السلام من عند الله تعالى، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته، وقد أيد سبحانه الفئة المؤمنة من بني إسرائيل، ونصرها على الفئة الكافرة منهم.

*** **** ***

وقد تحدث القرآن الكريم في سورة الحديد عن ثلاث طوائف من أتباع عيسى عليه السلام؛ طائفة ابتدعت في دين الله ما ليس منه، وطائفة أخرى استمرت على الإيمان الحق، الخالي من البدع والأهواء، وطائفة ثالثة انحرفت عن الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام انحرافاً شديداً، وقد أخبر سبحانه عن هذه الطوائف الثلاث بقوله تعالى :

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد:27).

فالطائفة الأولى : جعل سبحانه في قلوبها {رأفة ورحمة} غير أنها ابتدعت عبادة اختارتها لنفسها **{ورهبانية ابتدعوها}**؛ زهداً في متاع الدنيا، وتقرباً إلى الله تعالى، والله سبحانه لم يأمرها بها، بيد أنها مع مرور الأيام لم تحافظ على ما اختارته من عبادة، وما ابتدعته من بدعة، بل صار أمرها إلى طقوس خالية من العبادة الصحيحة، لم يصبر على تكاليفها ومشاقها إلا القليل منهم.

والطائفة الثانية : استمرت على اتباعها لعيسى عليه السلام وعلى الإيمان به إيماناً صحيحاً خالياً مما يفسده، ويعكر صفوه، فأعطاها سبحانه أجورها طيبة كاملة، {فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم}.

وأما الطائفة الثالثة : فقد بدلت نعمة الله كفراً، وقالت: {إن الله ثالث ثلاثة} (المائدة:73)، وقالت: {**إن الله هو المسيح ابن مريم**} (المائدة:17)، وقالت: {المسيح ابن الله} (التوبة:30)، فسوف تلقى من العقاب والعذاب ما تستحقه.

وقد قال سبحانه في ختام الآية: { **وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** } ليدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، وفسقوا عن أمر ربهم أكثر من الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه.

*** **** ***

وفي سورة الزخرف ورد قوله تعالى بخصوص دعوة عيسى عليه السلام قومه: { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ *فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } (الزخرف:63-65). فقد أرسل سبحانه عيسى عليه السلام إلى قومه، فخاطبهم ناصحاً ومرشداً: يا قوم! لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحات، التي تشهد بصدق ما جئتكم به من الإنجيل، المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ. ثم طلب منهم أن يسمعوا لما جاءهم به، ويطيعوا ما أمرهم به؛ لأن في ذلك نجاة لهم. بيد أن قوم عيسى عليه السلام اختلفوا في أمره اختلافاً شديداً.

والأحزاب الذين اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام هم اليهود والنصارى؛ لأنهم أمة دعوته، وقيل: المراد النصارى، وهم أمة إجابته، وقد اختلفوا في أمره شيعاً وأحزاباً، فمنهم الملكانية، ومنهم النسطورية، ومنهم اليعقوبية. وقالوا في أمره أقوالاً باطلة. وقد توعد سبحانه الذين اختلفوا في أمره بالعذاب الأليم؛ بسبب اختلافهم وبغيهم، ونسبتهم إلى عيسى عليه السلام ما هو بريء منه .

*** **** ***

المبحث الثاني

صور من تعامل الصحابة الكرام مع نبينا عليه الصلاة والسلام

أما تعامل الصحب الكرام مع نبينا صلى الله عليه وسلم فهو مختلف تماماً عما سبق ذكره عن أصحاب الأنبياء السابقين ، من أدب جم وتعظيم ليس له نظير وحب صادق ومبادرة لطاعته والحذر كل الحذر عن معصيته بل والذود عنه والحرص على حمايته والدفاع عنه صلى الله عليه وسلم في أشد الموافق وأحلك الظروف وأخطر الحروب فرضي الله عنهم ورفع درجتهم وأعلى منزلتهم في الدنيا والآخرة.

ولذا من الضروري أن أسوق في هذا المقام ما جاء في فضائلهم في الكتاب والسنة فأقول ومن الله أرجو العون والقبول:

إن من فضل الله تعالى أنه يجزى المحسنين على إحسانهم في الدنيا والآخرة ، وأعلى هؤلاء **المحسنين درجة وأعلاهم رتبة – بعد الأنبياء والمرسلين – أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم الذي أراد الله تخليد ذكراهم إلى يوم الدين وبيان فضلهم وعظيم درجتهم ، وذلك في آيات كثيرة ومواضع عديدة من كتاب الله ،كما وردت الأحاديث الكثيرة أيضاً في بيان مناقبهم ، وإليك نزر منهما :**

1/ ماورد في القرآن الكريم في بيان فضائل الصحابة رضي الله عنهم :

- **قوله تعالى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)** (الأحزاب:23).

- **وقوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** (الحشر9:8) .

يقول صاحب الظلال- فى حق المهاجرين - " **(أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)**(الحجرات: من الآية15)الذين قالوا كلمة الإيمان بأنفسهم وصدقوها بعملهم وكانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس ، حيث

وصفهم الله تعالى بأنهم خرجوا مرغمين من ديارهم وتركوا أموالهم وتحملوا الأذى والاضطهاد والتفكر في عشيرتهم وقرابتهم ،ذلك ابتغاء فضل الله ونيل رضوانه ونصرة لدين الله تعالى ورسوله ثم كانوا صادقين فى كل ذلك ، ثم وصف الله الأنصار بأنهم مهدوا ديارهم لدين الله تعالى وآمنوا به – جلهم – قبل أن يروه وتغلغل الإيمان في قلوبهم واستقر استقرار المرء في ركنه وداره ، **ثم هم أحبوا المهاجرين حباغادرا لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية و آثروهم فى كل شئ حتى قيل إن إيواء كل أنصاري للمهاجرين لم يتم إلا بالاقتراع وذلك لرغبة اكثر الأنصار في إيواء المهاجرين الذين كانوا أقل عدداً من الأنصار".**

*** **** ***

وفى سورة الفتح شرف الله الصحابة أيما تشريف و أنزلهم أعلى المنازل حتى إنه أورد ذكرهم بصفاتهم فى التوراة والإنجيل فقال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (الفتح:29) فيكفيهم شرفاً أنهم اجتمعوا مع اشرف الخلق وأحبهم إلى الله فى صفات مشتركة من التراحم فيما بينهم والغلظة على الكفار أثناء القتال تمشياً مع طبيعة الحروب حتى لكأن الرائي لهم يخيل إليه انهم راكعون ساجدون ليلاً ونهاراً من دوام طاعتهم لربهم فى كل شىء ابتغاء وجه الله وحده وأن هذا الدوام لتظهر آثاره على حياتهم كلها إشراقا فى الوجه وصفاءً فى القلب وشفافية فى الحب لله ولرسوله وللمؤمنين .

فكان هؤلاء أهلاً لهذا الوعد الأشهى والفيض الرباني من الرحمة والمغفرة والأجر العظيم وتخليد الذكرى لهم فى العالمين وفى عالمي الغيب والشهادة .

- وقوله عز وجل (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة:100) الى غير ذلك فى آيات القران مما لا يتسع المقام لعرضها .

2/ ماورد في السنة المطهرة في بيان فضائل الصحابة رضي الله عنهم :

مما هو معلوم سنة النبي صلى الله عليه وسلم المطهرة فأنها مفعمة بالأخبار التى أحاط بها النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وشرفهم وأعزهم قولاً وعملاً عموماً وخصوصاً بمناسبة وغيرها مما هو مسطر ومتواتر حقيقة وحكماً فى كتب السنة والسيرة النبوية مما يعجز القلم عن رصده ، وإنما تكفينا التذكرة ببعض ما اشتهر على ألسنة العلماء فيما ورد فى كتب السنة بهذا الخصوص: - منها قوله صلى الله عليه وسلم : (**الله الله فى أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن أذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك الله أن يأخذه)** .رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

ورواه أحمد في فضائل الصحابة بلفظ: (**اتقوا الله في أصحابي**) ورواه ابن حبان في صحيحه، وأورده السيوطي في الجامع الصغير، ورمز لحسنه .

*** **** ***

ولأهمية هذا الحديث سأشير إلى بعض ما قاله أهل العلم في شرحه:

من أحب الصحابة فإنما أحبهم لحبه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن أبغضهم فإنما أبغضهم لبغضه للنبي -صلى الله عليه وسلم- لازمٌ هذا، كيف تحب شخصا وتبغض صاحبه؟! ما يمكن هذا، تحب شخصا، وتبغض خليله وصديقه ووليه! لا يمكن هذا.!!

فمحبة الولي يلزم أن تحب وليه، وإن أبغضت شخصا فلا بد أن تبغض صاحبه، أتبغض أعدائي وتزعم حبي؟ لا يمكن؛ ولهذا فإن من سب الصحابة فإنه يدل على غل وحقد في قلبه على الإسلام، ومن كفّر الصحابة أو فسّقهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله؛ لأن الله زكاهم وعدلهم.

ويضاف إلى هذا أيضا، أن من كفّر الصحابة وفسّقهم فقد طعن في دين الإسلام. من الذي نقل إلينا الشريعة -القرآن والسنة-؟ الصحابة فإذا كانوا كفارا فكيف يوثق بدين نقله الكفار؟! فالطعن في الصحابة طعن في القرآن وفي السنة.

*** **** ***

فالذي يقول: إن الصحابة كفروا أو فسقوا، هذا قد طعن في القرآن وفي السنة؛ لأن الذي نقل إلينا الشريعة، ونقل إلينا القرآن، وبلغنا القرآن، وبلغنا السنة من هم؟ الصحابة فإذا كانوا كفارا، فكيف يوثق بدين نقله كفار؟ وحمله كفار؟!

فدل على أن تكفير الصحابة وتفسيقهم كفر وردة من جهتين : من جهة أنه مكذب لله؛ لأن الله زكاهم وعدلهم، ومن جهة أنه طعن في القرآن والسنة؛ لأن الذي نقله وحمله هم الصحابة ولا يوثَق بدين حمله كفار أو فساق.

- ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (**دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل جبل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم**) رواه أحمد في كتاب المناقب .

كما أورد الشيخان عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لا تسبوا أصحابى**)،كذلك أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نمسك عن الخوض فى حق أى صحابى بسوء احتراماً لمقامهم الذى رفعه الله فى كتابه ، ومن ذلك ما رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود رضي الله عنه :(**إذا ذكر أصحابي فأمسكوا**) [88].

كما اخرج البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : (**خير أمتي قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) .

واخرج بن ابى شيبه بسند حسن عن وائلة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**لاتزالون بخير ما دام فيكم من رآنى وصاحبني والله لا تزالون بخير مادام فيكم من رأى من رآني وصاحبنى**) صحيح البخارى .

* * * * * * * * * *

88 / هذا جزء من حديث وتمامه : (إذا ذُكِرَ أصحابي فأمْسكوا ، وإذا ذُكِرتِ النجومُ فأمسكوا ، وإذا ذُكِرَ القدرُ فأمسكوا) ، حسنه السيوطي الجامع الصغير حديث - رقم: 613 وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير – رقم (545) .

وأما ما ورد خصوصاً لأفراد الصحابة فكثير مشتهر: من ذلك :

- **ما ورد في حق أبي بكر رضي الله عنه :** فعن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعا : (**ما كلمت فى الإسلام أحداً إلا أبى عليَّ وراجعني الكلام إلا ابن أبى قحافة (أبو بكر فإنى لم أكلمه فى شيء إلا قبله واستقام عليه**) [89] .

ويكفيه قوله تعالى (**إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) (التوبة:40).

- **وما ورد في حق عمر رضي الله عنه :** فعن أبى هريرة قال بينا نحن عند رسول الله إذ قال : (**بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟**) رواه البخاري.

- **ما ورد في حق أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم** : فعن أنس ابن مالك : أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد أُحداً ومعه أبو بكر وعثمان وعمر فرجف الجبل ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: (**اسكن أحد أظنه ضربه برجله فليس عليك إلا نبي و صديق وشهيدان**) رواه البخارى .

- **وما ورد في حق علي رضي الله عنه :** ففي البخاري أيضاً قول عمر بن الخطاب : (توفى رسول الله وهو عنه - أي عن علي رضي الله عنه - راضٍ وقوله : علي مني وأنا منه) رواه البخارى.

* * * * * * * * * *

وإليك الآن نماذج من حسن أدبهم معه صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم:

ففي قصة صلح الحديبية أن عروة بن مسعود (جعل يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينيه، قال (**فو الله! ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم**

---

89 رواه أبو نعيم و ابن عساكر عن ابن عباس والبخارى نحوه.

خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له)، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: **(أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك؛ وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! إن رأيت ملِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا)** الحديث.[90]

وفي نفس القصة أن عروة بن مسعود دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يحدثه، ويشير بيده إليه، حتى تمسَّ لحيته، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده السيف، فقال له: **(اقبض يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا ترجع إليك!)** فقبض يده عروةُ.

وُروي أن عمر رضي الله عنه عمد إلى ميزابٍ للعباس رضي الله عنه على ممر الناس، فقلعه، فقال له: **(أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي وضعه في مكانه)**، فأقسم عمر: **(لتصعدنَّ على ظهري، ولتضعنه موضعه)**.[91]

وعن أبي رزين رضي الله عنه قال: قيل للعباس رضي الله عنه (أنت أكبرُ أو النبي صلى الله عليه وسلم؟) قال: (هو أكبر، و أنا ولدتُ قبله) [92].

ولما قدم رسول الله المدينة، نزل على أبي أيوب، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم السفل، ونزل أبو أيوب العلو، فلما أمسى، وبات؛ جعل أبو أيوب يذكر أنه على ظهر بيتٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل منه، وهو بينه وبين الوحي، فجعل أبو أيوب لا ينام يحاذر أن يتناثر عليه الغبار، ويتحرك فيؤذيه، فلما أصبح غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يارسول الله! ما جعلت الليلة فيها غمضًا أنا ولا أم أيوب)، فقال: " ومم ذاك يا أبا أيوب؟ " قال: (ذكرت أني على ظهر بيتٍ أنت أسفل مني، فأتحرك، فيتنار عليك الغبار، ويؤذيك تحركي، و أنا بينك وبين الوحي)[93] .

---

90 / رواه البخاري (330/5- فتح)، و أبو داود (2765)، وأحمد (323/4-331)،و انظر: فتح الباري- (341/5).

91 / أخرجه أحمد (210/1)، و ابن سعد (20/4)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر لانقطاعه، رقم (1790) في تحقيق المسند

92 / عزاه الهيثمي في المجمع (270/9) وعزاه إلى الطبري، وقال (رجاله رجال الصحيح).

93 / رواه أحمد (415/5)، ومسلم (2053)، ورواه الطبراني في الكبير (3986)، والحاكم (460/3-461)، وصححه على شرط مسلم، وو افقه الذهبي.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: (لما نزل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: (بأبي وأمي إني أكره أن أكون فوقك، وتكون أسفل مني)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إن أرفق بنا أن نكون في السُّفل لما يغشانا من الناس)، فلقد رأيت جرَّة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة (القطيفة: كساء له خمل) لنا، وما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فرَقاً - الفَرَق: الخوف - من أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منا شئ يؤذيه) الخ الحديث.[94]

*** **** ***

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أجلَّ في عينيَّ منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقتُ، لأني لم أكن أملأ عينيَّ من).رواه مسلم .

ولما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في القضية أبى، وقال: (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم).[95]

في صحيحي البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات: 2) جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ رضي الله عنه فِي بَيْتِهِ وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ! وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه فَقَالَ: " يَا أَبَا عَمْرٍو مَا شَأْنُ ثَابِتٍ اشْتَكَى؟ " قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ! فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) .

*** **** ***

94 / رواه مسلم (2053)، ورواه الطبراني في الكبير- رقم (3855)، واللفظ له.

95 / سير أعلام النبلاء (3/290-291).

أما بالنسبة للموازنة في الآخرة ففي دخول الجنة : مما لا شك أن الأنبياء عليهم السلام و أتباعهم يدخلون الجنة وهذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ،ولقد اختص الله النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام بشيئين:

الأول : أنه هو وأمته أول من يدخلون الجنة : فهو صلى الله عليه وسلم أول من يقرع باب الجنة ورد ذلك في عدد من الأحاديث منها:

عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك) رواه مسلم .

وفي رواية (آتي باب الجنة فأستفتح فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك) رواه الطبراني . وذلك أن قيامه إليه صلى الله عليه وسلم خاصة إظهار المرتبة ومرتبته، ولا يقوم في خدمة أحد بعده ، بل خزنة الجنة دونه يقومون في خدمته، وهو كالملك عليهم، وقد أقامه الله في خدمة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى مشى إليه وفتح له الباب .

الثاني : ما دل عليه حديث السبعين ألفاً : عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)**. قال أبو هريرة رضي الله عنه : فقام عُكَّاشة بن محصن الأسدي يجُر نمرة عليه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم اجعله منهم)**. ثم قام رجل آخر من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(سبقك بها عُكاشة)** رواه مسلم كتاب الإيمان .

قال العز بن عبد السلام: (من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه يدخل إلى الجنة من أمته سبعون ألفاً بغير حساب ولم يثبت ذلك لغيره صلى الله عليه وسلم)96 .

*** **** ***

---

96 / بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم - للعز ابن عبد السلام - ص (52).

الفصل السابع

الموازنة بين استغفار الأنبياء عليهم السلام واستغفار النبي ﷺ

المبحث الأول : ما ورد من الاستغفار في حق الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : ما ورد من الاستغفار في حق النبي ﷺ.

القارئ لكتاب الله تعالى يجد أن هنالك نصوصاً كثيرة تثبت أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يسغفرون الله – كما سيأتي – لكن السؤال لِمَ يستغفرون الله تعالى وهم قد عصمهم الله تعالى من الذنوب ؟ وذلك مشكل على القول الذي حققه بعض العلماء من كونهم لا يذنبون ، وأما على قول من ذهب إلى جواز وقوع الصغائر منهم عليهم السلام فلا إشكال في استغفارهم ، وهذا ما سنبينه خلال مطلبين :

المبحث الأول

ما ورد من استغفار الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم

-استغفار سيدنا إبراهيم عليه السلام : (**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْلِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**) سورة إبراهيم (40-41) .

-**استغفار سيدنا موسى عليه السلام**: (**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** سورة الأعراف (151) .

-**استغفار سيدنا نوح عليه السلام :** (**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْلِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**سورة هود (47) .

-**استغفار سيدنا آدم وسيدتنا حواء عليهما السلام** : (**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْلَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** الأعراف (23) .

-**استغفار سيدنا يونس عليه السلام** : (**لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** الأنبياء (87) واستغفار سيدنا سليمان عليه السلام :(**رَبِّ اغْفِرْلِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)** سورة ص (35) .

* * * * * * * * * *

أما الجواب عن سبب استغفارهم :

فمن أحسن من أجاب عن ذلك القاضي عياض حيث يقول [97]:

(فإن قلت : فإذا نفيت عنهم - صلوات الله عليهم - الذنوب ، والمعاصي بما ذكرته من اختلاف المفسرين ، وتأويل المحققين فما معنى قوله - تعالى - : وعصى آدم ربه فغوى وما تكرر في القرآن والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم ، وتوبتهم ، واستغفارهم ، وبكائهم على ما سلف منهم ، وإشفاقهم . وهل يشفق ، ويتاب ، ويستغفر من لا شيء ؟ .

فاعلم وفقنا الله و إياك أن درجة الأنبياء في الرفعة ، والعلو ، والمعرفة بالله ، وسنته في عباده ، وعظم سلطانه وقوة بطشه ، مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله ، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ، ولا أمروا بها ، ثم ووخذوا عليها ، وعوتبوا بسببها وحذروا من المؤاخذة بها ، و أتوها على وجه التأويل أو السهو ، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة ، خائفون وجلون ، وهي ذنوب بالإضافة إلى علي منصبهم ، ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم ، لا أنها كذنوب غيرهم ، ومعاصيهم ، فإن الذنب مأخوذ من الشيء الدني الرذل ، ومنه ذنب كل شيء أي آخره .

وأذناب الناس رذالهم فكأن هذه أدنى أفعالهم ، وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطهيرهم ، وتنزيههم وعمارة بواطنهم ، وظواهرهم بالعمل الصالح والكلم الطيب ، والذكر الظاهر والخفي ، والخشية لله ، وإعظامه في السر والعلانية ، وغيرهم يتلوث من الكبائر ، والقبائح ، والفواحش ما تكون بالإضافة إليه هذه الهنات في حقه كالحسنات ، كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أي يرونها بالإضافة إلى علي أحوالهم كالسيئات .

وكذلك العصيان الترك والمخالفة ، فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت من سهو أو تأويل فهي مخالفة .

فاعلم أكرمك الله أنا لا نثبت لك المؤاخذة في هذا على حد مؤاخذة غيرهم ، بل نقول : إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا ، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم ، ويبتلون بذلك ، ليكون استشعارهم له سببا لمنماة رتبهم ، كما قال : **(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)** طه (122) .

---

97 / الشفا بتعريف حقوق المصطفى - الفصل الرابع عشر- ص: 506 - باختصار .

وقال بعض المتكلمين : زلات الأنبياء في الظاهر زلات ، وفي الحقيقة كرامات ، وزلف ، وأشار إلى نحو مما قدمناه .

وأيضا فلينبه غيرهم من البشر منهم ، أو ممن ليس في درجتهم بمؤاخذتهم بذلك ، فيستشعروا الحذر ، ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر على النعم ، ويعدوا الصبر على المحن بملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم ، فكيف بمن سواهم ، ولهذا قال صالح المري : ذكر داود بسطة للتوابين .

وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى : لم يكن ما نص الله - تعالى - عليه من قضية صاحب الحوت نقصا له ، ولكن استزادة من نبينا - صلى الله عليه وسلم ،وأيضا فيقال لهم : فإنكم ، ومن وافقكم تقولون بغفران الصغائرباجتناب الكبائر .

*** **** ***

ولا خلاف في عصمة الأنبياء من الكبائر ، فما جوزتم من وقوع الصغائرعليهم هي مغفورة على هذا ، فما معنى المؤاخذة بها إذا عندكم ، وخوف الأنبياء ، وتوبتهم منها ، وهي مغفورة لو كانت ؟ فما أجابوا به فهو جوابنا عن المؤاخذة بأعمال السهو والتأويل .

وقد قيل : إن كثرة استغفار النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوبته ، وغيره من الأنبياء على وجه ملازمة الخضوع والعبودية والاعتراف بالتقصير شكرا لله على نعمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم وقد أَمِنَ من المؤاخذة مما تقدم وتأخر : (أفلا أكون عبدا شكورا). متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم : (أما والله إني لأخشاكم لله و أتقاكم له) متفق عليه.

وقال الحارث بن أسد : خوف الملائكة والأنبياء خوف إعظام وتعبد لله لأنهم آمنون . وقيل : فعلوا ذلك ليقتدى بهم ، وتستن بهم أممهم ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرا) . متفق عليه. وأيضا فإن في التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفا أشار إليه بعض العلماء ، وهو استدعاء محبة الله ، قال الله - تعالى - : (**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**) [البقرة : 222] .

فإحداث الرسل والأنبياء الاستغفار والتوبة والإنابة والأوبة في كل حين استدعاء لمحبة الله ! ، والاستغفار فيه معنى التوبة ، وقد قال الله لنبيه بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر : **(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار)** [التوبة : 117] الآية . وقال - تعالى - : **(فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)** [النصر : 3]) اهـ .

*** **** ***

المبحث الثاني

ما ورد من الاستغفار في حق النبي صلى الله عليه وسلم

أولاً: ما ورد من الاستغفار في القرآن الكريم: ولنا معها هذه الوقفات:

الآية الأولى : قوله تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) [محمد:19] قال القرطبي :قوله تعالى {**واستغفر لذنبك**} يحتمل وجهين:

أحدهما : يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب.

الثاني : استغفر الله : ليعصمك من الذنوب.

وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان، أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار.

وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين.

وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين، فنزلت الآية. أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه.

وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة.

* * * * * * * * * *

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى :

وقوله سبحانه: { **وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ** } [محمد: 19] فهل يعني هذا أن للرسول ذنباً يجب الاستغفار منه؟ هذه من المسائل التي دار حولها جدل كثير، والمعنى هنا: إذا سَهتْ نفسك فأذنبتَ فاستغفر لا أنه أذنب بالفعل، يقول له ربه: إذا حصل منك ذنب فاستغفر له، وكذلك استغفر للمؤمنين والمؤمنات.

وفي آية أخرى قال تعالى: (لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) [الفتح: 2] فذكر الذنب في حق الرسول صلى الله عليه وسلم رغم أنه معصوم. والعلماء حينما بحثوا مثل هذه الآيات قالوا: هي من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ومعلوم أن المقربين درجة من درجات الطاعة والامتثال لله أعلى من درجة الأبرار، **لأن الأبرار** هم الذين يطعيون الله ويفعلون الخيرات وينفذون الأوامر.

أما المقربون فهم الذين يزيدون على ذلك تقرباً إلى الله، حتى في عُرْف الناس المقرَّب منك هو الصديق الملازم لك الذي لا يفارقك ويحبك ويخاف عليك.كذلك المقرب من الله، له قانون آخر في التعامل غير قانون الأبرار، ومقياس آخر للحسنات والسيئات يناسب درجة قُربه من ربه عز وجل.

ترى لو أنك مثلاً مرضت لا قدر الله وجاءك أحد معارفك وزارك في مرضك ولو مرة واحدة ماذا تفعل؟ تشكره وترى أنه أدى الواجب.

أما صديقك المقرب لو زارك مرة احدة مثله ماذا تفعل؟ تعاتبه وتلومه لأنك كنت تنتظر منه أكثر من زيارة، هذا هو معنى: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

*** **** ***

إذن : الحسنة من الإنسان العادي قد تُعدُّ سيئة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم مقرب وللمقرب حساب آخر، ولهذه القربى ثمن، وكان الله يقول لك: حافظ على هذه الدرجة من القرب مني، و إياك أن يحدث منك ولو شيء بسيط بالنسبة لغيرك.

أو أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال: (رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرها عليه) فقوله (عن أمتي) يعني: أنه غير داخل في هذا الحكم، فلا يجوز منه النسيان الذي يجوز من غيره والنسيان في حقه إذن يُعدُّ ذنباً.

*** **** ***

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى :

والأمر في قوله تعالى: (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) قيل على معنى الثبات أيضا، وجعل الاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم أو مغفور لا مصر ذاهل عن الاستغفار، وقيل: التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ولعل الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئة.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الاستغفار،والذنب بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام ترك ما هو الأولى بمنصبه الجليل ورُبَّ شيءٍ حسنةٌ من شخص سيئةٌ من آخر كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وقد ذكروا أن لنبينا صلى الله عليه وسلم في كل لحظة عروجا إلى مقام أعلى مما كان فيه فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنبا بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (**إنه ليغان على قلبي**) الحديث. وفيه أقوال أخر.

وقوله تعالى: **وللمؤمنين** على حذف مضاف بقرينة ما قبل أي ولذنوب المؤمنين. وأعيد الجار لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنبه عليه الصلاة والسلام فإنها معاص كبائر وصغائر وذنبه صلى الله عليه وسلم ترك الأولى بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يبعد أن يكون بالنسبة إليهم من أجل حسناتهم، قيل: وفي حذف المضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعار بفرط احتياجهم إليه فكأن ذواتهم عين الذنوب وكذا فيه إشعار بكثرتها، وجوز بعضهم كون الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أن في صحته كلاما، فالظاهر إبقاء اللفظ على حقيقته.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ) سورة الفتح (2) :

قال في التفسير الوسيط:

ذكر- سبحانه- مظاهر فضله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال: (**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**) الفتح (2) .

واللام في قوله لِيَغْفِرَ متعلقة بقوله: فَتَحْنا وهي للتعليل. والمراد بما تقدم من ذنبه صلّى الله عليه وسلّم ما كان قبل النبوة، وبما تأخر منه ما كان بعدها.

والمراد بالذنب هنا بالنسبة له صلّى الله عليه وسلّم ما كان خلاف الأولى، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

أو المراد بالغفران: الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه صلّى الله عليه وسلّم ذنب، لأن غفران الذنوب معناه: سترها وتغطيتها وإزالتها.

قال الشوكانى رحمه الله :

وقوله تعالى : **(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ)** اللام: متعلقة بفتحنا وهي لام العلة، قال المبرد: هي لام كي ومعناها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا- أى: ظاهرا واضحا مكشوفا- لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي.

وقال بعض العلماء:

وقوله: **(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ)** هو كناية عن عدم المؤاخذة . أو المراد بالذنب ما فرط منه صلّى الله عليه وسلّم من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه صلّى الله عليه وسلّم أو المراد بالغفران: الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه ذنب. لأن الغفر هو الستر، والستر إما بين العبد والذنب، وهو اللائق بمقام النبوة، أو بين الذنب وعقوبته، وهو اللائق بغيره.

والمعنى : يسرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك، وهدايتك إلى الصراط المستقيم، ولنصرك نصرا عزيزا.ولما امتن الله عليه بهذه النعم، صدرها بما هو أعظم، وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزى الدنيا والآخرة. فليست المغفرة مسببة عن الفتح.

ولقد كان صلّى الله عليه وسلّم مع هذه المغفرة من الله- تعالى- له، أعبد الناس لربه، وأشدهم خوفا منه، وأكثرهم صلة به.

*** **** ***

وقال ابن كثير رحمه الله :

قال الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يصلى (حتى ترم قدماه) أى: تتورم فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبدا شكورا) .

وعن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه- أى: تتشقق- فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.فقال: (يا عائشة، أفلا أكون عبدا شكورا).

*** **** ***

وهذا نص سؤال وجه إلى ركن الفتوى في وزارة الأوقاف الإماراتية:

قال تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) الفتح (1-2) .

كيف يغفر الله ذنباً تقدم لمن هو معصوم من الخطأ؟ أليس الرسول صلى الله عليه وسلم معصوماً من الخطأ؟ فكيف ارتكب ذنبا؟ هذا سؤال سأله لي أحد الناس ولم أستطع الإجابة عليه لقلة علمي، أفيدوني أفادكم الله .

نص الجواب : الجواب عن هذه المسألة من جانبين:

أما الجانب الأول: وهو مسألة عصمة الأنبياء، فقد اتفقت الأمة على أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام معصومون في أمر الرسالة، وأنهم لا تقع منهم الكبائر، وكذا الصغائر التي تحطُّ من قدرهم وتزري بفاعلها.

قال الإمام ابن بطال رحمه الله في شرح البخاري: "أجمعت الأمة على أنهم معصومون في الرسالة، وأنه لا تقع منهم الكبائر أهـ، أما باقي الصغائر ففي عصمتهم منها خلاف بين العلماء: فقد ذهب بعض المحققين إلى عصمتهم من الجميع، وتأولوا وقوع هذا منهم على سبيل السهو أو أن الله أذن

لهم فيها وأنهم أشفقوا من المؤاخذة فيها، وذلك حتى يكونوا أهلا للبلاغ عنه، ومحلاً لتلقي الوحي، وليحسن اتباع الناس لهم، وإلا لما صحَّ اتباعنا لهم، وصحَّح هذا الرأي القاضي عياض رحمه الله " اهـ.

الجانب الثاني: وهو قوله تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...الآية}، وهو استشكال مَفاده أن الله تعالى قد تكفل بمغفرة ذنوبه صلى الله عليه وسلم، فكيف يغفر الله ذنب نبيه صلى الله عليه وسلم وهو معصوم من الخطأ؟ والجواب على هذا من وجوه:

الأول : قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الكبائر والصغائر كلها على التحقيق كما أسلفنا.

الثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق، وقد منحه الله تعالى المنح العظيمة، وأعطاه الدرجة العالية والمنزلة المنيفة، وجمع له كل كمال بشري لم يجتمع في بشر قبله ولا بعده لا من الأنبياء ولا من غيرهم .

وفي هذا تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومقتضى كل هذه العطايا والمنح أن يُقابلها صلى الله عليه وسلم بالقيام بواجب شكر الله تعالى عليها، وقد قام صلى الله عليه وسلم بذلك، وبذل الشكر على النعم قدر طاقته، واستفرغ ما في وسعه من أجل تحقيق الشكر، ولذا كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وفي رواية (تتصدع) وفي رواية (تتشقق) وفي رواية (تتورم)، وكان يجيب عن ذلك بسعادة بالغة، وراحة تامة (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟) وأنفق ماله في سبيل الله، وكان يواصل الصيام، ويعفو عمن أساء إليه أو ظلمه، إلى غير ذلك

وهوصلوات الله وسلامه عليه في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخلوق وهو بشر، والبشر والمخلوق يعتريه الضعف والعجز، مهما صلى وقام، وعبد وصام، وذكروتضرع ودعا وجاهد وبذل وصبر لله تعالى، فلما علم الله تعالى هذه العجز من نبيه صلى الله عليه وسلم بعد استفراغ طاقته وجهده لينهض بواجب

الشكر عليه، خفَّف الله عنه وغفر له عجزه الذي لا قدرة له صلى الله عليه وسلم على تجاوزه مهما قدَّم من طاعة، أو بذل من عبادة.

* * * * * * * * * *

قال الإمام ابن بطال في شرحه نقلاً عن الإمام الطبري رحمهما الله:

كان يسأل ربه في صلاته حين اقترب أجله، وبعد أن أنزل عليه: {**إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**}[النصر:1] ناعيًا إليه نفسه فقال له: {**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**}[النصر:3]، وكان- صلى الله عليه وسلم- يقول : **(إني لأستغفر الله و أتوب إليه في اليوم سبعين مرة)** .

فكان هذا من فعله في آخر عمره وبعد فتح مكة، وقد قال الله تعالى له: {**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**} [الفتح:2]، باستغفارك منه، فلم يسأل النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يغفر له ذنبًا قد غفر له، وإنما غفر له ذنبًا وعده مغفرته له باستغفاره،ولذلك قال: {**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**}[النصر(3)

ثم قال ابن بطال : وفيها قول آخر يحتمل - والله أعلم - أن يكون دعاؤه- صلى الله عليه وسلم- ليغفر الله له ذنبه على وجه ملازمة الخضوع لله تعالى، واستصحاب حال العبودية والاعتراف بالتقصير شكرًا لما أولاه ربه تعالى مما لا سبيل له إلى مكافأة بعمل.

فكما كان يصلي- صلى الله عليه وسلم- حتى ترم قدماه، فيقال له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول : **(أفلا أكون عبدًا شكورًا)**، فكان اجتهاده في الدعاء، والاعتراف بالذلل والتقصير، والإعواز والافتقار إلى الله تعالى شكرًا لربه، كما كان اجتهاده في الصلاة حتى ترم قدماه شكرًا لربه، إذ الدعاء لله تعالى من أعظم العبادة له.

* * * * * * * * * *

وليسُنّ ذلك لأمته صلى الله عليه وسلم فيستشعروا الخوف والحذر ولا يركنوا إلى الأمن، وإن كثرت أعمالهم وعبادتهم لله تعالى، وقد رأيت المحاسبي أشار إلى هذا المعنى فقال: خوف الملائكة والأنبياء لله تعالى هو خوف إعظام لأنهم آمنون في أنفسهم بأمان الله لهم، فخوفهم تعبد لله إجلالاً وإعظامًا.اهـ.

الثالث : أنه لا يلزم من مغفرة الله لذنوبه وقوع الذنب منه صلى الله عليه وسلم ابتداءاً، بل لو وقع منه صلى الله عليه وسلم لوقع مغفوراً ،قال صاحب مرعاة المفاتيح: قيل: هو محمول على ترك الأولى، وسمي ذنباً لعظم قدره صلى الله عليه وسلم . **كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، قيل: المراد لو وقع منك ذنب لكان مغفوراً، ولا يلزم من فرض ذلك وقوعه، والله أعلم.**

وقال الإمام المناوي رحمه الله في فيض القدير عند تعليقه على حديثه صلى الله عليه وسلم: "إنه لَيُغَانُّ على قلبي": قال العارف الشاذلي: هذا غين أنوار لا غين أغيار لأنه كان دائم الترقي فكلما توالت أنوار المعارف على قلبه ارتقى إلى رتبة أعلى منها فيعد ما قبلها كالذنب اهـ والله تعالى أعلم[98].

للاستغفار في حياته - صلَّى الله عليه وسلَّم - شأنٌ عظيم، واهتمام بالِغ، ومِمَّا يدلُّ على ذلك:

1/ أنه كان يكثر من الاستغفار في مَجالسه العامة والخاصة؛ ففي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: (**والله إنِّي لأستغفر الله و أتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة**).

*** **** ***

2/ وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود و ابن ماجه والترمذي، وقال: "حسن صحيح"، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "إنَّا كنا لنعدُّ لرسول الله في المجلس: (**ربِّ اغفر لي وتب عليَّ؛ إنك أنت التوَّاب الرحيم**) مائة مرة."

3/أنه كان يكثر من الاستغفار في أدعيته عامَّة: كما جاء في البخاري: عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنه كان يدعو بِهذا الدعاء: (**ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي**

98 / موقع الأوقاف وزارة الإماراتية - رقم الفتوى(8277 20) - يناير-2010) .

في أمري كلِّه، وما أنت أعلم به منِّي، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي، وجهلي وهَزْلي، وكلُّ ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، وأنت على كلِّ شيء قدير) .

4/أنه كان يستغفر الله في ركوعه وسجوده: فبَعد أن نزلتْ عليه سورة النصر لتُعْلِمه بقرب أجله، وانتقاله إلى ربِّه، ما ترك الاستغفار بعد نزولها، كما في البخاري ومسلم: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "ما صلَّى النبيُّ صلاة بعد أن نزلت: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: 1] إلاَّ يقول فيها: (سبحانك ربَّنا وبِحَمدك، اللهم اغفرلي) .

5/وفي صحيح مسلم وغيره عنها - رضي الله عنها - قالت: "كان رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يُكْثِر أن يقولَ في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلي)؛ يتأوَّل القرآن."

6/ وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن الأغر المزني رضي الله تعالى عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة).

7/ وأخرج النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة).

8/ وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: (إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول: رب اغفرلي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة) وفي لفظ (التواب الغفور) إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

*** **** ***

الفصل الثامن

الموازنة بين أدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم السلام

المبحث الأول : الموازنة بين دعائه ﷺ لأمته وبين دعاء كل نبي لأمته.

المبحث الثاني : الموازنة بين استجابة الله لأدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم.

المطلب الأول : استجابة الله تعالى لأدعية الأنبياء عليهم السلام.

المطلب الثاني : استجابة الله تعالى لأدعية النبي ﷺ.

المطلب الثالث : دعاء الأنبياء عليهم السلام على الكفار.

المبحث الأول

الموازنة بين دعائه ﷺ لأمته وبين دعاء كل نبي لأمته

ورد في هذا الخصوص حديث رواه البخاري : عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كل نبي سأل سؤلا أو قال لكل نبي دعوة قد دعا بها فاستجيب فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة).

وفي رواية أخرى عند البخاري أيضاً : عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخر).

وفي رواية في صحيح مسلم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا).

وقد اختلف العلماء في معنى قوله صلى الله عليه وسلم :(لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها) على قولين:

القول الأول : أن تلك الدعوة إنما تستجاب له في أمته خاصة : وذهب إلى هذا القول العلامة ملا علي قارئ رحمه الله فقال : (لكل نبي دعوة مستجابة) أي : في حق مخالفي أمته جميعهم بالاستئصال.

(فتعجل كل نبي دعوته) : أي : استعجل في دعوته ، كما أن نوحا دعا على أمته بالهلاك ، حتى غرقوا بالطوفان ، وصالحا دعا على أمته ، حتى هلكوا بالصيحة) اه .[99].

القول الثاني : معنى قوله: (لكل نبي دعوة مستجابة) : يريد : (إن لكل نبي عند الله من رفيع الدرجة وكرامة المنزلة أن جعل له أن يدعوه فيما أحب من الأمور ويبلغه أمنيته، فيدعو فى ذلك وهو عالم بإجابة الله له على ما ثبت عنه : (أن جبريل قال له: يا محمد، إن أردت أن يحول الله لك جبال تهامة ذهبًا فعل).

99/ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – حديث رقم 2223

وخيَّره بين أن يكون نبيًّا عبدًا، وبين أن يكون نبيًّا ملكًا، فاختار الآخرة على الدنيا، وليست هذه الدرجة لأحد من الناس، وإنما أمروا بالدعاء راجين الإجابة غير قاطعين عليها؛ ليقفوا تحت الرجاء والخوف)اهـ.[100]

*** **** ***

وقد أشار ملا على قاري إلى هذا القول - ولكن ضعفه - فقال :

(وقيل : معناه أن لكل نبي دعوة متيقنة الإجابة ، بخلاف بقية دعواته ، فإنها على طمع الإجابة ، فتعجل كل نبي دعوته لنفسه)[101]

وقال ابن حجر رحمه الله في شرحه :

قوله صلى الله عليه وسلم : (وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة) وفي رواية أبي سلمة عن أبي هريرة الآتية في التوحيد (فأريد إن شاء الله أن أختبئ) وزيادة (إن شاء الله) في هذا للتبرك ولمسلم

ومن رواية أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه (وإني اختبأت) ، وزاد أبو صالح (فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) .

وقوله : (من مات) أي شفاعتي نائلة من مات غير مشرك وكأنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يؤخرها ثم عزم ففعل ورجا وقوع ذلك فأعلمه الله به فجزم به.

وقد استشكل ظاهر الحديث بما وقع لكثير من الأنبياء من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا - صلى الله عليه وسلم - وظاهره أن لكل نبي دعوة مستجابة فقط والجواب أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة وقيل معنى قوله " لكل نبي دعوة " أي أفضل دعواته ولهم دعوات أخرى.

---

100 / شبكة الألوكة - شرح مئة حديث (12)

101 مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – حديث رقم 2223

وقيل : لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته إما بإهلاكهم وإما بنجاتهم وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب.

وقيل : لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه كقول نوح لا تذر على الأرض وقول زكريا فهب لي من لدنك وليا يرثني وقول سليمان وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي حكاه ابن التين .

*** **** ***

وقال بعض شراح مشكاة المصابيح - ما لفظه - "اعلم أن جميع دعوات الأنبياء مستجابة والمراد بهذا الحديث أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك إلا أنا فلم أدع فأعطيت الشفاعة عوضا عن ذلك للصبر على أذاهم والمراد بالأمة أمة الدعوة لا أمة الإجابة وتعقبه الطيبي في نسخة القرطبي بأنه - صلى الله عليه وسلم - دعا على أحياء من العرب ودعا على أناس من قريش بأسمائهم ودعا على رعل وذكوان ودعا على مضر ، قال والأولى أن يقال إن الله جعل لكل نبي دعوة تستجاب في حق أمته فنالها كل منهم في الدنيا .

وأما نبينا فإنه لما دعا على بعض أمته نزل عليه ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم فبقي تلك الدعوة المستجابة مدخرة للآخرة وغالب من دعا عليهم لم يرد إهلاكهم وإنما أراد ردعهم ليتوبوا . وأما جزمه أولا بأن جميع أدعيتهم مستجابة ففيه غفلة عن الحديث الصحيح سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة الحديث. "

*** **** ***

قال ابن بطال رحمه الله : في هذا الحديث بيان فضل نبينا - صلى الله عليه وسلم - على سائر الأنبياء حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة ولم يجعلها أيضا دعاء عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقدم.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : هذا من حسن تصرفه - صلى الله عليه وسلم - لأنه جعل الدعوة فيما ينبغي ومن كثرة كرمه لأنه آثر أمته على نفسه ومن صحة نظره لأنه جعلها للمذنبين من أمته لكونهم أحوج إليها من الطائعين.

وقال النووي رحمه الله تعالى : (فيه كمال شفقته - صلى الله عليه وسلم - على أمته ورأفته بهم واعتناؤه بالنظر في مصالحهم فجعل دعوته في أهم أوقات حاجتهم وأما قوله " فهي نائلة " ففيه دليل لأهل السنة أن من مات غير مشرك لا يخلد في النار ولو مات مصرا على الكبائر)[102].

*** **** ***

وقد دعا ﷺ لأمته في الدنيا بدعوات تدل على رحمته وشفقته بهم ، ومن ذلك:

1/ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طِيبَ نَفْسٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ لِي، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، مَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ**»، فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِهَا مِنَ الضَّحِكِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيَسُرُّكِ دُعَائِي**؟ »، فَقَالَتْ: وَمَا لِي لَا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللَّهِ إِنَّهَا لَدُعَائِي لِأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ**» [103].

2/ ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: (**رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني**) الآية. وقال عيسى عليه السلام: (**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**) فرفع يديه وقال: " اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل (**يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك - أعلم فسله ما يبكيك**) فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم- فقال الله (**يا جبريل اذهب إلى محمد فقل (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)** [رواه مسلم 302].

3/ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**)قال فكبرنا ثم قال(**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**)قال فكبرنا ثم قال (**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة وسأخبركم عن ذلك ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض**) [رواه مسلم324]

---

102 /فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب لكل نبي دعوة مستجابة .

103 / رواه ابن حبان في صحيحه وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (2254)، كما حسنه الأرناؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان .

4/ وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال: " لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم **(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)** رواه البخاري .

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين استجابة الله لأدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم السلام

المطلب الأول : استجابة الله تعالى لأدعية الأنبياء عليهم السلام .

المطلب الثاني : استجابة الله تعالى لأدعية النبي ﷺ .

المطلب الثالث : دعاء الأنبياء عليهم السلام على الكفار.

هذا الفصل يختلف عن سابقه في كونه يتناول عموم دعوات الأنبياء لأنفسهم أو لغيرهم ، وقد نص الله تعالى في عدد من سور القرآن الكريم دعوات بعض الأنبياء كنوح وموسى وأيوب ويونس وزكريا عليهم السلام وأعقب دعوة كل نبي بقوله (**فاستجبنا له**) وإليك بعض النصوص:

المطلب الأول

استجابة الله تعالى لأدعية الأنبياء عليهم السلام

سأذكر هنا ومضات سريعة تتضح من خلالها استجابة الله تعالى لدعوات أنبيائه عليهم السلام لأن تتبعها في القرآن ومحاولة فهمها بصورة توسعية يخرجنا عن موضوع الكتاب .

1/ بعض أدعية إبراهيم عليه السلام:

إبراهيم عليه السلام: (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**) سورة إبراهيم:35 الله أكبر! شمول الدعوة إنه يريدها للبلد كله ليس لشخص، أو بيت، أو حي: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدراً.

قوله تعالى : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ) سورة إبراهيم: 35 اجنبني وبني، كثير من الناس يدعون لأنفسهم، وينسون ذرياتهم، ولذلك تصلح الذرية بدعاء، وقد تفسد بإهمال الدعاء، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّالدعاء للنفس أولاً.

أيضاً (**وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**) لماذا؟ لأنه رأى في الواقع شرها ووبالها، وفشوا الافتتان بها؛ ولذلك قال: **(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ)** سورة إبراهيم:36، فإذا رأى الناس منكراً متفشياً في الواقع، وفي المجتمع استعاذ ربه منه، وأعاذ ذريته منه أيضاً. (**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ)** سورة إبراهيم:35-36،

ثم قال (**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌرَّحِيمٌ**)المغفرة والرحمة يطلبها لأهل المعصية.

*** **** ***

- ومن دعائه عليه السلام : (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) سورة إبراهيم:37إذن الآن هو يذكر افتقاره، وافتقار أهله: (أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي) هاجر، وإسماعيل عليهما السلام ، (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)الذي سيقام، لماذا وضعهم هناك: سياحة؟ تسلية؟ شم الهواء؟ .

(لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ) من أجلك يا رب ؛ ليصلوا لك، نيتي في عملي هي طاعتك، لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ، فإذن بيَّن افتقارهم، وبين لماذا وضعهم هناك؟ لأجله تعالى.

هذه توسلات، ومقدمات مهمة جداً في الأدعية، لأنه هو الخالق عز وجل، الذي بيده الأمر والنفع والضر عز وجل، فبعد أن توسل إبراهيم عليه السلام بهذا ماذا طلب؟. (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) أفئدة تهوي، الفؤاد إذا مال تبعه كل شيء، (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، فاجعل أفئدة من الناس رقة، تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ) لمجرد الاستمتاع، لمجرد الأكل والتنعم؟ كلا،بل (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) هذه النعمة، فما هو هدف السكنى بجوار البيت الحرام؟ إدارة عقارات؟ القيام بالمعاكسات كما يفعل اليوم الفاسقون والفاسقات؟ ما هو هدف السكنى بجوار البيت الحرام؟ (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)المنعم الوهاب عز وجل؛ ليُشكر الله، لتقام الصلاة، للدعاء، لأنواع العبادة، الطائفين والقائمين العاكفين والركع السجود .

*** **** ***

ومن دعاء للخليل عليه السلام : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)من؟ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) سورة البقرة:126 يريد النعمة للمؤمنين ليستعينوا بها على الطاعة، ولا يريدها للكافرين ليستعينوا بها على فتنة أولياء الله وعباده الصالحين، لكن الله عز وجل له حكم، (قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) سورة البقرة:126.

ومن أدعية إبراهيم عليه السلام : ما دعا به عندما قام بالعمل الصالح العظيم هو وابنه في بناء البيت ماذا يقول عند البناء؟ وَإِذْ يَرْفَعُ عند الرفع، وعند القيام، وخلال العمل.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ)جملة حالية حالهما عند البناء هو الدعاء، بناء ودعاء، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا لا تصاب النفس بالعجب إذا كانت تسأل ربها أثناء العمل، وتسأل ماذا؟ القبول:

(تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) سورة البقرة:127 توسل إلى الله بصفتين عظيمتين: بسمعه وعلمه، السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) إخلاص لا نريد من وراء هذا العمل شهرة، ولا دعايات إعلامية إعلانية، **(وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ)** خالصين في العمل، **وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَما** نريد بعملنا إلا وجهك .

(وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً كثيرة، أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) المستقبل مهم، مد النظر إلى المستقبل في الدعاء من أسرار أدعية الأنبياء،**(وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا)** من الذي يسأل اليوم ربه الفقه في الدين؟ من الذي يسأل اليوم ربه أن يفهّمه مسائل الدين؟ من؟ قليل جداً، ومن الذي يفطن لهذا؟ قال: **وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**، وعلمنا المشاعر، وفقهنا في أحكامها، ودلنا عليها، وبينها لنا، لنعبدك بها.**(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** لا زال الخليل يسأل ربه التوبة، وهو يبني البيت، لا يعصي، هو يطيع، ومع ذلك هو يعترف بالتقصير، وأنه محتاج للتوبة: **(إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** سورة البقرة:128.

*** **** ***

2/ بعض أدعية موسى عليه السلام : دعاؤه لما خرج طريداً خائفاً من المدينة؛ لأن القوم قرروا قتله: **(يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ)** سورة القصص (20) دعاؤه على حسب الحدث والحال: **(رَبِّ)** المهم اللجوء إلى الله في كل أزمة، في كل حال، في كل حين، بحسب المناسب، واختيار الألفاظ المناسبة: **(رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** سورة القصص (21) ما يعرف الطريق إلى مدين : **(عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ)** جلس في ظل شجرة جائعاً منهكاً: **(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)** محتاج إلى خيرك أيضاً، كل موضع دعاء، كل مرة ما يناسب: **(فَاغْفِرْلِي)** .

3/ دعاء يونس عليه السلام : قال تعالى : **(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)** سورة الأنبياء (87-88)

قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبيررحمهم الله تعالى : **(إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا)** يعني: من أجل ربه عز وجل، غضبت لك يعني: من أجلك، والمؤمن يغضب لله إذا عصي، وكان الأولى أن يصبر، فذهب

مغاضباً من أجل ربه، وقد أعلن سخطه على قومه من ما فعلوا وأصروا، وتمردوا وعصوا، فقدر الله أن يلتقمه الحوت، فنادى في الظلمات، إنها لحظات الاضطرار، إنها أوقات الشدة،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ) ظلمة بطن الحوت، وظلمة قاع البحر واليم، ظلمة الماء، ظلمات أمواج يغشى بعضها بعضاً، وكذلك ظلمة الشدة، وظلمة الوحدة، اجتمعت الظلمات الحسية، والظلمات المعنوية، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة، ولكن لم ييأس يونس أبداً من ربه عز وجل.

(**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) شكا إلى ربه حاله، وتضرع إليه، وتوسل إليه بوحدانيته: لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، ثم نزه ربه عما لا يليق به: (**سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) اعترف لله عز وجل بالظلم لنفسه؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت (لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)** في شيء من الحاجات عموماً. (**فَاسْتَجَبْنَا له ونَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**) سورة الأنبياء:87 .

ولذي النون وقد ناداه من ظلمات البحر إذ فيه استقر

حين نجاه من الغم فهل بعد ذا شك لعبد ذي نظر

(**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ**) العمل الصالح يساند الدعاء، الدعاء المبني على عمل صالح مسبق إنه أمر عظيم.

* * * * * * * * * *

4/ دعاء زكريا عليه السلام : قال تعالى : (**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَ أَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**) سورة الأنبياء:89، (**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**) سورة مريم:3-6

لما تقارب أجله، ولم يرزقه الله بولد، وهو مسن لا يولد لمثله، وامرأته عاقر لا تنجب، اجتمعت الأسباب الأرضية على عدم الإنجاب، ولكن نبي الله لا ييأس من رحمة الله، وهذا ذكر رحمة ربه له إذ وفقه للدعاء: (**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا**) سورة مريم(3) .

أمر يدل على الإخلاص، والإقبال على الله، توسل إلى الله بضعفه، وهذا سر مهم نجده متكرراً في أدعية الأنبياء يذكرون ضعفهم، يذكرون افتقارهم، يذكرون حاجتهم إلى ربهم: (**إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**) سورة مريم:4،ومع كل هذا: (**لَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**)إنه يعتقد بأن الدعاء سعادة، ولا يمكن أن يشقى [104]

*** **** ***

104 / الموقع الرسمي للشيخ المنجد - باختصار

المطلب الثاني

استجابة الله تعالى لأدعية النبي صلى الله عليه وسلم

أما استجابة الله لدعوات النبي صلى الله عليه وسلم فلو ذهبنا نتتبعها لأخذ ذلك عددا كبيرا من الصفحات ولكن نكتفي هنا بذكر بعضها للتدليل على أنه فاق جميع الأنبياء عليهم السلام في هذا المقام.

ولقد قال العلماء : ومن باهر ما يدل على النبوة إجابة الله دعاء النبي حين يدعوه، فإذا ما رفع نبي الله يديه داعياً ربه ومولاه ؛ قبِل الله دعاءه وأجابه، وتكرارُ ذلك وديمومتُه دليل على صدقه، لأن الله لا يؤيد كاذباً ولادعياً يدعي عليه الكذب .

استجابة الله تعالى لدعائه صلى الله عليه وسلم لنزول الغيث :

أصابت الناس سنة جدباء؛ وقف النبي صلى الله عليه وسلم فيها على المنبر يخطب الجمعة ، فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال ، وجاع العيال، فادع الله لنا.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه : فرفع يديه، وما نرى في السماء قزْعة - أي قطعة من السحاب - ، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم ، فمُطرنا يومنا ذلك ومن الغد، وبعد الغد، والذي يليه، حتى الجمُعَة الأخرى.

وفي الجمعة الأخرى قام ذلك الأعرابي، أو قال: غيره، فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: (اللهم حوالينا ولا علينا) ،يقول أنس: فما يشير بيده إلى ناحيةٍ من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجَوْبة ، وسال الوادي - قناة - شهراً، ولم يجيء أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدّث بالجُوْد" [105].

*** **** ***

105/ رواه البخاري ح (1013)، ومسلم ح (897) واللفظ له

لقد نزل المطر بدعائه صلى الله عليه وسلم واستمر أسبوعاً ، ثم توقف بدعائه صلى الله عليه وسلم بعد أسبوع من هطوله، كما انفرجت السحابة عن المدينة لقوله: (**اللهم حوالينا ولا علينا**)، أليس ذلك كلُه من أمارات نبوته وعلامات صدقه؟ .

- **قال النووي رحمه الله تعالى :** "ومراده بهذا؛ الإخبار عن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظيم كرامته على ربه سبحانه وتعالى، بإنزال المطر سبعة أيام متوالية متصلاً بسؤاله من غير تقديم سحاب ولا قزَع، ولا سببٍ آخر، لا ظاهرٍ ولا باطن".[106]

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى "وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة في إجابة الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام عقِبه أو معَه، ابتداء في الاستسقاء، وانتهاء في الاستصحاء، وامتثال السحاب أمره بمجرد الإشارة".[107]

وصدق من قال:

دعا اللهَ خالقَه دعوة أُجيبتْ وأشخَص منه البصر

ولم يك إلا كقلب الرداء وأسرعَ حتى رأينا المطر

*** **** ***

استجابة الله تعالى لدعائه لأبي هريرة رضي الله عنه :

- عندما كانت أم أبي هريرة مشركة ، كان يدعوها إلى الإسلام فتأبى وتصده عنه، يقول أبو هريرة رضي الله عنه : فدعوتُها يوماً، فأسمَعَتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، قلتُ: يا رسول الله، إني كنتُ أدعو أمي إلى الإسلام، فتأبى عليّ، فدعوتُها اليومَ، فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهديَ أمَّ أبي هريرة. فقال: (**اللهم اهدِ أمَّ أبي هريرة**)، فخرج مستبشراً فرحاً بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم ، يرجو أن تكون سبباً في إسلام أمه.

---

106 / شرح صحيح مسلم – للنووي - (192/6).

107 / فتح الباري - (480/2)

يقول: فلما جئتُ، فصِرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعتْ أمي خَشْفَ قدميّ - أي صوت مشيي - ، فقالت: مكانكَ يا أبا هريرة، وسمعتُ خضْخضَة الماء، فإذا هي تغتسل للإسلام، وتشهد بشهادة التوحيد. قال : فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **فأتيتُه و أنا أبكي من الفرح، فقلت: (يا رسول الله أبشر، قد استجاب اللهُ دعوتك، وهدى أمَّ أبي هريرة)**. رواه مسلم.

- وعنه رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله انى اسمع منك حديثاً كثيراً أنساه. قال: (**ابسط رداءك فبسطتُه. قال: فغرف بيديه، ثم قال: ضمه، فضممته، فما نسيتُ شيئاً بعده**)[108].

*** **** ***

- استجابة الله تعالى لدعائه لابن عباس رضي الله عنهما :

- كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهماغلاماً جهز وَضُوءَ النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي شاكراً صنيعه: (**اللهم فقهه في الدين**). رواه البخاري ومسلم .

وفي روايةأخرى وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على كتِف ابن عباس وقال: (**اللهم فقهه في الدين، وعلِّمه التأويل**)[109].

- استجابة الله تعالى لدعائه للسائب بن يزيد رضي الله عنه :

- عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (**ذهبت بي خالتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة**) رواه البخاري.

قال الجعيد رحمه الله : "رأيت السائب بن يزيد ابن أربع وتسعين، جَلدًا معتدلاً، فقال: قد علمت ما مُتِّعْتُ به سمعي وبصري إلا بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم" .

*** **** ***

108 / رواه البخاري (1/ 41، 4/ 253) واللفظ له ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

109 / رواه أحمد - حديث رقم - (2393) .

- استجابة الله تعالى لدعائه لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

- عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**اللهم استجب لسعد إذا دعاك**) صحيح الإسناد.

وقد تحققت دعوته الله صلى الله عليه وسلم لسعد رضي الله عنه ، قال ابن رجب رحمه الله : "وكان سعد بن أبي وقاصٍ مجاب الدعوة، فكذَبَ عليه رجل، فقال: اللهم إن كان كاذبًا فأَعْمِ بصرَه، وأطل عمره، وعرِّضه للفتنِ، فأصاب الرجل ذلك كله، فكان يتعرض للجوارِي في السكك ويقول: شيخ كبير مفتون؛ أصابتْنِي دعوة سعد ، ودعا على رجلٍ سمعه يشتم عليًّا، فما برح من مكانه حتى جاء بعيرٌ نادٌّ، فخبطه بيديه ورِجليه حتى قتله"[110].

*** **** ***

استجابة الله تعالى لدعائه لأبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه :

- عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: (أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ذي قرد فنظر إلي فقال: اللهم بارك له في شعره وبشره، وقال: **أفلح وجهك.** قلت: ووجهك يا رسول الله. قال: أقتلت مسعدة - أحد المشركين - قلت: نعم، قال: (**فما هذا الذي بوجهك، قلت: سهم رميت به يا رسول الله، قال: (فادن) فدنوت منه فبصق عليه فما ضرب علي قط ولا قاح).**

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم أعطى أبا قتادة فرس مسعدة وسلاحه، مات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة ببركة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له .

استجابة الله تعالى لدعائه لفاطمة رضي الله عنها :

- عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : إني لجالس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة ، فقامت بحذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، مقابلة ، فقال : (**ادني يا فاطمة**) ، فدنت دنوة ، ثم قال : (**ادني يا فاطمة**) ، فدنت دنوة ، ثم قال : (**ادني يا فاطمة**) ، فدنت حتى قامت بين يديه ،

---

110 / جامع العلوم والحكم – لابن رجب الحنبلي- تحقيق الأرناؤوط (2/ 350) .

قال عمران : فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها ، وذهب الدم، فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه ، ثم وضع كفه بين تراقيها ، فرفع رأسه ، فقال : (**اللهم مشبع الجوعة ، وقاضي الحاجة ، ورافع الوضعة لا تجع فاطمة بنت محمد**) ، **فرأيت صفرة الجوع قد ذهبت عن وجهها ، وظهر الدم ثم سألتها بعد ذلك ، فقالت : (ما جعت بعد ذلك يا عمران)** إسناده حسن[111] .

استجابة الله تعالى لدعائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه :

- عن ابن عمر أنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر، أو أبي جهل**) [112] .

وفي رواية : (**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر**) صححه الألباني في صحيح الترمذي .2907.

* * * * * * * * * *

- استجابة الله تعالى لدعائه لقبيلة دوس :

- عن الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه - وهو يحدث عن دعوت دوساً إلى الإسلام - قال (فأبطؤوا عليّ فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنه قد غلبني على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : (**اللهم اهد دوساً**) .

ثم قال : (**ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله ، وارفق بهم**) ، فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله ، ثم قدمت على رسول الله ورسول الله بخيبر ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله بخيبر . فأسهم لنا مع المسلمين) راوه البخاري (78/8) .

* * * * * * * * * *

109/أخرجه البيهقي في الدلائل (108/6) و أبو نعيم في دلائل النبوة (390) (462) قال الهيثمي في المجمع (204/9): (رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عتبة بن حميد ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله وثقوا).

112 / رواه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه: حسن صحيح غريب .

المطلب الثالث

دعاء الأنبياء عليهم السلام على الكفار

كما يستجيب الله دعاء أنبيائه لأصحابهم؛ فإنه يستجيب لهم إذا دعوا على الكافرين بنبوتهم أو على العاصين من أتباعهم.

فقد أجاب الله دعاء نوح عليه السلام لما قال: **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)** (نوح: 26-27)، فاستجاب الله له وأغرق الكافرين **(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)** (القمر: 10-14).

وموسى عليه السلام ، دعا فرعونَ الطاغية إلى توحيد الله وطاعته، فأبى واستكبر، فدعا عليه: **(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)** (يونس: 88)، فاستجاب الله دعاءه، فغرق فرعون وملؤه، وجعل يستجدي النجاة عند الموت**(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** (يونس: 90) .

وهكذا كان حالُ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فقد سجد صلى الله عليه وسلم ذات مرة، فوضع المشركون سَلَا الجزور وقذرَها على ظهره الشريف، وأخذوا يتضاحكون، فدعا عليهم عليه الصلاة والسلام وقال: (اللهم عليك بقريش) ثلاث مرّات.يقول ابن مسعود: فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته. ثم قال: (اللهم عليك بأبي جهلِ بن هشام، وعتبةَ بنِ ربيعةَ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بن عتبةَ، وأميةَ بنِ خلفٍ، وعقبةَ بنِ أبي مُعَيط) يقول ابن مسعود رضي الله عنه : (وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، لقد رأيتُ الذين سمّى صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب، قليبِ بدر)[113] .

91/ رواه البخاري ح (240)، ومسلم ح (1794) واللفظ له.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : "وهذا يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه عَلَمٌ عظيم من أعلام النبوة".[114]

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ورأى إدبار قريش وإعراضهم وصدهم عن الإسلام، قال: (**اللهم سبعٌ كسبع يوسف**).

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فأخذتهم سَنةٌ حصّت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء، فيرى الدخان من الجوع .فأتاه أبو سفيان، فقال: **يا محمد، إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادعُ الله لهم.**

وفي رواية لأحمد في مسنده أن أبا سفيان قال: أي محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله عز وجل أن يكشف عنهم، قال: فدعا. ثم قال: (**اللهم إن يعودوا فعُدْ**).

ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: (**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ**) (الدخان: 10-16) قال: (**فالبطشةُ يومُ بدر**) رواه البخاري ومسلم .

لقد علم كفار قريش أن رسولَ الله مجابُ الدعوة عندَ الله ، فجاؤوا يطلبون السقيا بدعائه، لأنهم علموا أن الله لا يرد نبيه وحبيبه صلى الله عليه وسلم (**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**) (الأنعام: 33).

*** **** ***

واستهزأ عتيبة بن أبي لهب بالقرآن ، فكُتب مع أبويه في سجل الهالكين؛ فقد دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يموت بين أنياب السبُع، فقال: (**اللهم سلط عليه كلباً من كلابك**)، فكانت دعوة نبي أجابها الله، حين خرج عتيبة في قافلة يريد الشام، فنزل منزلاً، فقال: إني أخاف دعوةَ محمد صلى الله

99/ فتح الباري – لابن حجر(419/1) .

عليه وسلم.فحطوا متاعهم حوله، وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه، فذهب به)[115] ولله درُّ حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يقول:

من يُرجع العام إلى أهله فما أكيلُ السبعِ بالراجع

وقعد بُسر الأشجعي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وجلس يأكل بشماله، فلما ذكّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأكل باليمين استكبر عن قبول الحق فقال: لا أستطيع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا استطعت)، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه).[116] أي عاجلته استجابة الله ، فشُلت يمينه للتو، بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، جزاءَ استكباره عن قبول الحق والإذعان له.

وحاقت دعوتُه صلى الله عليه وسلم أيضاً بأعرابي دخل عليه النبي يَعُوده في مرضه، فقال صلى الله عليه وسلم مواسياً: **(لا بأسَ، طهور إن شاء الله)**، فأجاب الأعرابي بجواب ملؤه القنوط وسوء الظن بالله: قلتَ: طهور؟ كلاّ، بل هي حُمّى تفُور - أو تثور - على شيخ كبير، تُزيرُه القبور، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(فنَعَمْ إذاً)**. رواه البخاري ح (5656).

قال ابن حجر رحمه الله : في بعض طرقه زيادة تقتضي إيراده في علامات النبوة، أخرجه الطبراني وغيره ،وفي آخره : فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**أما إذا أبيتَ فهي كما تقول، قضاءُ الله كائن**) فما أمسى من الغد إلا ميتاً .

وهكذا؛ فإن هذه الدعوات المجابة وأمثالها دليل على رضا الله عن نبيه وتأييده له، ولو كان يتقوّل على ربه النبوة والرسالة لخذله اللهُ وأهلكه: **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)** (الحاقة:44-46).

---

115 /رواه الحاكم (588/2)، وصححه، وو افقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في الفتح (39/4).

116 / رواه مسلم – حديث رقم - (2021) .

الباب الرابع

الموازنة بين عطاء الله تعالى للنبي ﷺ وعطائه لأولي العزم

الفصل الأول : الموازنة بين عطاء الله تعالى للنبي ﷺ وعطائه لإبراهيم عليه السلام

المبحث الأول : الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقام الهداية.

المبحث الثاني : الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقامي الكفاية والرعاية.

المبحث الثالث : الموازنة بين النبي والخليل عليهما الصلاة والسلام في مقامي الخلة والمحبة.

المبحث الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل .

المبحث الخامس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من المعجزات الحسية وبين ما أعطيه النبي ﷺ من جنس ذلك .

المبحث السادس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والأرض وبين ما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك.

الفصل الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لموسى عليه السلام

المبحث الأول : الموازنة بين مقامي الرعاية والمحبة اللتين أعطيهما النبي ﷺ واللذان أعطيهما موسى عليه السلام .

المبحث الثاني : الموازنة بين معجزات موسى عليه السلام ومعجزات النبي ﷺ.

المبحث الثالث : الموازنة بين وصف التشريع الذي أعطيه النبي ﷺ ووصف التشريع الذي أعطيه موسى عليه السلام .

المبحث الرابع : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل .

الفصل الثالث : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعيسى عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين أصحاب النبي ﷺ وحواري عيسى عليه السلام.

المبحث الثاني :الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في الإخبار بالغيبيات .

المبحث الثالث : الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى.

المبحث الرابع : الموازنة بين إخبار المسيح عليه السلام عن نفسه وبين النبي ﷺ.

الفصل الرابع : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لنوح عليه السلام

المبحث الأول : الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ ونوح عليه السلام معجزة في مواجهة الكفار.

المبحث الثاني : الموزانة بين دعوتي النبي ﷺ ونوح عليه السلام على الكفار.

مدخل

لا يخفى على مسلم أن أولي العزم من الرسل خمسة وهم سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام ،وقد تقدم أن خيرهم وأفضلهم وأعلاهم قدراً عند الله تعالى هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد عقدت هذا الباب لبيان ما فضَّل الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم على السادة أولي العزم الأربعة الآخرين عليهم الصلاة والسلام، وقد جعلت تلك الموازنات لكل واحد منهم في فصل خاص بحيث نذكر فيه الموازنة في الفضائل والخصائص والمعجزات، وعبرت عن هذا كله بعبارة (**عطاء الله تعالى**) لأن تلك الفضائل والخصائص والمعجزات إنما هي منة من الله عليهم وتشريف وتكريم ، ومن هنا كان هذا الباب مكون من أربعة فصول وتحت كل فصل عدد من المباحث والمطالب على النحو التالي:

الفصل الأول

الموازنة بين عطاء الله تعالى للنبي ﷺ وعطائه لإبراهيم عليه السلام

مدخل : لمحة في بيان ما ذكر في القرآن في علو منزلة الخليل عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقام الهداية .

المطلب الأول : امتنان الله تعالى على الخليل عليه السلام بالهداية .

المطلب الثاني : امتنان الله تعالى على النبي ﷺ بالهداية .

المبحث الثاني :الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقام في مقام الكفاية والرعاية والحماية .

المطلب الأول : امتنان الله تعالى على الخليل عليه السلام بالهداية .

المطلب الثاني : رعاية الله تعالى للنبي ﷺ وكفايته .

المطلب الثالث : رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وحمايته من شر الأعداء .

المطلب الرابع : رعاية الله تعالى للنبي ﷺ وحمايته من شر الأعداء،

المبحث الثالث : الموازنة بين النبي والخليل عليهما الصلاة والسلام في مقامي الخلة والمحبة.

المطلب الأول : بيان مقام الخلة التي أعطيها إبراهيم عليه السلام .

المطلب الثاني : بيان مقام الخلة التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل ، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (ولا تخزني يوم يبعثون) وبين عطاء الله للنبي صلى الله عليه وسلم (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه).

المطلب الثاني : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت).

المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) وبين عطاء الله للنبي ﷺ:(ورفعنا لك ذكرك) .

المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) .

المبحث الخامس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من المعجزات الحسية وبين ما أعطيه النبي ﷺ من جنس ذلك ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الموازنة بين معجزة تكسير الخليل عليه السلام للأصنام وتكسير النبي ﷺ لها.

المطلب الثاني : الموازنة بين معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار وما أعطيه النبي ﷺ مقابل ذلك .

المبحث السادس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض وبين ما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك.

المطلب الأول : بيان ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض .

المطلب الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ من معرفة ملكوت السموات والارض .

مدخل

لمحة في بيان ما ذكر في القرآن في علو منزلة الخليل عليه السلام

كل البشرية - المسلم والكافر - يعرف من هو إبراهيم عليه السلام وقد خصه الله بخصائص وحباه بفضائل:

فمن فضائله وخصائصه عليه السلام أنه خليل الرحمن لم يشاركه في الخلة إلا سيدنا محمد صلى الله عليهما وسلم، قال سبحانه: **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ و اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ اتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)** النساء:(125) .

وقد جعله الله عز وجل إماماً للناس يقتدون به ويهتدون بهديه، قال سبحانه: **(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)** البقرة: (124) وقال سبحانه: **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** النحل: (120) ، وقال سبحانه: **(وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)** البقرة: (130) .

وقد أجرى الله تعالى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً لناس ومثابة وأمناً وعهد الله إليه ولابنه تبعاً له تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع والسجود.

وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذ مقامه مصلى قال سبحانه: **(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)** [البقرة: 125].

وقال تعالى: **(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** البقرة: 127 .

*** **** ***

وقد حصر الله النبوة والكتاب من بعده في ذريته عليه السلام، قال سبحانه: **(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)** [العنكبوت: 27]. فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته .

وهو عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابن عباس قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال: **(إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً – كما بدأنا أول خلق نعيده – الآية وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم)** رواه البخاري .

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين : قال سبحانه: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)** [مريم: 41] فجمع له بين الصديقية والنبوة، وفضائله أكثر من أن تحصر عليه السلام, وما علمناه غيض من فيض مما جهلناه في إبراهيم عليه السلام.

لما كان الخليل عليه السلام هو في الدرجة العليا والمقام الأسنى عند الله العلي الأعلى كثرت ذكر مناقبه وفضائله في القرآن الكريم وتعددت الآيات التي تثني عليه وتبين ما منَّ الله تعالى به عليه.

*** **** ***

كما ورد في القرآن الكريم بيان ما تحلى به الخليل عليه السلام من أخلاق كريمة وصفات جليلة في دعوته إلى الله تعالى .

ولكن مع ذلك أقول : من دققَّ النظر في كتاب الله تعالى وجد أن ما أعطاه الله تعالى الحبيب صلى الله عليه وسلم فهو أعلى وأفضل بكثير مما أعطاه للخليل عليه السلام.

ولكي نقف على جميع تلك الموازنات في تلك العطاءات الإلهية والمنح الربانية لهذين النبيين الكريمين والسيدين العظيمين الذين هما أفضل المصطفين من عباد الله تعالى أحببت أن أجعل ذلك في ستة مباحث :

المبحث الأول

الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقام الهداية

نقصد بالهداية هنا ما يتعلق بالنبوة وتفاصيل الشرائع ، والسعي لهداية الناس ومخاطبتهم بالتوحيد والإيمان ودعوتهم بالتي هي أحسن وتبصيرهم بما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة ، باختصار الهداية إلى المهمة التي شرفهم الله تعالى بها وكلفهم بها ، وبها أرسلوا ومن أجلها بعثوا ، ولقد وردت الآيات في الثناء عليهما صلى الله عليهما وسلم بأنهما على الهدى وعلى الصراط المستقيم، ولكن كان ثمة فروقاً جلية توضح ما لكل منهما من مقام ، وإليك ذلك على سبيل الإجمال :

لقد تحدث الخليل عليه السلام مع قومه متحدثا بنعمة الله عليه: **(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)** وأخبر الله عنه بقوله **(اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** النحل (121).

وأما الحبيب صلى الله عليه وسلم فقد امتن الله عليه فقال له **(ووجدك ضالاً فهدى)** وخاطبه بقوله **(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)** الفتح (2) ،وأمره بأن يقول **(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)** الأنعام (162) بل قال له **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** الشورى(52) ، وأظن الفرق بين المقامين واضح لكل ذي عينين.

وإليك تفصيل ما أجملناه ،وذلك في أربعة مطالب :

المطلب الأول

امتنان الله تعالى على الخليل عليه السلام بالهداية

كما تقدم وردت الهداية في حقه عليه السلام في آيات ، منها :

1/ قوله تعالى :(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) سورة الشعراء:(78) .

قال الماوردي رحمه الله تعالى : فيه وجهان:

أحدهما : الذي خلقني بنعمته فهو يهدين لطاعته.

الثاني : الذي خلقني لطاعته فهو يهديني لجنته .

فإن قيل فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره؟

قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ، لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ، وهذا إلزام صحيح ثم فصل ذلك بتعديد نعمه عليه وعليهم فقال : والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين وهذا احتجاجا عليهم لموافقتهم له ثم قال : والذي يميتني ثم يحيين وهذا قاله استدلالا ولم يقله احتجاجا ، لأنهم خالفوه فيه ، فبين لهم أن ما وافقوه عليه موجب لما خالفوه فيه .

وقال ابن عاشوررحمه الله تعالى :

والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى : وهديناه النجدين فيكون المعنى : الذي خلقني جسدا وعقلا . ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوما من الخطأ.

وقال الرازي رحمه الله تعالى :

وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدافعة للمضار فثبت أن قوله : (**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**) كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين ، ثم ههنا دقيقة وهو أنه قال : **(خلقني)**

فذكره بلفظ الماضي وقال : **(يهدين)** ذكره بلفظ المستقبل ، والسبب في ذلك أن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا ، بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم.

أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية ، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر ، فبين بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة ، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة.

2/ قوله تعالى : (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) سورة النحل (121).

قال الرازي في تفسيرها : أي : في الدعوة إلى الله تعالى ، والترغيب في الدين الحق ، والتنفير عن الدين الباطل ، نظيره قوله تعالى : **(أَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)** الأنعام : (153) .

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى : وهداه إلى صراط مستقيم موصل إليه تعالى وهو ملة الإسلام وليس نتيجة هذه الهداية- كما في إرشاد العقل السليم- مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع إرشاد الخلق أيضا إلى ذلك والدعوة إليه بمعونة قرينة الاجتباء.

*** **** ***

المطلب الثاني

امتنان الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية

وأما الهداية في حق الحبيب صلى الله عليه وسلم فقد قدمنا الآيات الواردة في ذلك والآن نقف على شئ من تفسيرها .

الآية الأولى : قوله تعالى : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) سورة الأنعام (161) :

قال في تفسير المنار:

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) أي قل أيها الرسول الخاتم للنبين لقومك وسائر أمة الدعوة وهم جميع البشر : إنني أرشدني ربي وأوصلني بما أوحاه إلي بفضله واختصاصه في هذه السورة وكذا غيرها إلى طريق مستقيم يصل سالكه إلى سعادة الدارين - الدنيا والآخرة - من غير عائق وتأخير ; لأنه لا عوج فيه ولا اشتباه ، كما قال في آية أخرى : **(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)** الفتح (2) ، وهو الذي أدعوكم إلى طلبه منه تعالى في مناجاتكم إياه : **(اهدنا الصراط المستقيم)** الفاتحة (6).

قوله تعالى : (دِينًا قِيَمًا) أي إن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذي يصلح ويقوم به أمر الناس في المعاش والمعاد : فقوله : (دينا) بدل من صراط مستقيم باعتبار المحل و (قيما) صفة له وقد قالوا : إنه أبلغ من المستقيم بزنته وهيئته ، وهذا أبلغ بصيغته وكثرة مادته وقيل بما في الصيغة من معنى الطلب ، فكان المستقيم هو الذي يقتضي أن يكون الشيء قيما ، أو يجعل ذلك سهلا . وتقدم في تفسير قوله تعالى : **(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ)** المائدة (97) ما يفيد القارئ تفصيلا فيما فسرنا به الدين القيم.

قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى :

أمر الله تعالى نبيه أن يبين أنه يسلك الخط المستقيم الذي هو الدين القيم، وأنه ملة إبراهيم عليه السلام قل يا محمد أيها النبي الأمي العربي إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم .

كان ذلك الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ليخاطب به العرب مخبرا عن نفسه الكريمة، وعمن اتبعه من المؤمنين: هداني ربي الذي خلقني، وربني وقام على كل ما أقوم عليه، فهو القوام على كل نفس، والقائم على كل شيء، فوصف الربوبية في هذا المقام للدلالة على أن الهداية منسوبة إلى الخالق المكون، فهي هداية حق لا ضلال فيها، ولا أوهام ولا أهواء عند الله سبحانه وتعالى، وقد أكد أن الهداية من رب الوجود بـ (إن)[117].

والهداية كانت إلى دين اتصف بأمور ثلاثة :

أولها : أنه صراط مستقيم، أي: طريق مستقيم موصل إلى الحق الذي لا ريب فيه من غير التواء ولا اعوجاج، فليس فيه تعقيد بل إنه الفطرة المستقيمة، فطرة الله التي فطر الناس عليها .

الوصف الثاني : قوله تعالى: دينا قيما أي: حال كونه دينا صحيحا، قيما و: (قيم) مصدر قوم، وزن فعل، كعوج. وهو نقيضه، وقرئ: (قيما) أي: هو في ذاته قيم بلغ أعلى المنزلة في الأديان، والقراءتان متلاقيتان في المعنى، وفي القراءة الأولى كان المصدر وصفا، وذلك في معنى المبالغة في أنه قيم وقويم، كقولك: فلان عدل .

الوصف الثالث : وهو شرف إضافي، - ملة إبراهيم - فالوصفان الأولان ذاتيان; لأنهما وصفان حقيقيان لأنهما مشتقان من ذات الدين، وذلك الوصف هو قوله تعالى: ملة إبراهيم حنيفا وذكر هذا الوصف ليبين للعرب الذين كانوا يتفاخرون بنسبهم إلى إبراهيم، وبأنه أبو العرب، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم مع عبادتهم الأوثان، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لهم بأنه هو الذي على ملة إبراهيم، وليسوا هم على ملته في شيء .وهنا وصف ذاتي لهذا الدين جاء في ثنايا ذلك القول. وهو قوله تعالى: **حنيفا** أي: غير منحرف إلى باطل بل هو مائل إلى الحق متجه إليه، فهو مستقيم متجه إلى الحق فحنيفا صفة للدين.

*** **** ***

102/ زهرة التفاسير – لأبي زهرة – تفسير الآية (قل إنني هداني ربي).

الآية الثانية : قوله تعالى : (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) سورة الفتح (2) الشاهد الجملة الأخيرة من الآية ، وإليك بيانها :

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها ، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبيء - صلى الله عليه وسلم - من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين مما يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم ودفع أعدائهم ، فهذه الهداية متجمعة من الثبات على ما سبق هديه إليه ، ومن الهداية إلى ما لم يسبق إليه وكل ذلك من الهداية . والصراط المستقيم : مستعار للدين الحق كما تقدم في سورة الفاتحة .

وتنوين صراط للتعظيم . وانتصب " **صراطا** " على أنه مفعول ثان لـ " يهدي " بتضمين معنى الإعطاء ، أو بنزع الخافض كما تقدم في الفاتحة.

* * * * * * * * * *

الآية الثالثة : قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) سورة الضحى(7).

قبل أن أسرد أقوال المفسرين في معنى الآية الكرية أشير إلى قضية هامة ألا وهي : أنه لا يجوز أن يفهم من الضلال هنا هو ما يقابل الهدى بل المراد به شيئاً آخر كما سيأتي بيانه وقد نبه عدد من أهل العلم – قدامى ومعاصرين – إلى عدم جواز حمل الضلال في الآية إلى ما يقابل الهدى ، وأكتفي بذكر كلام بعضهم لضيق المقام :

قال الخازن رحمه الله تعالى في تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل:

ولا يلتفت إلى قول من قال إنه صلى الله عليه وسلم كان قبل النّبوة على ملة قومه، فهداه الله إلى الإسلام لأن نبينا صلى الله عليه وسلم، وكذلك الأنبياء قبله منذ ولدوا نشؤوا على التّوحيد، والإيمان قبل النّبوة وبعدها، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده ويدل على ذلك أن قريشاً لما عابوا النبي صلى الله عليه وسلم ورموه بكل عيب سوى الشّرك وأمر الجاهلية فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً إذ لو كان فيه لما سكتوا عنه ولنقل ذلك فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه

فيه وعيروه به. ويؤكد هذا ما روي في قصة بحير الرّاهب حين استحلف النبي صلى الله عليه وسلم باللاّت والعزى، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فرأى بحيرا علامة النّبوة فيه وهو صبي فاختبره بذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما**)، ويؤكد هذا شرح صدره صلى الله عليه وسلم في حال الصغر واستخراج العلقة منه وقول جبريل هذا حظ الشيطان منك وملؤه حكمة وإيماناً وقوله تعالى: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ**﴾ [النجم: (2) .

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى :

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالضَّلَالِ هُنَا اتِّبَاعَ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْإِشْرَاكِ قَبْلَ النُّبُوءَةِ بِاتِّفَاقِ عُلَمَائِنَا، وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَصْحَابُنَا أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ مَا يُنَافِي أُصُولَ الدِّينِ قَبْلَ رِسَالَتِهِ وَلَمْ يَزَلْ عُلَمَاؤُنَا يَجْعَلُونَ مَا تَوَاتَرَ مِنْ حَالِ اسْتِقَامَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ الرَّذَائِلِ قَبْلَ نُبُوءَتِهِ دَلِيلًا مِنْ جُمْلَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ، بَلْ قَدْ شَافَهَ الْقُرْآنُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[يُونُس: 16] وَقَوْلِهِ: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾[الْمُؤْمِنُونَ: 69]، وَلِأَنَّهُ لَمْ يُؤْثَرْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَفْحَمُوا النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَسَاوِي أَعْمَالِهِمْ بِأَنْ يَقُولُوا فَقَدْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَنَا.

*** **** ***

ويقول الدكتور محمد عزت دروزة - ملخصاً ما ذكره المفسرون في هذا الصدد - :

(إن الآية تحتوي إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته أو في إحدى رحلاته ورووا في ذلك روايات ، كما قالوا أنّها تعني أنّه كان غافلاً عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني أو أنّه كان حائراً في أسلوب العبادة لله ونفوا عنه أي حال أن يكون ضالاً أي مندمجاً في العقائد والتقاليد الشركية والنفس لا تطمئن إلى رواية تيهان النبي صلى الله عليه وسلم مضموناً وسنداً بل إنّها ليست متسقة مع ما تضمنته الآية من منّ الله على النبي صلى الله عليه وسلم بأعظم إفضاله عليه، وتفسير ضال بحائر يحمل معنى الآية على أنه المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه. وهو المعنى الذي نراه) .

وأختم بذكر الأقوال الواردة في تفسير الآية الكريمة : لقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيرها ما يقرب من خمس عشرة قولا ، بعضها ضعيف وبعضها متداخل ولذا سأذكر هنا ما هو أقرب إلى الصواب :

الأول : أي – وجدك - غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك : أي أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة كقوله جل ثناؤه : لا يضل ربي ولا ينسى أي لا يغفل . وقال في حق نبيه : وإن كنت من قبله لمن الغافلين .

الثاني : وجدك ضالا لم تكن تدري القرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن ، وشرائع الإسلام عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما . وهو معنى قوله تعالى : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. وقال قوم : ووجدك ضالا أي في قوم ضلال ، فهداهم الله بك . هذا قول الكلبي والفراء . وعن السدي نحوه أي ووجد قومك في ضلال ، فهداك إلى إرشادهم .

الثالث : **ووجدك متحيرا** عن بيان ما نزل عليك ، فهداك إليه فيكون الضلال بمعنى التحير ; لأن الضال متحير .

الرابع : **ووجدك ضائعا** في قومك فهداك إليه ويكون الضلال بمعنى الضياع .

الخامس : **ووجدك محبا للهداية** ، فهداك إليها ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : **(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)** يوسف (95) أي في محبتك . قال الشاعر :

عجبا لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

السادس : **ضالا في شعاب مكة** ، فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب . قال ابن عباس : ضل النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو صغير في شعاب مكة) الخ القصة وهي ضعيفة .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : هذه الأقوال كلها حسان ، ثم منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو حسي . والقول الأخير أعجب إلي . لأنه يجمع الأقوال المعنوية.

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما السلام في مقام الكفاية والرعاية والحماية

المطلب الأول : امتنان الله تعالى على الخليل عليه السلام بالهداية.

المطلب الثاني : رعاية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وكفايته.

المطلب الثالث : رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وحمايته من شر الأعداء.

المطلب الرابع : رعاية الله تعالى للنبي ﷺ وحمايته من شر الأعداء،

المطلب الأول

رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وكفايته

في هذا المطلب سنذكر العطاء الإلهي لكل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيدنا الخليل عليه السلام في مقامي الكفاية والرعاية فيما يتعلق بالرزق والتربية والترقية وإعلاء المقامات ، ونبدأ بما ورد في حق الخليل عليه السلام مستمدين من الله تعالى لطفه وبه مستعينين :

ورد ذلك في آيات، منها :

الآية الأولى : قوله تعالى : حاكياً قول الخليل عليه السلام :(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) سورة الشعراء (79).

وقبل ذكر تفسيرها أقول : نبه أحد مشايخنا إلى كلمة (يطعمني) وهذا أدق من الرزق لأن الإنسان قد يرزق ما لا يطعمه ، ولهذا لما تسمع (يطعمني) يأتي في خيالك الأم حين تضع الطعام في فمه فكأن الخليل عليه السلام يسشعر عناية الله تعلى به كلما تناول طعاماً ، وأن إدخال الطعام في الفم والتلذذ بمضغه وما تبع ذلك من انتفاع البدن به إنما هو عناية ربانية. والله أعلم.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى:

(قلت : وتجوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : والذي هو يطعمني ويسقين أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول).

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى :

وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق ، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه ، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة ، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : قوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) سورة الشعراء (80).

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : قوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ،وفيه سؤال وهو أنه لم قال : (**مرضت**) دون أمرضني ؟ وجوابه من وجوه:

الأول : أن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم ؟ لقالوا التخم.

الثاني : أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض ، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي . أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها ، وبقاؤها على اعتدالها إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع ، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطابعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع ، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى ، وما أضاف المرض إليه.

وثالثها : وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى ، فإن نقضته بالإماتة فجوابه : أن الموت ليس بضرر ، لأن شرط كونه ضررا وقوع الإحساس به ، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به ، إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض ، وأيضا فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصتها عنها عين السعادة بخلاف المرض.

قال القرطبي رحمه الله تعالى:

فإن قيل : فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ; لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ; وهذا إلزام صحيح .

* * * * * * * * * *

الآية الثالثة : قوله تعالى : (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) الشعراء (81) .

قال ابن عاشوررحمه الله تعالى:

قوله : **(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)** فلم يأت فيه بما يقتضي الحصر لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تميت بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم . فأما الموت فهو من فعل الدهر والطبيعة إن كانوا دهريين وإن كانوا يعلمون أن الخلق والإحياء والإماتة ليست من شؤون الأصنام وأنها من فعل الله تعالى كما يعتقد المشركون من العرب فظاهر .

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى:

وقال بعض الأجلة بعد التعليل بحسن الأدب في وجه إسناد الإماتة إليه تعالى: (**إنها حيث كانت معظم خصائصه - عز وجل - كالإحياء بدءا وإعادة، وقد نيطت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله: والذي يميتني ثم يحيين على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله، عليه السلام، للحياة الأبدية - بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده - عليه السلام** -)انتهى

وأولى من هذه العلاوة ما قيل: إن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية. وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي، ثم إن حمل المرض .

و**(ثم)** في قوله: ثم يحيين للتراخي الزماني؛ لأن المراد بالإحياء الإحياء للبعث، وهو متراخ عن الإماتة في الزمان في نفس الأمر - وإن كان كل آت قريب .

* * * * * * * * * *

المطلب الثاني

رعاية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وكفايته

لقد كانت عناية الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم تفوق الوصف ، فهي عناية بكل شئ يتعلق به عليه الصلاة والسلام بدءاً من ميلاده وإلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وقد امتن الله تعالى عليه بذلك في عدد من آي القرآن ،فقد خاطبه ربه بقوله (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك عائلاً فأغنى) وقوله تعالى :(**يا أيها النبي حسبك الله**) (**أليس الله بكاف عبده**) (**فإن تولوا فقل حسبي الله**).ولو ذهبنا نتتبع تفسير تلك الآيات لطال بنا الكلام ولخرجنا عن مقصودنا ولذا لنا وقفات مع بعض هذه الآيات:

الآية الأولى : قوله تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ) سورة الضحى (6) .

قبل أن أذكر كلام المفسرين أقول في وجه الموازنة بين نشأة النبي صلى الله عليه وسلم ونشأت الخليل عليه السلام أن الخليل قد رباه أبوه كما هو معلوم من سورة مريم وغيرها حيث ذكر أباه صراحة (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) ..الخ .واما النبي صلى الله عليه وسلم فقد نشأ يتيما ولا شك أن الفرق كبير بين من ينشأ في كنف أبيه وبين من ينشأ يتيماً .

هذه ناحية والناحية الأخرى أن الخليل عليه السلام أخبر عن نفسه فقال (**الذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين**) بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخبر الله تعالى أنه آواه ولا شك أن كلام الله عن الحبيب صلى الله عليه وسلم أرقى وأوثق وأجل وأعظم من حديثه صلى الله عليه وسلم عن نفسه

والآن إليك بعض ما قاله أهل التفسير في الآية الكريمة:

قال في تتمة أضواء البيان : ذكر ابن هشام في رعاية عمه له ، أنه كان إذا جن الليل وأرادوا أن يناموا ، تركه مع أولاده ينامون ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأتى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ينام موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد - صلى الله عليه وسلم - ، حتى إذا كان هناك من يريد به سوءا فرأى مكانه في أول الليل ، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد - صلى الله عليه وسلم - ، كما فعل الصديق - رضي الله عنه - عند الخروج إلى

الهجرة في طريقهما إلى الغار ، فكان - رضي الله عنه - تارة يمشي أمامه - صلى الله عليه وسلم - ، وتارة يمشي وراءه ، فسأله - صلى الله عليه وسلم – عن ذلك ، فقال : " أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون وراءك ، فقال : " أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر ؟ " قال : بلى ، فداك أبي وأمي يا رسول الله ، ثم قال : إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة " ، فذاك عمه في جاهلية وليس على دينه - صلى الله عليه وسلم - وهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه .

*** **** ***

وقال الرازي رحمه الله تعالى: قوله تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)فيه مسائل :

المسألة الأولى : أن اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول : (ألم يجدك يتيما) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بلى يا رب ، فيقول : انظر أكانت طاعاتك في ذلك الوقت أكرم أم الساعة ؟ فلا بد من أن يقال : بل الساعة . فيقول الله : حين كنت صبيا ضعيفا ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفا على شرفات العرش .

المسألة الثانية : (ألم يجدك) من الوجود الذي بمعنى العلم ، والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله ، والمعنى ألم يعلمك الله يتيما فآوى ، وذكروا في تفسير اليتيم أمرين :

الأول : أن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، ثم ولد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين .

وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فكان أبو طالب هو الذي يكفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة ، فقام بنصرته مدة مديدة ، ثم توفي أبو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يتم البتة فأذكره الله تعالى هذه النعمة ، روي أنه قال أبو طالب يوما لأخيه العباس : ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه ؟ فقال : بلى فقال : إني ضممته إلي فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ; ولا أأتمن عليه أحدا حتى أني كنت أنومه في فراشي ، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي ، فرأيت الكراهة في وجهه لكنه كره أن يخالفني ، وقال :

يا عماه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي ، فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك ، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئا وكثيرا ما كنت أفتقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فارجع ، ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبني وذلك عند مضي الليل وكنا لا نسمي على الطعام والشراب ولا نحمده بعده ، وكان يقول في أول الطعام : بسم الله الأحد . فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله ، فتعجبت منه ، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون .

واعلم أن العجائب المروية في حقه من حديث بحيرى الراهب وغيره مشهورة ، فلا نطيل بذكرها.

*** **** ***

التفسير الثاني لليتيم : أنه من قولهم درة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحدا في قريش عديم النظير فآواك ؟ أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب ، وقرئ فآوى وهو على معنيين : إما من أواه بمعنى آواه ، وإما من أوى له إذا رحمه .

قلت : وهذا التفسير لليتيم - درة يتيمة – يأتي من باب الإشارة إلى كونه صلى الله عليه وسلم فريداً من بين البشر في نشأته وجميع ومراحل حياته بل وفي خَلقه وخُلقه ولذا نقول : هذا القول: لا ينفي القول الأول لأنه لا شك في كونه صلى الله عليه وسلم نشأ يتيماً .

وختاماً : يجيب الرازي على سؤال مهم حول اختيار الله اليتم للحبيب صلى الله عليه وسلم فيقول : ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم ؟

قلنا : فيه وجوه :

أحدها : أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم ، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع . فقيل له في ذلك : فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

وثانيها : ليكون اليتيم مشاركا له في الاسم فيكرم لأجل ذلك . (قلت : ومعلوم لديك أخي القارئ الكريم ما ورد في القرآن والسنة من فضائل إكرام اليتيم والقيام على تربيته) .

وثالثها : أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما ، فسلب عنه الوالدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله ، فيصير في طفوليته متشبها بإبراهيم عليه السلام في قوله : حسبي من سؤالي ، علمه بحالي ، وكجواب مريم : (**أنى لك هذا قالت هو من عند الله**) [آل عمران : 37 .]

ورابعها : أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر ، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتم ، ليتأمل كل أحد في أحواله ، ثم لا يجدوا عليه عيبا فيتفقون على نزاهته ، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعنا .

وخامسها : جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب ، فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه .

وسادسها : أن اليتم والفقر نقص في حق الخلق ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام مع هذين الوصفين أكرم الخلق ، كان ذلك قلبا للعادة ، فكان من جنس المعجزات.

*** **** ***

يقول الأستاذ عماد الدين خليل مشيراً إلى الحكمة من يتمه عليه الصلاة والسلام :

(ومن مرارة اليتم ووحشية العزلة وانقطاع معين العطف والحنان قبس الرسول صلى الله عليه وسلم الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل... وبالفقر والحرمان تربى ونمى بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال.. وعبر رحلته إلى الشام في رعاية عمّه فتح الرسول صلى الله عليه وسلم عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطاً وقلقاً... وفي رحلته الثانية إلى الشام مسؤولاً عن تجارة للسيدة خديجة تعلّم الرسول الكثير الكثير عمّق في حسّه معطيات المرحلة الأولى وزاد عليها إدراكاً أكثر لما يحدث في أطراف عالمه العربي من

علاقات بين الغالب والمغلوب... كما علمه الانشقاق الأخلاقي عن الوضع المكي القدرة على مجابهة الأحداث) [118].

الآية الثانية : قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) الضحى (8) .

قال الرازي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : **(وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)** فيه مسائل :

المسألة الأولى : العائل هو ذو العيلة ، وذكرنا ذلك عند قوله : (ألا تعولوا) [النساء : 3] ويدل عليه قوله تعالى : (وإن خفتم عيلة) [التوبة : 28] ثم أطلق العائل على الفقير،وإن لم يكن له عيال.

وهنا في تفسير العائل قولان :

الأول : وهو المشهور أن المراد هو الفقير ، ويدل عليه ما روي أنه في مصحف عبد الله : " ووجدك عديما " وقرئ "عيلا" . (وهذه قراءة تفسيرية).

ثم في كيفية الإغناء وجوه :

الأول : أن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب ، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه تعالى بمال خديجة ، ولما اختل ذلك أغناه الله تعالى بمال أبي بكر ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ، ثم أمره بالجهاد ، وأغناه بالغنائم ، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة ، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع .

روي أنه عليه الصلاة والسلام : " دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت له ما لك ، فقال : (الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفذ مالك فأستحي منك ، وإن لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشا وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغا لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي لكثرة المال ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه ، وإن شاء أمسكه) .

96/دراسة في السيرة - عماد الدين خليل - دار النفائس – بيروت ص (40)

الثاني : أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم : ابُرزْ أَتُعبَدُ اللاتُ جهرا ونَعبدُ اللهَ سرا ! فقال عليه السلام : حتى تكثر الأصحاب ، فقال حسبك الله وأنا فقال تعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** [الأنفال : 64] فأغناه الله بمال أبي بكر ، وبهيبة عمر . "

الثالث : أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب ، لا تجد في قلبك سوى ربك ، فربك غني عن الأشياء لا بها ، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء ، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشيء لا به ، ومن ذلك أنه عليه السلام خير بين الغنى والفقر ، فاختار الفقر .

الرابع : كنت عائلا عن البراهين والحجج ، فأنزل الله عليك القرآن ، وعلمك ما لم تكن تعلم فأغناك .

*** **** ***

القول الثاني في تفسير العائل : أنت كنت كثير العيال وهم الأمة ، فكفاك . وقيل : فأغناهم بك لأنهم فقراء بسبب جهلهم ، و أنت صاحب العلم ، فهداهم على يدك) .

قال الشيخ عطيم محمد سالم رحمه الله في تتمة الأضواء:

وقوله تعالى : ووجدك عائلا فأغنى ، يشير إلى هذا الموضع ، لأن " أغنى " تعبير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - من حيث المال حالا فحالا ، والواقع أن غناه - صلى الله عليه وسلم - كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفي أنه - صلى الله عليه وسلم - أجود الناس .

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان - صلى الله عليه وسلم - القدوة في الحالتين ، في حالي الفقر والغنى ، إن قل ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له - صلى الله عليه وسلم - مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) [الحجر :87] ، **ثم قال : (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)** [الحجر :88] .

وقد اختلفوا في المقارنة بين الفقير الصابر والغني الشاكر أيهما أفضل وأعظم أجراً عند الله تعالى ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله - صلى الله عليه وسلم - كلا الأمرين ، ليرسم القدوة المثلى في الحالتين .

تنبيه : في الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله ، لإسنادها هنا لله تعالى .

ولكن في السياق لطيفة دقيقة ، وهي معرض التقرير ، يأتي بكاف الخطاب : **ألم يجدك يتيما ، ألم يجدك ضالا ، ألم يجدك عائلا** ، لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتم ولا الإضلال ولا الفقر لله ، مع أن كله من الله ، فهو الذي أوقع عليه اليتم ، وهو سبحانه الذي منه كلما وجده عليه ، ذلك لما فيه من إيلام له ، فما يسنده لله ظاهرا ، ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفي تعداد النعم : فآوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير المنعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رءوس الآي والفواصل ، ولكن الذي يظهر - والله تعالى أعلم - : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة ، بينما أبرزه في قوله تعالى : **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)** [الشرح: 1 - 2] ،**(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)** لأنها نعم معنوية انفرد بها صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى أعلم .

*** **** ***

المطلب الثالث

رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وحمايته من شر الأعداء

في هذا المطلب عما جرى للخليل عليه السلم عندما ألقي في النار فكفاه الله شرها وشر أعدائه ، كما أن الله حمى عرضه من أن ينتهك عندما دخل مصر .

وأما قصة إلقائه في النار فقد وردت في موضعين من القرآن الكريم ، وهما سورتي الصاصفات والأنبايء وسوف نتناول ما ورد في سورة الأنبياء باختصار :

قال تعالى (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) سورة الأنبياء (68-70).

مجمل كلام أهل التفسير في هذه الآيات :

لما تبين للقوم سوء فعلهم، وقلة حيلتهم في دفع حجج إبراهيم المتهادرة عنهم؛ إذ "قد دحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا عندئذ إلى استعمال جاهِ مُلكهم، فقالوا: ﴿ **حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: 68]، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًّا - قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفِيَتْ أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم - ثم جعلوه في جَوْبة من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقَدْ قط نارٌ مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق.فلما ألقَوه قال: "**حسبي الله ونعم الوكيل**"؛ كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: 173]".

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: (أمَّا إليك فلا، وأما من الله فبلى) .

قال الله - عز وجل -: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء: 69]، وقال كعب الأحبار: ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وَثاقِه.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضواء البيان:

فالكيد الذي أرادوه به : إحراقه بالنار نصرا منهم لآلهتهم في زعمهم ، وجعله تعالى إياهم الأخسرين أي الذين هم أكثر خسرانا لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضا في سورة " الصافات " في قوله : (**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ**) [الصافات / 98] وكونهم الأسفلين واضح ؛ لعلوه عليهم وسلامته من شرهم . وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين.

واما حماية الله تعالى لعرض الخليل عليه السلام من أن ينتهك عندما دخل مصر فهو قصة مشهورة ذكرها الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ما مُلخّصه:

أن ابراهيم عليه السلام لما قدم بلاد مصر علم أن فيها ملكا جبّارا فخاف على زوجه ونفسه فقال لها: " إن هذا الجبار ، إن لا يعلم أنك امرأتي ، يغلبني عليك . فإن سأل فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام , فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك" فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ،فأتاه فقال له :" **لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك** ".

فأمر جنوده فسُلبت من ابراهيم عُنوة، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة لائذاً بالله سبحانه وتعالى يدعو ربه عز وجل أن يحفظ له زوجه، وهل له وسيلة أخرى غير الدعاء في مثل هذه المواقف، وأن يسأل الله تعالى الذي نجّاه من النار أن يحفظه كذلك من وصمة العار.

فأدخلها الطاغوت إلى قصره فلما رأها لم يتمالك أن بسط يده إليها لهتك عرضها والاعتداء على شرفها وهي لا تملك حولا ولا قوة لتدافع بها عن نفسها، **فلما بسط يده اليها قُبضت يده قبضة شديدة فقال لها : (ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك) ففعلت ذلك ، فعادت يده سليمة كما كانت** ثم عاد إلى فعلته الأولى، وكذلك عادة الغدّارين فلما بسط يده اليها قبضت أشد من القبضة الأولى فقال لها مثل المرّة الأولى فدعت الله عز وجل أن يطلق يده؛ فعادت يده كما كانت .

ثم عاد إلى فعلته القبيحة - قبّح الله وجهه - فقبضت يده أشد من القبضتين الأوليين فقال : "ادعي الله أن يطلق يدي . فلك الله أن لا أضرك" ففعلت . وأطلقت يده ،ثم دعا الرجل الذي جاء بها إليه فقال له : "إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر تخدمها.

فعادت سارة معها هاجر إلى ابراهيم عليه السلام وهو يصلّي فأومأ بيده أن ما الخبر ،فقالت : (كف الله يد الفاجر في نحره وأخدم هاجر) قال أبو هريرة في نهاية الرواية : فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

*** **** ***

المطلب الرابع

رعاية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وحمايته من شر الأعداء

لقد تبين مما سبق كيف كانت عناية الله تعالى بخليله إبراهيم عليه السلام والموازنة تقتضي أن أبين كيف كانت عناية الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم وعصمته من شر أعدائه ، فقد زاده جل وعلا أن جعل أتباعه أيضاً ممنوعين من شر الأعداء :

لقد ورد ذلك في آيات :

منها :(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنفال : 64) **ومنها (فإن تولوا فقل حسبي الله) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)**[المائدة:67] **.وقوله تعالى :(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)** [البقرة:137]**. وغيرها.**

وسنقف مع آيتين منها :

الآية الأولى : قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنفال : 64).

قبل ذكر أقوال المفسرين أقول : واضح من الآية الكريمة أن الله تعالى كفى نبيه صلى الله عليه وسلم شر أعدائه وأدخل في هذه الكفاية أتباعه المؤمنين به ولم يرد هذا في حق الخليل عليه السلام .

قال الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان : (ذكر فيها قولين ثم رجح الثاني) .

الأول : قال بعض العلماء: إن قوله: {وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ} في محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أي حسبك الله، وحسبك أيضاً من اتبعك من المؤمنين. وممن قال بهذا الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبي،

القول الثاني : وقال بعض العلماء: هو في محل خفض بالعطف على الضمير الذي هو الكاف في قوله: {حَسْبَكَ} وعليه، فالمعنى حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشاف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره،

الترجيح : والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَآ ءَاتَٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ}** ، فجعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ} .

وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصاً به... وقال: **{أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}** ؟ فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ، وقال تعالى: **{وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ}** ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وهذا القول رجحه السعدي أيضاً رحمه الله تعالى حيث يقول : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ) أي : كافيك **(وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)**" أي : وكافي أتباعك من المؤمنين ، وهذا وعد من الله ، لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله ، بالكفاية ، والنصرة على الأعداء . فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع ، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا ، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67] .

قبل ذكر كلام أهل العلم أقول : في الآية عصمة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم من القتل وعصمة لشرعه من التحريف والضياع وهذه زيادة على عصمة إبراهيم الخليل عليه السلام .

قال القرطبي رحمه الله تعالى:

والله يعصمك من الناس فيه دليل على نبوته ، لأن الله عز وجل أخبر أنه معصوم ، ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمره الله به.

وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نازلا تحت شجرة فجاء أعرابي فاخترط سيفه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ؛ فذعرت يد الأعرابي وسقط السيف من يده ; وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه ; ذكره المهدوي ، وذكره القاضي عياض في كتاب الشفاء قال : وقد رويت هذه القصة في الصحيح ، وأن غورث بن الحارث صاحب القصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه ،فرجع إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس) .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : " غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، قال : وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**إن رجلا أتاني و أنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتا في يده فقال لي : من يمنعك مني - قال - قلت : الله ثم قال في الثانية من يمنعك مني - قال - قلت : (الله) قال فشام السيف فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم**) باختصار.

*** **** ***

قال أهل العلم :

لقد أحاط الله تعالى نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام بحفظه ورعايته، وعصمه من مكر المشركين أفرادا وجماعات، رجالا ونساء، قبل الهجرة وبعدها، ورد كيدهم عليهم فانقلبوا خاسرين خائبين.

ووما يذكر في هذا المقام : أن أباجهل كان أكثر الناس عداوة للنبي عليه الصلاة والسلام، وحاول قتله غير مرة، فحال الله تعالى بينه وبين نيته الخبيثة، وذات مرة قال أبو جَهْلٍ: (**هل يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بين أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نعم، فقال: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذلك لَأَطَأَنَّ على رَقَبَتِهِ أو لَأُعَفِّرَنَّ**

وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ قال فَأَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبَتِهِ، قال: فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ له: مالك؟ فقال: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا من نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى عبد الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: **أن قريشا اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْماً فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: ما رَأَيْنَا مِثْلَ ما صَبَرْنَا عليه من هذا الرَّجُلِ قَطُّ: سَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لقد صَبَرْنَا منه على أَمْرٍ عَظِيمٍ أو كما قالوا قال: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذا طَلَعَ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فَأَقْبَلَ يمشي حتى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفاً بِالْبَيْتِ فلما أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ ما يقول، قال: فَعَرَفْتُ ذلك في وَجْهِهِ ثُمَّ مَضَى، فلما مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذلك في وَجْهِهِ ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فقال: تَسْمَعُونَ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لقد جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ، فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حتى ما منهم رجلا إلا كَأَنَّمَا على رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حتى إن أَشَدَّهُمْ فيه وصاةً قَبْلَ ذلك ليرفأه بِأَحْسَنِ ما يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ حتى إنه لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِداً؛ فَوَالله ما كُنْتَ جَهُولاً)** رواه أحمد وصححه ابن حبان.

وفي السيرة النبوية بل والأحاديث الصحيحة نجدحماية الله تعالى له صلى الله عليه وسلم : من محاولة الأعداء قتله قبل الهجرة ،و حماه تعالى عند الهجرة وحماه تعالى بعد الهجرة و حماه تعالى من محاولة اليهود قتله وحماه من محاولة المنافقين قتله، وحماه تعالى محاولة الشياطين قتله.

*** **** ***

المبحث الثالث

الموازنة بين النبي والخليل عليهما الصلاة والسلام في مقامي الخلة والمحبة

المطلب الأول : بيان مقام الخلة التي أعطيها إبراهيم عليه السلام.

المطلب الثاني : بيان مقام الخلة التي أعطيها النبي ﷺ.

المطلب الأول

بيان مقام الخلة التي أعطيها إبراهيم عليه السلام

قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا۬وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) (النساء 125).

قبل الشروع في تفسيرها أقول : في الآية الكريمة ترغيب في اتباع ملة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام لأنه وصل إلى مقام الخلة والتي هي أكبر دليل على كمال الاستسلام لأمر الله تعالى ولذا قدَّم لها بقوله تعالى (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ).

قال الرازي رحمه الله تعالى : قال تعالى : (وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : في تعلق هذه الآية بما قبلها ، وفيه وجهان :

الأول : أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ في علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلا كان جديرا بأن يتبع خلقه وطريقته.

والثاني : أنه لما ذكر ملة إبراهيم ، ووصفه بكونه حنيفا ، ثم قال عقيبه : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلا ؛ لأنه كان عالما بذلك الشرع ، آتيا بتلك التكاليف ، ومما يؤكد هذا قوله : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [البقرة : 124] . وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماما للخلق ؛ لأنه أتم تلك الكلمات.

وإذ ثبت هذا فنقول : لما دلت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي ، وهو كونه خليلا لله تعالى بسبب أنه كان عاملا بتلك الشريعة كان هذا تنبيها على أن من عمل بهذا الشرع لا بد وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين ، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين .

*** **** ***

المسألة الثانية : ذكروا في اشتقاق الخليل وجوها :

الأول : أن خليل الإنسان هو الذي يدخل في خلال أموره وأسراره ، والذي دخل حبه في خلال أجزاء قلبه ، ولا شك أن ذلك هو الغاية في المحبة .

قيل : لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ، ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله ، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلم نفسه للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيفان جعله الله إماما للخلق ورسولا إليهم ، وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته ، فلهذه الاختصاصات سماه خليلا ؛ لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه .

الوجه الثاني في اشتقاق اسم الخليل : أنه الذي يوافقك في خلالك . أقول : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تخلقوا بأخلاق الله " . فيشبه أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ في هذا الباب مبلغا لم يبلغه أحد ممن تقدم ، لا جرم خصه الله بهذا التشريف .

الوجه الثالث : قال صاحب "الكشاف" : إن الخليل هو الذي يسايرك في طريقك ، من الخل وهو الطريق في الرمل ، وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني ، أو يحمل ذلك على شدة طاعته لله وعدم تمرده في ظاهره وباطنه عن حكم الله ، كما أخبر الله عنه بقوله : (**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**) البقرة : (131) .

الوجه الرابع : الخليل هو الذي يسد خللك كما تسد خلله ، وهذا القول ضعيف ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما كان خليلا مع الله امتنع أن يقال : إنه يسد الخلل ، ومن ههنا علمنا أنه لا يمكن تفسير الخليل بذلك .

* * * * * * * * * *

أما المفسرون فقد ذكروا في سبب استحقاق إبراهيم عليه السلام لهذا اللقب وجوها :

الأول : أنه لما صار الرمل الذي أتى به غلمانه دقيقا قالت امرأته : هذا من عند خليلك المصري ، فقال إبراهيم : بل هو من خليلي الله .

والثاني : قال شهر بن حوشب : هبط ملك في صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجي ، فقال إبراهيم عليه السلام : اذكره مرة أخرى ، فقال : لا أذكره مجانا ، فقال : لك مالي كله ، فذكره الملك بصوت أشجى من الأول ، فقال : اذكره مرة ثالثة ولك أولادي ، فقال الملك : أبشر فإني ملك لا أحتاج إلى مالك وولدك ، وإنما كان المقصود امتحانك ، فلما بذل المال والأولاد على سماع ذكر الله لا جرم اتخذه الله خليلا .

الثالث : روى طاوس عن ابن عباس : أن جبريل والملائكة لما دخلوا على إبراهيم في صورة غلمان حسان الوجوه ، وظن الخليل أنهم أضيافه ، وذبح لهم عجلا سمينا ، وقربه إليهم ، وقال : كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره ، فقال جبريل : أنت خليل الله ، فنزل هذا الوصف .

وأقول : فيه عندي وجه آخر ، وهو أن جوهر الروح إذا كان مضيئا مشرقا علويا قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ، ثم انضاف إلى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف أعمال تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية ، وأفكار تزيده استنارة بالمعارف القدسية والجلايا الإلهية ، صار مثل هذا الإنسان متوغلا في عالم القدس والطهارة ، متبرئا عن علائق الجسم والحس ، ثم لا يزال هذا الإنسان يتزايد في هذه الأحوال الشريفة إلى أن يصير بحيث لا يرى إلا بالله ، ولا يسمع إلا بالله ، ولا يتحرك إلا بالله ، ولا يسكن إلا بالله ، ولا يمشي إلا بالله ، فكأن نور جلال الله قد سرى في جميع قواه الجسمانية ، وتخلل فيها وغاص في جواهرها ، وتوغل في ماهياتها، فمثل هذا الإنسان هو الموصوف حقا بأنه خليل ، لما أنه تخللت محبة الله في جميع قواه ، وإليه الإشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : (**اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي بصري نورا ، وفي عصبي نورا**).

*** **** ***

المسألة الثالثة : قال بعض النصارى : لما جاز إطلاق اسم الخليل على إنسان معين على سبيل الإعزاز والتشريف ، فلم لا يجوز إطلاق اسم الابن في حق عيسى عليه السلام على سبيل الإعزاز والتشريف ؟ .

وجوابه : أن الفرق أن كونه خليلا عبارة عن المحبة المفرطة ، وذلك لا يقتضي الجنسية ، أما الابن فإنه مشعر بالجنسية ، وجل الإله عن مجانسة الممكنات ومشابهة المحدثات.

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى :

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) تذييل جيء به للترغيب في اتباع ملته - عليه السلام - والإيذان بأنه نهاية في الحسن، وإظهار اسمه - عليه السلام - تفخيما له وتنصيصا على أنه الممدوح.

وإطلاقه – أي لقب الخليل - على إبراهيم عليه السلام :

قيل : لأن محبة الله تعالى قد تخللت نفسه وخالطتها مخالطة تامة، أو لتخلقه بأخلاق الله تعالى، ومن هنا كان يكرم الضيف، ويحسن إليه، ولو كان كافرا، فإن من صفات الله تعالى الإحسان إلى البر والفاجر.

وفي بعض الآثار - ولست على يقين في صحته -: «أنه عليه السلام نزل به ضيف من غير أهل ملته، فقال له: وحد الله تعالى حتى أضيفك وأحسن إليك، فقال: يا إبراهيم من أجل لقمة أترك ديني ودين آبائي، فانصرف عنه، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم صدقك! لي سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بي، وتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة، فلحقه إبراهيم - عليه السلام - وسأله الرجوع إليه ليقربه، واعتذر إليه، فقال له المشرك: يا إبراهيم ما بدا لك؟ فقال: إن ربي عتبني فيك، وقال: أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره بي، وأنت تريد أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة؟! فقال المشرك: أوقد وقع هذا؟! مثل هذا ينبغي أن يعبد، فأسلم ورجع مع إبراهيم عليه السلام إلى منزله) .

*** **** ***

وأخرج البيهقي في (الشعب) عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**يا جبريل لم اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلا؟ قال: لإطعامه الطعام يا محمد)** .

وقيل - واختاره البلخي والفراء - : **لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى، وانقطاعه إليه، وعدم الالتفات إلى من سواه، كما يدل على ذلك قوله لجبريل - عليه السلام - حين قال له يوم ألقي في النار: ألك حاجة؟ «أما إليك فلا» ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل.**

وقيل في وجه تسميته - عليه السلام - خليل الله غير ذلك، والمشهور أن الخليل دون الحبيب .

وقال في تفسير المنار :

واتخذ الله إبراهيم خليلا ، أي : اصطفاه لتوحيده وإقامة دينه في زمن وبلاد غلبت عليها الوثنية ، وقوم أفسد الشرك عقولهم ودنس فطرتهم ، فكان إبراهيم خالصا مخلصا لله وبهذا المعنى سماه الله خليلا ، وإذا أراد الله أن يكرم عبدا من عباده أطلق عليه ما شاء ، وإلا فإن المعنى المتبادر من لفظ الخليل في استعمالنا له يتنزه الله عنه ، فإن الخلة بين الخليلين إنما تتحقق بشيء من المساواة بينهما ، وهي من مادة التخلل الذي هو بمعنى الامتزاج والاختلاط اهـ .

والله يحب الأصفياء من عباده ويحبونه ، وقد كان إبراهيم كامل الحب لله ; ولذلك عادى أباه وقومه وجميع الناس في حبه تعالى والإخلاص له ، وقيل : إن الخليل هنا مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهي الحاجة ; لأن إبراهيم ما كان يشعر بحاجته إلى أحد غير الله عز وجل حتى قال في الحاجات العادية التي تكون بالتعاون بين الناس (**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) (الشعراء : الآيتان 78 ، 79) ، والأول أظهر وأكمل.

والمراد بذكر هذه الخلة الإشارة إلى أعلى مراتب الإيمان التي كان عليها إبراهيم ، ليتذكرالذين يدعون اتباعه من اليهود والنصارى والعرب ما كان عليه من الكمال ، وما هم عليه من النقص ،ولذلك ذكر أهل الأثر أن هذه الآية نزلت في سياق الرد على أولئك المتفاخرين بدينهم المتبجح كل منهم بأنه على ملة إبراهيم ، والمعنى : أن إبراهيم قد اتخذه الله خليلا بأن من عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة بالوحي والفناء في التوحيد ، فأين أنتم من ذلك ؟ ! ولا تكاد توجد كلمة في

اللغة تمثل هذه المعاني غير كلمة الخليل ، وأما لوازم هذه الكلمة في استعمال البشر التي هي خاصة بهم فينزه الله عنها بأدلة العقل والنقل .

*** **** ***

فوائد مهمة :

الفائدةالأولى : لم يختص إبراهيم عليه السلام بخُلَّة الرحمن سبحانه وتعالى ، بل شاركه فيها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فعن جُنْدَب بنِ عَبْدِ الله البَجَلي رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ : (**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**) رواه مسلم (532).

*** **** ***

الفائدة الثانية : قال ابن القيم رحمه الله:

مرتبة الخلة التي انفرد بها الخليلان : إبراهيم ، ومحمد ، صلى الله عليهما وسلم ، كما صح عنه أنه قال : (**إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً**) ، وقال : (**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**) .والحديثان في الصحيح ، وهما يبطلان قول من قال : "الخلة لإبراهيم ، والمحبة لمحمد ، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه. " [119]

وقد استحق كلا النبيين عليهما الصلاة والسلام هذه المنزلة لما لهما من الصفات ، والأفعال العظيمة الجميلة.

وبخصوص النبي إبراهيم عليه السلام : فإن الله تعالى قد أثنى عليه في القرآن ثناء عظيماً ، وذكر له من الصفات والأفعال ما استحق بها أن يكون خليلاً لربه تعالى ، وأعظم تلك الصفات والأفعال : تحقيقه للتوحيد ، وبراءته من الشرك والمشركين ، حتى نسب الدين والملَّة إليه عليه السلام ، ولذا

97/ مدارج السالكين – لابن القيم - (30/3)

فلا عجب إِنْ عَلِمْنَا أن الله تعالى أمر نبيَّه محمَّداً صلى الله عليه وسلم أن يتبع هذه الملَّة في قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) النحل/ 123 ، وأمر سبحانه عبادَه جميعهم بذلك الاتباع لتلك الملَّة إتباعه في قوله: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) آل عمران/ (95)[120] .

*** **** ***

الفائدة الثالثة : من عظيم صفات و أفعال إبراهيم عليه السلام:

الآية الأولى : قال الله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ) النحل:(120، 122).

والأمّة : هو الإمام الجامع لخصال الخير الذي يُقتدى به. والقانت هو الخاشع المطيع لربه دائماً.

والحنيف : هو المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد،ولهذا قال: (وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ) أي : قائماً بشكر نعمة ربه عليه. فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن (اجْتَبَاهُ) ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المقربين .[121]

الآية الثانية : قال الله تعالى : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) النجم(37).

قال البقاعي رحمه الله تعالى :

قال تعالى : (**و إبراهيم**) ومدحه بقوله (**وفَّى**) دالا بتشديد الفعل على غاية الوفاء: الذي وفى أي أتم ما أمر به وما امتحن به وما قلق شيئا من قلق، وكان أول من هاجر قومه وصبر على حر ذبح الولد وكذا على حر النار ولم يستعن بمخلوق.

120/ موقع الأسلام سؤال وجواب .

99/ انظر: تفسير ابن كثير، وتفسير السعدي.

الآية الثالثة : قال الله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) هود/ 75.

و(حَلِيمٌ) "أي : ذو رحمةٍ ، وصفحٍ عما يصدر منهم إليه من الزلات ، لا يستفزه جهل الجاهلية ، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه. "تفسير السعدي.

و(أَوَّاهٌ) أي : كثير التضرع والذكر والدعاء والاستغفار. و(مُنِيبٌ) "أي : راجع إلى الله بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عما سواه. " تفسير السعدي.

الآية الرابعة : قال الله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ) الذاريات/ 24 – 27.

الآية الخامسة : قال الله تعالى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف/ 35 ، وإبراهيم عليه السلام من أولي العزم من الرسل ، فهم المذكورون في قوله تعالى : **(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)** الشورى/13.

الآية السادسة : قال الله تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وممَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ ...) الممتحنة/ 4.

الآية السابعة : قال الله تعالى : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقرة/124.

إلى غير ذلك من الصفات والأفعال ، التي بمجموعها استحق عليه السلام أن يكون خليلاً لله تعالى.

*** **** ***

الفائدة الرابعة : قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب (زاد المعاد) يقول: "لما سأل إبراهيم عليه السلام ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته. والله تعالى قد اتخذه خليلاً؛ والخلة

منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب. فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلُصَت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبقَ في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه فقد حصل المقصود فنُسِخ الأمر، وفُدِي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان مقام الخلة التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم وثمارها(11فضيلة)

إن مقام الخلة ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم بالأحاديث الصحيحة ، من ذلك :

عن عبد الله بن مسعود .رضي الله عنه .قال: قال رسول الله .صلى الله عليه وسلم :(أَلَا إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خِلٍّ مِنْ خِلِّهِ ، وَلَوْكُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ) رواه مسلم .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: **سمعتُ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم- قبل أن يموتَ بخمس وهو يقول:** (إني أَبْرَأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، وإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، ولوكنتُ متخذاً من أُمَّتي خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلا) رواه مسلم .

وفي إثبات خلته .صلى الله عليه وسلم .لربه .عز وجل .بيان لفضله وعلو منزلته، وتمام حفظ الله وتكريمه له، ومن ثم ينبغي الحذر من تنقص مقامه وقدْره، أو الترفع عن طاعته واتباعه، أو الطعن في سنته، لأننا إذا فعلنا ذلك فقد عادينا عبدا اتخذه الله خليلا، فبموجب هذه الخلة يبغض الله باغضه، ويعادي عدوه، وينتقم ممن أساء إليه، وفي المقابل يثبت الخير من الله لكل من أحبه وعظمه، واتبع سنته .صلوات الله وسلامه عليه .

*** **** ***

وقد اختلف العلماء في مقامي الخلة والمحبة أيهما أعلى - أو أفضل – على ثلاثة آراء [122]:

وأنا أحببت أن أذكر هذه الآراء من باب معرفة جلالة وعظمة هذين المقامين وتلكم المنزلتين ، وذلك من خلال بيان مفهومهما بالإضافة إلى عرض الأدلة ذلك .

الرأي الأول : أن المحبة أعلى من الخلة : وممن قال بهذا القول القاضي عياض رحمه تعالى ،واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخلة أو درجة المحبة؟

122 / كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى - للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المغربي - دار الفكر-سنة النشر: 1423هـ/ 2002م – (الفصل التاسع) وتوجد نسخة إلكترونية في موقع الشبكة الإسلامية .

فجعلهما بعضهم سواء فلا يكون الحبيب إلا خليلا، ولا الخليل إلا حبيباً لكنه خص إبراهيم بالخلة، ومحمداً بالمحبة.وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع، واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل" فلم يتخذه. وقد أطلق المحبة لفاطمة، وابنيها، وأسامة وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة، لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

قلت : ومال القاضي إلى هذا الرأي ولهذا أصَّل له وأطنب في شرحه والاستدلال له وأنا هنا أنقل لك ما يؤدي إلى المطلوب : حيث قال رحمه الله تعالى :

قال بعضهم: أصل الخلة المحبة، ومعناها الإسعاف، والإلطاف، والترفيع، والتشفيع، وقد بين ذلك في كتابه تعالى بقوله: **(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)** سورة المائدة، الآية(18). فأوجب للمحبوب ألا يؤاخذ بذنوبه.

*** **** ***

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والإنتفاع بالوفق، وهي درجة المخلوق، فأما الخالق . جل جلاله . فمنزه عن الأغراض، فمحبته لعبده تمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال في الحديث: **(فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به)** .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله، والإنقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله، كما قالت عائشة رضي الله عنه: كان خلقه القرآن، برضاه يرضى، وبسخطه يسخط .

ثم قال رحمه الله تعالى : إذًا مزية الخلة وخصوصية المحبة حاصلة لنبينا صلى الله عليه وسلم بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة، المتلقاة بالقبول من الأمة.

وكفى بقوله تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** سورة آل عمران (31) .

حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم، فأنزل الله .غيظاً لهم ورغماً على مقالتهم هذه الآية: قل أطيعوا الله والرسول ، فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله: فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين.

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخلة يطول، جملة اشارته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة، ونحن نذكر منه طرفاً يهدي إلى ما بعده.

فمن ذلك قولهم : الخليل عليه السلام يصل بالواسطة، من قوله تعالى: **(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)** سورة الأنعام، (75) .

والحبيب صلى الله عليه وسلم يصل لحبيبه به، من قوله: فكان قاب قوسين أو أدنى.

وقيل: الخليل عليه السلام: الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: **(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)** سورة الشعراء(82) .

والحبيب صلى الله عليه وسلم الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: **(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)** سورة الفتح، الآية (2) .

*** **** ***

والخليل عليه السلام قال: (ولا تخزني يوم يبعثون) سورة الشعراء، الآية 87 .

والحبيب قيل له : **(يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)**التحريم (8) فابتدىء بالبشارة قبل السؤال.

والخليل عليه السلام قال في المحنة : (حسبي الله) كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والحبيب صلى الله عليه وسلم قيل له: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) سورة الأنفال الآية 64 وقيل له (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) التوبة (129).

والخليل عليه السلام قال: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)سورة الشعراء، الآية 84

والحبيب صلى الله عليه وسلم قيل له : (**ورفعنا لك ذكرك**) ، أعطي بلا سؤال.

والخليل عليه السلام قال: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) سورة إبراهيم (35) .

والحبيب صلى الله عليه وسلم قيل له: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) الأحزاب (33).

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال، **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)** [سورة الإسراء، الآية 84].

وممن قال بهذا الرأي أيضاً الآلوسي رحمه الله حيث يقول - عند تفسير قوله تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) النساء (125) :

(الظاهر من كلام المحققين أن الخلة مرتبة من مراتب المحبة، وأن المحبة أوسع دائرة، وأن من مراتبها ما لا تبلغه أمنية الخليل، عليه السلام، وهي المرتبة الثابتة له صلى الله عليه وسلم، وأنه قد حصل لنبينا - عليه الصلاة والسلام - من مقام الخلة ما لم يحصل لأبيه إبراهيم - عليه السلام - وفي الفرع مافي الأصل وزيادة، ويرشدك إلى ذلك أن التخلق بأخلاق الله تعالى الذي هو من آثار الخلة عند أهل الاختصاص أظهر وأتم في نبينا - صلى الله عليه وسلم - منه في إبراهيم - عليه السلام - فقد صح أن خلقه القرآن، وجاء عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) [123].

123 / قال الهيثمي في مجمع الزوائد – (18/9): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلوذاني وهو ثقة .

وشهد الله تعالى له بقوله : **(و إنك لعلى خلق عظيم)** ومنشأ إكرام الضيف الرحمة، وعرشها المحيط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما يؤذن بذلك قوله تعالى: **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** ولهذا كان الخاتم عليه الصلاة والسلام .

وقد روى الحاكم وصححه عن جندب: أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول قبل أن يتوفى: (**إن الله تعالى اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا**) والتشبيه على حد كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم في رأي، وقيل: إن (**يتوفى**) لا دلالة فيه على أن مقام الخلة بعد مقام المحبة كما لا يخفى .

وفي لفظ الحب والخلة ما يكفي العارف في ظهور الفرق بينهما، ويرشده إلى معرفة أن أي الدائرتين أوسع، وذهب غير واحد من الفضلاء إلى أن الآية من باب الاستعارة التمثيلية لتنزهه تعالى عن صاحب وخليل، والمراد اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وأما في الخليل وحده فاستعارة تصريحية على ما نص عليه الشهاب، إلا أنه صار بعد علما على إبراهيم عليه الصلاة والسلام) اهـ [124].

*** **** ***

الرأي الثاني : أن مقام الخلة أعلى من المحبة : وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والشيخ ابن عثيمين ،والشيخ الألباني رحمهم الله تعالى ، وإليك طرفاً من كلامهم :

قال ابن تيمية رحمه الله : " وقول بعض الناس إن محمدا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلة، قول ضعيف، فإن محمدا أيضا خليل الله، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة[125]. "

وقال ابن القيم رحمه الله : " وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله ومحمد حبيب الله فمن جهله، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، والخلة نهاية المحبة وقد

---

124 / باختصار من تفسيره .

125 /مجموع الفتاوى - لشيخ الإسلام ابن تيمية (204/10) .

أخبر النبي . صلى الله عليه وسلم (**أن الله اتخذه خليلًا، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بمحبته لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم**) .[126]

وقال : وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله!، وهذا باطل من وجوه كثيرة: منها: أن الخلة خاصة والمحبة عامة ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وقال في عباده المؤمنين: { **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** }(المائدة الآية:54).

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة، ومن الرجال أبوها، ومنها: أنه قال: (**إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا**).

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال: (**لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام ومودت**) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى : " الخليل هو الذي بلغ غاية المحبة، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**إن الله اتخذني خَلِيلاً كما اتخذ إِبْرَاهِيْمَ خليلا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذَاً مِنْ أُمَّتِيْ خليلا لاَتَّخَذْتُ أبا بكر خليلا**) رواه مسلم .

وهناك كلمة شائعة عند الناس : يقولون : إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله، وموسى كليم الله، ولاشك أن محمداً صلى الله عليه وسلم حبيب الله ولكن هناك وصف أعلى من ذلك وهو خليل الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم خليل الله، والذين يقولون محمد حبيب الله قد هضموا حق الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المحبة أقل من الخلة، ولذلك نقول لا نعلم من البشر خليلاً لله إلا اثنان: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام . لكن المحبة كثير كما قال الله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**}(البقرة: الآية195) و: {**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً**}(الصف: الآية4) وغير ذلك من الآيات. "

* * * * * * * * * *

126 / روضة المحبين – (57) .

الرأي الثالث : أن المحبة والخلة سواء ولا تفاضل بينهما : وهذا الرأي ذكره القاضي عياض دون نسبته لأحد ، حيث يقول (فجعلهما بعضهم سواء فلا يكون الحبيب إلا خليلا، ولا الخليل إلا حبيباً لكنه خص إبراهيم بالخلة، ومحمداً بالمحبة) وقد سبق ذكره .

فائدة : وورد حديث ظاهره يخالف ما تقدم من أن الخلة أعلى من المحبة، رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : (**إِنَّ إِبْرَاهِيم خَلِيلُ اللَّهِ ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ ، وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ، وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ ، أَلا وَ أَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلا فَخْرَ**) وهذا الحديث ضعيف، ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي .

*** **** ***

ومن ثمار تلك الخلة الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم :

تفكرت في ثمار الخلة التي حباها الله للحبيب صلى الله عليه وسلم فوجدت أن ذلك ظاهر للعيان من خلال النظر في الفضائل التي حباها الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وتلك الفضائل لا نهاية لها ولكن أذكر في هذا المقام طرفاً منها [127]:

الفضيلة الأولى : من أعظم فضائله أن الله تعالى أقامه مقام ذاته

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى - وهو يتحدث عن بيعة صلح الرضوان - : (والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عثمان ليعلم قريشاً أنه إنما جاء معتمراً لا محارباً، ففي غيبة عثمان شاع عندهم أن المشركين تعرضوا لحرب المسلمين فاستعد المسلمون للقتال وبايعهم النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ تحت الشجرة على أن لا يفروا وذلك في غيبة عثمان، وقيل: بل جاء الخبر بأن عثمان قتل فكان ذلك سبب البيعة) أ.هـ

---

127 / وقد جمعت عددا كبيرا من الأحاديث الدالة على فضائله صلى الله عليه وسلم في كتابي (بدر التمام الجامع لأحاديث فضائل النبي عليه الصلاة والسلام) .

قلت : والآية التي تشير إلى البيعة هي قوله تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)** سورة الفتح (10).

الفضيلة الثانية : إسلام قرينه من الجن :

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال :قال رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم :" **ما منكم من أحد إلا و قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة : قالوا : و إيّاك يا رسول الله ؟ قال : و إياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**"رواه مسلم.

الفضيلة الثالثة : جعله الله زينة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام :

عن جابر عن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم قال :"**مثلي و مثل الأنبياء كمثل رجل بني دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها و يتعجبون منها و يقولون لولا موضع اللبنة ! قال رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم: فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء** " رواه مسلم

الفضيلة الرابعة : وهبه الله علما لم يهبه لأحد من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام

عن المقداد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ألا و إني أوتيت القرآن ومثله معه**) رواه أبو داوود والترمذي ،والمراد بـ(ومثله معه) السنة كما ذكر جمهور كثير من العلماء.

وعن عمر رضي الله عنه قال : (**قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بَدءِ الخَلقِ حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه**) رواه البخاري . وعن أبي زيد عمرو بن أخطب قال : (**صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفجرَ، وصَعِدَ المِنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلّى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلّى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غَرَبَت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائنٌ، فأعلَمُنا أحفَظُنا**) .

*** **** ***

الفضيلة الخامسة : جعله الله إماماً لجميع الأنبياء عليهم السلام في الدنيا ليلة الإسراء :

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - وهو يتحدث عن ليلة الإسراء - : " **وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْب جَعْد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني : نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم)** رواه مسلم .

الفضائل من السادسة إلى العاشرة : فضله الله تعالى بست لم يعطها لأحد من النبيين عليهم السلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :(فضلت علي الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، و نصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأرسلت إلي الخلق كافة ، وختم بي النبيين) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة - أيضاً - عن رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم أنه قال :(والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي و لا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال : أتي عمر رضي الله عنه النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفتري أن نكتب بعضها ؟ فقال : (أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود و النصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية و لو كان موسي حيا ما وسعه إلا إتباعي) إسناده حسن .

* * * * * * * * * *

الفضيلة الحادية عشرة : إرضاء الله تعالى له في أمته :

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ : { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي } الْآيَةَ [إبراهيم: 36] .

وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة: 118] .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ ، وَلَا نَسُوءُكَ) رواه مسلم (202).

من فوائد الحديث : مما قاله العلماء في فوائد هذا الحديث ما يأتي :

1/ في ربط الآيتين ببكائه صلى الله عليه وسلم ودعائه قال بعضهم إن إبراهيم طلب المغفرة لمن عصى من أمته بقوله: (**ومن عصاني فإنك غفوررحيم**) وأن عيسى عرض بطلب المغفرة لقومه بقوله: (**وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**) فخشي صلى الله عليه وسلم على أمته، وأشفق على العصاة منها، فسأل فيها ربه وبكى.

2/ لقد روى النسائي والبيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية، حتى أصبح يركع ويسجد بها (**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**) فلما أصبح قلت: يا رسول الله، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت؟ قال: (**إني سألت ربي سبحانه وتعالى الشفاعة، فأعطانيها، وهي نائلة -إن شاء الله- من مات لا يشرك به شيئا**).

وعند ابن مردويه عن أبي ذررضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قمت الليلة بآية من القرآن؟ قال: دعوت الله سبحانه لأمتي.قال: فبماذا أجبت؟ قال: (أُجبت بالذي لو اطلع كثير منهم عليه تركوا الصلاة).

3/ في الحديث بيان كمال شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته، واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم والبشارة العظيمة لهذه الأمة -زادها الله شرفا- بما وعدها الله تعالى.

4/ بيان عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى، وعظم لطفه به، وأنه بالمحل الأعلى، فيسترضى، ويكرم بما يرضيه، وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: (**ولسوف يعطيك ربك فترضى**) سورةالضحى (5) .

*** **** ***

المبحث الرابع

الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام ربه وإعطاء الله للنبي ﷺ دون سؤال

المطلب الأول : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ).

المطلب الثاني : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) .

المطلب الأول

الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

سأذكر في هذا المطلب - وما بعده - ما دعا به إبراهيم عليه السلام ربه فاستجاب الله له ، وأما الحبيب صلى الله عليه وسلم فقد بادره الله بالعطاء دون سؤال منه بل تمنَّن الله عليه وأكرمه وأنعم عليه وزاده بأن أكرم أمته بمثل ما أكرمه به أو قريباً منه كما سنرى إن شاء الله تعالى . وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : سأل الخليل عليه السلام ربه تعالى بقوله : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) سورة الشعراء (87- 89) .

لقد اتفقت أقوال المفسرين على أن المراد من قوله : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) أي لا تفضحني على رءوس الأشهاد ، أو : لا تعذبني يوم القيامة . وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة والغبرة هي القترة) .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين) انفرد بهما البخاري رحمه الله.

*** **** ***

المحور الثاني : أخبر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) التحريم (8) **فأدخل أمته معه بغير سؤال.**

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى :

قوله تعالى :(**يوم**) ظرف متعلق بـ (**يدخلكم جنات**) وهو تعليقٌ تخلص إلى الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه . وهو يوم القيامة وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزي الله عنهم تعريض بأن

الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين آمنوا لتشريف المؤمنين ولا علاقة له بالتعريض .

والخزي : هو عذاب النار ، وحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله : **(وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)** [الشعراء : 87] على أن انتفاء الخزي يومئذٍ يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما كما أشعر به قوله تعالى :**(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)** [آل عمران : 185] . وفي صلة **(وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)** إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم)اهـ .

قلت : ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام دعا لنفسه بعدم الخزي يوم القيامة ولم يذكر أحداً معه بينما النبي صلى الله عليه وسلم شره ربه ألا يخزيه لا هو ولا أحد من المؤمنين ، وذلك كله من غير طلب منه صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا بشر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بدخول الجنة سواء بتلاوة الآيات عليهم أو من خلال أحاديثه صلى الله عليه وسلم .

أما الآيات كقوله تعالى : **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً)**الاسراء:10.9 .

وقوله تعالى في المؤمنين المجاهدين : **(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)** التوبة : الآيتان(20 -21) .

وأما الأحاديث فهي كثيرة ، منها:

ما ورد في الصحيحين: عَنْ أَنَس بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ: أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِمُعاذ وهو رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ: **يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ** ؛ قال: لَبَّيكَ يا رسولَ الله وسَعدَيكَ. قال: **يا مُعاذُ** . قال: لبَّيكَ يا رسولَ الله وسَعدَيك (ثلاثاً).قال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(ما مِنْ أَحَدٍ يَشهدُ أنْ لا اله إلا الله وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله، صِدْقاً مِن قَلبِه إلاّ حرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار).قال رضيَ اللهُ عنهُ: يا رسولَ الله ؛ أَفَلا أُخبرُ بِهِ**

النّاسَ فيَسْتَبْشِروا؟ قال صلى الله عليه وسلم: (**إِذاً يَتَّكِلوا**). وأَخبرَ بها مُعاذٌ عندَ مَوتِه تَأَثُّماً) يعني خروجًا من إثم كتم العلم.

وروى مسلم في صحيحه: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا اله إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله. حَرَّمَ الله عَلَيْهِ النَّارَ**).

*** **** ***

المطلب الثاني

الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

المحور الأول : بيان سؤال الخليل عليه السلام ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام :

لقد سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى بأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام كما في قوله تعالى **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ)** سورة إبراهيم (35).

ومعنى هذا الدعاء أن يعصمه الله تعالى وبنيه من الشرك بالله تعالى المتمثل في عباة الأصنام ولكن لما كان الخليل عليه السلام – وكذا جميع الأنبياء – معصوما من الشرك بالله تعالى احتاج الأمر إلى توضيح ، ومن هنا يقول الفخر الرازي في تفسير الآية الكريمة : وفيه مسائل - بتصرف - :

المسألة الأولى : لقائل أن يقول : السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال ؟ والصحيح عندي في الجواب وجهان:

الأول : أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضما للنفس وإظهارا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

والثاني : أن الصوفية يقولون : إن الشرك نوعان : شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون ، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة ، والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله: **(واجنبني وبني أن نعبد الأصنام)** المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي ، والله أعلم بمراده.

المسألة الثانية : شبهة : أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام ، والله تعالى لم يقبل دعاءه ، لأن كفار قريش كانوا من أولاده ، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

والجواب من وجوه: - أكتب هنا ما هو أقرب للصواب -

الأول : قال صاحب " الكشاف " : قوله (**وبني**) أراد بنيه من صلبه ، والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله : (**واجنبني**).

والثاني : قال بعضهم : أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ، ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

الثالث : أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية : (فمن تبعني فإنه مني) وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى لنوح : (**إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح**) سورة هود (46) .

* * * * * * * * * *

المحور الثاني : الله تعالى أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقول : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) الأحزاب 33 .

لقد أطال المفسرون الكلام في هذه الآية ولكن من أفضل ما قيل فيها قول صاحب أضواء البيان:

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا ، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول ، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في الترجمة ، وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك.

ومما ذكرنا من أمثلة ذلك في الترجمة قولنا فيها : ومن أمثلته قول بعض أهل العلم ، إن أزواجه - صلى الله عليه وسلم - لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن ، لأن الله تعالى قال : **(قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها)** الأحزاب (28) .

ثم قال في نفس خطابه لهن : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) ثم قال بعده : **(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)** الأحزاب (34) أما الدليل على دخولهن في الآية ، فهو ما ذكرناه آنفا من أن سياق الآية صريح في أنها نازلة فيهن

والتحقيق : أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، كما هو مقرر في الأصول. ونظير ذلك من دخول الزوجات في اسم أهل البيت ، قوله تعالى في زوجة إبراهيم عليه السلام : **(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ)** سورة هود / 73.

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية : فهو أحاديث جاءت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم : (**إنهم أهل البيت**) ، ودعا لهم الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا .

وقد روى ذلك جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم منهم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وأبو سعيد ، وأنس ، وواثلة بن الأسقع ، وأم المؤمنين عائشة وغيرهم رضي الله عنهم ،وبما ذكرنا من دلالة القرآن والسنة تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين ، رضي الله عنهم كلهم.

*** **** ***

شبهة وجوابها : إن قيل : إن الضمير في قوله : ليذهب عنكم الرجس ، وفي قوله : ويطهركم تطهيرا ، ضمير الذكور ، فلو كان المراد نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - لقيل : ليذهب عنكن ويطهركن.

فالجواب من وجهين :

الأول : هو ما ذكرنا من أن الآية الكريمة شاملة لهن ولعلي والحسن والحسين وفاطمة ، وقد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجموع ونحوها ، كما هو معلوم في محله.

الوجه الثاني : هو أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل ، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه :

قوله تعالى في موسى : **(فقال لأهله امكثوا)** [طه / 10] ، وقوله : **(سآتيكم)** [النمل / 7] ، وقوله : **(لعلي آتيكم)** [10/20] ، والمخاطب امرأته؛ كما قاله غير واحد .

ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال : إن نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - لسن داخلات في الآية ، يرد عليه صريح سياق القرآن ، وأن من قال : إن فاطمة وعليا والحسن والحسين ليسوا داخلين فيها ، ترد عليه الأحاديث المشار إليها.

فائدة : قال بعض أهل العلم : إن أهل البيت في الآية هم من تحرم عليهم الصدقة ، والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)**، يعني : أنه يذهب الرجس عنهم ، ويطهرهم بما يأمر به من طاعة الله ، وينهى عنه من معصيته؛ لأن من أطاع الله أذهب عنه الرجس ، وطهره من الذنوب تطهيرا.

*** **** ***

المطلب الثالث

الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

لعل تفضيل الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم على الخليل في هذا المقام - وهو رفع الذكر وبقاؤه - واضح جلي من الآيتين - إذ النبي صلى الله عليه وسلم امتنَّ الله عليه وأخبره بأنه رفع ذكره بينما الخليل دعا ربه بأن يبقي ذكره في الآخرين .**هذه ناحية .**

والناحية الثانية أن الخليل سأل الله تعالى أن يبقي ذكره في (الآخرين) بينما النبي صلى الله عليه وسلم رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ودليل ذلك أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء قبله وأممهم أن يؤمنوا وأن يتبعوه كما قال تعالى (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**) آل عمران الآية (81).

وبهذا الميثاق صار النبي صلى الله عليه وسلم معروفاً مشهوراً لدى جميع الناس الأنبياء وغيرهم من لدن آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة ، فأين هذا من دعاء الخليل عليه السلام.

المحور الأول : دعا الخليل عليه السلام ربه بقوله : (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) الشعراء 84

قال القرطبي رحمه الله تعالى :

(قوله تعالى : واجعل لي لسان صدق في الآخرين قال ابن عباس : هو اجتماع الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ابن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ; وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكي : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق ; فأجيبت الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ .

وقال القشيري رحمه الله تعالى : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ، فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد).

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات ، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلاة دعاء بالرحمة.

وسئل ابن عثيمين :ما معنى هذه الآية الكريمة (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)؟

فأجاب رحمه الله تعالى: هذا من دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام سأل الله تعالى أن يجعل له لسان صدق في الآخرين أي أن يجعل له من يثني عليه في الآخرين ثناء صدق وقد استجاب الله تعالى دعاءه فكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام محل الثناء في كتب الله عز وجل وفي ألسنة رسله حتى إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم **(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)** وقال تعالى**(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)** فالثناء على إبراهيم حصل في الآخرين حتى إن اليهود قالوا إن إبراهيم كان يهوديا والنصارى قالوا إن إبراهيم كان نصرانيا فأنكر الله ذلك وقال **(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)**. والمقصود أن هذه الأمم كلها تفتخر أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام منها لكنها كاذبة ما عدا المسلمين ، واليهود والنصارى ليسوا على هذا الوصف بل هم كفار.

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) وقد كذبهم الله تعالى في ذلك في قوله (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) وفي سورة الإخلاص قال الله تعالى **(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)** [128].

*** **** ***

[128] / فتاوى نورعلى الدرب (العثيمين) ، الجزء : 5 ، الصفحة : 2 نقلاً عن موقع ن للقرآن وعلومه.

المحور الثاني : الله تعالى أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) الشرح(4):

قال في تتمة أضواء البيان: (بتصرف) : لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره ، والرفع يكون حسيا ويكون معنويا ، فاختلف في المراد به ، على أقوال :

الأول : أنه رفع حسي في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ، واستشهدوا بقول حسان - رضي الله عنه - وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية :

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

الثاني : رفع الذكر معنى ، أي : من الرفعة ، ذكره - صلى الله عليه وسلم - في كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكرا له ولقومه ، في قوله تعالى : فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك ومعلوم أن ذكره قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب كما علت برسول الله عدنان

فتبين أن رفع ذكره - صلى الله عليه وسلم - ، إنما هو عن طريق الوحي ، سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل : ياأيها الرسول ، ياأيها النبي ، ياأيها المدثر ، والتصريح باسمه في مقام الرسالة : محمد رسول الله ، أو كان في فروع التشريع ، كما تقدم في أذان ، وإقامة ، وتشهد ، وخطب ، وصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - . والله تعالى أعلم.

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى :

واعلم أنه – أي رفع ذكره صلى الله عليه وسلم - عام في كل ما ذكروه من النبوة ، وشهرته في الأرض والسماوات .

وأنه يذكر معه في الشهادة والتشهد ، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة ، وانتشار ذكره في الآفاق ، وأنه ختمت به النبوة ، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل ، وعند الختم .

وجعل ذكره في القرآن مقرونا بذكره : **(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ)** [التوبة : 62] ، **(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)** [النساء : 13] **(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)** [المائدة : 92] .

ويناديه باسم الرسول والنبي ، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى ، وأيضا جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا)** [مريم : 6] كأنه تعالى يقول : أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك ، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمتثلون في الفريضة أمري ، وفي السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي **(مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)** [النساء : 80] ، **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)** [الفتح : 10] لا تأنف السلاطين من أتباعك ، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك ، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك ، والوعاظ يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ، ويسلمون من وراء الباب عليك ، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ، ويرجون شفاعتك ، فشرفك باق إلى يوم القيامة.

*** **** ***

وقال السيوطي في الإكليل في استنباط التنزيل:

قوله تعالى: **(ورفعنا لك ذكرك)** قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي ، أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور والشافعي في الرسالة .

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(أتاني جبريل فقال: إن ربك يقول تدرى كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي)** .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الخطبة وصلاة الجنازة ، واستحبابها عقب التلبية.

قلت : فتبين من هذا كله أن رفع الذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أعلى و أفضل وأكثر شهرة من الخليل عليه السلام ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكره مقرون بذكر الله تعالى فهو موجب للأجر والثواب كما أنه مذكور في الكتب السابقة له ومذكور في كتب أمته - على سبيل التعظيم والإجلال - **أعني مؤلفات العلماء من تفسير وحديث وفقه وغير ذلك من العلوم الإسلامية ، وهذا كله غير وارد في حق الخليل عليه السلام ، لأن أمته لم تحفظ أحاديثه ولا كتابه المنزل عليه.**

*** **** ***

المطلب الرابع

الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَلِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (لِّيَغْفِرَلَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

المحور الأول : سأل الخليل عليه السلام ربه المغفرة في قوله تعالى حكاية عنه قوله : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَلِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) .

المحور الثاني : أخبر الله تعالى النبي ﷺ بقوله (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) سورة الفتح (2).

لقد تقدم - في الفصل السابع من الباب الثالث - ذكر الموازنة بين الاستغفار في حق النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام ولكن الحديث هنا حول نيل المغفرة وطلبها من الخليل عليه السلام خاصة وكيف أنه سأل ربه إياها وهو من هو عليه السلام ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم أعطيها دون طلب ، ولو كان الكلام متقارباً بين الفصلين إلا أن التوسع هنا مطلوب ، وسأذكر هنا من الفوائد ما فاتني هناك ،والله أعلم .

المحور الأول : سأل الخليل عليه السلام ربه المغفرة في قوله تعالى حكاية عنه قوله : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) سورة الشعراء (82) **وقوله تعالى(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)** سورة إبراهيم (41) .

قال الفخر الرازي رحمه الله : وأما قوله : **(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)** فهو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب . واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة .

ثم ههنا أسئلة :

السؤال الأول : لم قال : (**والذي أطمع**) والطمع عبارة عن الظن والرجاء ، وإنه عليه السلام كان قاطعا بذلك ؟ جوابه : أن هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبنا ، حيث قلنا : إنه لا يجب على الله لأحد شيء ، وأنه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله ، وأجاب الجبائي عنه من وجهين :

الأول : أن قوله : (**والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي**) أراد به سائر المؤمنين لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون به .

الثاني : المراد من الطمع اليقين ، وهو مروي عن الحسن وأجاب صاحب " الكشاف " : بأنه إنما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لأمته كيفية الدعاء.

*** **** ***

ثم قال رحمه الله واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة :

أما الأول : فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ، ومن أول المدح إلى آخر الدعاء كلام إبراهيم عليه السلام فجعل الشيء الواحد وهو قوله : (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده .

وأما الثاني : وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة .

وأما الثالث : وهو أن الغرض منه تعليم الأمة فباطل أيضا لأن حاصله يرجع إلى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الأمة ، وهو باطل قطعا .

* * * * * * * * * *

السؤال الثاني : لم أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا قطعا ؟

وفي جوابه ثلاثة وجوه :

أحدها : أنه محمول على كذب إبراهيم عليه السلام في قوله : (**فعله كبيرهم**) [الأنبياء : 63] وقوله : (**إني سقيم**) [الصافات : 89] وقوله لسارة : " **إنها أختي** " وهو ضعيف لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة .

وثانيها : أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لأنه إن كان صادقا في هذا التواضع فقد لزم الإشكال ، وإن كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية .

وثالثها : وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى ، وقد يسمى ذلك خطأ فإن من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار ، قيل إنه أخطأ ، وترك الأولى جائز في حق الأنبياء عليهم السلام .

* * * * * * * * * *

السؤال الثالث : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، و إنما تغفر في الدنيا ؟

جوابه : لأن أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم .

السؤال الرابع : ما فائدة " لي " في قوله : (يغفر لي خطيئتي) ؟ وجوابه من وجوه :

أحدها : أن الأب إذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الأمر إنما يكون طلبا للثواب وهربا عن العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للألم الحاصل من الرقة الجنسية وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه ، إما لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي ، أما الإله سبحانه فإنه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان ، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله : **(والذي أطمع أن يغفر لي)** يعني : هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه البتة .

وثانيها : كأنه قال : خلقتني لا لي فإنك حين خلقتني ما كنت موجودا وإذا لم أكن موجودا استحال تحصيل شيء لأجلي ثم مع هذا فأنت خلقتني ، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي ، فلما خلقتني أولا مع أني كنت محتاجا إلى ذلك الخلق فلأن تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة إلى العفو والمغفرة كان أولى .

وثالثها : أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط ، ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام : " **ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا** " فههنا قال : (**أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ**) [الشعراء: 82].أي لمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع .

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله : عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم، وما أدراك ما إبراهيم؟

إنه أبو الأنبياء الذي وصفه ربه بأنه أمة قانتاً لله، ولم يكن من المشركين، إبراهيم الذي ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، ومع هذا كله يقول: { **أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ** } [الشعراء: 82.]

إنه أدب عَالٍ مع الله وهضم لعمله؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دون ما يستحق الله تعالى من العبادة؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع.

ويجب أن ننظر هنا: متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها، فقد خلقه من عدم، وأمدَّه من عُدْم، ووفّر له كل مقومات الحياة.

و إقرار العبد بنعم الله عليه يقضي على كبرياء نفسه، ويُصفِّي روحه وأجهزته، فيصير أهلاً لمناجاة الله، وأهلاً للدعاء، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير، فكيف يقبل منه دعاء؟ وبأيِّ وجه يطلب من الله المزيد؟

إذن: لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية؛ لذلك ورد عن بعض السلف: (مَن عمِلَ بما يَعلَمُ أَورثَهُ اللَّهُ عِلمَ ما لَم يعلَمْ) [129] .

* * * * * * * * * *

---

129 / قد يظن البعض أنه حديث نبوي ولكنه ليس كذلك ، قال الألباني : موضوع. أخرجه أبو نعيم (10/ 14 - 15) من طريق أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس مرفوعا، ثم قال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

المحور الثاني

أخبر الله تعالى النبي ﷺ بقوله (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) سورة الفتح (2).

وإن كنت قد نقلت بعض ما قيل - سابقاً - في هذه الآية إلا أن المقام يقتضي أن أذكر ما يتعلق بالموازنة بين الخليلين صلى الله عليهما وسلم ، ومن أفضل من تكلم في الآية بما يوافق مقصدنا هو الطاهر بن عاشور حيث قال رحمه الله تعالى (بتصرف واختصار) :

(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ) : أي إنا فتحنا فتحاً مبيناً لأجلك لغفران الله لك وإتمام نعمته عليك ، وهدايتك صراطاً مستقيماً ونصرك نصراً عزيزاً . . . وجُعلت مغفرة الله للنبيء صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح ، فهذه مغفرة خاصة بالنبيء صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح.

فالمعنى : أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسلَه حتى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات . فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنَصب والرغبة إلى الله .

فلما كان الفتح حاصلاً بسعيه وتسببه بتيسير الله له ذلك جعل الله جزاءه غفران ذنوبه بعظم أثر ذلك الفتح بإزاحة الشرك وعلوّ كلمة الله تعالى وتكميل النفوس وتزكيتها بالإيمان وصالح الأعمال حتى ينتشر الخير بانتشار الدين ويصير الصلاح خُلقاً للناس يقتدي فيه بعضُهم ببعض.

وكل هذا إنما يناسب فتح مكة وهذا هو ما تضمنته سورة النصر من قوله : {**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)** [النصر : 1-3] أي إنه حينئذٍ قد غفر لك أعظم مغفرة وهي المغفرة التي تليق بأعظمِ من تَابَ على تائب ، وليست إلا مغفرة جميع الذنوب سابقها وما عسى أن يأتي منها مِما يعده النبيء صلى الله عليه وسلم ذنباً لشدة الخشية من أقل التقصير كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وإن كان النبيء صلى الله عليه وسلم معصوماً مِنْ أنْ يأتي بعدها بما يؤاخَذ عليه .

وقال ابن عطية رحمه الله : وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب ، ولهذا المعنى اللَّطيف الجليل كانت **سورة النصر** مؤذنة باقتراب أجل النبيء صلى الله عليه وسلم فيما فهم عمر بن الخطاب وابن عباس ، وقد روي ذلك عن النبيء صلى الله عليه وسلم

والتقدم والتأخر من الأحوال النسبية للموجودات الحقيقية أو الاعتبارية يقال : تقدم السائر في سيره على الركب ، ويقال : تقدم نزول سورة كذا على سورة كذا ولذلك يكثر الاحتياج إلى بيان ما كان بينهما تقدم وتأخر بذكر متعلق بفعل تقدم وتأخّر.

*** **** ***

المبحث الخامس

الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من المعجزات الحسية وبين ما أعطيه النبي ﷺ

المطلب الأول : الموازنة بين معجزة تكسير الخليل عليه السلام للأصنام وتكسير النبي ﷺ لها.

المحور الأول : ما ورد في شأن تكسير الخليل عليه السلام للأصنام .

المحور الثاني : ما ورد في شأن تكسير النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام .

المطلب الثاني : الموازنة بين معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار وما أعطيه النبي ﷺ مقابل ذلك.

المحور الأول : معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار .

المحور الثاني : ما أعطيه النبي ﷺ مقابل إلقاء الخليل عليه السلام في النار.

المطلب الأول

الموازنة بين معجزة تكسير الخليل عليه السلام للأصنام وتكسير النبي صلى الله عليه وسلم لها

المحور الأول : ما ورد في شأن تكسير الخليل عليه السلام للأصنام :

لا شك أن قيام الخليل عليه السلام بتكسير الأصنام عمل جليل يدل على غيرته على التوحيد وصيانته من الشرك والكفر ، كما يدل ذلك على شجاعته المفرطة في مواجهة الباطل وعدم اكتراثه بما سيقوم به المشركون من إلحاق الأذى به.

كما يدل ذلك على ثقته بربه جل وعلا ، ومن هنا نص الله تعالى على هذه الحادثة العظيمة في كتابه فقال تعالى : (**وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)** سورة الأنبياء (51-58) .

قال العلماء في هذه الحادثة:

ولما رأى إبراهيم عليه الصلاةُ والسلام أنهم ما زالوا مُتعلقين بأوهامهم مُتمسكين بعبادة أصنامهم عقَد النية على أن يكيدَ أصنامهم ويفعلَ بها أمرًا يقيم الحجة به عليهم لعلهم يفيقون من غفلتهم ويصحون من كَبوتهم، وكان من عادةِ قومِه أن يُقيموا لهم عيدًا، فلمّا حل عليهم عيدهم وهمّوا بالخروجِ إلى خارجِ بلدهم دعَوْه ليَخرج معهم فأخبرهم أنه سيقيم لأنه أراد التخلفَ عنهم ليكسرَ أصنامهم ويقيم الحجةَ عليهم، قال تعالى :**{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ}** سورة الصافات(88-90) . فلمّا مضى قومه ليحتفلوا بعيدهم نادى في آخرهم :**{وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}** سورة الأنبياء (57) .

*** **** ***

قيل: سمعه بعضهم وقيل: خفية في نفسه، ثم رجَعَ إبراهيمُ إلى بيتِ الأصنام الذي كان فيه قومُه يعبدون هذه الأصنام، فإذا هو في بَهْو عظيم واسع مستقبلَ باب البهو صنم كبير إلى جانبه أصنام صغيرة بعضها إلى جنب بعض، وإذا هم قد صنعوا لها طعامًا وضَعوهُ أمام هذه الأصنام.

فلمّا نظر إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ إلى ما بَين أيدي هذه الأصنام من الطعام الذي وضعه قومُه قربانًا لها ورأى سخافة عقولهم، خاطبَ هذه الأصنام وقال لها على سبيل التهكم والازدراء {**ألا تأكلون**} فلما لم تُجبه قال لها أيضًا على سبيل الاحتقار: **(مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)** سورة الصافات (92 – 93) .

أمسك بيده اليمنى فأسًا وأخذَ يَهوي على الأصنام يكسرها ويحطمُ حجارتها قال تعالى (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) سورة الأنبياء/58 . **وما زال كذلك حتى جعلها كلّها حُطامًا إلا كبيرَهذه الأصنام فقد أبقى عليه وعلَّقَ الفأسَ في عنقِه ليرجعوا إليهِ فيُظهر لهُم أنها لا تنطقُ ولا تعقل ولا تدفعُ عن نفسِها ضَررًا، وبذلك يُقيم سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجّة على قومه الكافرين الذين يعبدونها على غير برهان ولا هدًى تقليدًا لآبائهم، قال تعالى : (إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)** سورة الأنبياء (58) .

ولما رجع قومه من عيدهم ووجدُوا ما حلّ بأصنامهم بُهتوا و اندهشوا وراعهم ما رأوا في أصنامهم، قال اللهُ تعالى : (قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) سورة الأنبياء(59-60) .

يعنونَ فتى يسبها ويعيبها ويستهزىء بها وهو الذي نظنُّ أنّه صنعَ هذا وكسرها، وبلغ ذلكَ الخبر الملك نمرود الجبار ملِك البلاد وحاكمها وأشراف قومه **{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ}** وأجمعوا على أن يحضروا إبراهيمَ ويَجمعوا الناس ليشهدوا عليه ويسمعوا كلامَه وكان اجتماعُ الناس في هذا المكانِ الواحدِ مَقصد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليُقيمَ على قومه الحجّة على بطلانِ ما هم عليه من عبادة الأصنامِ التي لا تضرّ ولا تنفع، وتقاطرت الوفود وتكاثرت جموعُ الكافرينَ كلّ يريدُ الاقتصاص من إبراهيم نبي اللهِ الذي أهانَ أصنامهم واحتقرها، ثم جاءوا بإبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى هذا الجمع الزاخر من الكافرين أمام ملِكهم الجبار نمرود **(قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)**الأنبياء(62) .

وهنا وجدَ نبيُّ الله إبراهيمُ الفُرصةَ سانحة ليقيمَ الحُجّة عليهم وليظهر لهم سُخفَ مُعتقدهم وبُطلان دينهم **(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ)** سورة الأنبياء(63).

وهذا إلزام للحجّة عليهم بأن الأصنامَ جماد لا تقدرُ على النطق، وأنَّ هذه الأصنام لا تستحقّ العبادةَ فهي لا تضرّ ولا تنفع، ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا ولا تغني عنهم شيئًا.

فعادوا إلى أنفسهم فيما بينهم بالملامةِ لأنهم تركوها من غيرٍ حافظ لها ولا حارس عندها، ثم عادوا فقالوا لإبراهيمَ عليه السلام ما أخبر اللهُ تعالى :**(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ)** سورة الأنبياء (65) أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام التي نعبدها لا تنطق فكيف تطلبُ منا أن نسألها.

فلما أقروا على أنفسهم بأن أصنامَهم التي اتخذوها ءالهة من دونِ اللهِ عاجزةً عن الإصغاءِ والنطقِ واعترفوا أنها عاجزة لا تدرك ولا تشعر ولا تقدر ولا حياة لها، عند ذلكَ أقام إبراهيمُ عليه السلام الحجَّة عليهم وأفحمهم قال اللهُ تعالى :**(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)** سورة الأنبياء (66-67) وقال لهم :**(وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)** سورة الصافات(96)، عند ذلك غُلبوا على أمرهم وألزمهم نبيُّ اللهِ إبراهيم الحجَّة عليهم فلم يجدوا حجَّة يَحتجونَ بها عليه، يقول تعالى :**(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)** سورة الأنعام (83) .

*** **** ***

فائدة مهمة :

قال العلماء : ليُعلم أن قول إبراهيم عليه الصلاةُ والسلام (**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**): ليس كذبًا حقيقيًّا بل هو صِدق من حيث الباطن والحقيقة، لأن كبيرَ الأصنامِ هو الذي حملَه على الفتك بالأصنامِ الأخرى من شِدّة اغتياظِه من هذا الصنم الكبير لمبالغتهم في تعظيمهِ بتجميل هيأته وصورته، فحمله ذلك على أن يكسر صغارَ الأصنام ويهين كبيرها، فيكونُ إسناد الفعل إلى الكبير إسنادًا مجازيًا فلا

كذب في ذلك، لأن الأنبياءَ يستحيلُ عليهُم الكذب لأن من صفاتهم الواجبة لهُم الصدق فهم لا يكذبون.

ولما قال إبراهيم عليه السلام لقومه عندما سألوه (**ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**) أرادَ بذلكَ أن يُبادروا إلى القولِ بأنها لا تنطق، قال تعالى (**فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ)** سورة الأنبياء(26-65) .

فائدتان من كتاب (المستفاد من قصص القرآن) عبدالكريم زيدان :

1/ لم يتأثر إبراهيم ببيئته الكافرة فقد بصره الله بالحق وهداه إلى التوحيد (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) .. ولم ترهبه كثرة المبطلين بل بقي مستعليا عليهم وهذا بدا في قصة تكسير الأصنام ومحاجة قومه ..

2/ لما لم ينفع جدال إبراهيم مع قومه ولم يؤثر فيهم قوله المدعوم بالحجة والبرهان والعقل السليم تحول إلى وسيلة أخرى وهي تكسير الأصنام وباشرها بنفسه مع علمه بما قد يلحقه من أذى وضرر ولكن كل شيء في سبيل الدعوة إلى الله يهون ، ويبدو .والله أعلم .أنه قام بتكسيرها ليلفت الأنظار إليه وإلى دعوته فيجتمع الناس فيكون في هذا فرصة جيدة لأن يبين لهم بطلان وسخافة ما يقومون به من عبادة هذه الأصنام التي لم تستطع أن تمنع عن نفسها التحطيم والتكسير ، وهذا ما حصل.

*** **** ***

المحور الثاني

ما ورد في شأن تكسير النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام

حادثة تكسير النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام ثابتة في كتب السيرة النبوية ووقع ذلك يوم فتح مكة شرفها الله ونص على قوله تعالى **(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)** الإسراء(81).

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها:

ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود- رضى الله عنه- قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة- عند فتحها- وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم. فجعل يطعنها بعود في يده ويقول (**جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ**) .

وقبل ذكر أقوال المفسرين في الآية الكريمة يمكننا القول أن تكسير النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام تم في الناحية المعنوية قبل تكسيرها في الحس ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم عندما بدأ الدعوة إلى التوحيد ولم يكن هناك موحد غيره بل كان الكل يعبد تلك الأصنام الكثيرة ، ولم تمض عشرون سنة حتى جاء ومعه عشرة آلاف وهم يهتفون بالتوحيد وعلى قناعة تامة بوجوب تكسير الأصنام ، لأنها تكسرت في نفوسهم .

بينما الخليل عليه السلام كسرها لإقامة البرهان لقومه بأنها حجارة لا تنفع ولا تضر ، ولكن ذلك لم يجد معهم ولهذا نُكسوا على رؤوسهم بعد أن رأوا صحة ما قاله لهم الخليل عليه السلام ، ولعله بهذا الكلام الموجز اتضح لنا الفرق بين تكسيرهما عليهما الصلاة والسلام للأصنام .

* * * * * * * * * *

والآن إليك أيها القارئ الكريم بعض ما جاء في تفسير الآية الكريمة :

قال في التفسير الوسيط:

الحق في لغة العرب : الشيء الثابت الذي ليس بزائل ولا مضمحل. والباطل على النقيض منه.

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم من عند ربه عز وجل .

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصي التي ما أنزل الله بها من سلطان، والمراد بزهوقه: ذهابه وزواله. يقال: فلان زهقت روحه، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة.

أى: وقل- أيها الرسول الكريم- على سبيل الشكر لربك، والاعتراف له بالنعمة، والاستبشار بنصره، قل: جاء الحق الذي أرسلنى به الله- تعالى- وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر، وزهق الباطل، واضمحل وجوده وزالت دولته، إن الباطل كان زهوقا، أى: كان غير مستقر وغير ثابت في كل وقت. كما قال- تعالى : **(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ. وكما قال- سبحانه-: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ)** .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى :

قال علماؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظمون في يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : فجعل يطعنها بعود في يده يقال إنها كانت مثبتة بالرصاص و أنه كلما طعن منها صنما في وجهه خر لقفاه ، أو في قفاه خر لوجهه . وكان يقول : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) سورة الإسراء(81) **حكاه أبو عمر والقاضي عياض) اهـ**

*** **** ***

المطلب الثاني

الموازنة بين معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار وما أعطيه النبي ﷺ مقابل ذلك

المحور الأول : معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار:

من أشهر معجزات الخليل عليه السلام إلقاؤه في النار وقد ذكر الله تعالى تلك المعجزة في كتابه فقال سبحانه **(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)** الأنبياء (69-70).

قال في أضواء البيان: في الكلام حذف دل المقام عليه ، وتقديره : **قالوا حرقوه** فرموه في النار ، فلما فعلوا ذلك قلنا يانار كوني بردا وسلاما وقد بين في " الصافات " أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنيانا ليلقوه فيه .

وفي القصة أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد) وأن الله خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال تعالى : **(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)** [الصافات / 97] .

والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها ، وكثرة حطبها شيئا عظيما هائلا . وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجردا ورموه إلى النار ، قال له جبريل : هل لك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وأما الله فنعما ، قال : لم لا تسأله ؟ قال : علمه بحالي كاف عن سؤالي .

وما ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم يدل على أنه أنجاه من تلك النار ؛ لأن قوله تعالى : (**كوني بردا**) يدل على سلامته من حرها ، وقوله : وسلاما يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه ، وإنجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحا به في " العنكبوت " في قوله تعالى : **(فأنجاه الله من النار)** وأشار إلى ذلك هنا بقوله : **(ونجيناه ولوطا)** [الأنبياء / 71] .

*** **** ***

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : **(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)** [الأنبياء / 70] يوضحه ما قبله .

فالكيد الذي أرادوه به : إحراقه بالنار نصرا منهم لآلهتهم في زعمهم ، وجعله تعالى إياهم الأخسرين أي الذين هم أكثر خسرانا لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم .

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضا في سورة " الصافات " في قوله : **(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)** [الصافات / 98] وكونهم الأسفلين واضح ؛ لعلوه عليهم وسلامته من شرهم . وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وفي القصة أن الله سلط عليهم خلقا من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض .

وقال البخاري في صحيحه : عن ابن عباس رضي الله عنهما : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قالوا : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) آل عمران (173) وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال : كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار : " **حسبي الله ونعم الوكيل** " انتهى

*** **** ***

المحور الثاني

ما أعطيه النبي ﷺ مقابل إلقاء الخليل عليه السلام في النار

ومرادنا بما يقابل إلقاء الخليل في النار شيئان :

الأول : خمود نار المجوس كما هو مذكور في بعض كتب السيرة ودلائل النبوة عند الكلام على إرهاصات ميلاده صلى الله عليه وسلم :

قال الماوردي في أعلام النبوة : ومن هواجس الإنذار والإلهام والمنام: ما رواه أبو أيوب يعلى بن عمران النحلي عن مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه وأتت له مائة وخمسون سنة، قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو بعث ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغارت بحيرة ساوة فأفزع ذلك كسرى فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ومرازبته وأخبرهم برؤياه، فقال الموبذان: وأنا أصلح الله تعالى الملك قد رأيت في هذه الليلة إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادنا، فقال أي شيء هذا يا موبذان؟ .

فقال : حادثة تكون من ناحية العرب فكتب إلى النعمان بن المنذر أن ابعث إلي برجل عالم أسأله عما أريد فوجه إليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني فلما قدم عليه أخبره فقال: أيها الملك علم ذلك عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح قال: فأته فاسأله عما أخبرتك به ثم أحضر بجوابه، فركب عبد المسيح راحلته حتى ورد على سطيح وقد أشفى على الموت ووضع على شفير قبره فسلم عليه وحياه فلم يخبر سطيح جوابا فأنشأ عبد المسيح يقول :

أَصَمّ أَم يَسْمَعُ غِطرِيفُ اليَمنْ؟ أَم فادَ فازْلَمَّ بِهِ شَأْوُ العَنَنْ؟

يَا فاصِلَ الخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ أَتاكَ شَيْخُ الحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ

رسولُ قَيْلِ العُجْمِ يَسْري للوَسَنْ، وأُمُّه مِنْ آلِ ذِئْبِ بنِ حَجَنْ

أَبْيضُ فَضْفاضُ الرِّداءِ والبَدَنْ، تَجُوبُ بِي الأَرْضَ عَلَنْداةٌ شَزَنْ

تَرْفَعُنِي وَجْنًا وتَهْوِي بِي وَجَنْ حَتَّى أَتى عارِي الْجَآجِي والقَطَنْ

فرفع سطيح رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مشيح ،وافى إلى سطيح، وقد أوفى به إلى الضريح، بعثك ملك بني ساسان ،لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان ،رأى إبلا صعابا ،تقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها .

ثم قال: يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وبعث من تهامة صاحب الهرواة وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملك وملكات بعدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح.[130] اهـ

*** **** ***

وقال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية :

وخمود : مصدر خمد؛ كنصر وسمع، خمدًا وخمودًا، كما في النور. "نار فارس" التي كانوا يعبدونها "وكان لها ألف عام لم تخمد" بضم الميم وفتحها، - كما رواه البيهقي وأبو نعيم والخرائطي في الهواتف وابن عساكر وابن جرير في تاريخه كلهم - من حديث مخزوم بن هانئ عن أبيه، وأتت عليه مائة وخمسون سنة، قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة) .اهـ.

وروى أبو نعيم عن عباد بن عبد الصمد قال: **(أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: يا جارية: هلمي المائدة نتغدى، فأتت بها ثم قال: هلمي المنديل فأتت بمنديل وسخ، فقال: اسجري التنور فأوقدته فأمر بالمنديل فطرح فيه فخرج أبيض كأنه اللبن، فقلنا: ما هذا ؟ قال: هذا منديل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح به وجهه فإذا اتسخ صنعنا به هكذا، لان النار لا تأكل شيئا مر على وجوه الانبياء).**

130 / القصة ذكرها الصالحي مطولة في كتابه سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/1).

تنبيه : قد يقول قائل وما علاقة خمود نارفارس بمعجزة النارفي إبراهيم الخليل عليه السلام ؟

الجواب : أن الجامع بينهما هو حصول الأمر الخارق للعادة ، فكما أن إبراهيم الخليل عليه السلام عُرفت منزلته عند الله تعالى بعدم إحراق النار له وتنبه القوم لهذه الأعجوبة الغريبة التي حدثت له ، فكذلك انتبه العالم كله بتلك الإرهاصات التي حدثت يوم مولده الشريف صلى الله عليه وسلم ومن بينها خمود نار فارس .

الثاني : ما ظهر من الكرامات على أيدي بعض الصالحين من هذه الأمة من عدم إحراق النارلهم بعد وقوعهم فيها :

قال أبو نعيم في الحلية : وألقى غير واحد من أمته في النار، فلم تؤثر فيه، منهم: ذؤيب بن كليب بن ربيعة الخولاني، وروى ابن وهب عن ابن لهيعة ان الاسود العنسي لما ادعى النبوة، وغلب على صنعاء أخذ ذؤيب بن كليب فألقاه في النار لتصديقه النبي صلى الله عليه وسلم فلم تضره النار، فذكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في امتنا مثل ابراهيم الخليل.

قال ابن سعد: عن عمرو بن ميمون قال: أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به ويمر يده على رأسه فيقول: (**يا ناركوني بردا وسلاما على عمار، كما كنت على ابراهيم، تقتلك الفئة الباغية**).

وروى ابن عساكر من طريق اسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم الخولاني أن الاسود تنبأ فبعث الى أبي مسلم الخولاني، فأتاه فقال: أتشهد أني رسول الله ؟ قال: ما أسمع، قال: تشهد محمدا رسول الله ؟ قال: نعم، فأتى بنار عظيمة، ثم ألقى أبا مسلم فيها فلم تضره، فقيل للاسود: ان لم تنف هذا عنك فسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة وقد قبض النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر فقال أبو بكر: الحمد لله الذي ألبثني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من صنع به كما صنع بابراهيم خليل الرحمن، ومنهم عمار بن ياسر) .

* * * * * * * * * *

المبحث السادس

الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض وبين ما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك

المطلب الأول : بيان ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض .

المطلب الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ من معرفة ملكوت السموات والارض .

المطلب الأول

بيان ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض

قال في تفسير المنار - باختصار - :

قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) الأنعام(75)

أي وكما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه ، وهو أنهم كانوا على ضلال بين في عبادتهم للأصنام ، كنا نريه المرة بعد المرة ملكوت السماوات والأرض على هذه الطريقة التي يعرف بها الحق ، فهي رؤية بصرية ، تتبعها رؤية البصيرة العقلية ، وإنما قال : " **نريه** " دون أريناه ؛ لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته تعالى في ذلك الملكوت العظيم كما يعلم من التعليل الآتي ، والتفصيل المترتب على هذا الإجمال في الآيات ،

والملكوت : المملكة أو الملك العظيم والعز والسلطان، وإطلاق الصوفية إياه على عالم الغيب اصطلاح . قال في اللسان : وملك الله تعالى وملكوته : سلطانه وعظمته ، ولفلان ملكوت العراق ، أي عزه وسلطانه وملكه ، وعن اللحياني : والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة ، ويقال للملكوت ملكوة (كترقوة) . انتهى .

وروي عن ابن عباس أن المراد بملكوت السماوات والأرض خلقهما ، أي كقوله تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء) (الأعراف : 185)

وعن مجاهد أنه آياتهما ، وعنهما وعن قتادة أنه الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والبحار ، وعن مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والسدي أن الله تعالى أراه ما وراء مسارح الأبصار من السماوات والأرض حتى انتهى بصره إلى العرش ، وزاد بعضهم أنه أراه خفايا أعمال العباد ومعاصيهم ، وليس لهذه الأقوال الأخيرة حجة من الحديث المرفوع ، وإنما استنبطوها فيما يظهر من إسناد الإراءة إلى الله عز وجل ، فإنه يدل على عناية خاصة .

واختار ابن جرير مما رواه من تلك الأقوال أنه تعالى أراه من ملكوت السماوات والأرض ما فيهما من الشمس والقمر والشجر والدواب ، وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما ، وجلى له بواطن الأمور

وظواهرها ، ويتحقق ذلك بهدايته إياه إلى وجوه الحجة فيها على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، وفضله ورحمته ، ويدل على ذلك تعليل الإراءة ، وما يترتب عليها من إقامة الحجة .

*** **** ***

أما التعليل فقوله تعالى : (وليكون من الموقنين) قيل : إن المعنى : ولأجل أن يكون من أهل اليقين الراسخين فيه أريناه ما أرينا ، وبصرناه من أسرار الملكوت ما بصرنا ،

وقيل : إن هذا عطف على تعليل حذف ؛ لتغوص الأذهان على استخراجه من قرائن الحال ، وأسلوب المقال ، أي نريه ذلك ليعرف سننا في خلقنا ، وحكمنا في تدبير ملكنا ، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا وألوهيتنا ؛ ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين ، وليكون في خاصة نفسه من الواقفين على عين اليقين ، وهو من الإيجاز البديع .

واليقين في اللغة : الاعتقاد الجازم المبني على الأمارات ، والدلائل ، والاستنباط - دون الحس والضرورة . وقال الراغب : هو سكون الفهم مع ثبات الحكم ، وأنه من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، وبذلك جمع إبراهيم بين العلم النظري والعلم اللدني.

*** **** ***

قال الرازي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى : (**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) فيه مسائل - نقلت بعضها على حسب ما يقتضيه المقام - :

المسألة الأولى : "الكاف" في كذلك للتشبيه ، وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره ، والمذكور ههنا فيما قبل هو أنه - عليه السلام - استقبح عبادة الأصنام ، وهو قوله : (إني أراك وقومك في ضلال مبين) والمعنى : ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السماوات والأرض . وههنا دقيقة عقلية ، وهي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى ، فإذا كان الأمر كذلك

فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي فقول إبراهيم - عليه السلام - : (**أتتخذ أصناما آلهة**) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ؛ لأن كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب لا جرم تجلى له ملكوت السماوات بالتمام ، فقوله : (**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات**) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نور تجلي جلال الله تعالى ، فكان قوله : (وكذلك) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية .

*** **** ***

المسألة الثانية : لقائل أن يقول هذه الإراءة قد حصلت فيما تقدم من الزمان ، فكان الأولى أن يقال : وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، فلم عدل عن هذه اللفظة إلى قوله : (وكذلك نري) ؟ قلنا : الجواب عنه من وجوه :

الأول : أن يكون تقدير الآية ، وكذلك كنا نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضي . والمعنى أنه تعالى لما حكى عنه أنه شافه أباه الكلام الخشن تعصبا للدين الحق . فكأنه قيل : وكيف بلغ إبراهيم هذا المبلغ العظيم في قوة الدين ، فأجيب بأنا كنا نريه ملكوت السماوات والأرض من وقت طفوليته لأجل أن يصير من الموقنين زمان بلوغه .

الوجه الثاني في الجواب : وهو أعلى وأشرف مما تقدم ، وهو أنا نقول : إنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته . ومعلوم أن مخلوقات الله وإن كانت متناهية في الذوات وفي الصفات ، إلا أن جهات دلالاتها على الذوات والصفات غير متناهية .

وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر ضياء الدين - رحمه الله تعالى - قال : سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول : سمعت إمام الحرمين يقول : معلومات الله تعالى غير متناهية ، ومعلوماته في كل واحد من تلك المعلومات أيضا غير متناهية<

وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل ، ويمكن إنصافه بصفات لا نهاية لها على البدل ، وكل تلك الأحوال التقديرية دالة على حكمة الله تعالى وقدرته أيضا ، وإذا

كان الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ كذلك ؛ فكيف القول في كل ملكوت الله تعالى ، فثبت أن دلالة ملك الله تعالى وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية ، وحصول المعلومات التي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال .

فإذن لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقيب البعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر في المستقبل ، فلهذا السبب -والله أعلم- لم يقل : وكذلك أريناه ملكوت السماوات والأرض ، بل قال : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض) وهذا هو المراد من قول المحققين السفر إلى الله له نهاية ، وأما السفر في الله فإنه لا نهاية له . والله أعلم.

*** **** ***

المسألة الثالثة : "الملكوت" هو الملك ، و "التاء" للمبالغة كالرغبوت من الرغبة والرهبوت من الرهبة . واعلم أن في تفسيره هذه الإراءة قولين :

القول الأول : أن الله أراه الملكوت بالعين ، قالوا : إن الله تعالى شق له السماوات حتى رأى العرش والكرسي وإلى حيث ينتهي إليه فوقية العالم الجسماني ، وشق له الأرض إلى حيث ينتهي إلى السطح الآخر من العالم الجسماني ، ورأى ما في السماوات من العجائب والبدائع ، ورأى ما في باطن الأرض من العجائب والبدائع .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أسري بإبراهيم إلى السماء ورأى ما في السماوات وما في الأرض فأبصر عبدا على فاحشة فدعا عليه وعلى آخر بالهلاك ، فقال الله تعالى له : (كف عن عبادي فهم بين حالين إما أن أجعل منهم ذرية طيبة أو يتوبون فأغفر لهم أو النار من ورائهم) .

وطعن القاضي في هذه الرواية من وجوه :

الأول : أن أهل السماء هم الملائكة المقربون وهم لا يعصون الله ، فلا يليق أن يقال : إنه لما رفع إلى السماء أبصر عبدا على فاحشة .

الثاني : أن الأنبياء لا يدعون بهلاك المذنب إلا عن أمر الله تعالى ، وإذا أذن الله تعالى فيه لم يجز أن يمنعه من إجابة دعائه .

الثالث : أن ذلك الدعاء إما أن يكون صوابا أو خطأ ، فإن كان صوابا فلم رده في المرة الثانية ؟ وإن كان خطأ فلم قبله في المرة الأولى ؟ ثم قال : وأخبار الآحاد إذا وردت على خلاف دلائل العقول وجب التوقف فيها .

والقول الثاني : أن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل ، لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر . واحتج القائلون بهذا القول بوجوه :

الحجة الأولى : أن ملكوت السماوات عبارة عن ملك السماء ، والملك عبارة عن القدرة ، وقدرة الله لا ترى ، وإنما تعرف بالعقل ، وهذا كلام قاطع ، إلا أن يقال : المراد بملكوت السماوات والأرض نفس السماوات والأرض ، إلا أن على هذا التقدير يضيع لفظ الملكوت ولا يحصل منه فائدة .

والحجة الثانية : أنه تعالى ذكر هذه الإراءة في أول الآية على سبيل الإجمال وهو قوله : (**وكذلك نري إبراهيم**) [الأنعام : 75] ثم فسرها بعد ذلك بقوله : (**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا**) [الأنعام : 76] فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة فوجب أن يقال : إن تلك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال .

والحجة الثالثة : أنه تعالى قال في آخر الآية : (**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**) [الأنعام : 83] والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه ؛ لأنهم كانوا غائبين عنها وكانوا يكذبون إبراهيم فيها وما كان يجوز لهم تصديق إبراهيم في تلك الدعوى إلا بدليل منفصل ومعجزة باهرة ، وإنما كانت الحجة التي أوردها إبراهيم على قومه في الاستدلال بالنجوم من الطريق الذي نطق به القرآن . فإن تلك الأدلة كانت ظاهرة لهم كما أنها كانت ظاهرة لإبراهيم .

والحجة الرابعة : أن إراءة جميع العالم تفيد العلم الضروري بأن للعالم إلها قادرا على كل الممكنات . ومثل هذه الحالة لا يحصل للإنسان بسببها استحقاق المدح والتعظيم . ألا ترى أن الكفار في الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب .

وأما الاستدلال بصفات المخلوقات على وجود الصانع وقدرته وحكمته فذاك هو الذي يفيد المدح والتعظيم .

*** **** ***

والحجة الخامسة : أنه تعالى كما قال في حق إبراهيم - عليه السلام - : **(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** فكذلك قال في حق هذه الأمة : **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)** [فصلت : 53] فكما كانت هذه الإراءة بالبصيرة الباطنة لا بالبصر الظاهر فكذلك في حق إبراهيم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك .

الحجة السادسة : أنه - عليه السلام - لما تمم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده : **(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا)** [الأنعام : 79] فحكم على السماوات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس .

وذلك الدليل لو لم يكن عاما في كل السماوات والأرض لكان الحكم العام بناء على دليل خاص وإنه خطأ ، فثبت أن ذلك الدليل كان عاما فكان ذكر النجم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت .

فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وإمكانها وحدوثها على وجود الإله العالم القادر الحكيم فتكون هذه الإراءة بالقلب لا بالعين .

الحجة السابعة : أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد بالتأمل إذا كان مسبوقا بالشك وقوله تعالى : **(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)** كالغرض من تلك الإراءة فيصير تقدير الآية نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض لأجل أن يصير من الموقنين . فلما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل ، وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال .

الحجة الثامنة : أن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة ، وكل محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع . وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه ذلك في الاستدلال على الصانع وكأنه بمعرفة هاتين المقدمتين قد طالع جميع الملكوت بعين

عقله وسمع بأذن عقله شهادتها بالاحتياج والافتقار وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة البتة . ثم إنها غير شاملة عن الله تعالى بل هي شاغلة للقلب والروح بالله .

*** **** ***

أما رؤية العين فالإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال . ألا ترى أن من نظر إلى صحيفة مكتوبة فإنه لا يرى من تلك الصحيفة رؤية كاملة تامة إلا حرفا واحدا ، فإن حدق نظره إلى حرف آخر وشغل بصره به صار محروما عن إدراك الحرف الأول ، أو عن إبصاره . فثبت أن رؤية الأشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة .

وبتقدير أن تكون ممكنة هي غير باقية ، وبتقدير أن تكون باقية هي شاغلة عن الله تعالى . ألا ترى أنه تعالى مدح محمدا - عليه الصلاة والسلام - في ترك هذه الرؤية فقال تعالى : **(مَا زَاغَ الْبَصَرُوَمَا طَغَىٰ)** [النجم : 17] **فثبت بجملة هذه الدلائل أن تلك الإراءة كانت إراءة بحسب بصيرة العقل ، لا بحسب البصر الظاهر .**

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان ما أعطيه النبي ﷺ من معرفة ملكوت السموات والارض

أولاً : لقد أخبرنا الله تعالى بما أكرم به الخليل عليه السلام من اطلاعه على ملكوت السموات والأرض وسوف نذكر هنا بعون الله تعالى ما أكرم به النبي صلى الله عليه وسلم من باهر الكرامات وعظيم المعجزات وبما أطلعه عليه من أسرار العلوم وقد ذكرت في الفصل الثالث من الباب السابق مقدار عظمة علمه وتفوقه على علوم الأنبياء السابقين وذلك عند الكلام على (الموازنة بين علم الأنبياء عليهم السلام وعلم النبي صلى الله عليه وسلم) ودللت على ذلك بآيات من القرآن ومنها قوله تعالى: (**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**) (النساء، الآية 113) .

وببعض الأحاديث النبوية ومنها قوله صلى الله عليه وسلم قال: (**أتاني الليلة ربي - تبارك وتعالى - في أحسن صورة - قال: أحسبه قال: في المنام - فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. قال: فوضع يده بين كتفيّ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ، فعلمت ما في السموات، وما في الأرض. فقال: يا محمد! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات والدرجات، والكفارات**) الخ الحديث وهو في سنن الترمذي، ومسند أحمد .

وموضع الشاهد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (**فعلمت ما في السموات، وما في الأرض**) وفي رواية (**فتجلَّى لي كل شيء وعرفتُ**) .

وقد مضى شرح هذا الحديث في الموضع المذكور حسب ما يقتضيه المقام هناك ،ولنا هنا معه وقفات تقتضيها الموازنة في هذا المقام ، فأقول ومن الله أرجو العون والقبول :

لا شك أن هذا الحديث يوضح لنا الفرق الكبير بين ما أعطيه ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم وما أعطيه الخليل عليه من اطلاعه على ملكوت السموات والأرض ، وبيان ذلك أن يقال :

1/ إنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته – كما

أشار إليه الرازي – وقد علم من الحديث أعلاه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه ، وهذا يعني أنه استغنى عن الوسائل المؤدية إلى معرفة الله تعالى .

2/ في الحديث دلالة على أنه تجلى له صلى الله عليه وسلم كل شئ وهذا زائد على ما أعطيه الخليل إذ كانت تلك الإراءة قاصرة على ملكوت السماوات والأرض، إذ ليس ملك الله تعالى قاصر على ملكوت السموات والأرض .

3/ في الحديث دلالة على أنه تجلت له صلى الله عليه وسلم بعض أمور الآخرة ألا تراه قال : (**فقال: يا محمد! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات والدرجات**) وهذه من العلوم التي لم يطلع عليها الخليل صلى الله عليه وسلم ، إذ كانت إراءته خاصة بما هو في الدنيا دون الآخرة .

*** **** ***

ثانياً : مما يدل على الفرق الكبير بين ما أعطيه كل من هذين الخليلين المكرمين عليهما الصلاة والسلام في هذا المقام تلك العلاقة الخاصة التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم دون الخليل عليه السلام ألا وهي : علاقته بجبريل سيد الملائكة وقربه منه وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة : من سورة النجم (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) النجم (8-9) .

وقبل الخوض في تفسيرها أشير هنا إلى معنى هام ألا وهو : أن ذكر هذه العلاقة بينهما – أعني النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام – والتنصيص عليها في القرآن يدل أنها لم تكن لنبي قبله صلى الله عليه وسلم، فقد كان كل واحد يشتاق إلى الآخر كما في قوله تعالى : (**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**)، فقد ذكر الطبري في سبب نزولها عن ابن عباس ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم قال لجبرائيل : "ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" فنزلت هذه الآية (**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**) قال : هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وهناك معنى آخر لاح لي في تلك العلاقة الخاصة بينهما ألا وهو : قوة تحمل النبي صلى الله عليه وسلم بل استئناسه بالحالة التي يكون عليها عند تنزل الملك عليه وهذا فيه ما فيه مما لا يقدر قدره بشر، وقد يكون أكثر وضوحاً بعد الاطلاع على تفسيرها، والله أعلم .

والآن إليك بعض ما جاء في تفسيرها :

قال الرازي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : **(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)** وفيه أقوال مشهورة:

القول الأول : أن جبريل دنا من النبي صلى الله عليه وسلم أي بعدما مد جناحه وهو بالأفق عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبي صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا ففي **(فَتَدَلَّى)** ثلاثة وجوه:

أحدها : فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني : الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب.

الثالث : دنا أي قصد القرب من محمد صلى الله عليه وسلم وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

القول الثاني : أن محمدا صلى الله عليه وسلم دنا من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم **(فتدلى)**أي فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال :(**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ**) [الكهف : 110].

وعلى هذا ففي الكلام كمالان كأنه تعالى قال (**إلا وحي يوحى**) جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم ، **(فاستوى)**صلى الله عليه وسلم وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة .

القول الثالث : وهو ضعيف سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان ، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون فيه ما في قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى " من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن مشى إلي أتيته هرولة " إشارة إلى المعنى المجازي ، وهاهنا لما بين أن النبي صلى الله عليه وسلم استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسي قال وقرب الله منه تحقيقا لما في قوله " من تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا. "

ثم قال تعالى : (فكان قاب قوسين أو أدنى) أي بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ، ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم ، فإن الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاهدا

خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ، ولذلك تسمى مسايعة ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أن قوله (**قاب قوسين**) على جعل كونهما كبيرين .

وقوله (أو أدنى) لفضل أحدهما على الآخر ، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الأمير ، فكأنه تعالى أخبر أنهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفيرا بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذي يمد الباع لا القوس ، هذا على قول من يفضل النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام وهو مذهب أهل السنة إلا قليلا منهم إذ كان جبريل رسولا من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبي صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم .

*** **** ***

وفيه وجه آخر على ما ذكرنا ، وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس بقوس ، وعلى هذا فنقول : ذلك البعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه على كل حال كان بشرا ، وجبريل على كل حال كان ملكا ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن زال عن الصفات التي تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية ، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤية والاحتجاب ، لكن لم يخرج عن كونه ملكا فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما ، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما .

*** **** ***

وقال الآلوسي رحمه الله : ثم دنا أي ثم قرب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتدلى فتعلق جبريل عليه عليه الصلاة والسلام في الهواء ، ومنه تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير. والدوالي الثمر المعلق كعناقيد العنب و أنشدوا لأبي ذؤيب يصف مشتار عسل:

تدلى عليها بين سب وخيطة بجرداء مثل الوكف يكبو

ومن أسجاع ابنة الخس - كن حذرا كالقرلى إن رأى خيرا تدلى ، وإن رأى شرا تولى - فالمراد بالتدلي دنو خاص فلا قلب ولا تأويل بإرادة الدنو كما في الإيضاح .

نعم إن جعل بمعنى التنزل من علو كما يرشد إليه الاشتقاق كان له وجه فكان أي جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قاب قوسين أي من قسي العرب لأن الإطلاق ينصرف إلى متعارفهم .

والقاب : المقدار ، وعن مجاهد والحسن أن قاب القوس ما بين وترها ومقبضها و هذا على ما قال الخفاجي : إشارة إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقا للآخر حتى كأنهما ذا قاب واحد ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهما واحدا فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه لا يمكن خلافه .

أما (أو) في قوله تعالى (**أو أدنى**) فهي للشك من جهة العباد على معنى إذا رآه الرائي يقول : هو قاب قوسين أو أدنى ، والمراد إفادة شدة القرب

* * * * * * * * * *

الفصل الثاني

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لموسى عليه السلام

تمهيد : في التعريف بمنزلة موسى الكليم عليه السلام وكثرة أعداد أمته ومعاناته معهم.

المبحث الأول : الموازنة بين مقامي الرعاية والمحبة في حق النبي ﷺ وفي حق موسى عليه السلام .

المطلب الأول : الموازنة بين مقام الرعاية التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم والتي أعطيها موسى عليه السلام .

المطلب الثاني : الموازنة بين مقام المحبة التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام .

المبحث الثاني :الموازنة بين معجزات موسى عليه السلام ومعجزات النبي ﷺ.

المطلب الأول : الموازنة بين معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر ومعجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر .

المطلب الثاني : الموازنة بين الآية الكبرى والآيات التي أعطيها النبي ﷺ والآية الكبرى والآيات التي أعطيها موسى عليه السلام.

المطلب الثالث : الموازنة بين معجزات النبي ﷺ موسى عليه السلام الحسية.

المبحث الثالث :الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل ، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام انشراح صدره وبين شرح الله لصدر النبي ﷺ دون سؤال.

المطلب الثاني : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام التيسير وبين تيسير الله للنبي ﷺ دون سؤال.

المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام حل عقدة من لسانه وبين تيسير الكلام للنبي ﷺ دون سؤال.

المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه وبين رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج دون سؤال.

المطلب الخامس : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا وبين إرضاء الله للنبي ﷺ دون سؤال.

المبحث الرابع : الموازنة بين وصف الشرع الذي أعطيه النبي ﷺ ووصف الشرع الذي أعطيه موسى عليه السلام.

المطلب الأول : الموازنة بين وصف شرعيهما عليهما الصلاة والسلام من حيث التيسير والتشديد .

المطلب الثاني : الموازنة بين وصف شرعيهما عليهما الصلاة والسلام من حيث الحفظ من التحريف.

مدخل

في التعريف بمنزلة موسى الكليم عليه السلام وكثرة أعداد أمته ومعاناته معهم

إن هذا الفصل من فصول الكتاب هو أطولها على الإطلاق وذلك لأن قصة موسى عليه السلام أخذت مساحة واسعة في القرآن الكريم ، وهذه السعة لأن موسى عليه السلام أرسل الله تعالى إلى أعتى طاغية على مر تاريخ البشرية وهو فرعون عليه اللعنة ،كما أُرسِل عليه السلام لبني إسرائيل فوجد مشقة عظيمة في معالجته لعيوبهم وتقويمهم على التوحيد والإيمان ومكارم الأخلاق وسلوك الصراط المستقيم .

ومن ناحية أخرى : مما لا شك فيه أن هناك تقارباً واضحاً بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين سيدنا موسى عليه السلام من حيث كثرة الأتباع ومن حيث ما لاقى كل واحد منهما من العنت والمشقة الكبيرة في دعوة الناس إلى الهدى والصراط المستقيم.

ومن ناحية ثالثة : المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد المنن الربانية العظيمة والعطاءات الإلهية الكريمة لكل منهما ، ولكن من دقق النظر سيجد الفرق شاسعا والبون بعيدا بين ما للنبي صلى الله عليه وسلم من تكريم وتثبيت ونصرة وعطاء ومن حسن أدب الأتباع (الصحابة) معه ، وبين ما لموسى عليه السلام من ذلك كله.

قال الله تعالى : **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)** [مريم : 51 - 53] .

وقال تعالى : (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي) [الأعراف : 144] .

وفي" الصحيحين " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : **(لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ، أم جوزي بصعقة الطور)** .

*** **** ***

وقدمنا أن هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهو صلوات الله وسلامه ، عليه خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعا جزما لا يحتمل النقيض. وقال تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) إلى أن قال : (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ) [النساء : 163 ، 164] .

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) الأحزاب : 69 .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن موسى كان رجلا حييا ستيرا ، لا يرى جلده شيء; استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده; إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله ، عزوجل ، أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا ، أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا ، أو خمسا قال : فذلك قوله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) متفق عليه .

*** **** ***

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيرا ، فأجابه الله إلى سؤاله ، وأعطاه طلبته ، وجعله نبيا; كما قال : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ثم قال البخاري : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما ، فقال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : يرحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (**لا يبلغني أحد عن أحد شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم ، و أنا سليم الصدر**) قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ، ولا الدار الآخرة ، فثبت حتى سمعت ما قالا . ثم أتيت رسول الله فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا ، وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشق عليه ، ثم قال : (**دعنا منك ، فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر**) رواه أحمد وأبو داود ، والترمذي: غريب من هذا الوجه .

وقد ثبت في " الصحيح في أحاديث الإسراء (**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بموسى ، وهو قائم يصلي في قبره**) . ورواه مسلم عن أنس .

وفي " الصحيحين " من رواية قتادة ، عن أنس عن مالك بن صعصعة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (**مر ليلة أسري به ، بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى فسلم عليه . قال : فسلمت عليه . فقال : مرحبا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح . فلما تجاوزت بكى; قيل له : ما يبكيك؟ قال : أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي وذكر إبراهيم في السماء السابعة**) . وهذا هو المحفوظ.

وأما ما وقع في حديث شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ، بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ ، أن الذي عليه الجادة ، أن موسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فمر بموسى ، قال : " **ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعا ، و أبصارا ، و أفئدة** " **فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله ، عزوجل ، ويخفف عنه في كل مرة ، حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هي خمس ، وهي خمسون** أي; بالمضاعفة فجزى الله عنا محمدا صلى الله عليه وسلم خيرا ، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيرا .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ،فقال : (عرضت علي الأمم ، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق فقيل : هذا موسى في قومه) رواه البخاري مختصراً.

وقد رواه الإمام أحمد مطولا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي معه الرجل ، والرجلين ، والنبي وليس معه أحد; إذ رفع لي سواد عظيم فقلت : هذه أمتي . فقيل : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق . فإذا سواد عظيم ، ثم قيل : انظر إلى هذا الجانب . فإذا سواد عظيم فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا ، يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، ولم يشركوا بالله شيئا قط . وذكروا أشياء ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟ فأخبروه بمقالتهم ، فقال : هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن الأسدي ، فقال : أنا منهم يا رسول الله؟ قال : أنت منهم ، ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله؟ فقال : سبقك بها عكاشة) [131].

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيرا ، وأثنى عليه ، وأورد قصته في كتابه العزيز مرارا ، وكررها كثيرا ، مطولة ، ومبسوطة ، ومختصرة ، وأثنى عليه بليغا . وكثيرا ما يقرنه الله ، ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابه كما قال في سورة " البقرة " : **(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)** [البقرة : 101] .

وقال تعالى : **(الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)** [آل عمران : 1 - 4] .

---

131 / قال ابن كثير:وهذا الحديث له طرق كثيرة جدا ، وهو في الصحاح والحسان.

وقال تعالى : **(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)** [الأنعام : 91 ، 92] فأثنى تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحا عظيما .

وقال تعالى في آخرها : **(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)** [الأنعام : 154 ، 155] .

وقال تعالى: **(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)** المائدة : (44) . إلى أن قال : **(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ)** [المائدة : 47 ، 48] . الآية .

*** **** ***

فجعل القرآن حاكما على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدقا لها ، ومبينا ما وقع فيها من التحريف والتبديل ، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب ، فلم يقدروا على حفظها ، ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم ، وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم ، وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسله ، ما لا يحد ولا يوصف ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى : **(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** [الأنبياء : 48 - 50] .

وقال الله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [القصص : 48 ، 49] . فأثنى الله على الكتابين ، وعلى الرسولين عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : (يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأحقاف : 30] .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأى من أول الوحي ، وتلا عليه : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق : 1 - 5] . قال سبوح سبوح ، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا ، كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان.

ومن هنا كان الحديث في هذا الفصل عن الموازنة بين الآيات الواردة في الأمور التي أشرنا إليها ليتجلى للقارئ مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربنا جل وعلا . وذلك من خلال المباحث الآتية:

*** **** ***

المبحث الأول

الموازنة بين مقامي الرعاية والمحبة اللتين أعطيهما النبي ﷺ واللتين أعطيهما موسى عليه السلام

المطلب الأول : الموازنة بين مقام الرعاية التي أعطيها النبي ﷺ والتي أعطيها موسى عليه السلام .

المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام الرعاية .

المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم في مقام الرعاية .

المطلب الثاني : الموازنة بين مقام المحبة التي أعطيها النبي ﷺ موسى عليه السلام .

المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام المحبة .

المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام المحبة .

المطلب الأول

الموازنة بين ما أعطيه النبي ﷺ وما أعطيه موسى عليه السلام في مقام الرعاية

المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام الرعاية .

المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام الرعاية .

المحور الأول

بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام الرعاية

أما موسى عليه السلام فقد بين الله تعالى أنه أحاطه بعنايته ورعايته فقال سبحانه مخاطباً إياه : **(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) طه (39)** .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) قال ابن عباس : يريد أن ذلك بعيني حيث جعلت في التابوت ، وحيث ألقي التابوت في البحر ، وحيث التقطك جواري امرأة فرعون ؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه ، فقالت منهن واحدة : لا تفتحنه حتى تأتين به سيدتكن فهو أحظى لكن عندها ، وأجدر بألا تتهمكن بأنكن وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكن .

وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقينه أولئك الجواري فذهبن بالتابوت إليها مغلقا ، فلما فتحته رأت صبيا لم ير مثله قط ؛ وألقي عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون ، فقالت:قرة عين لي ولك.فقال فرعون:أما لك فنعم،وأما لي فلا،فكان كما قال. – كما في الأثر الصحيح - عن ابن عباس .

وقيل : **ولتصنع** على عيني أي تربى وتغذى على مرأى مني ؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك معروف في اللغة ؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنت القيام عليه . والمعنى **ولتصنع** على عيني فعلت ذلك.

وقيل : المعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى عين مني . ذكره المهدوي) اهـ باختصار .

قال السعدي رحمه الله تعالى : (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) ؛ أي: ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى عليه السلام ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي

امرأة قط؛ ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة، ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثديا.

قال في الظلال : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) ولتصنع على عيني تحت عين فرعون - عدوك وعدوي - وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع. ولكن عينه لا تمتد إليك بالشر لأني ألقيت عليك محبة مني. ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عيني .

ولم أحطك في قصر فرعون ، بالرعاية والحماية وأدع أمك في بيتها للقلق والخوف. بل جمعتك بها وجمعتها بك: إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن .

وكان ذلك من تدبير الله، إذ جعل الطفل لا يقبل ثدي المرضعات. وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل - مما لا يفصله السياق كما يفصله في موضع آخر - يبحثان له عن مرضع.

فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم : هل أدلكم على من يكفله؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها. وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التي سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها في التابوت، وقذفت بالتابوت في اليم، فألقاه اليم بالساحل. ليأخذه عدو لله وله، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف، وتكون النجاة من فرعون الذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل. بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين!

*** **** ***

المحور الثاني

بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام الرعاية

هذا ما جاء في حق موسى عليه السلام وأما ما جاء في حق النبي صلى الله عليه وسلم فقول الله تعالى له :(**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) سورة الطور (48) .

قال الرازي رحمه الله : وقوله تعالى : (**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) فيه وجوه :

الأول : أنه تعالى لما بين أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال : اصبر ولا تخف ، فإنك محفوظ بأعيننا .

ثانيها : أنه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فإنك بمرأى منا نراك ، وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل ما يكون من الأحوال ، لكن كونك مسبحا لنا أفضل من كونك داعيا على عباد خلقناهم ، فاختر الأفضل فإنك بمرأى منا ثالثها : أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكو إليه بحال الشاكي ، فقال تعالى : اصبر ولا تشك حالك فإنك بأعيننا نراك فلا فائدة في شكواك ، وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لا توجد في قوله (**فاصبر على ما يقولون**) [طه : 130] .

المسألة الأولى : اللام في قوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) تحتمل وجوها :

الأول : هي بمعنى (**إلى**) أي اصبر إلى أن يحكم الله .

الثاني : الصبر فيه معنى الثبات ، فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك ، يقال ثبت فلان لحمل قرنه .

الثالث : هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب ، يقال : لم خرجت ؟ فيقال لحكم فلان علي بالخروج ، فقال : (**واصبر**) واجعل سبب الصبر امتثال الأمر ، حيث قال واصبر لهذا الحكم عليك لا لشيء آخر .

المسألة الثانية : قال هاهنا (بِأَعْيُنِنَا) وقال في مواضع أخر (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه : 39] نقول لما وحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحد العين ، ولما ذكر هاهنا ضمير الجمع في قوله (**بِأَعْيُنِنَا**) وهو النون جمع العين ، وقال : (**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ هاهنا أتم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له

مكايد وتشاوروا في أمره ، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال بأعيننا .

المسألة الثالثة : فإن قيل فما الفرق في الموضعين حيث قال في طه (**على عيني**) [طه : 39] وقال هاهنا (**بأعيننا**) وما الفرق بين على وبين الباء ؟ نقول معنى على هناك هو أنه يرى على ما يرضاه الله تعالى ، كما يقول أفعله على عيني أي على رضاي ، تقديره على وجه يدخل في عيني وألتفت إليه ، فإن من يفعل شيئا لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه إليه ، والباء في قوله (**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**) قد ذكرناها) اهـ .

*** **** ***

وإكملاً لما ورد في كلام الرازي أعلاه أنق ما قاله فارس البيان القرآني في هذا الزمان بلا منازع أعني الدكتورفاضل السامرائي فقد سئل هذا السؤال :

حينما تكلم ربنا تبارك وتعالى على سيدنا موسى قال (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) طه (39) ،ولما تكلم عن والرسول صلى الله عليه وسلم قال : (**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**) الطور (48) **فما الفروق الدلالية بين الآيتين؟**

فأجاب بقوله: الصنع يكون في بداية الأمر، هو الكلام على موسى عليه السلام تكلم على ولادته ونشأته (**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ * وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي * وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) هذا في مرحلة طفولته (**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) طه (38-41) والرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأربعين يحمل همّ الرسالة كيف يقال له تصنع على عيني؟ وإنما هو يحتاج إلى رعاية الآن للتبليغ.

الدلالة العامة لقوله (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) أي ينشئك بالصورة التي يريدها ابتداء ويهيأ المكان الذي يريده ولما قال عن النبي صلى الله عليه وسلم (**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) يعني يحفظك، كما قال (**وَحَمَلْنَاهُ عَلَى**

ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) القمر (13-14) السفينة قال تجري بأعيننا يعني برعايتنا وحفظنا. **(وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)** المائدة (67) يعني يحفظك أنت تحت رعايتنا وحفظنا نراقب الأمر **(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)** طه (46) نحن نراك ونحفظك ونحميك ونرعاك يعني أنت تحت رعايتنا.

وقال ابن عاشوررحمه الله :

وجمعُ الأعين : إما مبالغة في التمثيل كأنَّ الملاحظة بأعين عديدة كقوله تعالى :**(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)** [هود : 37] وهو من قبيل **(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ)** الذاريات(47) .

ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدد متعلَّقات الملاحظة فملاحظةٌ للذب عنه ، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة ، وملاحظة لجزاء أعدائه بما يستحقونه ، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به ، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح : **(وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا)** [القمر : 13 ، 14] لأن عناية الله بأهل السفينة تتعلّق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم ، وذلك خلاف قوله في قصة موسى **(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)** [طه : 39] فإنه تعلق واحد بمشي أخته إلى آل فرعون وقولها : **(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ)** [طه : 40.]

*** **** ***

قال في ظلال القرآن :

: **(وَاصْبِرْلِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)** ويا له من تعبير! ويا له من تصوير! ويا له من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان. هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله. حتى بين التعبيرات المشابهة.لقد قيل لموسى عليه السلام: وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .. وقيل له: وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني .. وقيل له: واصطنعتك لنفسي ..

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة. ولكنه قيل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : فإنك بأعيننا وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص. وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل.. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص. فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به: وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم .. فعلى مدار اليوم. عند اليقظة من النوم. وفي ثنايا الليل. وعند إدبار النجوم في الفجر. هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب. والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب. فكيف بقلب المحب الحبيب القريب؟؟؟

*** **** ***

المطلب الثاني

الموازنة بين ما النبي ﷺ وما أعطيه موسى عليه السلام في مقام المحبة

مدخل .

المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام المحبة .

المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام المحبة .

مدخل

إن الموازنة التي سنجريها هنا في مقام المحبة التي أعطيها كل من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وسيدنا موسى عليه السلام وذلك من خلال التأمل فيما ورد في شأنها - المحبة - من آيات فقد قال تعالى في حق موسى عليه السلام : **(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)** سورة طه (40) وواضح - من خلال السياق - أن هذه المحبة ليس المراد منها بيان مقدار حب الله تعالى لموسى عليه السلام بل المراد بيان أثر تلك المحبة فيمن عاشره عليه السلام قبل النيوة كما سيتضح من خلال كلام المفسرين حول الآية الكريمة وذلك أمر كوني وأما الحب الإلهي الشرعي فهو يظهر في الاصطفاء له عليه السلام .

ونقول في المحبة التي أعطيها نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ما قلنا في المحبة المذكورة في موسى عليه السلام أي بيان أثر تلك المحبة فيمن عاشره صلى الله عليه وسلم قبل النيوة ، ففي هذه الناحية تكون الموازنة إن شاء الله تعالى .

وألفت الانتباه إلى أنَّ حب الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم الشرعي والذي تجلى في اصطفائه للرسالة والنبوة وصل إلى حد الخلة كما سبق ذكره عند الكلام على الموازنة بينه وبين الخليل عليهما الصلاة والسلام.

وعلى ضوء هذه المقدمة نشرع في بيان هذه الموازنة من خلال محورين :

المحور الأول

بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام المحبة

أما ما ورد في حق موسى عليه السلام فهو قوله تعالى :**(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي)** سورة طه(40).

قال في التفسير المحيط:

(**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**) قيل : محبة آسية وفرعون ، وكان فرعون قد أحبه حبا شديدا حتى لا يتمالك أن يصبر عنه . قال ابن عباس : أحبه الله وحببه إلى خلقه .

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى : جعلت عليه مسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كان في عينيه ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه .

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى : (مِّنِّي) لا يخلوا أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى : أني أحببتك ، ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة ، أي : محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا فيها في القلوب وزرعتها فيها ، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك.

قال الآلوسى رحمه الله تعالى :

وكلمة : مِنِّي : متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف، مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية. أى: وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى- لا من غيرى- قد زرعتها في القلوب، فكل من رآك أحبك .

ولقد كان من آثار هذه المحبة: عطف امرأة فرعون عليه، وطلبها منه عدم قتله، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا.وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى في صغره معززا مكرما في بيت فرعون مع أنه في المستقبل سيكون عدوا له. **وهكذا رعاية الله- تعالى- ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا.**

إذن نستطيع القول : أن غاية ما ورد في أثر محبة الناس لموسى عليه السلام أنها كانت السبب في تخليصن من قتل فرعون إياه كما أنها كانت سبباً في حسن تربية امرأة فرعون له ، ولكنها لم تكن – تلك المحية – سبباً في حب الناس لله تعالى إلا عدداً قليلاً منهم ،إذ كانت عاطفية ولم تكن دينية . والله أعلم .

* * * * * * * * * *

المحور الثاني

بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام المحبة

هذا ما جاء في حق موسى عليه السلام وأما النبي صلى الله عليه وسلم فسيكون الحديث على محبته من ناحيتن :

الأولى : محبة الناس له ﷺ قبل بعثته الشريفة :

مما هو معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل أن يبعثه الله بالرسالة العظمى في الذروة العليا من الأخلاق الحسنة صدقًا وأمانة وكرمًا وحلمًا وشجاعة وعفة وقناعة، وغير ذلك من الصفات التي يحظى بالإجلال والإكبار من حصل على واحدة منها، فضلاً عمن جمعت له وتوفرت فيه.

تلك الصفات الجلية دعت قرشاً لمحبته وطاعى أمره والاطمئنان إلى التعامل معه بل والافتخار بذلك كما هو معلوم من خلال الموافق العديدة في السيرة النبوية ، ومن ذلك :

- كانت قريش تتعاقد مع النبي صلى الله عليه وسلم في تجاراتها، فسمعت به خديجة رضي الله عنها، وعرضت عليه أن يشاركها، فقبل ذلك وقام على استثمار أموالها، ولم تمض فترة قصيرة حتى تزوّجها و أنجب منها الذرّية.

- وفي مجال الحرب شارك النبي صلى الله عليه وسلم في الدفاع عن مكّة وهو ابن أربع عشرة سنة، عندما أرادت هوازن الهجوم على الحرم واستباحة مقدّساته لقتال قريش، و اقتصرت مشاركته عندئذٍ على جمع السهام ومناولتها لأعمامه.

- وكان للنبي صلى الله عليه وسلم حضورٌ في الندوات والاجتماعات التي يعقدها قومه لبحث القضايا المهمة، ومن ذلك دخوله فيما سمي بـ (حلف الفضول)، وهو عقدٌ تمّ بين مجموعةٍ من قبائل مكّة كان منها بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وغيرها، و اتّفقوا على حماية المظلوم ونصرته، ومواجهة الظالم مهما كانت مكانته وسلطته، وقد مدح صلى الله عليه وسلم هذا الحلف

وقال عنه:(لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِعَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَالنّعَمِ وَلَوْأُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت)[132].

وفي رواية أنه قال صلى الله عليه وسلم : (شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَالنَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ) [133]

وعندما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خمسة وثلاثين عاماً كان له دورٌ مهم في إعادة بناء الكعبة وتجديدها بعد أن تشقّقت جدرانها بفعل السيول والأمطار، حيث شارك قومه في نقل الأحجار مع عمّه العباس.

*** **** ***

الثانية : محبة الناس له صلى الله عليه وسلم بعد بعثته الشريفة:

قد يقول قائل لم تذكر هذا القسم في حق موسى عليه السلام أقول : لأن الذي ورد في القرآن كان مقتصراً على محبة الناس له عليه السلام قبل بعثته - وهو ما تقدم الحديث عنه - وأما بعد بعثته فقد أتعبه المؤمنون به فلم يو افقوه في كثير من أوامره إلا بعد عنت شديد وقد تقدم ذكر هذا عند الكلام على الموازنة بين أتباع نبينا صلى الله عليه وسلم و أتباع الأنبياء السابيقن عليهم السلام .

وأما ورد في حق نبينا صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بحبه بعد البعثة فهو آيتان وعدد من الأحاديث النبوية الشريفة ، وسنقف مع الآيتين وحديثين مما ورد في هذا المقام:

الآية الأولى : فهي قول الله تعالى له : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَّحِيمٌ) سورة آل عمران (31).

132 / رواه النسائي في السنن الكبرى وذكره ابن هشام في السيرة النبوية -(133/1) .

133 / رواه أحمد، برقم 1567، وهو في السلسلة الصحيحة. ويقصد حلف الفضول فهم في الأصل من جماعة المطيبين .

لقد أطال كثير من المفسرين الكلام حول هذه الآية العظيمة وسوف أكتفي بذكر أقوالهم فيما يتعلق بمحبته صلى الله عليه وسلم لأنه هو مقصودنا في هذا المقام ، وسأكتفي بذكر كلام بعضهم – مختصراً - فأقول ومن الله أرجو العون والقبول :

قال القرطبيرحمه الله تعالى في سبب نزولها :

والآية نزلت في وفد نجران إذ زعموا أن ما ادعوه في عيسى حب لله عز وجل ; قاله محمد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وابن جريج : نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نحب ربنا . وروي أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني .

قال ابن عرفة رحمه الله : المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد له . وقال الأزهري : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ; قال الله تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في تفسيره :

المحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال عز وجل: **(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)** التوبة (24).

وقال تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)** قال الحسن رحمه الله تعالى : قال أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -: يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبا شديدا، فأحب الله أن يجعل لحبه علما، فأنزل الله هذه الآية .

*** **** ***

وفي "الصحيحين " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)** .

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله **ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى الله ورسوله، ويسخط ما يسخطه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئا يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة .**

قال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله : كل من ادعى محبة الله عز وجل ولم يوافق الله في أمره، فدعواه باطلة، وكل محب ليس يخاف الله، فهو مغرور .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : ليس بصادق من ادعى محبة الله عز وجل ولم يحفظ حدوده .

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله :

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن . والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله : والله رءوف بالعباد والرأفة تستلزم محبة المرءوف به الرءوف ، فجعل محبة الله فعلا للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه - مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة ، أو هو مبني على أن محبة الله أمر مقطوع به من جانب المخاطبين ، فالتعليق عليه تعليق شرط محقق .

* * * * * * * * * *

ثم رتب على الجزاء مشروط آخر وهو قوله : **(يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)** لكونه أيضا مقطوع الرغبة من المخاطبين ، لأن الخطاب للمؤمنين ، والمؤمن غاية قصده تحصيل رضا الله عنه ومحبته إياه .

ومن آثار المحبة أن تطلب القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه .

ومن آثارها محبة ما يسره ويرضيه ، واجتناب ما يغضبه ، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى لأن الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه ، وذلك كمال المحبة .

وتعليق محبة الله إياهم على فاتبعوني المعلق على قوله : **إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ** ينتظم منه قياس شرطي اقتراني . ويدل على أن الحب المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حب كاذب ، لأن المحب لمن يحب مطيع ، ولأن ارتكاب ما يكرهه المحبوب إغاضة له وتلبس بعدوه وقد قال أبو الطيب :

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

فعلم أن حب العدو لا يجامع الحب وقد قال العتابي :

تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب

وجملة (**والله غفور رحيم**) في قوة التذييل مثل جملة والله على كل شيء قدير المتقدمة . ولم يذكر متعلق للصفتين ليكون الناس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة) اهـ باختصار.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) التوبة (24) .

قال في تفسير المنار:

وأما حب رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فهو دون حبه عز وجل ، وفوق حب تلك الأصناف الثمانية وغيرها ممن يحب من الخلق كالعلماء العاملين ، والمرشدين المربين ، والفنانين المتقين ، والزعماء السياسيين ، والأغنياء المحسنين فإنه . صلى الله عليه وسلم . كان المثل البشري الأعلى ، والأسوة الحسنة المثلى ، في أخلاقه وآدابه وفضائله وفواضله وسياسته ورياسته وسائر هديه ، قد خصه الله بجعله خاتم النبيين ، وإرساله رحمة للعالمين ، وجعل اتباعه هو الدليل على حب متبعه لله عز وجل ، وجعل جزاءه عنده حبه تعالى لمتبعه ، ومغفرته لجميع ذنوبه ، وذلك نص آية آل

عمران التي ذكرناها آنفا ، وسنزيد هذا الحب وحب الله تعالى بيانا في هذا المقام ، وقد عطف عليهما الجهاد في سبيله منكرا، لأنه أظهر آياتهما ونكتة تنكيره وإبهامه إفادة أن كل نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله قل أو كثر ، فإن تاركه لأجل حب شيء من تلك الأصناف الثمانية وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذي في الآية .

والجهاد أنواع ترجع إلى جنسين : الجهاد بالمال ، والجهاد بالنفس . والقتال نوع من أنواع الجنس الثاني.

ومنها أنواع أخرى علمية وعملية . فمهندس الحرب الحق العادلة مجاهد في سبيل الله ، وواضع الرسوم لمواطنها وطرقها كذلك ، إلخ .

*** **** ***

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فلا ريب أن من كان ما ذكر من الأصناف الثمانية كلها أو بعضها أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فهو غير تام الإيمان أو غير صحيحه كما تشير إليه الآية **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** المائدة (54).

فقوله عز وجل **(فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)** أيهم لتذهب أنفسهم فيه كل مذهب ، وأقرب ما يفسر به قوله في وعيد المنافقين من هذه السورة - التوبة 52 - **(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)** وما كان أولئك الذين يؤثرون حب أهلهم وأموالهم على حب الله ورسوله ، والجهاد في سبيله إلا من المنافقين فهم الذين كانوا يثبطون المؤمنين عن الجهاد ، ويوحون إليهم زخرف الاعتراض على نبذ عهود المشركين ، وإعلان حالة الحرب بينهم وبين المؤمنين ، كما بيناه مرارا .

وما روي عن مجاهد أن المعنى حتى يأتي الله بالأمر بالهجرة ، وأن هذا كله كان قبل فتح مكة - فما أراه يصح عنه ، وقد تقدم نقل الاتفاق على نزول هذه الآيات - وكذا السورة جلها أو كلها - بعد فتح مكة

وغزوة حنين وتبوك ، وأنها مما بلغ للمشركين في موسم سنة تسع بعد سقوط فريضة الهجرة بنص حديث (**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**) رواه البخاري ، والوعيد هنا على ترك الجهاد دون الهجرة .

*** **** ***

قوله تعالى : (والله لا يهدي القوم الفاسقين) : والمعنى هنا : وقد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفته كالمنافقين أو يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الناس بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من اتباعه ، فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله ، والجهاد المفروض في سبيله ، ويصح تفسيره بمقابله وعكسه فيقال : وقد مضت سنته تعالى في القوم الفاسقين من محيط الفطرة السليمة ، ونور العقل الراجح اتباعا للهوى أو التقليد أو يحرموا من فقه هداية الدين فلا يعقلونها وأهمها العلم بما في إيثار حب الله وحب رسوله ، والجهاد في سبيله من الصلاح والإصلاح .

ومن رحمة الله تعالى في دين الفطرة أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج ، ولا حب المال والكسب والاتجار ، ولم ينه عنهما ، وإنما جعل من مقتضى الإيمان إيثار حب الله ورسوله على حب ما ذكر ، وكذلك الجهاد في سبيله إذا وجب) اهـ باختصار.

*** **** ***

وأما الأحاديث التي وردت في حب النبي صلى الله عليه وسلم فهي كثيرة ، نقف مع حيثين منها كما وعدنا سابقاً:

الأول : ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي . صلى الله عليه وسلم . وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي فقال النبي . صلى الله عليه وسلم . :(لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من

نفسك) فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (الآن يا عمر) .

قال ابن حجر رحمه الله :

قوله : فقال له عمر رضي الله عنه **(يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي)** اللام لتأكيد القسم المقدر كأنه قال والله لأنت إلخ

قوله صلى الله عليه وسلم **(لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك)** أي لا يكفي ذلك لبلوغ الرتبة العليا حتى يضاف إليه ما ذكر وعن بعض الزهاد تقدير الكلام لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك .

قوله فقال له عمر فإنه الآن يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **(الآن يا عمر)** قال الداودي : وقوف عمر أول مرة واستثناؤه نفسه إنما اتفق حتى لا يبلغ ذلك منه فيحلف بالله كاذبا فلما قال له ما قال تقرر في نفسه أنه أحب إليه من نفسه فحلف كذا قال.

وقال الخطابي رحمه الله : حب الإنسان نفسه طبع وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه قلت فعلى هذا فجواب عمر أولا كان بحسب الطبع ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى فأخبر بما اقتضاه الاختيار.

ولذلك حصل الجواب بقوله **(الآن يا عمر)** أي الآن عرفت فنطقت بما يجب وأما تقرير بعض الشراح الآن صار إيمانك معتدا به إذ المرء لا يعتد بإيمانه حتى يقتضي عقله ترجيح جانب الرسول ففيه سوء أدب في العبارة وما أكثر ما يقع مثل هذا في كلام الكبار عند عدم التأمل والتحرز لاستغراق الفكر في المعنى الأصلي فلا ينبغي التشديد في الإنكار على من وقع ذلك منه بل يكتفى بالإشارة إلى الرد والتحذير من الاغترار به لئلا يقع المنكر في نحو مما أنكره) اهـ[134].

---

[134] / فتح الباري - كتاب الأيمان والنذور - باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم .

وسئل بعضهم عن المحبة ، فقال : المو افقة في جميع الأحوال. فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق : أنه إذا تعارض طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أوامره وداع آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة .

فإن قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي : كان دليلا على صحة محبته للرسول وتقديمها على كل شيء ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من هذه الأشياء المحبوبة طبعا : دل ذلك على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه . وكذلك القول في تعارض محبة الله ومحبة داعي الهوى والنفس ، فإن محبة الرسول تبع لمحبة مرسله عزوجل. هذا كله في امتثال الواجبات وترك المحرمات .

فإن تعارض داعي النفس ومندوبات الشريعة ، فإن بلغت المحبة على تقديم المندوبات على دواعي النفس كان ذلك علامة كمال الإيمان وبلوغه إلى درجة المقربين والمحبوبين المتقربين بالنوافل بعد الفرائض ، وإن لم تبلغ هذه المحبة إلى الدرجة فهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين الذين كملت محبتهم ولم يزيدوا عليها.

الثاني : ما رواه الشيخان عن أنس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)، ورواه مسلم بلفظ (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين).

*** **** ***

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم:

قال ابن بطال ، والقاضي عياض ، وغيرهما رحمة الله عليهم : المحبة ثلاثة أقسام:

–محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد.

–ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد.

–ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس.

فجمع صلى الله عليه وسلم أصناف المحبة في محبته.

قال ابن بطال رحمه الله : ومعنى الحديث : أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي صلى الله عليه وسلم آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ؛ لأن به صلى الله عليه وسلم استنقذنا من النار ، وهدينا من الضلال.

قال القاضي عياض رحمه الله : ومن محبته صلى الله عليه وسلم نصرة سنته ، والذب عن شريعته ، وتمني حضور حياته ؛ فيبذل ماله ونفسه دونه.

ثم قال : وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومنزلته على كل والد ، وولد ومحسن ومتفضل . ومن لم يعتقد هذا ، واعتقد سواه ، فليس بمؤمن . هذا كلام القاضي رحمه الله . والله أعلم) اهـ

فالمطلوب من المسلم أن يقدم حب النبي صلى الله عليه وسلم على كل محبوب من ولد و أب و مال ، و المطلوب منه إيثار نبيه الذي هو أولى به من أقرب أقربائه ، و الذي كان سبب في نعمة الإسلام له ، تلك النعمة العظيمة التي لا تقارن بأخرى ففيها فلاح العبد في الآخرة و الدنيا.

*** **** ***

قال السيوطي رحمه الله : قال الحليمي : أصل هذا الباب أن تقف على مدائح رسول الله صلى الله عليه وسلم و المحاسن الثابته له في نفسه ، ثم على حسن آثاره في دين الله ، وما يجب له من الحق على امته شرعاً وعادة ، فمن أحاط بذلك وسلم عقله ، علم أنه أحق بالمحبة من الوالد الفاضل في نفسه البر الشفيق على ولده [135] .

ونختم الكلام في هذا الموضوع ببشارة تبين جزاء محبة النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما رواه البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه : (أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ.قَالَ:

113/ سنن النسائي بحاشية الإمامين السيوطي و السندي ، تحقيق علي محمد علي و آخرون ، دار الحديث بالقاهرة ، ط1 -1420 - (451/4).

(أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) ؛ قال أنس رضي الله عنه : فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء ما فرحوا به. فنحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نستطيع أن نعمل كعمله فإذا كنا معه فحسبنا.

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين معجزات موسى عليه السلام ومعجزات النبي ﷺ

المطلب الأول : الموازنة بين معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر ومعجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر .

المحور الأول : بيان ما كان من معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر.

المحور الثاني : بيان ما كان من معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في انشقاق القمر .

المطلب الثاني : الموازنة بين الآية الكبرى والآيات التي أعطيها النبي ﷺ والآية الكبرى والآيات التي أعطيها موسى عليه السلام.

المحور الأول : الآية الكبرى في حق موسى عليه السلام .

المحور الثاني : الآية الكبرى في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

المطلب الثالث : الموازنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات موسى عليه السلام الحسية.

المطلب الأول

الموازنة بين معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحرومعجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر

المحورالأول : بيان ما كان من معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر.

المحورالثاني : بيان ما كان من معجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر .

المحور الأول

بيان ما كان من معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر

في البدء نقول كلتا المعجزتين كان أمراً مبهراً غريباً عجيباً ظهر فيه التأييد الإلهي لهذين النبيين الكريمين عليهما الصلاة والسلام ، وكلتاهما نص عليهما القرآن الكريم.

أما معجزة شق البحر لموسى عليه السلام فقد قص علينا سبحانه وتعالى قصة فرعون مع نبي الله موسى ، وكيف أنجاه من بطش فرعون وجنوده ، إذ شق الله البحر لموسى عليه السلام ليعبره مع قومه ، فقال سبحانه :

(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَ أَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الشعراء(68-63).

وسأذكر من كلام المفسرين ما يوضح المعنى وما يدل على عظم هذه المعجزة التي سماها الله آية (إن في ذلك لآية) أي شئ عجيب ملفت للانتباه و معجزة خارقة للعادة .

قال الرازي رحمه الله:

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله : **(إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)** الشعراء (62) بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه ، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا ، فقال : **(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ)** ولا شبهة في أن المراد فضرب فانفلق لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لأنه كالعبث ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه ، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام.

فأما قوله : (**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**) فالفرق الجزء المنفرق منه ،**والطود** الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء، وهو معجز من وجوه :

أحدها : أن تفرق ذلك الماء معجز .

وثانيها : أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا ؛ لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الإعجاز .

وثالثها : أنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث .

ورابعها : أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع .

وخامسها : أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس.

*** **** ***

ثم قال رحمه الله أما قوله تعالى : (وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبسا في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء .

أما قوله تعالى : **(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً)** فالمعنى أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لأن أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا ، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له ، وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ، ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال عقيب ذلك : **(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)** وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره ، فإن الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره .

فكذلك أنت يا محمد ﷺ لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم) اهـ باختصار.

*** **** ***

وما ذكر الرازي في كيفية شق البحر إلى اثني عشر طريقاً هو الذي ذكره أكثر المفسرين على عدد أسباط بني إسرائيل ، وقد صح هذا القول عن حبر الأمة عبد الله بن عباس.

فروى الطبري في " تفسيره" بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (**فَضَرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ، فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا ، كُلُّ طَرِيقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ، فَكَانَ لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْهُمْ طَرِيقٌ يَأْخُذُونَ فِيهِ**) انتهى.

وهو اختيار شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري ، حيث قال في تفسير قوله تعالى: (**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**) ،قال : " وَمَعْنَى قَوْلِهِ : (**فَرَقْنَا بِكُمُ**) فَصَلْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا ، فَفَرَقَ الْبَحْرَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا ، فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا مِنْهَا ، فَذَلِكَ فَرْقُ اللَّهِ بِهِمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الْبَحْرَ ، وَفَصْلُهُ بِهِمْ بِتَفْرِيقِهِمْ فِي طَرِيقِ الِاثْنَيْ عَشَرَ ". انتهى .

*** **** ***

المحور الثاني

بيان ما كان من معجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر

أما شق القمر لسيدنا رسول صلى الله عليه وسلم فقد كان الأمر كما قال العلماء : من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة للنبي . صلى الله عليه وسلم . انشقاق القمر في مكة المكرمة قبل الهجرة، وهي معجزة تواترت الأخبار بنقلها، فقد سأل المشركون بمكة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . آية، فأراهم القمر ينشق إلى شقين، غير أن قلوبهم المريضة لم تؤمن رغم عظم هذه المعجزة، وقد أنكرها البعض، وهو جهل منهم بقدرة الله . عز وجل . في هذا الكون، ومطلق تصرفه في مخلوقاته .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: " قال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: " أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم البعث ويفنيه ".

ولم ينشق القمر لأحد غير نبينا صلى الله عليه وسلم يقول الإمام الخطابي : " انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء .. " .

وهي معجزة ثابتة بنص القرآن الكريم، وبالأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أما القرآن الكريم فقول الله تعالى:{ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ } (القمر 3:1) .

* * * * * * * * * *

وأما الأحاديث فقد صحت عند البخاري ومسلم وغيرهما:

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله . صلى الله عليه وسلم . شقتين، فقال النبي . صلى الله عليه وسلم : اشهدوا) رواه البخاري .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن أهل مكة سألوا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر) رواه البخاري .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : **(انشق القمر على عهد النبي . صلى الله عليه وسلم . حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم)** رواه الترمذي.

وقد أراد بعض المشركين التشكيك في هذه المعجزة، بزعمهم أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . سحر أعينهم، فرد عليهم البعض بسؤال المسافرين إذا كانوا رأوا هذه الحادثة أم لا..

فذكر البيهقي في دلائل النبوة : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت كفار قريش: هذا سحر، سحركم ابن أبي كبشة، فانظروا إلى السفار - القوافل التجارية العائدة إلى مكة - فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، قال: فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك) .

قال القاضي عياض رحمه الله : أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه، و أخبر عن و جوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خِلافُ أخْرقٍ منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه .

فمعجزة انشقاق القمر من أعظم معجزات النبي . صلى الله عليه وسلم . بعد القرآن الكريم، وهي أعظم من معجزة شق البحر لموسى . عليه السلام .، لأن البحر في الأرض، أما القمر في السماء والبرهان فيه أظهر.

*** **** ***

وقد سئل الأستاذ عبد الدائم الكحيل : ظاهرة انشقاق القمر، هل هناك حقائق علمية تؤكد حدوثها؟ ماذا يقول العلم وهل وجد تفسيراً للشقوق الموجودة على سطح القمر؟ هل هناك علماء **تحدثوا بالفعل عن انشقاق القمر؟**

فأجاب بقوله : قد كشف علماء وكالة ناسا وجود شق في القمر يبلغ طوله عدة مئات من الكيلومترات، ثم كشفوا عدداً من التشققات على سطح القمر، ولم يعرفوا حتى الآن سبب وجود هذه الشقوق، إلا أن بعض العلماء يعتقدون أنها نتيجة لتدفق بعض الحمم المنصهرة ولكن هذه

وجهة نظر فقط. وهناك عدد كبير من التشققات على سطح القمر، وبعض هذه التشققات أشبه "بوصلات لحام" وكأننا أمام سطح معدني تشقق ثم التحم!! وكل ما قاله علماء وكالة ناسا حول هذه الشقوق هو: أن هذه الشقوق لا زالت قيد البحث .

والحقيقة هذه الشقوق حيرت الباحثين حتى الآن ولم يجدوا لها تفسيراً. وكل النظريات التي طُرحت لا تتناسب مع طبيعة الصور الملتقطة، إذ أن الصور تبين وكأن هناك لحَّام ماهر قام بلحام سطح القمر المتمزق! هذا ما تقوله الصور.

وفي رحلة الفضاء التي قامت بها وكالة ناسا الأمريكية التقط العلماء عدداً كبيراً من الصور لظاهرة الشقوق القمرية rilles وقد حيرت هذه الصور الباحثين في العالم لم يجدوا لها تفسيراً منطقياً أو علمياً حتى هذه اللحظة.

هناك الكثير من الصور تبين وجود آثار أشبه بلحام معدني! وقد احتار الباحثون في سبب هذا الشق واقترح بعضهم أن هناك حمماً منصهرة تدفقت منذ ملايين السنين كما يحدث على الأرض، ولكن هذه الفكرة رُفضت على الفور لأن الحمم التي تتدفق على الأرض لا تشبه في شكلها هذه الحمم. فليس هناك آثار لتحطم أو انهيارات كما يحدث على الأرض. فهذا الشق ذو أطراف حادة وكأنه قُطع بشكل حاد.

*** **** ***

يقول العلماء : إن كل الاقتراحات والنظريات فشلت حتى الآن في تفسير هذه الشقوق والطريقة التي لُحمت بها. ويعتقد بعض العلماء أن هذه "اللحامات" شُكلت بواسطة الحمم المنصهرة التي تدفقت من الشقوق القمرية. ولكن هناك اختلاف عميق بين الحمم المتدفقة على سطح الأرض وبين هذه الوصلات البارزة على سطح القمر فهي ملساء وناعمة وكأنها صُنعت بشكل متقن!!!

وقد يقول قائل: كيف يمكن للقمر إن ينشق إلى نصفين كل نصف في جهة، ما الذي أحدث ذلك؟ ولماذا لم ينهار القمر؟ وسيقولون إن هذا لو حدث فإنه يخالف قوانين الفيزياء والجاذبية والكون.

ولذلك فإن خلاصة القول: هناك معجزات لا يمكن تفسيرها على ضوء العلوم، وهي معجزات اختص الله بها أنبياءه عليهم السلام، مثل معجزة العصا التي تنقلب ثعباناً على يد سيدنا موسى عليه السلام، ومثل معجزة إحياء الموتى على يد سيدنا المسيح عليه السلام، ومثل إحضار عرش ملكة سبأ خلال أجزاء من الثانية ... فهذه المعجزات لا يمكن أن نفسرها علمياً، وهي وسيلة لاختبار إيمان المؤمن.

ونحن كمؤمنين نشهد بأن هذه المعجزات صحيحة، تماماً كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: (قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) [الأنبياء: 56]، **مع أن إبراهيم لم يشاهد خلق السموات والأرض إلا أن العقل والمنطق يقول بأن الله هو الذي فطر وخلق هذا الكون.**

إخوتي في الله! مهما يكن سبب هذه الشقوق، ومهما تكن طبيعة تشكلها، إلا أن العلماء لا يشكّون أبداً في وجودها، وهي دليل مادي على وجود انشقاق في سطح القمر، ويكفي أن نعلم أن القرآن أشار إلى ذلك بقوله تعالى: (**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ**) [القمر: 1]. ولا بد أن يكشف العلم هذه الحقيقة يوماً ما لتكون معجزة تشهد على صدق هذا الدين) اهـ[136]

قلت : بناءاً على ما سبق نعلم أن الله أبقى أثر معجزة انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى بينما معجزة انشقاق البحر لموسى لم يبق لها أثر ، كما قال المفسرون في قوله تعالى: **(وَ أَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ)** فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبسا في حق موسى عليه السلام وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء ، فعاد البحر كما كان.

*** **** ***

[136] / المرجع : موقع عبد الدائم الكحيل للاعجاز العلمي – بتصرف يسير

المطلب الثاني

الموازنة بين الآية الكبرى والآيات التي أعطيها موسى عليه السلام وما أعطي النبي ﷺ

المحور الأول : الآية الكبرى في حق موسى عليه السلام .

المحور الثاني : الآية الكبرى في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

مدخل

في هذا المطلب قضيتان:

إحداهما : ما ورد في القرآن من وصف بعض الآيات التي أريها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام بأنها (كبرى) في قوله تعالى (**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**) وكذا موسى عليه السلام (**لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**) طه (23) ، فهل (**كبرى**) في حق كل واحد منهما بمعنى واحد أم أن هناك اختلافاً في المعنى وإن كان اللفظ واحداً ؟ هذا ما سنعرفه إن شاء الله تعالى.

الثانية : ما ورد في القرآن من إخبار الله تعالى بأنه آتى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آيات – بالجمع – كما في قوله تعالى : (**لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا**) وكذا موسى عليه السلام كما في قوله تعالى : (**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات**) فهل تلك الآيات هي هي في حقهما عليهما الصلاة والسلام أم أن الأمر يختلف ؟ كل ذلك سيتضح من خلال المحورين التاليين:

* * * * * * * * * *

المحور الأول : الآية الكبرى في حق موسى عليه السلام:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) طه (17-23).

قال الرازي : اختلفوا في الآية الكبرى على ثلاثة أقوال :

الأول : قال مقاتل والكلبي : هي اليد، لقوله في النمل : (**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**) : (**لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**) [طه : 23] .

القول الثاني : قال عطاء : هي العصا؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونه إلى لون آخر، وهذا المعنى كان حاصلا في العصا؛ لأنها لما انقلبت حية فلا بد وأن يكون قد تغير اللون الأول، فإذا كل ما في اليد فهو

حاصل في العصا، ثم حصل في العصا أمور أخرى أزيد من ذلك، منها حصول الحياة في الجرم الجمادي، ومنها تزايد أجزائه وأجسامه، ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة، ومنها أنها كانت ابتلعت أشياء كثيرة وكأنها فنيت، ومنها زوال الحياة والقدرة عنها، وفناء تلك الأجزاء التي حصل عظمها، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا .

والقول الثالث : قول مجاهد، وهو أن المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا، وذلك لأن سائر الآيات دلت على أن أول ما أظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا، ثم أتبعه باليد، فوجب أن يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما.

ووردت الآية الكبرى في سورة النازعات في قوله تعالى **(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ** (15) **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** (16) **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** (17) **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** (18) **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ** (19) **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21))**

قال الطاهر بن عاشوررحمه الله : عرض موسى عليه السلام على فرعون إظهار آية تدل على صدق دعوته لعله يوقن كما قال تعالى : قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فتلك هي الآية الكبرى المرادة هنا .

والآية : حقيقتها العلامة والأمارة ، وتطلق على الحجة المثبتة لأنها علامة على ثبوت الحق ، وتطلق على معجزة الرسول ; لأنها دليل على صدق الرسول وهو المراد هنا.

وقال أكثر المفسرين أن الآية الكبرى : العصا حيث انقلبت حية تسعى أمام فرعون ،واليد :حيث أضاءت تبرق كالشمس، وقيل : الآية : إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته.

قلت : تلك هي الآية الكبرى المرادة في حق موسى عليه السلام لم تخرج عن معجزاته الحسية كما رأيت في كلام المفسرين.

*** **** ***

المحور الثاني

الآية الكبرى في حق النبي صلى الله عليه وسلم

قد وردت في قوله تعالى (**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**) سورة النجم (18) .

قال البقاعي رحمه الله:

(لقد رأى أي أبصر بسبب ما أهلناه له من الرسالة إبصارا ساريا إلى البواطن غير مقتصر على الظواهر (**مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**) من ذلك ما رآه في السماوات من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام إشارة بكل شيء إلى أمر دقيق جليل وحالة شريفة) اهـ باختصار

قال في التفسير الوسيط:

ثم عظم- سبحانه- من شأن ما أراه لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال: **(لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى)** والكلام جواب لقسم محذوف، والآيات جمع آية، **والمراد بها العجائب التي أطلع الله تعالى عليها نبيه صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وهي ليلة الإسراء والمعراج.**

والكبرى: صفة لهذه الآيات، وحذف المرئي: لتفخيم أمره وتعظيمه.أى: والله لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف، وقد أكرمناه برؤيتها ليزداد يقينا على يقينه، وثباتا على ثباته، وقوة على قوته في تبليغ رسالتنا، وحمل أمانتنا.

هذا، وقد جرينا في تفسيرنا لهذه الآيات على الرأى الذي سار عليه المحققون من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل مرتين، كما سبق أن بينا، وأن الضمائر في تلك الآيات منها ما يرجع إلى جبريل، ومنها ما يرجع إلى الله- عز وجل.-

وقد أعدنا كل ضمير إلى مرجعه الذي نراه مناسبا للمقام : فمثلا: الضمير المنصوب في قوله- تعالى-: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى قلنا: إنه يعود إلى جبريل. أى: أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على هيئته التي خلقه الله عليها مرة أخرى، غير المرة الأولى التي كانت في أوائل بعثته صلى الله عليه وسلم.

ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير في هذه الآية وغيرها، يعود إلى الله- تعالى-، ويستدلون بذلك على أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى ربه.

*** **** ***

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام الآلوسى فقال ما ملخصه:

(فالضمائر في «**دنا**» «**وتدلى**» «**وأوحى**..» وكذلك الضمير المنصوب في «رآه» لله عز وجل، واستدل بذلك مثبتو رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لله- عز وجل- كابن عباس وغيره..

وخالفت في ذلك عائشة رضى الله عنها فقد أخرج مسلم عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن، فقد أعظم على الله- تعالى- الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب، ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فقلت: يا أم المؤمنين: **ألم يقل الله- تعالى-: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى**؟. فقالت: أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: «لا، إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها سوى هاتين المرتين. رأيته منهبطا من السماء سادا ما بين السماء إلى الأرض).

ثم قال الآلوسى : ولا يخفى أن جواب الرسول صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها، ظاهر في أن الضمير المنصوب في رَآهُ ليس راجعا إليه- تعالى-، بل إلى جبريل عليه السلام) اهـ

ووجه الموازنة بينهما أن يقال : لقد ظهر جلياً من خلال ما سبق قدر النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانت الآية الكبرى في حقه تختلف تماماً عنها في حق موسى عليه السلام إذ كانت آيته الكبرى لم تخرج عن المعجزات الحسية - كما سبق ذكره - **أما النبي صلى الله عليه وسلم فآيته الكبرى رؤيته جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية وكذا رؤيته لعدد من الغرائب والعجائب والمعجزات، مع أن التعبير واحد** - الآية الكبرى - **ومن تلك العجائب:**

1/ قد رأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم خلال رحلته المباركة نهر الكوثر، وهو النّهر الذي اختصّه الله لنبيّه . صلّى الله عليه وسلّم . وذلك تكريماً له، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبي . صلّى الله

عليه وسلّم قال: (بينما أنا أسير في الجنّة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدرّ المجوّف، قلت ما هذا يا جبريل، قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربّك، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر) رواه البخاري.

2/ قد رأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم الجنّة وما فيها من النّعيم، وفي المقابل رأى أيضاً بعض أحوال النّاس الذين يعذّبون في نار جهنّم، ومنهم من يقعون في الغيبة، والذين يخوضون في أعراض المسلمين، فعن أنس . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لما عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون في أعراضهم) رواه أبو داود.

3/ وقد رأى كذلك - صلّى الله عليه وسلّم - أقوامًا وقد تقطَّعت ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار، فقال له جبريل عليه السّلام: (هؤلاء خطباء أمّتك من أهل الدّنيا، كانوا يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟) رواه أحمد وصحّحه الألباني.

*** **** ***

4/ آيات موسى عليه السلام وهي التي وردت في قوله تعالى :(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا) الإسراء(101) .

قال ابن كثير رحمه الله:

(يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي : العصا ، واليد ، والسنين ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات ؛ قاله ابن عباس ، وقال محمد بن كعب : هي اليد ، والعصا ، والخمس في " الأعراف " ، والطمسة والحجر .

وقال : ابن عباس أيضا ، ومجاهد ، وعكرمة والشعبي ، وقتادة : هي يده ، وعصاه ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي . وجعل الحسن البصري " السنين ونقص الثمرات " واحدة ، وعنده أن التاسعة هي : تلقف العصا ما يأفكون).

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا ، وهي المعنية في قوله تعالى : **(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)** [النمل : 10 - 12] . فذكر هاتين الآيتين : العصا واليد ، وبين الآيات الباقيات في " سورة الأعراف " وفصلها). اهـ .

* * * * * * * * * *

وقد ثبت الإسراء بالقرآن الكريم، والأحاديث الصّحيحة المتكاثرة:

فأمّا ما جاء في القرآن ففي قوله سبحانه وتعالى: **(سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** سورة الإسراء(1) .

وأمّا المعراج فهو ثابت بالأحاديث الصّحيحة التي رواها الثّقات العدول، وأمّا بعض العلماء فإنّهم يرون أنّ المعراج لم يثبت في القرآن الكريم على وجه الصّراحة، ولكنّه قد أشير إليه في سورة النّجم في قوله سبحانه وتعالى: **(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى * عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى * ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى * لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى)** سورة النجم (13-18) .

قال ابن كثير رحمه الله :

وقد رأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم جبريل عليه السّلام، على هيئته التي خلقه الله سبحانه وتعالى عليها مرّتين:

حيث كانت الأولى عقب فترة الوحي، عندما كان النّبي صلّى الله عليه وسلّم نازلاً من غار حراء، فرآه حينها على صورته، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله عزّ وجلّ ما أوحى، وإليه أشار الله بقوله: **(عَلَّمَهُ**

شَدِيدُ الْقُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى * ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى * فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى) سورة النجم (5-10) .

والثّانية : في ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، وهي ما أشير إليه في سورة النّجم بقوله سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) سورة النجم (13-148) .

ويرى جمهور العلماء أنّ الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، وأنّهما كانا في حالة اليقظة بجسده وروحه . صلّى الله عليه وسلّم . وهذا ما يدلّ عليه قول الله سبحانه وتعالى في بداية سورة الإسراء: (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ)، أي بروحه وجسده.

قال الطبري رحمه الله: ولا معنى لقول من قال: أُسْرِيَ بروحه دون جسده، لأنّ ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حجةً له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشّرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل.

وقال ابن حجر رحمه الله : إنّ الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله، حتى يحتاج إلى تأويل .

*** **** ***

المطلب الثالث

الموازنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات موسى عليه السلام الحسية

لقد تعددت المعجزات التي أوتيها موسى عليه السلام وهي : اليد ونبع الماء من الحجر والمن والسلوى، سأبينها و أبين ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم مما يقابل كل واحدة منها على انفراد وذلك في المحاور التالية الآتية:

المحور الأول : معجزة اليد : وقد أعطى الله موسى عليه السلام هذه المعجزة ليجابه بها فرعون وليقيم عليه الحجة على أن الله أرسله إليه كما هو واضح ومعلوم من سياق الآيات في سورة طه في قوله تعالى : **(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)** طه (22-24).

قال الرازي رحمه الله:

قوله تعالى : **(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)**،اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أن معنى ضم اليد إلى الجناح ما قال في آية أخرى : **(وأدخل يدك في جيبك)** [النمل : 12] ؛ لأنه إذا أدخل يده في جيبه كان قد ضم يده إلى جناحه ، والله أعلم .

المسألة الثانية : السوء: الرداءة والقبح في كل شيء ، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شيء إلى العرب ، فكان جديرا بأن يكنى عنه ، يروى أنه - عليه السلام - كان شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق ، وقيل مثل الشمس من غير برص ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور .

المسألة الثالثة : قال الحسن رحمه الله تعالى : **اليد أعظم** في الإعجاز من العصا ؛ لأنه تعالى : ذكر (لنريك من آياتنا الكبرى) عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف ؛ لأنه ليس في اليد إلا تغير اللون ، وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ، ثم عاد عصا بعد ذلك . فقد وقع التغير مرة أخرى في كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم ،

وأما قوله : (**لنريك من آياتنا الكبرى**) فقد بينا أنه عائد إلى الكل وأنه غير مختص باليد .) اهـ بتصرف واختصار .

* * * * * * * * * *

المحور الثاني : بيان المعجزات الحسية التي أوتيها النبي ﷺ مقابل معجزة اليد لموسى عليه السلام :

وأعطي النبي صلى الله عليه وسلم مقابل اليد ما ذكره السيوطي: (**وَقلت وأوتي الْيَد ونظيرها النُّور الَّذِي جعله آيَة للطفيل فَصَارَفِي وَجهه ثمَّ خَافَ أَن يكون مثله فتحول إِلَى سَوْطه كَمَا تقدم فِي بَاب إِسْلَام الطُّفَيْل**).

وجاء في ترجمته رضي الله عنه : قال - رضي الله عنه- : قلت يا رسول الله إني أرجع إلى دوس وأنا فيهم مطاع وأنا داعيهم إلى الإسلام لعل الله أن يهديهم فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه فقال: **(اللهم اجعل له آية تعينه على ما ينوي من الخير)**.

قال: فخرجت حتى أشرفت على ثنية أهلي التي تهبطني على حاضر دوس. قال: وأبي هناك شيخ كبير وامرأتي ووالدتي قال: فلما علوت الثنية وضع الله بين عيني نوراً يتراءاه الحاضر في ظلمة الليل وأنا منهبط من الثنية. **فقلت: اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة لفراق دينهم فتحول في رأس سوطي فلقد رأيتني أسير على بعيري إليهم وإنه على رأس سوطي كأنه قنديل معلق فيه حتى قدمت عليهم)** [137].

وقال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية:

فأعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - يعني مقابل اليد - أنه أعطى قتادة بن النعان رضي الله عنه - الأوسي، البدري- وكان قد صلى العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونًا، وقال له صلى الله عليه

137 / أخرجه ابن سعد 238/4 والبيهقي في دلائل النبوة (2108) وأبو نعيم في دلائل النبوة (186) وفي معرفة الصحابة (3500)وابن عساكر في التاريخ 12/25

وسلم :(انطلق به، فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرًا فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا فاضربه عشرًا، حتى يخرج فإنه الشيطان) .

قوله عشرًا أي من الأذرع،ومن خلفك عشرًا من الأذرع، هذا هو المتبادر، ومثله لا ينظر فيه، وذلك أعظم من اليد، فإن خلق الضوء في العرجون ،فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه حتى خرج . رواه أبو نعيم.

وأخرج البيهقي، وصححه الحاكم عن أنس رضي الله عنه : كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة : حتى ذهب من الليل ساعة، وهي ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا وبيد كل واحد منهما عصا،فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها على هذا الوجه أعظم من البياض الذي في اليد .

*** **** ***

المحور الثالث : معجزة العصا : و ما ظهرت بها عدة معجزات:

أولاً : ضرب بها موسى عليه السلام الحجر فنبع منه الماء :لقد أيد الله تعالى موسى عليه السلام بأن فجّر له الماء من الحجر وذلك عندما كان في أرض التيه وطلب منه بنو إسرائيل أن يستسقي لهم ربه تعالى ، كما قال تعالى **(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)** سورة البقرة (60) .

قال الرازي رحمه الله تعالى :

واعلم أن هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل ، وهو جامع لنعم الدنيا والدين :

أما في الدنيا فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا في التيه ، كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا ، فقد قال تعالى : **(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)** [الأنبياء : 8] وقال : **(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)** [الأنبياء : 30] بل الإنعام بالماء في التيه

أعظم من الإنعام بالماء المعتاد ؛ لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات ، فإذا رزقه الله الماء من حجر ضرب بالعصا فانشق واستقى منه علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم .

وأما كونه من نعم الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ومن أصدق الدلائل على صدق موسى عليه السلام .

*** **** ***

ثم قال رحمه الله : وهاهنا مسائل - ذكرت بعضها على حسب ما يقتضيه المقام - :

المسألة الأولى : جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه ؛ لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر ، وأنكر أبو مسلم حمل هذه المعجزة على أيام مسيرهم إلى التيه فقال : بل هو كلام مفرد بذاته ، ومعنى الاستسقاء طلب السقيا من المطر على عادة الناس إذا أقحطوا ويكون ما فعله الله من تفجير الحجر بالماء فوق الإجابة بالسقيا وإنزال الغيث .

والحق أنه ليس في الآية ما يدل على أن الحق هذا أو ذاك وإن كان الأقرب أن ذلك وقع في التيه ، ويدل عليه وجهان :

أحدهما : أن المعتاد في البلاد الاستغناء عن طلب الماء إلا في النادر .

الثاني : ما روي أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم لأنه صار معدا لذلك فكما كان المن والسلوى ينزلان عليهم في كل غداة فكذلك الماء ينفجر لهم في كل وقت وذلك لا يليق إلا بأيامهم في التيه.

المسألة الثانية : الفاء في قوله : (**فانفجرت**) متعلقة بمحذوف أي فضرب فانفجرت أو فإن ضربت فقد انفجرت . بقي هنا سؤالات :

السؤال الأول : هل يجوز أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر فينفجر من غير ضرب حتى يستغني عن تقدير هذا المحذوف ؟ .

الجواب : لا يمتنع في القدرة أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر ومن قبل أن يضرب ينفجر على قدر الحاجة لأن ذلك لو قيل : إنه أبلغ في الإعجاز لكان أقرب ، لكن الصحيح أنه ضرب فانفجرت لأنه تعالى لو أمر رسوله بشيء ، ثم إن الرسول لا يفعله لصار الرسول عاصيا ، ولأنه إذا انفجر من غير ضرب صار الأمر بالضرب بالعصا عبثا ، كأنه لا معنى له ولأن المروي في الأخبار أن تقديره : فضرب فانفجرت كما في قوله تعالى : (**فانفلق**) من أن المراد فضرب فانفلق .

السؤال الثاني : أنه تعالى ذكر هاهنا : (**فانفجرت**) وفي الأعراف : (**فانبجست**) [الأعراف : 16] وبينهما تناقض لأن الانفجار خروج الماء بكثرة والانبجاس خروجه قليلا .

الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : الفجر الشق في الأصل ، والانفجار الانشقاق ، ومنه الفاجر لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق ، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل ، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص ، فلا يتناقضان .

وثانيها : لعله انبجس أولا ، ثم انفجر ثانيا ، وكذا العيون : يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروج .

وثالثها : لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر ، أي يخرج الماء كثيرا ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي يخرج قليلا .

السؤال الثالث : معجزة موسى في هذا المعنى أعظم أم معجزة محمد عليهما السلام ؟

الجواب : كل واحدة منهما معجزة باهرة قاهرة ، لكن التي لمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة ، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد البتة فكان ذلك أقوى .

السؤال الرابع : ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عينا ؟

والجواب : أنه كان في قوم موسى كثرة والكثير من الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع وربما أفضى ذلك إلى الفتن العظيمة فأكمل الله تعالى هذه النعمة بأن

عين لكل سبط منهم ماء معينا لا يختلط بغيره والعادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين .

السؤال الخامس : من كم وجه يدل هذا الانفجار على الإعجاز؟ . والجواب : من وجوه :

أحدها : أن نفس ظهور الماء معجز .

وثانيها : خروج الماء العظيم من الحجر الصغير .

وثالثها : خروج الماء بقدر حاجتهم .

ورابعها : خروج الماء عند ضرب الحجر بالعصا .

وخامسها : انقطاع الماء عند الاستغناء عنه .

فهذه الوجوه الخمسة لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة نافذة في كل المكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات وحكمة عالية على الدهر والزمان ، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى) اهـ .

*** **** ***

المحور الرابع : بيان المعجزات الحسية التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم مقابل معجزة عصا موسى عليه السلام :

لقد نبع الماء لسيد البشر صلى الله عليه وسلم لكن لم يكن من الحجر ولا بضربه بالعصا بل كان من بين اللحم والدم، إذ تفجر الماء من أصابعه الشريفة كما قال القرطبي : (قصة نبع الماء من بين أصابعه . صلى الله عليه وسلم . تكررت في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا . صلى الله عليه وسلم ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه) اهـ .وقد أشار الرازي إلى هذا المعنى كما ذكرناه قبل قليل .

*** **** ***

ومن المواطن التي حدث بها تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم:

1/ ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله .رضي الله عنهما .قال: (عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله . صلى الله عليه وسلم . بين يديه رِكْوة - إناء صغير من جلد يشرب فيه - فتوضأ منها، فجهش(فزع) الناس نحوه، فقال: ما لكم؟، قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك، قال: فوضع النبي . صلى الله عليه وسلم . يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا . فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟، قال: لو كنا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائة) .

2/ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتِيَ رسولُ الله . صلى الله عليه وسلم . بِوَضوء، فوضع رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم) البخاري.

ومن الشواهد والأحداث القصة الطويلة في غزوة ذات الرقاع التي رواها الإمام مسلم :

والتي جاء فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله . رضي الله عنهما . (يا جابر ناد بوضوء . فقلت: ألا وَضُوء؟ ألا وضوء؟، ألا وضوء؟، قال قلت: يا رسول الله ما وجدت في الرَّكْب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الماء في أشجاب له على حمارة من جريد(أعواد تعلق عليها أسقية الماء)، قال: فقال لي: انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري، فانظر هل في أشجابه(سقائه)من شيء؟، قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها(فم قربة قديم)، لو أنى أفرغه لشربه يابسه . فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم . فقلت: يا رسول الله إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها، لو أنى أفرغه لشربه يابسه، قال: اذهب فأتنى به . فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدرى ما هو، ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه، فقال: يا جابر ناد بجفنة(قصعة) . فقلت: يا جفنة الركب. فأتيت بها تُحمل، فوضعتها بين يديه. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده فى الجفنة هكذا، فبسطها وفرق بين أصابعه، ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال: خذ يا جابر فصب علىَّ وقل باسم

الله . فصببت عليه وقلت باسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت، فقال: يا جابر ناد من كان له حاجة بماء . قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا .. قال: فقلت: هل بقى أحد له حاجة، فرفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده من الجفنة وهى ملأى) .

وعن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالزوراء - موضع بالمدينة – (دعا بقدح فيه ماء، فوضع كفه فيه فجعل ينبع من بين أصابعه فتوضأ جميع أصحابه)قال: قلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟، قال: (كانوا زُهاء الثلاثمائة) رواه مسلم.

ونقل ابن عبد البر عن المزني رحمهما الله تعالى أنه قال: " نبع الماء من بين أصابعه . صلى الله عليه وسلم . أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى . عليه السلام . بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. "

قال الزرقاني في شرح المواهب: ومما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام تفجير الماء له من الحجارة، أعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن الماء تفجر من بين أصابعه، وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع الماء منها، ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم، ويرحم الله القائل:

وكل معجزة للرسل قد سلفت وافى بأعجب منها عند إظهار

فما العصا حية تسعى بأعجب من شكوى البعير ولا من مشي أشجار

ولا انفجار معين الماء من حجر أشد من سلسل من كفه جار

ثالثاً : انقلبت العصا حية : من المعجزات التي أعطيها موسى عليه السلام لإقامة الحجة على فرعون وملأيه انقلاب العصا حية كما في قوله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ *قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) سورة طه(17-21) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى) أي : هذه العصا التي في يدك يا موسى ، ألقها (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) أي : صارت في الحال حية عظيمة ، ثعبانا طويلا يتحرك حركة سريعة

، فإذا هي تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة ، **(تسعى)** أي : تمشي وتضطرب .

*** **** ***

المحور الخامس : بيان المعجزات الحسية التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم مقابل انقلاب العصا إلى حية:

إنطاق الجماد له، وتكلم الحيوان إليه، الأمر الذي ترك أثره في النفوس، وحرك العقول، ولفت انتباه أصحابها نحو دعوته التي جاء بها، وأثبت لهم أنها دعوة صادقة مؤيدة بالحجج والأدلة والبراهين، فلا يليق بالعقلاء إلا الاستجابة لها، واتباع هذا الدين العظيم الذي يجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضر، ويرقى بهم بين الأمم، ويضمن لهم سعادة الدارين.

من ذلك تسليم الحجر والجبال والشجر عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن) رواه مسلم.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال (**كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله**) رواه الترمذي والدارمي ، وصححه الألباني.

وهذه كلها أظهر من حركة الحية لموسى عليه السلام لأنه لم يرد أن العصا بعد أن انقلبت إلى حية تكلمت مع موسى عليه السلام بينما هذه الجمادات كلها تكلمت وخاطبت النبي صلى الله عليه وسلم.

*** **** ***

المحور السادس: معجزة المن والسلوى التي أُعطيها موسى عليه السلام :

أولاً : المن والسلوى : ورد ذكرهما في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى :

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) سورة البقرة (57).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم - أيضا - بما أسبغ عليهم من النعم ، فقال : **(وظللنا عليكم الغمام)** وهو جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغم السماء ، أي : يواريها ويسترها . وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس .

كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون ، قال : ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام.

وعبارات المفسرين متقاربة في شرح المن ، فمنهم من فسره بالطعام ، ومنهم من فسره بالشراب ، والظاهر ، والله أعلم ، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب ، وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد ، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا ، وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده .

والدليل على ذلك قول البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين**).

ثانياً : ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم مقابل المن والسلوى : تكثير الطعام وقد كان معجزة أيّد الله بها نبيه - صلى الله عليه وسلم -، شاهدها الناس، وعايشها أصحابه ، فكان لها أثرٌ كبير في دخول الناس في دين الله ، وتركت صدى عظيماً في نفوس المسلمين وأسهمت في زيادة إيمانهم وتعلقهم بربهم ، وحل مشكلاتهم وأزماتهم، فسبحان من لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء. ومن ذلك :

1/ كان لأبي هريرة رضي الله عنه مع هذه المعجزة قصّة ، فقد اشتدّ به الجوع ذات يومٍ حتى اضطرّ إلى أن يربط على بطنه حجراً ، فقام يسأل أبابكر وعمر رضي الله عنهما ويحادثهما عسى أن يظفر منهما بدعوةٍ إلى طعام ، لكنّهما لم يدركا مقصوده ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم عرف ما به من جوعٍ ، فدعاه إلى وعاءٍ من لبنٍ ، لكنّ فرحة أبي هريرة رضي الله عنه لم تكتمل ، فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعوا أهل الصفّة كلّهم .

فامتثل أبو هريرة رضي الله عنه للأمر النبوي وهو يظنّ أن مراده لن يتحقّق ، ولم يدر أنه سيكون شاهداً على إحدى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .

فقد شرب جميع من جاء من أهل الصفّة والوعاء على حاله لم ينقص ، ثم شرب منه أبو هريرة رضي الله عنه حتى لم يعد قادراً على الزيادة منه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم آخرهم شرباً) رواه البخاري.

2/ عندما كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون في حفر الخندق حينما أطعم الله تعالى على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم ألف نفر من شاة صغيرة وصاع من شعير، **فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما رأى جوعاً شديداً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فانطلق إلى بيته، وأخرج جراباً فيه صاع من شعير، وذبح شاة، وجهز هو وزوجته طعاماً، ثم دعا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إليه.**

فلما رأى جابرٌ رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وبصحبته أهل الخندق فزع من ذلك المشهد ، وذهبت به الظنون كل مذهب ، وقال في نفسه : كيف يمكن لهذا الطعام أن يكفي كل هذا الحشد ، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم ما يدور في نفس جابر رضي الله عنه فأخبره بألا ينزل القدر، وألا يخبز الخبز، حتى يأتيه ويبارك فيه، ثم أكلوا جميعاً وشبعوا، والطعام كما هو.

3/ وفي غزوة تبوك أخذ الجوع من الصحابة كل مأخذ ، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في نحر رواحلهم ، فطلب منهم أن يأتوه بفضل أزوادهم - أي ما بقي من أطعمتهم - ، فدعا فيه بالبركة، ثم قال: (**خذوا في أوعيتكم**) ، فأخذوا في أوعيتهم ، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه، فأكلوا حتى شبعوا ، وحملوا ما بقي ، متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

* * * * * * * * * *

المبحث الثالث

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل

مدخل .

المطلب الأول :الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام انشراح صدره وبين شرح الله لصدر النبي ﷺ دون سؤال.

المحور الأول : سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره .

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى شرح للنبي ﷺ صدره دون سؤال .

المطلب الثاني : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام التيسير وبين تيسير الله النبي ﷺ دون سؤال.

المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه التيسير.

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى يسر للنبي ﷺ أمره قبل السؤال .

المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام حل عقدة من لسانه وبين تيسير الكلام للنبي ﷺ دون سؤال .

المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه .

المحور الثاني : بيان تيسير الله تعالى الكلام للنبي ﷺ دون سؤال .

المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه وبين رؤية النبيﷺ ربه ليلة المعراج دون سؤال.

المطلب الخامس : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا وبين إرضاء الله للنبي ﷺ دون سؤال.

مدخل

إن مما لا شك فيه أن من أعظم ما يوفَّق له العبد في حياته هو اللجوء إلى الله تعالى عند الملمات والتضرع إليه برفع الحاجيات ، وأعظم من ذلك التعبد إلى الله تعالى بالدعاء رغباً ورهباً ، سواء حصل له مطلوبه أم لا ؟ وذاك هو مقام الأنبياء عليهم السلام ، ومن هنا سطر الله أدعية بعضهم الواردة في قصصهم كدعاء الخليل ويعقوب ويونس وزكريا وغيرهم عليهم السلام.

وأما سيدنا موسى عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه عددا كبيراً من أدعيته في كتابه كما بين سبحانه استجابته له ، وذلك نجده في أوائل سورة طه حيث يقول جل وعلا :

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (36) إلى غير ذلك مما ورد في سور أخر .

ولا شك أن تلك الأدعية تليق بمقامه باعتباره من أولي العزم ، ولكن العجيب في حق الحبيب صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى بادره بالعطاء قبل أن يرفع يديه بالدعاء أي حقق له ما طلبه موسى عليه السلام ابتداءاً.

وسترى في هذه الموازنة تلك المطالب المشتركة بينهما صلى الله عليهما وسلم ، وكيف كان العطاء في حق كل منهما ، وإليك الآيات الواردة في هذا المقام وفق المطالب التالية:

*** **** ***

المطلب الأول

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام انشراح صدره وبين شرح الله للنبي ﷺ صدره دون سؤال

المحور الأول : سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره .

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى شرح للنبي ﷺ صدره دون سؤال .

المحور الأول

سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره

ابتداءاً نقول : دعا موسى عليه السلام ربه فقال (**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**) طه (25) بينما أعطى الله النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسأل فقال الله له : (**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**) [**الشرح : 1**] .

إن من أعظم الأدعية التي دعا بها موسى عليه السلام ربه أن سأله أن يشرح له صدره حيث قال : (**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**) ، وذلك بعد أن كلفه الله سبحانه بالرسالة مباشرة ، وذلك لعلمه بأنه ما لم يكن واسع الصدر لن يتمكن من أداء الرسالة وخاصة إذا كان الذي أُرسل إليه هو فرعون الذي ادعى الألوهية ، وكان ما أعتى جبابرة الأرض ، فكان هذا أول سؤال سأله موسى عليه السلام ربه لكي يتيسر له تبليغ الرسالة إلى فرعون وليدعوه إلى الإيمان بالله ، وقد استجاب الله له عليه السلام ،كما هو معلوم من السياق في سورة طه.

وهكذا الأمر في حق كل الدعاة فما لم تتسع صدورهم للصبر على المدعوين فإن الفشل سيكون حليفهم والضجر سيكون هو قائدهم إلى ترك الدعوة إلى الله تعالى.

ولكي نعلم مدى أهمية اتساع الصدر يكفينا سؤال موسى عليه السلام واستجابة الله له ثم الامتنان على سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بأن شرح الله له صدره منذ صغره كما سيأتي.

ولما كان الموضوع على هذا القدر من الأهمية أطلت الكلام فيه من خلال النقول من كلام أهل التفسير فقد وقف الفخر الرازي – في تفسيره – عند هذه الآية وقفة طويلة بين فيها عظم انشراح الصدر وأهميته ونحن سننقل بعض ما قال على حسب ما يقتضيه المقام بشئ من التقديم والتأخير والاختصار. قال رحمه الله :

* * * * * * * * * *

المسألة الأولى : في حقيقة شرح الصدر، ذكر العلماء فيه وجهين :

الأول : أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة : أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، وأما الرهبة فهي أن يكون خائفا من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته ، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها ، فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى ، فإن القلب في المثال كينبوع من الماء ، والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير ، فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل ، فأما إذا انصب الكل في موضع واحد قوي ، فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية .

قلت : وجاء في هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود ، رضي الله عنه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)** سورة الأنعام (125) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (**إن النور إذا دخل الصدر انفسح**) فقيل : يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف ؟ قال : (**نعم ، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله**).سورة الزمر : (22) رواه الترمذي والحاكم .

*** **** ***

الثاني : أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته و افية بضبط العالمين:

وبيان ذلك أن يقال : أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة منها ضبط الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ، ومنها إصلاح العالم الجسداني فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين ، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ، ألا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الإبصار والخيال ، فهذه القوى متجاذبة متنازعة وأن موسى عليه السلام كان محتاجا إلى الكل ، **ومن استأنس بجمال الحق**

استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته و افية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر.

*** **** ***

المسألة الثانية : لماذا سأل ربه هذا السؤال ؟ وفيه وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة ، وهي :

أحدها : معرفة التوحيد : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا) .

ثانيها : أمره بالعبادة والصلاة : (فاعبدني و أقم الصلاة لذكري) .

ثالثها : معرفة الآخرة : (إن الساعة آتية) .

رابعها : حكمة أفعاله في الدنيا : (وما تلك بيمينك ياموسى)

خامسها : عرض المعجزات الباهرة عليه : (لنريك من آياتنا الكبرى) .

سادسها : إرساله إلى أعظم الناس كفرا وعتوا (فرعون) .

فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه أن كل من سأله قرب منه فقال : (رب اشرح لي صدري) فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال : (رب اشرح لي صدري) أو يقال خاف شياطين الإنس والجن ، فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب فيصير مأمونا من غوائل شياطين الجن والإنس .

الوجه الثاني : أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف أن من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الأطماع بالكلية فقال : (رب اشرح لي صدري) .

الوجه الثالث : الوجود كالنور ، والعدم كالظلمة وكل ما سوى الله تعالى فهو عدم محض ، فكل شيء هالك إلا وجهه ، فالكل كأنهم في ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال : (رب

اشرح لي صدري) حتى يجلس قلبي في بهي ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر ، والجالس في الضوء لا يرى من كان جالسا في الظلمة فحين جلس في ضوء شرح الصدر لا يرى أحدا في الوجود فلهذا عقبه بقوله : (**وَيَسِّرْلِي أَمْرِي**) فإن العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات .

الوجه الرابع : قال موسى عليه السلام : (**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : (**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**) [الشرح : 1] .

ثم إنه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال : **(وسراجا منيرا)** [الأحزاب : 46] فانظر إلى التفاوت ، فإن شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور ، والسراج المنير هو أن يعطي النور ، فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطي ثم نقول : إلهنا إن ديننا وهي كلمة لا إله إلا الله نور ، والوضوء نور ، والصلاة نور ، والقبر نور ، والجنة نور ، فبحق أنوارك التي أعطيتنا في الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة .

* * * * * * * * * *

وختاماً قال بعض العلماء : وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة ، ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى : (**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)** سورة طه .

فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان في الإقناع : واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة : واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته ; لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

* * * * * * * * * *

المحور الثاني

بيان أن الله تعالى شرح للنبي ﷺ صدره دون سؤال

وهو يختلف تماماً ليعرف المؤمن الفرق بين مقام موسى عليه السلام ومقام نبينا صلى الله عليه وسلم ، إذ بادره الله بالعطاء وشرح له صدره فامتنَّ عليه قائلاً (ألم نشرح لك صدرك) ، سورة الشرح (1) ،وإليك تفسيرها من كلام بعض المفسرين :

قال الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله في تتمة أضواء البيان:

واختُلف في معنى شرح الصدر ، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضا .

فقيل : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملؤه إيمانا وحكمة ، كما في رواية مالك بن صعصعة في ليلة الإسراء ، ورواية أبي هريرة في غيرها .

وفيه كما في رواية أحمد : أنه شق صدره ، وأخرج منه الغل والحسد ، في شيء كهيئة العلقة ، وأدخلت الرأفة والرحمة . وقيل : شرح الصدر إنما هو توسيعه للمعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة.

ثم قال بعد أسطر: وفي حاشية الشيخ زادة علي البيضاوي ، قال : لم يشرح صدر أحد من العالمين ، كما شرح صدره - عليه السلام - حتى وسع علوم الأولين والآخرين ، فقال : " أوتيت جوامع الكلم " اهـ .

ومراده بعلوم الأولين والآخرين ، ما جاء في القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد ، وما بينه وبين ذلك مما علمه الله تعالى .

والذي يظهر - والله تعالى أعلم - : أن شرح الصدر الممتن به عليه - صلى الله عليه وسلم - أوسع وأعم من ذلك ، حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه ، ومقابلته الإساءة بالإحسان ، حتى إنه ليسع العدو ، كما يسع الصديق .

*** **** ***

كقصة عودته من ثقيف : إذ آذوه سفهاؤهم ، حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم ، وقال له جبريل : إن ملك الجبال معي ، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل ، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك ، ولكأنهم لم يسيئوا إليه فيقول : " اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون ، إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . "

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي ، كقوله تعالى : **(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)** [الاعراف / 199] ، وكقوله : **(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** [ال عمران / 134] مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره . ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ، ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب) .وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر ، هادئ النفس ، متجملا بالصبر.

تقول الأستاذة : أمل حميد محمد العوفي :

(**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**) أما شرحنا لك صدرك فصار وسيعا فسيحا لا ضيق فيه، ولا حرج ولا همّ ولا غمّ ولا حزن، بل ملأناه لك نورا وسرورا وحبورا. أما شرحنا لك صدرك وملأناه حكمة ورحمة وإيمانا وبرا وإحسانا. وشرحنا لك صدرك فوسعت أخلاق الناس، وعفوت عن تقصيرهم، وصفحت عن أخطائهم، وسترت عيوبهم، وحلمت على سفيههم، وأعرضت عن جاهلهم، ورحمت ضعيفهم. شرحنا لك صدرك فكنت كالغيث جوادا، وكالبحر كرما، وكالنسيم لطفا، تعطي السائل، وتمنح الراغب، وتكرم القاصد، وتجود على المؤمّل. شرحنا لك صدرك فصار بردا وسلاما يطفئ الكلمة الجافية، ويبرد العبارة الجارحة، فإذا العفو والحلم والصفح والغفران. شرحنا لك صدرك فصبرت على جفاء الأعراب، ونيل السفهاء، وعجرفة الجبابرة، وتطاول التافهين، وإعراض المتكبرين، ومقت الحسدة، وسهام الشامتين، وتجهّم القرابة. شرحنا لك صدرك فكنت بسّاما في الأزمات، ضحّاكا في الملمّات، مسرورا وأنت في عين العاصفة، مطمئنا وأنت في جفن الردى، تداهمك المصائب وأنت ساكن، وتلتفّ بك الحوادث وأنت ثابت، لأنك مشروح الصدر، عامر الفؤاد، حيّ النفس. شرحنا لك

صدرك فلم تكن فظا قاسيا غليظا جافيا، بل كنت رحمة وسلاما وبرا وحنانا ولطفا، فالحلم يُطلب منك، والجود يُتعلّم من سيرتك، والعفو يؤخذ من ديوانك).[138]

*** **** ***

وقال الشيخ عبد الحليم تومیات [139] : العبر من هذه الحادثة:

- فهي من دلائل نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، ومن الإرهاصات والمقدّمات لبعثته.

- فيه إعداد للعصمة من الشرّ ومن عبادة غير الله: فلا يحلّ في قلبه شيء إلاّ التّوحيد، وقد دلّت أحداث صباه على تحقّق ذلك، فلم يركب الآثام، ولم يعبد الأصنام من صغره. روى الإمام أحمد عَنْ الزّبير بن العوّام قَالَ: حَدَّثَنِي جَارٌ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: (أَيْ خَدِيجَةُ ! وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ! وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ أَبَدًا) .

- وإنّ الله كان يربّيه على مكارم الأخلاق، فقد روى البخاري ومسلم عن جَابِرِبْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ، وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي ! لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الْحِجَارَةِ ! قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا صلّى الله عليه وسلّم) .

*** **** ***

وقال الدكتورراغب السرجاني :[140]

أولاً: روايات قصة شق الصدر: وردت هذه القصة في روايات كثيرة منها ما يلي:

روى البخاري: حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أنس بن مالك، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: (بَيْنَمَا

11/أخلاق خاتم الأنبياء وإعجازها – لأمل العوفي .

12/ باختصار من موقع نبراس الحق .

140 / موق قصة الإسلام .

أَنَا فِي الحَطِيمِ ، - وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ -شَكٌّ مِنْ قَتَادَةَ، وَالْمُرَادُ بِالْحَطِيمِ هُنَا الْحِجْرُ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَدَّ - قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ).

-فَقُلْتُ (أي قتادة) لِلْجَارُودِ -وهو أحد أصحاب أنس رضي الله عنه- وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ- (فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ) .

وفي رواية للبخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يُحَدِّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَ أَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَ إِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ) .

وفي رواية البخاري التي ذكرناها سابقًا عن أنس رضي الله عنه في أمر الرؤيا التي كانت قبل الوحي قال: (فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ -يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ- ثُمَّ أَطْبَقَهُ) .

ثانياً : وقفات مع حادثة شق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد بدأت الليلة بدخول مفاجئ لجبريل عليه السلام لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم! فلم يلقه بشكل مألوف كما اعتاد في السنوات السابقة؛ إنما دخل عليه من سقف البيت! فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم:(فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي).

وهذا يعني أن السقف قد انشقَّ ليدخل منه جبريل عليه السلام؛ ولهذا دلالات كثيرة؛ لعلَّ منها تنبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن هذه الليلة لن تكون ليلة عادية؛ إنما ليلة خوارق ومعجزات، فيكون هذا تمهيدًا نفسيًّا له ليتحمل المفاجئات القادمة.

ولعلَّ منها كذلك تطمينه صلى الله عليه وسلم إلى أن عملية شقِّ الصدر التي ستحدث بعد قليل هي عملية بسيطة بالنسبة إلى القدرات التي أعطاها الله لجبريل عليه السلام، وكأنه يقول: كما سَهُل على جبريل عليه السلام أن يفرج سقف البيت ثم يُطبقه وكأن شيئًا لم يكن؛ فإنه يسهل

عليه كذلك أن يفرج عن صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يُعيد إطباقه دون مشكلة، والذي يدعم هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم اللفظة نفسها ليشرح ما حدث مع السقف ثم مع الصدر، فقال: "فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي.." ثم قال: "فَفَرَجَ صَدْرِي"..

وفي البيت الحرام عند الحِجْر حدثت مفاجأة أخرى كبيرة، وهي حادثة شقِّ الصدر! إذ قام جبريل عليه السلام بشقِّ صدر وبطن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكامل؛ وذلك من أسفل العنق إلى أسفل البطن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستيقظًا متنبِّهًا مُدركًا لما يحدث، وقد رأى جبريلَ عليه السلام يُخرج قلبه إلى خارج جسده، ويغسل تجويف صدره وبطنه بماء زمزم، ويحشو قلبه وعروق حلقه بالإيمان والحكمة!

إنها أعجب العمليات الجراحية في التاريخ كله! ولم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي يحدث فيها هذا الأمر العجيب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بل حدث هذا معه على الحقيقة في مرحلة طفولته، ثم رآه في رؤيا قبيل بعثته، والآن يتكرَّر الحدث المعجز نفسه! ولقد كانت العملية حقيقية ومادية إلى درجة أن إغلاق الصدر احتاج إلى خيوط جراحية خاطها جبريل عليه السلام! وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: "وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ!"

وإذا كنا نتعجَّب من الحدث؛ فإن عجبنا يزول حتمًا إذا أدركنا قدرة الله تعالى؛ قال تعالى: {**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**} [فاطر: 44]؛ بل إنني صرت على قناعة أن الإيمان والحكمة أشياء مادية يمكن أن "تُحشَى"، أو أن "تُفَرَّغ" في القلب!

ولنراجع اللفظ النبوي العجيب: "ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي". فهما أمران يُحملان في طست، ويُفرغان في الصدر؛ بل إنه في رواية الرؤيا التي حكاها أنس بن مالك رضي الله عنه فصَّل في الشرح، فقال: "فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ.." فهو لم يكتفِ بحشو الصدر أو القلب، إنما أضاف لذلك حشو عروق الحلق! وهناك مؤيدات كثيرة في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية لهذا المعنى؛ ولكن المجال لا يتسع هنا لهذا التفصيل.

*** **** ***

كانت هذه العملية العجيبة بمنزلة الإعداد للرحلة المهولة القادمة؛ رحلة الإسراء والمعراج؛ بل إن شئت فقل: إن عملية شقِّ الصدر ورحلة الإسراء كانتا بمنزلة الإعداد لرحلة المعراج إلى الملكوت الأعلى، واختراق السموات، والحوار مباشرة مع ربِّ العالمين! لقد كان إفراغ الإيمان والحكمة في القلب بشكل مباشر أمرًا ضروريًّا لإتمام الحدث المهيب! ومع أنَّ الله قادر على أن ينقل رسوله صلى الله عليه وسلم دون شقِّ صدر أو إعداد، فإننا تعوَّدنا في رؤية تفاصيل حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملاحظة مبدأ احترام الأسباب، والأخذ بها؛ بل إننا سنرى هذا مرارًا في رحلة الإسراء والمعراج؛ وذلك من ركوبه لدابَّة معينة للذهاب لبيت المقدس، ومن ربطه للدابَّة عند دخوله المسجد، ومن طلب جبريل عليه السلام من حُرَّاس السموات أن يفتحوا لهم أبوابها، وغير ذلك من أمور تُعَلِّمنا أن الكون له معايير وسنن وضعها الله عزوجل، ولا يجوز أن يتجاوزها أحد.

*** **** ***

المطلب الثاني

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام التيسيروبين تيسيرالله النبي ﷺ دون سؤال

المحورالأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه التيسير.

المحورالثاني : بيان أن الله تعالى يسرللنبي ﷺ أمره قبل السؤال .

مجمل هذه الموازنة أن يقال : دعا موسى عليه السلام ربه فقال **(وَيَسِّرْلِي أَمْرِي)** طه (26) ومراده بالأمر هنا الدعوة إلى الله تعالى – كما سيأتي - بينما أعطى الله النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسأل فقال له : **(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)** الأعلى (8) وبين له سبل ذلك التيسير فقال له **(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** النحل (125).، وتفاصيل ذلك من خلال محورين :

المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه التيسير:

دعا موسى عليه السلام ربه : ﴿**وَيَسِّرْلِي أَمْرِي**﴾: أي سهِّل عليَّ كل أمر أسلكه، وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوّن عليَّ ما أمامي من الشدائد ، وكان هذا الدعاء بعد أن طلب منه الذهاب إلى دعوة فرعون ودعوة بني إسرائيل فكان الطري أمامه طويل والدعوة تحتاج إلى صبر ومجاهدة عظيمة.

قال العلامة السعدي رحمه اللَّه: (ومن تيسير الأمر أن ييسّر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله)

قال القرطبي رحمه اللَّه: (**ويسرلي أمري)** أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون).

فواضح مما تقدم أن سؤال موسى عليه السلام في تيسير أمر الدعوة إلى الله وسلوك السبل المؤدية إلى هداية الناس.

*** **** ***

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى يسر للنبي ﷺ أمره قبل السؤال :

ما ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام :

قوله تعالى: **(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)** سورة الأعلى (8)، وقوله تعالى: **(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** النحل (125).

الآية الأولى : قوله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) النحل (125).

قبل أن أنقل أقوال المفسرين أبين وجه الموازنة ألا وهو : أن موسى عليه السلام سأل الله أن ييسر له سبيل الدعوة إلى الله تعالى وقد استجاب الله له بدليل ما جاء في آخر السياق **(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ)** طه (36) وأما النبي صلى الله عليه وسلم بين الله السبيل الميسرة للدعوة بأحسن بيان وأوضح له أصناف المدعويين وكيفية التعامل معهم قبل أن يسأل فقال له (**ادع إلى سبيل ربك**).

قال القرطبي رحمه الله تعالى:

فيه مسألة واحدة - هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة . والله أعلم .

قال الطاهر ابن عاشوررحمه الله تعالى : (باختصار) :

تضمنت هذه الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة ، وأن لا يؤيسه قول المشركين له إنما أنت مفتر وقولهم إنما يعلمه بشر ، وأن لا يصده عن الدعوة أنه تعالى لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله ، ذلك أن المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبط النبيء صلى الله عليه وسلم عن دعوته إلا ألقوا بها إليه ، من : تصريح بالتكذيب ، واستسخار ، وتهديد ، وبذاءة ، واختلاق ، وبهتان ، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن ، وفي هذه السورة ; لأنهم يجهلون مراتب أهل الاصطفاء ويزنونهم بمعيار موازين نفوسهم ، فحسبوا ما يأتونه من الخزعبلات مثبطا له ، وموشكا لأن يصرفه عن دعوتهم .

وسبيل الرب : طريقه ، وهو مجاز لكل عمل من شأنه أن يبلغ عامله إلى رضى الله تعالى ; لأن العمل الذي يحصل لعامله غرض ما يشبه الطريق الموصل إلى مكان مقصود ، فلذلك يستعار اسم السبيل لسبب الشيء .

الحكمة : هي المعرفة المحكمة ، أي الصائبة المجردة عن الخطأ ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء ، وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم ، ولذلك عرفوا الحكمة بأنها : معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية ، بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ، ولا تخطئ في العلل والأسباب ، وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس ، واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء في سورة البقرة مفصلا فانظره ، وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء ، ويرادفها الحكم .

*** **** ***

والموعظة : القول الذي يلين نفس المقول له لعمل الخير ، وهي أخص من الحكمة ; لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها ، تقدمت عند قوله تعالى فأعرض عنهم وعظهم في سورة النساء ، وعند قوله موعظة وتفصيلا لكل شيء في سورة الأعراف .

ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون لينة مقبولة عند الناس ، أي حسنة في جنسها ، وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها .

وعطف الموعظة على الحكمة لأنها تغاير الحكمة بالعموم والخصوص الوجهي ، فإنه قد يسلك بالموعظة مسلك الإقناع ، فمن الموعظة حكمة ، ومنها خطابة ، ومنها جدل .

وهي من حيث ماهيتها بينها وبين الحكمة العموم والخصوص من وجه ، ولكن المقصود بها ما لا يخرج عن الحكمة والموعظة الحسنة بقرينة تغيير الأسلوب ، إذ لم يعطف مصدر المجادلة على الحكمة والموعظة بأن يقال : والمجادلة بالتي هي أحسن ، بل جيء بفعلها ، على أن المقصود تقييد الإذن فيها بأن تكون كالتي هي أحسن ، كما قال ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .

*** **** ***

والمجادلة : الاحتجاج لتصويب رأي ، وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك، ولما كان ما لقيه النبيء صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة في المجادلة ؛ أمره الله بأن يجادلهم بالتي

هي أحسن . وتقدمت قريبا عند قوله تجادل عن نفسها . وتقدمت من قبل عند قوله ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم في سورة النساء ، والمعنى : إذا ألجأت الدعوة إلى محاجة المشركين فحاججهم بالتي هي أحسن ، والمفضل عليه المحاجة الصادرة منهم ، فإن المجادلة تقتضي صدور الفعل من الجانبين ، فعلم أن المأمور به أن تكون المحاجة الصادرة منه أشد حسنا من المحاجة الصادرة منهم ، كقوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن .

ولما كانت المجادلة لا تكون إلا مع المعارضين صرح في المجادلة بضمير جمع الغائبين المراد منه المشركون ، فإن المشركين متفاوتون في كيفيات محاجتهم ، فمنهم من يحاج بلين .

كما في الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة ثم قال له : هل ترى بما أقول بأسا قال : لا والماء ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن على عبد الله بن أبي بن سلول في مجلس قومه ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إن كان ما تقول حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدث إياه ومن لم يأتك فلا تغشه ولا تأته في مجلسه بما يكره منه .

* * * * * * * * * *

وتصدي المشركين لمجادلة النبيء صلى الله عليه وسلم تكرر غير مرة ، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس : أنه لما نزل قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية ، قال عبد الله الزبعرى : لأخصمن محمدا ، فجاءه فقال : يا محمد قد عبد عيسى ، وعبدت الملائكة فهل هم حصب لجهنم ؟ فقال النبيء صلى الله عليه وسلم اقرأ ما بعد إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني ، وأبو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ .

وقيدت الموعظة بالحسنة ، ولم تقيد الحكمة بمثل ذلك ؛ لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالبا ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة أو عن توقع ذلك منه ، كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ ، ولحصول انكسار في نفس الموعوظ ، وأرشد الله رسوله أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة ، أي بإلانة القول وترغيب الموعوظ في الخير ، قال تعالى خطابا لموسى وهارون اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى .

وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون الحديث.

وأما الحكمة فهي تعليم لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابه ، فلا تكون إلا في حالة حسنة ، فلا حاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة .

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحق فيه ، فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة ، ولكنها جعلت قسيما لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها .

وإذ قد كانت مجادلة النبيء صلى الله عليه وسلم لهم من ذيول الدعوة وصفت بالتي هي أحسن ، كما وصفت الموعظة بالحسنة .

وقد كان المشركون يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم قصدا لإفحامه ، وتمويها لتغليطه ، نبه الله على أسلوب مجادلة النبيء إياهم ; استكمالا لآداب وسائل الدعوة كلها ، فالضمير في وجادلهم عائد إلى المشركين بقرينة المقام ؛ لظهور أن المسلمين لا يجادلون النبيء صلى الله عليه وسلم ، ولكن يتلقون منه تلقي المستفيد والمسترشد ، وهذا موجب تغيير الأسلوب بالنسبة إلى المجادلة ؛ إذ لم يقل : والمجادلة الحسنة ، بل قال وجادلهم ، وقال تعالى أيضا ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .

ويندرج في التي هي أحسن رد تكذيبهم بكلام غير صريح في إبطال قولهم من الكلام الموجه ، مثل قوله تعالى وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، وقوله وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون .

* * * * * * * * * *

والآية تقتضي أن القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعا الناس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة ، وذلك كله بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ، ومن أحوال المخاطبين ، من خاصة وعامة .

ومن الإعجاز العلمي في القرآن أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحق ، وهي البرهان ، والخطابة ، والجدل المعبر عنها في علم المنطق بالصناعات ، وهي المقبولة من الصناعات ، وأما السفسطة ، والشعر فيربأ عنهما الحكماء الصادقون بله الأنبياء والمرسلين .

قال الرازي رحمه الله :

ومن لطائف هذه الآية أنه قال : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين ؛ لأن الدعوة إن كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة ، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة ، أما الجدل فليس من باب الدعوة ، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام ؛ فلهذا السبب لم يقل : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن ، بل قطع الجدل عن باب الدعوة ؛ تنبيها على أنه لا يحصل به الدعوة ، وإنما الغرض منه شيء آخر ، والله أعلم.

واعلم أن هذه المباحث تدل على أنه تعالى أدرج في هذه الآية هذه الأسرار العالية الشريفة ، مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها ، فظهر أن هذا الكتاب الكريم لا يهتدي إلى ما فيه من الأسرار إلا من كان من خواص أولي الأبصار.

*** **** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) سورة الأعلى (8) .

ذكر القرطبي رحمه الله : أربعة أقوال في معنى الآية :

الأول : ومعنى لليسرى أي للطريقة اليسرى وهي عمل الخير. قال ابن عباس رضي الله عنهما : " نيسرك لأن تعمل خيرا" .

الثاني : قال ابن مسعود : لليسرى أي للجنة .

الثالث : نوفقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة السهلة قال معناه الضحاك .

الرابع : أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

أما ما يتعلق بحكمها وفوائدها : فإليك أقوال بعض المفسرين فيها :

قال الرازي رحمه الله :إنما قال : (**ونيسرك لليسرى**) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطي دالة على عظمة العطاء ، نظيره قوله تعالى : (**إنا نحن نزلنا الذكر**) [الحجر : 9] (**إنا أعطيناك الكوثر**) [الكوثر : 1] دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره ، وكيف لا وقد كان صبيا لا أب له ولا أم له نشأ في قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين ، وهديا للخلق أجمعين .

قال الآلوسي رحمه الله :

ونيسرك لليسرى عطف على سنقرئك كما ينبئ عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما سمعت، وتعليق التيسير به صلى الله تعالى عليه وسلم مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما في قوله تعالى: **(ويسر لي أمري)** للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها؛ أي: نوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علما وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير تلقي طريقي الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه الكريمة صلى الله تعالى عليه وسلم وتكميل غيره كما يفصح عنه الفاء فيما بعد كذا في الإرشاد .

قال ابن عاشور رحمه الله :

وقوله : ونيسرك لليسرى إن حمل على ظاهر نظم الكلام وهو ما جرى عليه المفسرون ، فالتيسير مستعار للتهيئة والتسخير ، أي : قوة تمكينه صلى الله عليه وسلم من اليسرى وتصرفه فيها بما يأمر الله به ، أي : نهيئك للأمور اليسرى في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك ، وتيسير الشريعة التي أرسلت بها ، وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة . وهذه الاستعارة تحسنها المشاكلة .

*** **** ***

المطلب الثالث

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه وبين إعطاء الله للنبي ﷺ الفصاحة دون سؤال

المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه .

المحور الثاني : بيان تيسير الله تعالى الكلام للنبي ﷺ دون سؤال .

المحور الأول

بيان سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه

دعا موسى عليه السلام ربه فقال **(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)** سورة طه(27-28) ،بينما أعطى الله النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسأل فقال له: **(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا)** مريم(97) .

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : قوله : (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي) وفيه مسائل- (باختصار) -:

المسألة الأولى : اعلم أن النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه :

أحدها : قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [الرحمن : 3 ، 4] ولم يقل وعلمه البيان لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرا له ، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله : **(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)** كالتفسير لقوله : **(خَلَقَ الْإِنسَانَ)** كأنه إنما يكون خالقا للإنسان إذا علمه البيان ، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هي الحيوان الناطق .

وثانيها : اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان ، قال زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال علي رضي الله عنه : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . والمعنى أنا لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهائم ، وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه . وقال صلى الله عليه وسلم : (**المرء مخبوء تحت لسانه**)[141] .

ثالثها : أن في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال : **(قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** [البقرة : 33] .

---

141 / قلت : بل هو من كلام علي رضي الله عنه كما أشار إليه الشجري في كتابه (الأمالي الخميسي).

ورابعها : أن الإنسان جوهر مركب من الروح والقالب ، وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبدا صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام ، وواسطته في تلك الاستفادة هي الفكر الذهني ، وواسطته في هذه الإفادة هي النطق اللساني فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل : (**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**) [142]. فكذلك الواسطة في الإفادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء.

فقوله : (**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**) طه (25) إشارة إلى طلب النور الواقع في الروح ، وقوله : (**وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**) طه (26) إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل ، وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البياني وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون إلا باللسان . فلهذا قال : (**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي**).

*** **** ***

المسألة الثانية : اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على أقوال :

الأول : كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته .

الثاني : السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية : إنه صبي لا يعقل وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه ، وهؤلاء اختلفوا .

---

142 / ويروى بصيغة : فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً ، قال ابن الجوزي رحمه الله: هذا حديث لا يصح ، وفي الإسناد كذّابان ، وقال الشيخ علي القاري رحمه الله :(ليس بحديث) ، أما الثناء على التفكر والمتفكرين في آيات الله سبحانه فقد جاء في القرآن الكريم ، حيث يقول الله جل وعلا :(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار) آل عمران/191.وقد رويت في ذلك آثار كثيرة ، عن ابن عباس ، و أبي الدرداء رضي الله عنهما ، وعن الحسن البصري رحمه الله ، يدعون فيها الناس إلى العناية بالتفكر والتأمل في آيات الله الشرعية والكونية. ومن ذلك ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني في " العظمة " (297/1) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " تفكر ساعة خير من قيام ليلة ". وفي " مصنف ابن أبي شيبة " (190/7)، و " الزهد " (ص/220) للإمام أحمد مثل هذا النص عن الحسن البصري ، وفي " حلية الأولياء " (208/1) ، و " الزهد " (ص/114) مثله عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال العلامة السعدي رحمه الله: " التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين " انتهى من " تيسير الكريم الرحمن " (ص/161) (الإسلام سؤالج وجواب) .

فمنهم من قال : لم تحترق اليد ولا اللسان لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة ، واللسان آلة الذكر ، فكيف يحترق ؟ ! ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور ، فكيف يحترق هنا ؟ .

ومنهم من قال : احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة.

الثالث : احترق اللسان دون اليد لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله : يا أبت.

والرابع : احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة .

المسألة الثالثة : اختلفوا في أنه عليه السلام لِمَ طلب حل تلك العقدة ؟ على وجوه :

أحدها : لئلا يقع في أداء الرسالة خلل ألبتة .

وثانيها : لإزالة التنفير لأن العقدة في اللسان قد تفضي إلى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه .

وثالثها : إظهارا للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه ، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه.

ورابعها : طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسر جدا ، فإذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية ، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا.

المسألة الرابعة : قال الحسن رحمه الله : إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى : (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ) طه (36) **وهو ضعيف لأنه عليه السلام لم يقل : واحلل العقدة من لساني بل قال : (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)** طه (27) **فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله.**

والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله حكاية عن فرعون : **(أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)** [الزخرف : 52] أي يقارب أن لا يبين ، وفي ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه ؟.

*** **** ***

وأجيب عنه من وجهين :

أحدهما : المراد بقوله : **(وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)** أي لا يأتي ببيان ولا حجة .

والثاني : أن " كاد " بمعنى قرب ، ولو كان المراد هو البيان اللساني لكان معناه أنه لا يقارب البيان ، فكان فيه نفي البيان بالكلية ، وذلك باطل لأنه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه ، فكيف يمكن نفي البيان أصلا بل إنما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه ، قال أهل الإشارة إنما قال : **(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)** طه (27) لأن حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى : **(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)** [الأنعام : 152] فلما كان ذلك حقا ليتيم أبي طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم .

* * * * * * * * * *

المحور الثاني

بيان تيسير الله تعالى الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم دون سؤال

أما ما ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام ، فقوله تعالى :**(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا)** سورة مريم (97) وقوله تعالى : **(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)** سورة الدخان (58) .

غالب كلام المفسرين في هاتين الآيتين يدور حول معنى واحد وهو : أنه تعالى يخبر عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أي بلغته العربية ، فيسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به.

ولكن النعمة العظمى التي تتضمنها الآية أيضا تلك البلاغة والفصاحة وقوة التعبير التي أعطيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أحاديث النبوية الشريفة وفي خطبه وإرشاداته .

وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى هذا المعنى – في تفسيره لآية الدخان - بقوله :

(وفي هذا الكلام الموجز إخبار بتيسير القرآن للفهم لأن الغرض منه التذكر ، قال تعالى : **(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)** [القمر : 17] ، وبأن سبب ذلك التيسير كونُه بأفصح اللغات وكونُه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسبباً قريباً لو لم يكونوا في شك يلعبون . وباعتبار هذه المعاني المتوافرة حسن أن يفرع على هذه الجملة تأييد النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد معانديه) اهـ .

بعض ما قيل في بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم [143]:

تعد بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر عظمته ، وأجلى دلائل نبوته ، فهو عليه الصلاة والسلام صاحب اللسان المبين والمنطق المستقيم ، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة ، والمعجزة الخالدة .

[143] / بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم - للدكتور. مصطفى أحمد عبد العليم - موقع صيد الفوائد .

وقد زكى الله تعالى نطقه فقال عزوجل : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم3-4).

وقال سبحانه :(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) الشعراء (193-195) .

وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه : (وأوتيت جوامع الكلم) [144] ،كما قال :(أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد) [145]ولم يكن هذا افتخارا منه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان تقريرا لحقيقة ثابتة ، وكيف لايكون أفصح العرب وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى قلبه نزل القرآن العظيم ، وقد رباه رب العالمين ،ونشأ وترعرع بين عرب فصحاء معربين.

*** **** ***

وقد تبارى العلماء والبلغاء في وصف فصاحته وبلاغته صلى الله عليه وسلم ومن أفضل ما قيل في ذلك ما سجله يراع الجاحظ رائد البلاغة العربية وأستاذها؛ إذ يقول في كتابه البيان والتبيين :"وأنا ذاكرٌ بعد هذا فَنّاً آخرَ من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال اللّه تبارك وتعالى: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم : (وما أنا مِنَ المتَكلِّفين) سورة ص (68) .

فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقَى اللّه عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق ، ولا يطلب الفَلْج إلا

144 / جزء من حديث رواه مسلم ونصه : قال صلى الله عليه وسلم (فُضِّلتُ على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون) .

145 / وأوده السيوطي في الجامع الصغيروعزاه إلى الطبراني .

بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربَة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز، ولا يُبْطِيءُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً.

وقال القاضي عياض رضي الله عنه : " وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ،والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع ،وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف .

أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

*** **** ***

ثم ذكر نماذج من بلاغته صلى الله عليه وسلم:

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين ،وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة :

كقوله : صلى الله عليه وسلم (**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (**ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) رواه البيهقي وصححه الألباني .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (**المرء مع من أحب**) متفق عليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم في تعريف الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**) أخرجه الشيخان.

وقوله صلى الله عليه وسلم : (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) رواه مسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم : (والمستشار مؤتمن) صحيح الجامع الصغير(6700).

وقوله صلى الله عليه وسلم : (رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم) سلسلة الأحاديث الصحيحة- (855) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين) متفق عليه.

وقوله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَ أَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَ أَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ) صححه الألباني في صحيح الترمذي .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (لعلَّه كان يتكلَّمُ فيما لا يعنيه ، ويمنعُ ما لا يضُرُّه) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وقال : (أو صحيح أو حسن أو ما قاربهما) .

* * * * * * * * * *

ومن الكلمات التي لم يسبق إليها النبي صلى الله عليه وسلم:

قوله صلى الله عليه وسلم : (حمى الوطيس) رواه مسلم .قوله صلى الله عليه وسلم (الْحَرْبُ خَدْعَةٌ)أخرجه البخاري .وقوله صلى الله عليه وسلم : (ومات حتف أنفه) أخرجه أحمد .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) أخرجه البخاري . وقوله صلى الله عليه وسلم : (وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) رواه مسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى وَ ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) أخرجه البخاري .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري.

* * * * * * * * * *

المطلب الرابع

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه وبين رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج دون سؤال

المحور الأول : بيان ماورد في حق موسى عليه السلام في شأن سؤال ربه الرؤية:

ورد ذلك في قوله تعالى : **(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)** سورة الأعراف (143).

قال في تفسير المنار:

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك أي : ولما جاء موسى للميقات الذي وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة ، وكلمه ربه - عز وجل - من وراء حجاب بغير واسطة الملك استشرفت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك ، وكمال المعرفة بك بالقدر الممكن ؛ أي : دون ما هو فوق إمكان المخلوقين من الإدراك والإحاطة المنفي بقوله تعالى : **(لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)** (الأنعام : 103) .

قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني أي : إنك لا تراني الآن ، ولا فيما تستقبل من الزمان ، ثم استدرك - تبارك وتعالى - على ذلك بما يدل على تعليل النفي ، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد ، بإعلامه ما لم يكن يعلم من سنته ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته .

كما قال - صلى الله عليه وسلم - في حديث أبي موسى عند مسلم حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه فقال : **(وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ)** ، فإنني سأتجلى له فإن ثبت لدى التجلي بقي مستقرا في مكانه فسوف تراني ، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني ، وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ، ولا يستقر لهذا التجلي ؛ لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء ، فاعلم أنك لن تراني أيضا ، وأنت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة

، وخاضعا للسنن الربانية في قوتها ، وضعف استعدادها **(وخُلِقَ الإنسانُ ضَعيفاً)** (النساء : 28) وقبولها للفناء.

* * * * * * * * * *

المحور الثاني : بيان ما ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم في رؤته الله تعالى:

لقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم الرؤية دون سؤال وذلك في ليلة المعراج حيث ورد ذلك في قوله **تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)** النجم (11) .

قال القرطبي رحمه الله :

قوله تعالى : **(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)** أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج،وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية .

وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر.

والأول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة . **والثاني قول أنس وجماعة.**

وروي عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم عليه السلام، والكلام لموسى عليه السلام والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن كثير رحمه الله:

وأما الرؤية ففيها خلاف مشهور بين الخلف والسلف، ونصرها من الائمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة المشهور بأمام الائمة، واختار ذلك القاضي عياض والشيخ محي الدين النووي، وجاء عن ابن عباس تصديق الرؤية، وجاء عنه تفنيدها، وكلاهما في صحيح مسلم.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها إنكار ذلك، وقد ذكرنا في الاسراء عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي ذر وعائشة رضي الله عنهم أن المرئي في المرتين المذكورتين في أول سورة النجم، إنما هو جبريل عليه السلام.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قلت: (**يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال: نورا لي أراه، وفي رواية: رأيت نورا**) وقد تقدم بسط ذلك في الاسراء في السيرة وفي التفسير في أول سورة بني إسرائيل، وهذا الذي ذكره شيخنا فيما يتعلق بالمعجزات الموسوية عليه أفضل الصلاة والسلام.

وأيضا فإن الله تعالى كلم موسى وهو بطور سينا، وسأل الرؤية فمنعها، وكلم محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء وهو بالملا الاعلى حين رفع لمستوى سمع فيه صريف الاقلام، وحصلت له الرؤية في قول طائفة كبيرة من علماء السلف والخلف والله أعلم [146].

*** **** ***

قال فضيلة الشيخ محمد علي سلامة في شرح حيث الإسراء والمعراج[147]:

في هذا الحديث الشريف من المعاني ما لا يتسع له المقام ولكن نذكر منها ما يأذن الله به فنقول:

أولاً: أن الله سبحانه وتعالى قد أقام جميع الحقائق العالية في هذه الليلة المباركة لتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجب عليها له من الرأي والمشورة توقيرًا وتكريمًا له صلى الله عليه وسلم، وإجلالاً لقدره الشريف، ومن بين هذه الحائق العالية والكاملة سيدنا موسى واجبًا عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة تكريمه والاحتفاء به، وسيدنا موسى عليه السلام أول من يعرف الواجب عليه لخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانياً: إن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان قد طلب من الله سبحانه وتعالى أن يسمح له برؤيته جلَّ شأنه فقال الله له إن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان قد طلب من الله سبحانه

---

146 / البداية والنهاية (355/9) .

147 / من كتابه الإسراء معجزة خالدة – بتصرف .

وتعالى أن يسمح له برؤيته جلَّ شأنه فقال الله له:(لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) سورة الأعراف (143) .

وفي هذه الليلة شهد سيدنا موسى من أنوار الله عزَّ وجلَّ في المصطفى صلى الله عليه وسلم ما به قرَتْ عينه، وابتهج قلبه، وحظيت نفسه، وسُرَّ فؤاده، ونال أمنيته الغالية التي كان قد طلبها من الله عزَّ وجلَّ – وهي رؤيته لوجه الله الكريم – فلذلك كان سيدنا موسى يطلب من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى ربّه ويسأله تخفيف فريضة الصلاة، مرة بعد المرة، ليتمتع برؤية أنوار الحقِّ تبارك وتعالى ومعانيه القدسية التي أشرقت في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو سر مراجعة سيدنا موسى عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج .

*** **** ***

ثالثاً: لم يكن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم وصيًا على رسول الله ﷺ وأمته كما يزعم المدعون ذلك لأن الوصاية نوع من أنواع الولاية والسيطرة التي تجعل الوصي منصرف في شئون الموصى عليه وليس الأمر كذلك في شأن سيدنا موسى مع رسول الله عليهما السلام، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستجب لمراجعة سيدنا موسى في المرة الأخيرة حيث قال له إني استحييت من سؤال ربي ولكني أرضى وأسلم بما فرض الله عليَّ وعلى أمتي.

رابعاً: وهل سيدنا رسول الله ﷺ قد طلب من سيدنا موسى عليه السلام النظر في هذا الأمر أي تخفيف الصلاة عن أمته، أم أن سيدنا موسى هو الذي تقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الواجب، في وقت رأى فيه أنه من المفروض عليه أن يقوم به لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته؟ ولأن الوصاية من دواعيها ومستلزماتها ضعف الموصى عليه وقصوره عن إدارة شئونه، وليس كذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمَّ جميع الأنبياء والمرسلين في الصلاة في المسجد الأقصى، حيث قدَّموه صلى الله عليه وسلم عليهم جميعًا لأفضليته ولكرامته على الله عزَّ وجلَّ، إجلالاً له واحترامًا واتباعًا له، وإيمانًا به صلى الله عليه وسلم، وتصديقًا للعهد والميثاق الذي أخذه

الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الأزل القديم، فكيف بعد ذلك كلِّه يدَّعي أحدٌ وصاية سيدنا موسى على رسول الله في ليلة الإسراء والمعراج؟ .

*** **** ***

خامساً: إن الله سبحانه وتعالى قد عاهد أنبياءه ورسله أزلاً أن يؤمنوا برسول الله وينصروه، والعهد هو التزام المُعاهد بما جاء في العهد من نصوص، والوفاء به، وقد قبل الرسل القيام بما جاء في نص هذا العهد و أقروا جميعًا به، وشهدوا بذلك على أنفسهم.

وقد وفَّى كلُّ نبيٍّ ورسول بهذا العهد، لأنه من أصول نبوته ورسالته التي كلفه الله بها، وبذلك تحققت ولاية رسول الله ووصايته على جميع الأنبياء والمرسلين، وأفضليته عليهم وإمامته لهم جميعًا صلوات الله وسلامه عليه أجمعين، فكيف بعد ذلك يقول أحد بوصاية سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم على سيدنا رسول الله؟

سادساً: هناك قاعدة في أصول الدين تقرر أن الخصوصية لا تقتضي الأفضلية بمعنى أن كل نبي له خصوصية تميز بها عن غيره من الأنبياء، ولا يلزم من ذلك أن تكون تلك الخاصية قد جعلته أفضل من غيره، أو له حق الوصاية عليه، فقد اختص الله سيدنا موسى أن يكون مشيرًا لرسول الله في هذه الليلة دون غيره من الرسل لما سبق أن قررناه من الحكم، ولا يلزم من ذلك وصايته على رسول الله أو أفضليته عليه وإنما الأفضلية والولاية تكون بيان من الله عزَّ وجلَّ كما ورد في آية الميثاق، أو بيان من رسوله صلى الله عليه وسلم كقوله : (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**) رواه أحمد والترمذي وفي رواية عند مسلم (**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) اهـ .

*** **** ***

المطلب الخامس

الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا وبين إرضاء الله للنبي ﷺ دون سؤال

المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا .

المحور الثاني : بيان أن النبي ﷺ قد أعطاه ربه الرضا قبل أن يسأل .

المحور الأول

بيان سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا

دعا موسى عليه السلام ربه فقال **(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)** سورة طه(84). بينما أعطى الله النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسأل فقال له: **(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)** سورة الضحى (5).

لقد سأل موسى عليه السلام ربه الرضا وقرن ذلك بالفعل ألا وهو الاستعجال للقائه وتركه قومه وراءه حيث قال **(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)** فقد جاء في سياق سؤال الله إياه في سورة طه عند قوله تعالى: **(وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ)** طه (83) **فأجابه موسى عليه السلام بقوله (قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)** سورة طه(84).

قال ابن كثير رحمه الله :

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ، وافوا **(عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [الأعراف : 138 ، 139] .

وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرا ، فتمت له أربعين ليلة ، أي : يصومها ليلا ونهارا . وقد تقدم في حديث " الفتون " بيان ذلك .

فسارع موسى عليه السلام مبادرا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون عليه السلام ولهذا قال تعالى : **(وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ)** أي : قادمون ينزلون قريبا من الطور ، **(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)** أي : لتزداد عني رضا.

وقال القرطبي رحمه الله :

وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لما وفد إلى طور سيناء بالوعد اشتاق إلى ربه وطالت عليه المسافة من شدة الشوق إلى الله تعالى ، فضاق به الأمر شق قميصه ، ثم لم يصبر حتى خلفهم ومضى وحده ؛ فلما وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى : وما أعجلك عن

قومك يا موسى فبقي - صلى الله عليه وسلم - متحيرا عن الجواب وكنى عنه بقوله : هم أولاء على أثري وإنما سأله السبب الذي أعجله فأجاب (**لترضى**) ثم سأله عن قومه: أين هم فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : وعجلت إليك رب لترضى فكنى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا.

فاتضح مما سبق من كلام المفسرين أن موسى عليه السلام كان في المحل الأسنى والمقام الأعلى في طلب إرضاء الرب الأعلى والشوق الأنسى ولهذا عجل وتر القوم وراءه ، وهذا مما يرفع مقامه ويعلي مكانه عند الله تعالى.

*** **** ***

المحور الثاني

بيان أن النبي ﷺ قد أعطاه ربه الرضا قبل أن يسأل

أما ما ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قد أعطي الرضا من قبل أن يسأل :(**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**) سورة الضحى (5).

قال أبو حيان رحمه الله تعالى في البحر المحيط :

قوله تعالى : (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**) قال الجمهور : ذلك في الآخرة . وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال أيضا : رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم . وقيل : في الدنيا بفتح مكة وغيره ، والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر ، ولما ادخر له من الثواب .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى :

في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: (**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي**) إبراهيم(36) وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) المائدة(118)، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ:اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: (يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟) فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ : (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ).

قلت : مما تقدم إذا أردنا أن نوضح الموازنة بين رضا الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم ورضاه عن موسى عليه السلام لوجدنا الفارق الكبير، من عدة أوجه:

1/ أن موسى عليه السلام تعجل في سيره إلى جبل الطور طالباً للرضا ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سورة الضحى ردا على أولئك الذين اتهموه بأن ربه قد قلاه – جفاه – فبين سبحانه أنه ما جفاه بل زاده أن طلب رضاه ووعد بأن يعطيه حتى يرضى.

2/ لم تدخل أمة موسى عليه السلام في رضا الله عنه لأنه بلا شك أنه قد رضي الله عنه بينما أمة النبي صلى الله عليه وسلم دخلت معه في الرضا بدلالة الحديث الذي سبق ذكر - في صحيح مسلم - (**اذهب إلى محمد ، فقل له : إن الله يقول لك : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**) ولا شك أن هذا غاية ما يتمناه كل نبي لأمته. وغير ذلك من الآثار التي ما ذكرها المفسرون.

3/ من الفوارق حصل من موسى عليه السلام لنيل رضا الله بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر ذلك من حاله عند نزول السورة ولعل هذا يتضح بما أورده القرطبي قبل قليل عن وعن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(يشفعني الله في أمتي حتى يقول الله سبحانه لي : رضيت يا محمد ؟ فأقول يا رب رضيت)** . والله أعلم

*** **** ***

المبحث الرابع

الموازنة بين وصف الشرع الذي أعطيه النبي ﷺ ووصف الشرع الذي أعطيه موسى عليه السلام

المطلب الأول : الموازنة بين وصف شرعي النبي وموسى عليهما الصلاة والسلام من حيث التيسير والتشديد.

المحور الأول : بيان ما ورد في شريعة موسى عليه السلام من التشديد على بني إسرائيل.

المحور الثاني : بيان ما ورد في شريعة النبي صلى الله عليه وسلم من اليسر ورفع الحرج.

المطلب الثاني : الموازنة بين وصف شرعي النبي وموسى عليهما الصلاة والسلام من حيث الحفظ من التحريف.

المحور الأول : بيان ما دخل في شريعة موسى عليه السلام من التبديل والتحريف

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى تكفل بحفظ شريعة النبي صلى الله عليه وسلم من التحريف والتغيير.

المطلب الأول

الموازنة بين وصف شرعي النبي وموسى عليهما الصلاة والسلام من حيث التيسير والتشديد

المحور الأول : بيان ما ورد في شريعة موسى عليه السلام من التشديد على بني إسرائيل :

المتأمل في شريعة موسى عليه السلام - من خلال التوراة - يجد أن أحكامها كانت تميل إلى التشديد لا إلى التيسير وذلك يتوافق مع طبيعة اليهود الذين كان يغلب عليهم العناد والاستكبار فلا يكاد أحدهم ينقاد لشرع أو عقل ومما يدلل على هذا التشديد ما جاء في القرآن الكريم في آيات عديدة منها :

قوله تعالى : (**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**) النساء (160-161) .

قال الشنقيطي رحمه الله في الأضواء : قوله تعالى : فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ، لم يبين هنا ما هذه الطيبات التي حرمها عليهم بسبب ظلمهم ، ولكنه بينها في سورة الأنعام بقوله (**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**) الأنعام (146) .

وقوله تعالى :(**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**) الأعراف (157) ، هذه الآية تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث للتخفيف عن اليهود في بعض الأحكام ولذا سنذكر كلام علمين من أئمة التفسير وهما ابن عاشور ومحمد رشيد رضا رحمهما الله تعالى :

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله:

ووضع الإصر إبطال تشريعه أي بنسخ ما كان فيه شدة من الشرائع الإلهية السابقة ، وحقيقة الوضع الحط من علو إلى سفل وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة .

والإصر: المراد به هنا التكاليف الشاقة والحرج في الدين فإن كان كما قيده الزمخشري يكن (ويضع عنهم إصرهم) تمثيلية بتشبيه حال المزال عنه ما يحرجه من التكاليف بحال من كان محملا بثقل فأزيل عن ظهره ثقله ، كما في قوله - تعالى - يحملون أوزارهم على ظهورهم .

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة على أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل على معاص كثيرة ، منها العمل يوم السبت ، ومثل تحريم مأكولات كثيرة طيبة وتغليظ التحريم في أمور هينة ، كالعمل يوم السبت ، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنها لم تشرع فيها التوبة من الذنوب ، ولا استتابة المجرم . والإصر قد تقدم في قوله - تعالى - ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا في سورة البقرة وقرأ ابن عامر وحده في القراءات المشهورة ، " آصارهم " بلفظ الجمع ، والجمع والإفراد في الأجناس سواء .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد الموكل بحراسة الأسير ، قال - تعالى - إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ويستعار الغل للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق فهو استعارة فإن بنينا على كلام الزمخشري كان (الأغلال) تمثيلية بتشبيه حال المحرر من الذل والإهانة بحال من أطلق من الأسر ، فتعين أن وضع الأغلال استعارة لما يعانيه اليهود من المذلة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس ، وزوال ملك يهوذا ، فإن الإسلام جاء بتسوية أتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية فلا يبقى فيه ميز بين أصيل ودخيل ، وصميم ولصيق ، كما كان الأمر في الجاهلية . ومناسبة استعارة الأغلال للذلة أوضح ؛ لأن الأغلال من شعار الإذلال في الأسر والقود ونحوهما .

*** **** ***

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود ، المتحدث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى ، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأن اليهود قد كان لهم شرع ، وكان فيه تكاليف شاقة ، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم ، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم ، ووصف الأغلال بما فيه ضميرهم ، على أنك إذا تأملت في حال الأمم كلهم قبل الإسلام لا تجد

شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية ، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاق مع السماحة الفطرية.

وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة ، وإذلال الرؤساء ، وشدة الأقوياء على الضعفاء ، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات ، والتكايل في الدماء ، وأكلهم أموالهم بالباطل ، فأرسل الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بدين من شأنه أن يخلص البشر من تلك الشدائد ، كما قال - تعالى - وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ولذلك فسرنا الوضع بما يعم النسخ وغيره ، وفسرنا الأغلال بما يخالف المراد من الإصر ، ولا يناكد هذا ما في أديان الجاهلية والمجوسية وغيرها من التحلل في أحكام كثيرة ، فإنه فساد عظيم لا يخفف وطأة ما فيها من الإصر ، وهو التحلل الذي نظر إليه أبو خراش الهذلي في قوله ، يعني شريعة الإسلام:

فليس كعهد الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

قال في تفسير المنار :

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم الإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه ؛ أي : يحبسه من الحراك لثقله ، وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم ، وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، قالهما الزمخشري ، وذكر للثاني عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة .

*** **** ***

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : أي أنه جاء بالتيسير والسماح كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**بعثت بالحنيفية السمحة**) [148] وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه

148 / رواه أحمد في "مسنده"، والطبراني في معجمه الكبير، قال السخاوي في المقاصد الحسنة (أخرجه الديلمي وأحمد في مسنده بلفظ : إني أرسلت ، وسنده حسن) حديث رقم (211) والحديث حَسَنٌ بالشواهِدِ. انظر: "السلسلة الصحيحة" (2/ 569 رقم 881).

معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : **(بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا)** رواه الشيخان وغيرهما .

ثم قال رحمه الله : حاصل ما تقدم:

أن بني إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذي يحمل أثقالا يئط منها ، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه ، وقد بينا في مواضع أخرى حكمة أخذ بني إسرائيل بالشدة في الأحكام .

وأن المسيح - عليه السلام - خفف عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشدد عليهم في الأحكام الروحية ؛ لما كان من إفراطهم في الأولى ، وتفريطهم في الأخرى ، وكل هذا وذاك قد جعله الله - تعالى - تربية موقوتة لبعض عباده ، ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التي يبعث بها خاتم الرسل الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل و أقوامهم.

هذا ما يتعلق بشريعة موسى عليه السلام وقد رأينا كيف كان العسر وليس العسر عليهم بسبب تفريطهم في العمل بما أنزل الله عليهم.

*** **** ***

المحور الثاني : بيان ما ورد في شريعة النبي صلى الله عليه وسلم من اليسر ورفع الحرج :

وأما شريعة النبي صلى اله عليه وسلم فقد وصفها باليسر ورفع الحرج عن المكلفين في غير ما آية ، ومنها:

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) الحج (78) .

قال في التفسير الوسيط : بين سبحانه بعض مظاهر لطفه بعباده فقال: **(وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)**. أى: ومن مظاهر رحمته بكم - أيها المؤمنون - أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي

تدينون به ما فيه مشقة بكم، أو **ضيق عليكم:** وإنما جعل أمر هذا الدين، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج، ومن قواعده التي تدل على ذلك: أن الضرر يزال.

وأن المشقة تجلب التيسير: وأن اليقين لا يرفع بالشك، وأن الأمور تتبع مقاصدها، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب.

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسيرورفع الحرج قوله- تعالى : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) وقوله- سبحانه-: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَوَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وإنما تركت تفسيرها خشية الإطالة .

وفي الحديث الشريف: (**بعثت بالحنيفية السمحاء**) [149]قال الإمام ابن القيم رحمه الله في (شفاء العليل) : فهي حنيفيَّةٌ في التوحيد وعدَمِ الشِّرْكِ، سَمْحَةٌ في العمل وعدَمِ الآصار والأَغْلال).

وقال بعض العلماء: وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا، بين المشقة في الأحكام الشرعية، وبين الحرج والعسر فيها، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج، فهي المرفوعة عن المكلفين.

فقد فرض الله الصلاة على المكلف، وأوجب عليه أداءها، وهذا شيء لا حرج فيه. ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء.. وهكذا جميع التكاليف الشرعية.

*** **** ***

والخلاصة: أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد صلّى الله عليه وسلّم من عند ربه- عزوجل- مبنى على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا، هم الناكبون عن هديه، الخارجون على تعاليمه.

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال: (رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين) اهـ

149 / سبق تخريجه قريبا .

يقول الأستاذ الدكتور: فالح بن محمد الصغير:

إن الإسلام هو الدين الذي اختاره الله تعالى لعباده ، منذ أن خلق الخليقة الأولى آدم عليه السلام ، يقول الله تعالى : **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)** (سورة آل عمران الآية 19) . ويقول أيضًا : **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)** سورة آل عمران الآية 85) .

وجعل لهذا الدين محورًا واحدًا إلى يوم القيامة ، هو توحيده جل وعلا ، وهو المحور الذي كان يدعو إليه الأنبياء والرسل أقوامهم وأتباعهم، يقول جل ثناؤه : **(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)** (سورة النحل الآية 36) . وقال تعالى : **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)**(سورة الذاريات الآية 56).

*** **** ***

ولكن أحكام هذا الدين كانت تختلف من رسالة إلى أخرى ، وكانت تلك الأحكام مقتصرة على أقوام وأفراد في زمان ومكان محددين ، ولا تدوم أحكام أية رسالة بعد وفاة نبيها لأمد طويل ، فسرعان ما يعتريها التحريف والتبديل ، فيفسد التوحيد عند الناس ، وتعم المعاصي والمظالم ، حتى يرسل الله تعالى نبيًّا آخر يجدد للناس دينهم ، ويردهم إلى توحيد الله وهديه ، هكذا كانت سنة الله – تعالى – في الأمم السابقة.

حتى بعث الله تعالى آخر رسله صلى الله عليه وسلم ومعه آخر رسالة ، فجاءت هذه الرسالة عامة للإنس والجن ، والأبيض والأسود ، والعرب والعجم ، وهي الرسالة التي حملت مضمونين جديدين ، هما الرحمة والعالمية ، لقوله تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** سورة الأنبياء الآية (107).

إن هذا الدين العالمي الذي يخاطب الناس كافة بجميع أعراقهم وأطيافهم ، في كل أرجاء الأرض ، لا بد أن يتميز بصفات وخصائص تتناسب مع أحوال الناس وظروفهم في البلاد المتفرقة من العالم ، فجاء يحمل في أحكامه وتشريعاته التيسير والسعة ، فلا تخلو فريضة من الفرائض ولا شعيرة من الشعائر إلا وقد أضفى عليها الله تعالى من اليسر ما يجعل الإنسان قادرًا على تطبيقها والقيام بها على

الصورة التي أرادها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه عز وجل لا يكلف النفس فوق طاقتها أبدًا : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)(سورة البقرة الآية 286).

وتتوضح لنا هذه الحقيقة في رسالة الإسلام بشكل أكثر عندما تتم المقارنة بين ما كانت عليها الأمم السابقة من المشقة والعنت ، وما صارت عليه أمة الإسلام من يسر وسهولة ، يقول الله تعالى :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) سورة الأعراف الآية 157 .

*** **** ***

فقد خفف الله – تعالى – عن عباده الأغلال والأثقال التي كانت ترافق شرائعهم فتثقل بها كواهلهم ، وتصعب معها حياتهم ، وهذا فضل كبير من الله – تعالى – لهذه الأمة ، ولم يكن ذلك أمرًا عارضًا وإنما لحكمة يعلمها الله ، أرادها لعباده تمشيًا مع فطرهم وإعانتهم في أداء طاعاتهم وعباداتهم ، ومن ثم تحقيق مصالحهم في شؤونهم كلها ، فكل حكم أو تشريع يحمل معه مصلحة للناس في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وغيرها.

إن الدين الإسلامي بمجمله قائم على اليسر ورفع الحرج ابتداء من العقيدة وانتهاء بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت ، وهذا ما أشار إليه الله تعالى في مواطن كثيرة من كتابه العزيز منها قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (سورة الحج الآية 78) وقوله أيضًا : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)(سورة البقرة الآية 185) وقوله عز وجل : (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) سورة النساء الآية (28) .

وتلت هذه الآيات الكريمات السنة النبوية بأحاديث كثيرة تحمل معاني اليسر في أمور الدين وعدم التنطع والتشدد في العبادات والطاعات ، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أن من أهم ما تميزت به رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية السابقة هي السماحة واليسر كما في قوله صلى الله

عليه وسلم : إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة.

والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وتعامله مع صحابته مبني على منهج التيسير والسماحة ، والشواهد أكثر من أن تعد أو تحصى ، ولكن نكتفي بسرد حادثة وقعت لأحد الصحابة وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يريد مخرجًا لها وهو صحابي فقير لا يملك قوت يومه ، وهي تغني عن جميع ما كان يقع للصحابة من إحراجات.

ففي البخاري عن أبو هريرة رضي الله عنه : (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ . قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَ أَنَا صَائِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا ؟ قَالَ : لاَ ، قَالَ : فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، قَالَ : لاَ ، فَقَالَ : فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا . قَالَ : لاَ ، قَالَ : فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ- وَالعَرَقُ المِكْتَلُ - قَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ ؟ فَقَالَ : أَنَا ، قَالَ : خُذْهَا ، فَتَصَدَّقْ بِهِ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا - يُرِيدُ الحَرَّتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ) اهـ [150]

*** **** ***

150 / مقتطفات من مقال بعنون : اليسر والسماحة في الإسلام – موقع السكينة .

المطلب الثاني

الموازنة بين وصف شرعي النبي وموسى عليهما الصلاة والسلام من حيث الحفظ من التحريف

المحور الأول : بيان ما دخل في شريعة موسى عليه السلام من التبديل والتحريف .

المحور الثاني : بيان أن الله تعالى تكفل بحفظ شريعة النبي ﷺ من التحريف والتغيير.

المحور الأول

بيان ما دخل في شريعة موسى عليه السلام من التبديل والتحريف

قال تعالى : **(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ)** سورة المائدة (44).

قال في التفسير الوسيط :

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق، وضياء لهم من ظلمات الباطل، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبياؤهم الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة والطاعة، ويحكم أيضا بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء. وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود، بسبب أنه- تعالى- حملهم أمانة حفظ كتابه، وتنفيذ أحكامه وشرائعه وتعاليمه.

ويصح أن يكون قوله (**بِمَا اسْتُحْفِظُوا**) متعلقا بالربانيين والأحبار، وأن يكون الضمير عائدا عليهم وحدهم. أى: على الربانيين والأحبار ويكون الاستحفاظ بمعنى أن الأنبياء قد طلبوا منهم حفظه وتطبيق أحكامه.

والمعنى: كذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود. بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله من التغيير والتبديل.وقوله: **(وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ معطوف على اسْتُحْفِظُوا)**.

أى: وكان الأنبياء والربانيون والأحبار شهداء على الكتاب الذي أنزله الله- وهو التوراة- بأنه حق، وكانوا رقباء على تنفيذ حدوده، وتطبيق أحكامه حتى لا يهمل شيء منها.

قال الفخر الرازي رحمه الله : قوله: (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ): حفظ كتاب الله على وجهين:

الأول: أن يحفظ فلا ينسى. **الثاني:** أن يحفظ فلا يضيع.وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من وجهين.

أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم.

والثاني: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

وقوله : (**وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ**) أى: هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار كانوا شهداء على أن كل ما في التوراة حق وصدق ومن عند الله فلا جرم كانوا يمضون أحكام التوراة ويحفظونها من التحريف والتغيير .

*** **** ***

قال القرطبي رحمه الله :

ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان . ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حَمَّاد ما حكاه عياض في «المدارك» ، عن أبي الحسن بن المنتاب ، قال : كنت عند إسماعيل يوماً فسئل : لم جاز التّبديل على أهل التّوراة ولم يجز على أهل القرآن ، فقال : لأنّ الله تعالى قال في أهل التّوراة (**بما استحفظوا من كتاب الله**) فوكل الحفظ إليهم . وقال في القرآن : (**إنّا نحن نزّلنا الذكر و إنَّا له لحافظون**) [الحجر : 9] .

فتعهّد الله بحفظه فلم يجز التّبديل على أهل القرآن . قال : فذكرت ذلك للمُحاملي ، فقال : لا أحْسَنَ من هذا الكلام.

قوله تعالى : (**مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَ انظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَ أَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا**) النساء (46).

قال ابن عاشور: قال في المائدة: **(من بعد مواضعه)**، وقال في النساء: **(عن مواضعه)**؛ لأن آية سورة النساء في وصف اليهود كلهم، وتحريفهم في التوراة، فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التّوراة أو في ألفاظها. فكان إبعاداً للكلام **(من بعد مواضعه)**، أي إزالة للكلام الأصلي، سواء عوض بغيره أو لم يعوض. وأما آية المائدة **(من بعد مواضعه)**، فقد وردت في ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام، فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر، فكان قوله: **(من بعد مواضعه)**، أبلغ في

تحريف الكلام؛ لأن لفظ **(من بعد)** يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة.

*** **** ***

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في توجيه قوله سبحانه: {يحرفون الكلم عن مواضعه}:

فكأن المسألة لها أصل عندهم، فالكلام المنزل من الله، وُضع أولاً وضعه الحقيقي، ثم أزالوه، وبدلوه، ووضعوا مكانه كلاماً غيره، مثل تحريفهم الرجم، بوضعهم الحد مكانه. أما قوله تعالى: **(من بعد مواضعه)**، فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق، ووضعوه موضع الباطل بالتأويل، والتحريف حسب أهوائهم، بما اقتضته شهواتهم. فكأنه كانت له مواضع، هو جدير بها. فحين حرفوه، تركوه كالغريب المنقطع، الذي لا موضع له، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم.

وقوله تعالى : **(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**المائدة(13) .

*** **** ***

المحور الثاني

بيان أن الله تعالى تكفل بحفظ شريعة النبي ﷺ من التحريف والتغيير

هذا ما كان من أمر شريعة موسى عليه السلام – من خلال التوراة - في حفظها والتمسك بها فقد رأينا كيف انحرف اليهود بعد موسى عليه السلام في حفظها وفي عدم التمسك بها.

وأما القرآن فقد تكفل الله بحفظه من التحريف فقال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر (9).

جاء في التفسير الوسيط:

أى: إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذي أنكرتموه على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وَإِنَّا لهذا القرآن لَحافِظُونَ من كل ما يقدح فيه، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال صاحب الكشاف: قوله (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**) رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم (**يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**) الحجر (6)، ولذلك ، قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ومن بين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان.

وقال الآلوسى رحمه الله تعالى : (ما ملخصه) :

(ولا يخفى ما في سبك الجملتين (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**) وَ(**إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**) من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة، وعلى فخامة شأن التنزيل، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد. ونَحْنُ ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين اسمين، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن. والضمير في لَهُ للقرآن كما هو الظاهر، وقيل هو للنبي صلى الله عليه وسل) .

هذا ونحن ننظر في هذه الآية الكريمة، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرى أن الله- تعالى- قد حقق وعده في حفظ كتابه، ومن مظاهر ذلك:

1/ أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن، ومن هزائم، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.. هذا الذي أصابهم في مختلف الأزمنة والأمكنة، لم يكن له أى أثر على قداسة القرآن الكريم، وعلى صيانته من أى تحريف.

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله- تعالى- قيض له في كل زمان ومكان، من أبناء هذه الأمة، من حفظه عن ظهر قلب، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر وفي كل عصر.

*** **** ***

قال الفخر الرازي رحمه الله : **(فإن قيل: فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن في المصحف، وقد وعد الله بحفظه، وما حفظه الله فلا خوف عليه؟**

فالجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله- تعالى- إياه، فإنه- سبحانه- لما أن حفظه قيضهم لذلك) .

2/ أن أعداء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلوا فيها ما ليس منها...

وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء .ولكن هؤلاء الأعداء، لم يقدروا على شيء واحد، وهو إحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في الكتب السماوية السابقة .

والخلاصة، **أن سلامة القرآن من أى تحريف- رغم حرص الأعداء على تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام، ورغم تطاول القرون والدهور- دليل ساطع على أن هناك قوة**

خارقة- خارجة عن قوة البشر- قد تولت حفظ هذا القرآن، وهذه القوة هي قوة الله- عزوجل- ولا يمارى في ذلك إلا الجاحد الجهول.

*** **** ***

وها هنا قصة ذكرها البيهقي رحمه الله تعالى يحسن ذكرها : قال :

(عن يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ يَقُولُ: " كَانَ لِلْمَأْمُونِ وَهُوَ أَمِيرٌ إِذْ ذَاكَ مَجْلِسُ نَظَرٍ، فَدَخَلَ فِي مَجْلِسِ النَّاسِ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ حَسَنُ الثَّوْبِ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ قَالَ فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ الْعِبَارَةَ ،قَالَ: فَلَمَّا أَنْ تَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ، دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ: إِسْرَائِيلِيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ ،قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ وَأَصْنَعَ، وَوَعَدَهُ فَقَالَ: دِينِي وَدِينُ آبَائِي، فَانْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ جَاءَنَا مُسْلِمًا قَالَ: فَتَكَلَّمَ عَلَى الْفِقْهِ، فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ.

فَلَمَّا أَنْ تَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ صَاحِبَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: فَمَا كَانَ سَبَبُ إِسْلَامِكَ؟

قَالَ: انْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمْتَحِنَ هَذِهِ الْأَدْيَانَ، وَأَنَا مَعَ مَا تَرَانِي حَسَنُ الْخَطِّ , فَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَاةِ. فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي،وَعَمَدْتُ إِلَى الْإِنْجِيلِ , فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نَسْخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ , وَأَدْخَلْتُهَا الْبَيْعَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي،

وَعَمَدْتُ إِلَى الْقُرْآنِ فَعَمِلْتُ ثَلَاثَ نَسْخٍ، وَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ ، وَأَدْخَلْتُهَا إِلَى الْوَرَّاقِينَ، فَتَصَفَّحُوهَا، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ، رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْتَرُوهَا فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ، فَكَانَ هَذَا سَبَبُ إِسْلَامِي "

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: " فَحَجَجْتُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، فَلَقِيتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ , فَذَكَرْتُ لَهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ لِي: مِصْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ , قَالَ: قُلْتُ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ قَالَ: فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ {**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ**} [المائدة: 44] فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ , وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: 9] فَحَفِظَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ"

قُلْتُ: وَفِي الْكِتَابِ ثُمَّ فِي أَخْبَارِ السَّلَفِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ كَانُوا إِذَا غَيَّرُوا شَيْئًا مِنْ أَدْيَانِهِمْ غَيَّرُوهُ أَوَّلًا مِنْ كُتُبِهِمْ وَاعْتَقَدُوا خِلَافَهُ بِقُلُوبِهِمْ، ثُمَّ أَتْبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ. وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ كِتَابَهُ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَى عَقَائِدِهِمْ، حَتَّى لَا يُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْهَا، وَإِنْ كَانَ فِعْلًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِشَهْوَةٍ أَوْ بِغَفْلَةٍ خِلَافَهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حِفْظِ دِينِهِ، وَعَلَى مَا هَدَانَا لِمَعْرِفَتِهِ , وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ إِلَى الْمَمَاتِ، وَالْمَغْفِرَةَ يَوْمَ تُحْشَرُ الْأَمْوَاتُ , إِلَهٌ سُمَيْعُ الدُّعَاءِ، فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ، وَالصَّلَاةُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

*** **** ***

الفصل الثالث

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعيسى عليه السلام

مدخل : بيان الخصائص التي اختص الله تعالى بها عيسى عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين أصحاب النبي ﷺ وحواري عيسى عليه السلام.

المطلب الأول : بيان كيف تعامل الحواريون مع عيسى عليه السلام.

المطلب الثاني : بيان كيف تعامل الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني : الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في الإخبار بالغيبيات.

المطلب الأول : بيان ما ورد في معجزة إخبار عيسى عليه السلام بالغيبيات .

المطلب الثاني : بيان ماورد في معجزة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيبيات .

المبحث الثالث: الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى وإحياء الموتى.

المطلب الأول : الموازنة بين معجزتي النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى.

المحور الأول :بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي عيسى عليه السلام.

المحور الثاني : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني : الموازنة بين معجزتي النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام في إحياء الموتى.

المحور الأول : بيان معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام.

المحور الثاني : بيان معجزة إحياء الموتى للنبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الرابع : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام في ثلاثة مواطن وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

المطلب الأول : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند ولادته وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم ولادته.

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عيه وسلم يوم ولادته.

المطلب الثاني : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند موته وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم موته .

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم موته .

المطلب الثالث : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند يوم البعث وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم

المحور الأول : بيان ما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام عند يوم البعث.

المحور الثاني : بيان ما أكرم الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم عند يوم البعث .

مدخل

بيان الخصائص التي اختص الله تعالى بها عيسى عليه السلام

- **إنه ولد لأم من غير أب**، وإنما نفخ جبريل في درع جيب مريم فحملت به عليه السلام ، قال سبحانه في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)** [مريم:16- 22].

- **وتكلم في المهد و آتاه الله من البينات ما فضله به** في قوله: **(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)** [البقرة: 253].

- **وقد حكى الله كلام عيسى في المهد فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام** : **(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)** [مريم: 30- 33].

- **وكان من الآيات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ما ذكره سبحانه** في قوله: **(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)** [المائدة: 110].

* * * * * * * * * *

- وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حي في السماء وهو في الثانية كما في أحاديث الإسراء، قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام: (**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ**)[النساء: 157-158].

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان كما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وهذا من خصائصه عليه السلام، قال سبحانه: (**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**) [النساء: 159].

وقد تواترت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام قال صلى الله عليه وسلم: (**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**) رواه الترمذي وحسنه .

وقال صلى الله عليه وسلم (**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ، وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟**) رواه مسلم .

وأجمعت الأمة على نزوله عليه السلام آخر الزمان .

- لقد أكرم الله تعالى عيسى عليه السلام بتلك المميزات وغيرها وكان ما أعطاه الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم من جنس ذلك أفضل مما أعطى عيسى عليه السلام وقد جعلت الكلام على ذلك من خلال أربعة مباحث :

*** **** ***

المبحث الأول

الموازنة بين أصحاب للنبي ﷺ وحواريي عيسى عليه السلام

المطلب الأول : بيان كيف تعامل الحواريون مع عيسى عليه السلام .

المطلب الثاني : بيان كيف تعامل الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا النبي ﷺ .

المطلب الأول

بيان كيف تعامل الحواريون مع عيسى عليه السلام

سيكون الحديث في هذا المطلب حول طبيعة العلاقة بين أتباع المسيح عليه السلام الذين آمنوا به ونصروه وهم الحواريون وطبيعة العلاقة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام وكيف كان تعامل كل من الفريقين مع نبيهم .

لقد ورد ذكر الحواريين في عدد من المواضع من سورالقرآن الكريم كسور آل عمران المائدة والصف وغيرها ، وسنقتصر على بعضها :

1/ قال تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)**الصف (14).

قال ابن عاشور:

الحواريون : اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر ، ولا شك أنه كان معروفا عند نصارى العرب أخذوه من نصارى الحبشة . ولا يعرف هذا الاسم في الأناجيل.

وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضي الله عنه حواريه على التشبيه بأحد الحواريين فقال : (لكل نبي حواري وحواري الزبير).

واعلم أن مقالة عيسى عليه السلام المحكية في هذه الآية غير مقالته المحكية في آية آل عمران فإن تلك موجهة إلى جماعة بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر لما دعاهم إلى الإيمان به.

أما مقالته المحكية هنا فهي موجهة للذين آمنوا به طالبا منهم نصرته لقوله تعالى كما قال عيسى ابن مريم للحواريين الآية ، فلذلك تعين اختلاف مقتضى الكلامين المتماثلين .

وعلى حسب اختلاف المقامين يجرى اختلاف اعتبار الخصوصيات في الكلامين وإن كانا متشابهين فقد جعلنا هنالك إضافة " أنصار الله " إضافة لفظية وبذلك لم يكن قولهم نحن أنصار الله مفيدا

للقصر لانعدام تعريف المسند . فأما هنا فالأظهر أن كلمة " أنصار الله " اعتبرت لقبا للحواريين عرفوا أنفسهم به وخلعوه على أنفسهم فلذلك أرادوا الاستدلال به على أنهم أحق الناس بتحقيق معناه ، ولذلك تكون إضافة أنصار إلى اسم الجلالة هنا إضافة معنوية مفيدة تعريفا فصارت جملة نحن أنصار الله هنا مشتملة على صيغة قصر على خلاف نظيرتها التي في سورة آل عمران .

ففي حكاية جواب الحواريين هنا خصوصية صيغة القصر بتعريف المسند إليه والمسند،وخصوصية التعريف بالإضافة ، فكان إيجازا في حكاية جوابهم بأنهم أجابوا بالانتداب إلى نصر الرسول - أي عيسى عليه السلام .

وبجعل أنفسهم محقوقين بهذا النصر لأنهم محضوا أنفسهم لنصر الدين وعرفوا بذلك وبحصر نصر الدين فيهم حصرا يفيد المبالغة في تمحضهم له حتى كأنه لا ناصر للدين غيرهم مع قلتهم وإفادته التعريض بكفر بقية قومهم من بني إسرائيل .

وفرَّع على قول الحواريين (**نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**) الإخبار بأن بني إسرائيل افترقوا طائفتين طائفة آمنت بعيسى وما جاء به ، وطائفة كفرت بذلك وهو التفريع يقتضي كلاما مقدرا وهو فنصروا الله بالدعوة والمصابرة عليها فاستجاب بعض بني إسرائيل وكفر بعض وإنما استجاب لهم من بني إسرائيل عدد قليل فقد جاء في إنجيل لوقا أن أتباع عيسى كانوا أكثر من سبعين) اهـ

*** **** ***

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى :

وقوله : (فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أي : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء .

وقال في تتمة أضواء البيان :

في هذه الآية أيضا إشعار المسلمين بالنصر في قوله تعالى : **(فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)** [الصف / 14] ، ولكن لم يبين فيها هل كانوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله أم لا ؟

وقد جاء ما يدل على أنهم بالفعل أنصار الله كما تقدم في سورة الحشر في قوله تعالى : **(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)** الحشر (8) .

وكذلك الأنصار في قوله تعالى : **(السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)** التوبة (100) **وكقوله تعالى : (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)** [الفتح / 29] فأشداء على الكفار هو معنى ينصرون الله ورسوله ، ثم جاء المثل المضروب لهم بالتآزر والتعاون في قوله تعالى : **(وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)** [الفتح / 29] فسماهم أنصارا ، وبين نصرتهم سواء من المهاجرين والأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والعلم عند الله تعالى .

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان كيف تعامل الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الصحابة الكرام فقد تقدم الكلام عليهم في الفصل الثالث عند ذكر الموازنة بين أتباعه صلى الله عليه وسلم و أتباع الأنبياء السابقين ، ولكن لما كان لما ذكر الله عن الحواريين خصوصية في إيمانهم ونصرتهم لسيدنا عيسى عليه السلام كان لا بد من الإشارة إلى نصرة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم

فمن أوجه المفارقات بين الصحابة والحواريين:

أن أعداد الحواريين كانت قليلة جداً مقارنة بعدد الصحابة رضي الله عنهم فقد تقدم في كلام ابن عاشور (**والحواريون** : اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر ، ولا شك أنه كان معروفا عند نصارى العرب أخذوه من نصارى الحبشة ، ولا يعرف هذا الاسم في الأناجيل) .

وأما الصحابة الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في المعارك وغيرها فلا مقارنة أصلاً فقد كان الصحابة رضي الله عنهم في بدر أكثر من ثلاثمائة وفي الأحزاب أكثر من ألف صحابي وغيرها من الغزوات المشهورة كخيبر وحنين وفتح مكة.

ومن أوجه المفارقات بين الصحابة والحواريين:

- أن الحواريين حكي القرآن الكريم أنهم طلبوا من عيسى عليه السلام أن يُنْزِل عليهم مائدة من السماء، ودار بينهم وبين عيسى عليه السلام الحوار التالي: **(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** (المائدة:112).

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا: (**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**)، قالت: ولكن (**هل تستطيع ربَّك**).

وروي عنها أيضاً أنها قالت: كان الحواريون لا يشكون أن الله يقدر على إنزال مائدة، ولكن قالوا: (هل تستطيع ربَّك). وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تستطيع ربَّك)، قال معاذ: وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً يقرأ بالتاء: (هل تستطيع ربَّك).

وقد كان جواب عيسى على طلب الحواريين بأن أمرهم بتقوى الله سبحانه، والوقوف عند حدوده، والخوف والخشية منه، وترك مطالبته بأمور تؤدي بالمؤمن إلى الفتنة، فقال لهم: (**اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) .

ثم حكى القرآن الكريم ما ردَّ به الحواريون على عيسى عليه السلام، وذلك قولهم: **(قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)** (المائدة:113)، فقد بينوا في جوابهم أنه طلبوا نزول المائدة رغبة في أن ينالوا البركة، ولحاجتهم إلى الطعام بعد أن ضيق عليهم بنو إسرائيل في الرزق، وأيضاً لتزداد قلوبهم إيماناً بالله وتصديقاً بما جاءهم من الحق، وأيضاً ليكونوا شهوداً على صدق المعجزات التي جاءهم بها عيسى عليه السلام عند الذين لم يشهدوها) إلى آخر القصة.

بينما الصحابة لم يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا الطلب مع شدة حاجتهم للطعام في الغزوات والأسفار بل أعطاهم الله على يد النبي صلى الله عليه وسلم من غير سؤال ، فكان في ذلك دلالة على صبرهم وحسن توكلهم وقوة يقينهم في صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

*** **** ***

فمما أعطاعهم الله مما يشابه مائدة الحواريين:

1/ ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لما حُفِر الخندق رأيت بالنبي – صلى الله عليه وسلم – خَمْصا(جوعا) شديدا، فانكفأت (رجعت) إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟، فإني رأيت برسول الله – صلى الله عليه وسلم - خمصا شديدا، فأخرجت إلي جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن - شاة في البيت- فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي وقطعتها في بُرْمتها، ثم وليت إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم ،. فقالت: لا تفضحني برسول الله . صلى الله عليه وسلم -

وبمن معه . فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا، وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (يا أهل الخندق،إن جابراً قد صنع لكم سؤرا) بقية طعام (فَحَيْهلا بكم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تُنْزِلَنَّ بُرْمَتكُم – قِدْركم - ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء ، فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك - أي ذمَّته - فقلت: قد فعلت الذي قلتِ لي.. فأخرجت له عجينتنا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: (ادعي خابزة فلتخبز معك، و اقدحي) أي اغرفي – (من برمتكم ولا تنزلوها) ، (وهم ألف،فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه و انحرفوا) - شبعوا و انصرفوا - وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو) رواه البخاري . فأكل ألف رجل من طعام قليل. شاة وصاع من شعير. وبقي منه الكثير.

2/ وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهديت له قصعة ثريد ، فظل الناس يأكلون منها يوماً كاملاً ، يقول سمرة رضي الله عنه (ما كانت تمدّ إلا من ههنا) وأشار إلى السماء ، رواه أحمد.

3/ وفي حادثة أخرى تقول ابنة بشير بن سعد : (دعتني أمي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بُنيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا التمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنية ما هذا معك؟، فقلت يا رسول الله: هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق أن هلمَّ إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق و إنه ليسقط من أطراف الثوب) رواه البيهقي.

هذه المعجزة التي أيد الله بها نبيه . صلى الله عليه وسلم . كان لها دور كبير و أثر عظيم، في نفوس الصحابة والمسلمين من بعدهم، في زيادة إيمانهم، ومعرفتهم قدر نبيهم. صلى الله عليه وسلم .

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في الإخبار بالغيبيات

المطلب الأول : بيان ما ورد في معجزة إخبار عيسى عليه السلام بالغيبيات.

المحور الثاني : بيان ماورد في معجزة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيبيات .

مدخل

لعل مما هو معلم أن من الأمور التي تميز بها الأنبياء أنهم يخبرون بالأشياء الغيبية المتعلقة بالآخرة أو بالملائكة ونحو ذلك من الإيمانيات ، ولكن كانت المعجزة البارزة لسيدنا عيسى عليه السلام إخباره بالأمور الغيبية المستقبلية المتعلقة ببعض أمور الدنيا التي تتعلق بقومه خاصة كما أخبر الله عن ذلك بقوله حكاية عن قوله عليه السلام لبني إسرائيل **(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** آل عمران (49).

وقد أكرم الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأعظم وأكثر مما أكرم به عيسى عليه السلام في هذا الجانب إذ أخبر صلى الله عليه وسلم عن كثير من الغيبيات وفي مختلف الموضوعات كما سيأتي بيانه ، ومن هنا كان هذا المبحث يحتوي على مطلبين :

المطلب الأول

بيان ما ورد في معجزة إخبار عيسى عليه السلام بالغيبيات

لقد أخبر الله عن تلك المعجزة بقوله حكاية عن قوله عليه السلام لبني إسرائيل – في الآية أنفة الذكر **(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** آل عمران (49).

قال الفخر الرازي : من المعجزات إخباره عن الغيوب فهو قوله تعالى حكاية عنه : **(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)**وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : في هذه الآية قولان :

أحدهما : أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيوب ، روى السدي : أنه كان يلعب مع الصبيان ، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم ، وكان يخبر الصبي بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا لصبيانهم : لا تلعبوا مع هذا الساحر ،

وجمعوهم في بيت ، فجاء عيسى - عليه السلام - يطلبهم ، فقالوا له : ليسوا في البيت ، فقال : فمن في هذا البيت ، قالوا : خنازير قال عيسى - عليه السلام - كذلك يكونون فإذا هم خنازير.

والقول الثاني : إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة ، وذلك لأن القوم نهوا عن الادخار ، فكانوا يخزنون ويدخرون ، فكان عيسى - عليه السلام - يخبرهم بذلك.

قال الآلوسي رحمه الله تعالى : وذهب بعضهم أن ذلك كان بعد نزول المائدة وأيد بما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه في الآية أنه قال: وأنبئكم بما تأكلون من المائدة وما تدخرون منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فادخروا وخانوا فجعلوا قردة وخنازير، ويمكن أن يقال: إن كل ذلك قد وقع وعلى سائر التقادير، فالمراد الإخبار بخصوصية هذين الأمرين كما يشعر به الظاهر، وقيل: المراد الإخبار بالمغيبات إلا أنه قد اقتصر على ذكر أمرين منها، ولعل وجه تخصيص الإخبار بأحوالهم لتيقنهم بها فلا يبقى لهم شبهة، والسر في ذكر هذين الأمرين بخصوصهما أن غالب سعي الإنسان وصرف ذهنه لتحصيل الأكل الذي به قوامه والادخار الذي يطمئن به أكثر القلوب ويسكن منه غالب النفوس، فليفهم.

المسألة الثانية : الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة ، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب ، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيرا ، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة ، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

وقال القرطبي: قوله تعالى : (**وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) أي بالذي تأكلونه وما تدخرون ، وذلك أنهم لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندخر للغد ، فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا ، فذلك قوله وأنبئكم الآية . **وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى وغيره** : وكان يخبر الصبيان في الكتاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . **وقتادة رحمه الله تعالى** : أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ادخروه منها خفية.

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان ماورد في معجزة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيبيات

ما ورد في ذلك عنه صلى الله عليه وسلم من الكثرة بما لا يكاد يحصى وليس إخباره كان قاصراً على نوع واحد كما هو الحال في معجزة عيسى عليه السلام .بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم – بل كان في مختلف المجالات وإليك نزراً يسيراً من ذلك:

1/ إشارة نبوية إلي أن أبي بكر الصديق سيلي أمر الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم:

عن محمد بنِ جبير بن مطعم عن أَبِيه قَال أَتت امْرَأَة النَّبِي صَلَى اللَّه عَلَيه وسَلَم فأَمرها أَن ترجع إِلَيه قالَت أَرأَيت إِن جئْت ولَم أَجدك كأَنها تقول الموت قال صلَى اللَّه علَيه وسلَم : **(إِن لَم تجديني فأْتي أَبا بكر)** متفق عليه .

فكان هذا وتولي أبا بكر الصديق أمر وولاية المسلمين بعده صلى الله عليه وسلم فكان هو القائم بعده بالأمر.

يقول الإمام النووي رحمه الله : وأما قوله صلى الله عليه و سلم في الحديث الذي بعد هذا للمرأة حين قالت يا رسول الله أرأيت ان جئت فلم اجدك قال فان لم تجديني فأتي ابا بكر فليس فيه نص على خلافته وامر بها بل هو اخبار بالغيب الذي اعلمه الله تعالى به والله اعلم .[151]

2/ إشارة نبوية إلي أن المسلمين سيفتحون مصر: روي مالك والليث عن الزهري عن بن كعب عن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **(إذا افتتحتم مصرا فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما)** .[152]

ومعلوم لدى كل مسلم أن مصرقد افتتحها عمرو بن العاص في سنة عشرين أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

151/ رواه مسلم .

152 / أخرجه الحاكم في المستدرك - ح 4090 – ج 2 ص 650 ، 651 وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

و في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما) .

والتصريح في رواية الإمام أحمد: من حديث أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا).[153]

*** **** ***

3/ إشارة نبوية إلى أن دولتي فارس والروم ستذهبان إلي غير عودة:

عن أَبِي هريرة أَنّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذا هلَك كسرى فلا كسرى بعده وإِذا هلَك قيصر فلا قيصر بعده والّذي نفس محمد بِيده لَتُنفقُن كنوزهما في سبِيل اللّه).متفق عليه

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى :

(وقد وقع ذلك كما أخبر سواء بسواء فإنه في زمن أبي بكر وعمر وعثمان انزاحت يد قيصر ذلك الوقت واسمه هرقل عن بلاد الشام وثبت ملكه مقصوراً علي بلاد الروم فقط والعرب إنما كانوا يسمون قيصر لمن ملك الروم مع الشام والجزيرة وفي هذا الحديث بشارة عظيمة لأهل الشام وهي أن يد ملك الروم لا تعود غليها أبد الآبدين ودهر الداهرين إلي يوم الدين .... وأما كسرى فغنه سلب عامة ملكه في زمن عمر ثم استؤصل ما في يده في خلافة عثمان وقيل في سنة ثنتين وثلاثين ولله الحمد والمنة .... وقد دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أنه مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمزق ملكه كل ممزق فوقع الأمر كذلك) [154].

4/ إشارة نبوية إلي أن عمر رضي الله عنه سيقتل :

عن حذيفه رضي الله عنه أنه قال :كنا عند عمر فقال : (أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة كما قال)،فقلت (أنا) قال : (إنك لجريء وكيف قال ؟)قال قلت : سمعت

153 / مسند الإمام أحمد (173/5) ، وقال عنه المحدث شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم .

133/ النهاية في الفتن والملاحم – لابن كثير – (10/1) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فقال عمر: (ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر) فقلت : (مالك ولها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا) قال : أفيكسر الباب أم يفتح ؟ قلت : (لا بل يكسر) قال : (ذلك أحرى أن لا يغلق أبدا) قال فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : (نعم كما يعلم أن دون غد الليلة إني حدثته حديثا ليس بالأغاليط) قال فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب فقلنا لمسروق سله فسأله فقال : (عمر)متفق عليه .

وهكذا وقع الأمر سواء بعد ما قتل في سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتن بين الناس وكان قتله سبب انتشارها بينهم .[155]

*** **** ***

5/ إشارة نبوية إلي أن الله سيصلح بالحسن رضي الله عنه بين فئتين عظيمتين من المسلمين:

عن ابي بكرة رضي الله عنه قال : سمعْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم عَلَى الْمنْبر وَالْحسن إِلَى جَنْبه يَنْظر إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وإِلَيه مرة ويقُول: (ابني هذا سيد وَلَعل اللَّه أَن يصْلح بِه بين فئتينِ من الْمسلمين) رواه البخاري وأحمد والنسائي .

وقد وقع هذا الخبر كما أخبر بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنة ، وهو سنة أربعين من الهجرة ، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين الغظيمتين اللتين كانت متحاربتين بصفين ، عسكر علي وعسكر معاوية .[156]

6/ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابة بنصرة الله للإسلام وإظهاره علي الدين كله:

عن خباب رضي الله عنه قال : أَتَيْت النبِي صَلَى اللّه عَلَيه وسَلَّم وهو متوسد بردة وهو في ظل الْكعبة وقَد لَقِينا من الْمشرِكِين شدَّة فقُلْت يا رسول اللَّه أَلاَ تدعو اللَّه فقعد وهو محمر وجهه فقَال : (لَقد

155 / النهاية في الفتن والملاحم ج 1 ص 10.

156 / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح – لابن تيمية - ج 6 ص 91

كان من قبلَكم لَيمشط بِمشاط الْحدِيد ما دون عظامه من لَحم أَو عصب ما يصرفه ذلك عن دِينِه ويوضع الْمنشار عَلَى مفْرق رأْسه فيشق بِاثْنين ما يصرفه ذلك عن دِينه ولَيتمن اللَّه هذا الأَمر حتّى يسِير الراكب من صنعاء إِلَى حضرموت ما يخاف إلاّ اللَّه) وفي و اية (والذئْب علَى غنمه)[157]

والأمر الذي اشار إليه الحبيب صلى الله عليه وسلم كما قال العلماء[158] (هو الإسلام وقد تحقق هذا و أنتشر الأمن وآمن الناس علي أنفسهم عكس ما كان الحال عليه في الجاهلية وزال الخوف وأذي المشركين ولله الحمد).

*** **** ***

7/ التنبوء بفتح بيت المقدس وطاعون عمواس وكثرة المال في زمن الفتوحات الإسلامية:

عن عوف بن مالك رضي الله عنه أنه قال : أَتيت النبِي صَلَّى اللَّه عليه وسَلّم في غزوة تبوك وهو في قبة منْ أَدم فَقَال : (اعدد سِتا بين يدي الساعة موتي ثُم فتح بيت الْمقْدس ثُم موْتان يأْخذ فيكم كقعاصِ الْغنمِ ثم استفاضة المال حتّى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأَصفر فيغدرون فَيَأْتُونَكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثْنا عشر أَلْفا) رواه البخاري .

وقد وقع الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام ففتح بيت المقدس بعدما توفاه الله صلى الله عليه وسلم في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله: ذكره أبو جعفر بن جرير في هذه السنة عن رواية سيف بن عمر وملخص ما ذكره هو وغيره أن أبا عبيدة لنا فرغ من دمشق كتب إلة أهل إيلياء يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام ، أو يبذلون الجزية أو يؤذنون الحرب .

157 / رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وأحمد وحسنه المحقق الأراؤوط

158 / أنظر فتح الباري لابن حجر ج 7 ص 166 و عمدة القاري لبدر الدين العيني ج 16 ص 304 وعون المعبود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي ج 7 ص 221.

فأبوا أن يجيبوا إلي ما دعاهم إليه . فركب إليهم في جنوده واستخلف علي دمشق سعيد بن زيد ثم حاصر بيت المقدس وضيف عليهم حتى أجابوا إلي الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم سار – عمر – حتى صالح نصارى بيت المقدس ، واشترط عليهم إجلاء الروم إلي ثلاث ، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء) [159]

وقوله عليه الصلاة والسلام (**ثُم موْتان يأْخذ فيكم كقعاصِ الْغنمِ**) وقد تحقق هذا في طاعون عمواس فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان بالشام مات فيه خمسة وعشرون ألفا [160] سنة ثماني عشرة ، ومات بسببه جماعات من سادات الصحابة منهم معاذ بن جبل وأبو عبيدة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وأبوه ، والفضل بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين .[161]

*** **** ***

ومما يتعلق بهذ الخبر من المعجزات ما ورد سعد بن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (**فإذا كان بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا سمعتم به في أرض، فلا تدخلوها**) رواه أحمد، وقد مرّ معنا حيرة الصحابة في دخول موطن الطاعون من عدمه، حتّى قال الطبّ كلمته في عصرنا الحالي، مبيّناً ومن خلال المنهج التجريبي أن المتواجد في الأرض الموبوءة قد يكون حاملاً للفيروس المسبّب للمرض دون أن تظهر عليه أعراضه، فيكون خروجه من موطن الوباء سبباً في انتشاره في مواطن أخرى.

وعليه : يكون الحجر الصحّي هو أنجع الوسائل في السيطرة على الوباء ومنعه من الانتشار، وهو ما جاء الأمر به في الحديث النبويّ الشريف، ولذلك اعتبر كثيرٌ من العلماء أن هذا الحديث داخلٌ في جملة الأحاديث المتعلّقة بالإعجاز العلميّ، والتي تدلّ على أن نبينا –صلى الله عليه وسلم- لا ينطق عن الهوى، بل هو الوحي من ربّ السماء.

---

159 / البداية والنهاية ج 9 ص 655 ، 656.

138/ المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج ج 1 ص 105

139/البداية والنهاية ج 9 ص 164 .

وحدثت استفاضة المال وكثرته في خلافة عثمان عند تلك الفتوح العظيمة، وكان أيضاً في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد وقع في زمنه أن الرجل كان يعرض ماله للصدقة فلا يجد من يقبل صدقته .

8/ إخباره عن صدق أبي بكر وشهادة عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعا :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد) رواه مسلم

وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله صلى الله عليه و سلم منها إخباره ان هؤلاء شهداء وماتوا كلهم غير النبي صلى الله عليه و سلم وابي بكر شهداء فان عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير رضي الله عنهم قتلوا ظلما شهداء فقتل الثلاثة مشهور وقتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفا تاركا للقتال وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركا للقتال فاصابه سهم فقتله وقد ثبت ان من قتل ظلما فهو شهيد . [162]

* * * * * * * * * *

9 / إخباره بمقتل الحسين رضي الله عنه ومكان حدوث ذلك :

عن أبي الطفيل قال : استأذن ملك القطر أن يسلم على النبي صلى الله عليه و سلم في بيت أم سلمة فقال : **(لا يدخل علينا أحد)** . فجاء الحسين بن علي رضي الله عنهما فدخل فقالت أم سلمة : هو الحسين فقال النبي صلى الله عليه و سلم : **(دعيه)** . فجعل يعلو رقبة النبي صلى الله عليه و سلم ويعبث به والملك ينظر فقال الملك : أتحبه يا محمد ؟ قال : (**إي والله إني لأحبه**) . **قال : أما إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك المكان . فقال بيده فتناول كفا من تراب فأخذت أم سلمة التراب فصرته في خمارها فكانوا يرون أن ذلك التراب من كربلاء**) رواه البخاري .

---

162 / فتح الباري ج 6 ص 227 ، ج 13 ص 86.

10/ الإخبار بمقتل أمية بن خلف في حرب مع المسلمين:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (**انطلق سعد بن معاذ رضي الله عنه معتمرا فنزل على صفوان بن أمية بن خلف وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد فقال أمية لسعد انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال من هذا يطوف بالكعبة آمنا قال سعد : أنا سعد فقال أبو جهل تطوف بالكعبة أمنا وقد آويتم محمدا صلى الله عليه و سلم فتلاحيا ، فقال أمية لسعد: لا ترفعن صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي ، فقال له سعد : والله ان منعتني ان أطوف بالبيت لأقطعن إليك متجرك إلى الشام فجعل أمية يقول : لا ترفعن صوتك على أبي الحكم ، وجعل يمسكه فغضب سعد فقال دعنا منك فإني سمعت محمدا يزعم انه قاتلك قال : إياي ؟ قال : نعم قال : والله ما يكذب محمد ؛ فلما خرجوا رجع إلى امرأته فقال : أما علمت ما قال لي اليثربي فأخبرها به فلما جاء الصريخ وخرجوا إلى بدر ؛قالت امرأته : أما تذكر ما قال أخوك اليثربي ، فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي فسر معنا يوما أو يومين فسار معهم فقتله الله عز وجل**) أخرجه مسلم .

11/ إخباره عن من يقتل من المشركين يوم بدر ومكان مصرعهم:

عن أنس رضي الله عنه : **قال كنا مع عمر رضي الله عنه بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال وكنت حديد البصر فرأيته فجعلت أقول لعمر أما تراه قال سأراه وأنا مستلق على فراشي ثم أخذ يحدثنا عن أهل بدر قال : إن كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ليرينا مصارعهم بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا إن شاء الله تعالى قال : فجعلوا يصرعون عليها قال قلت والذي بعثك بالحق ما أخطئوا تيك كانوا يصرعون عليها ثم أمر بهم فطرحوا في بئر فانطلق إليهم فقال : (يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعدكم الله حقا فإني وجدت ما وعدني الله حقا) قال عمر: يا رسول الله أتكلم قوما قد جيفوا قال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا. وفي رواية مسلم : (فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .**

12/ الإخبار بنهاية الرجل الذي كان يكتب له وأرتد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (**كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه و سلم فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتاب، قال فرفعوه وقالوا هذا كان يكتب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذا**) متفق عليه .

*** **** ***

13/ الإخبار بموت أحد كبار المنافقين بالمدينة:

عن جابر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في سفر قال فهبت ريح شديدة فقال : (**بعثت هذه الريح لموت منافق**) قال فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات منافق عظيم من عظماء المنافقين) رواه مسلم.

14 / نبوءة عجيبة عن رجل قتل نفسه في الحرب فكان مصيره النار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه يدعي الإسلام (هذا من أهل النار) فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال وكثرت به الجراح فأثبتته فجاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت الذي تحدثت أنه من أهل النار قد قاتل في سبيل الله من أشد القتال، فكثرت به الجراح فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أما إنه من أهل النار).

قال أبو هريرة رضي الله عنه : فكاد بعض المسلمين يرتاب فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع منها سهما فانتحر بها فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله صدق الله حديثك قد انتحر فلان فقتل نفسه، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا بلال ، قم فأذِّنْ لا يدخل الجنة إلا مؤمن وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) أخرجه مسلم وأبو داود .

15 / الإخبار بأن مُلك أمته سيبلغ المشرق والمغرب:

عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض و إني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد و إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا) .[163]

وهذا أخبر به في أول الأمر ، وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكه وكان كما أخبر .[164]

قال القاضي عياض : إنما وقع في الأم ما تقدم وهذا الحديث علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لظهوره كما قال ، وأن ملك أمته أتسع في المشارق والمغارب كما أخبر من أقصى بحر طنجة ومنتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خرسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصغد ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال الذي لم يذكر – عليه السلام – أنه أريه وأن ملك أمته سيبلغه) متفق عليه .

16/ الإخبار بالنار التي خرجت من أرض الحجاز:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى) متفق عليه .

*** **** ***

163/ الجواب الصحيح الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح – لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (90/6) .

164 / إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض المالكي - (425/8) .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : وقد خرجت فى زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت نارا عظيمة جدا من جنب المدينة الشرقى وراء الحرة تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرنى من حضرها من أهل المدينة .[165]

ويسرد لنا ابن كثير فيقول عن هذه الحادثة العظيمة:

أخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي وكان في دار كل واحد منا سراج ولم يكن لها حر ولفح على عظمها إنما كانت آية من آيات الله عز وجل قال أبو شامة وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها:

لما كانت ليلة الاربعاء ثالث جمادي الاخرة سنة اربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الارض والحيطان والسقوف والاخشاب والابواب ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء وقد مدت مسيل شظا وما عاد يسيل والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيرانا وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا ان تجيء إلينا ورجعت تسيل في الشرق فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه (**إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ**) سورة المرسلات (32-33) . وقد أكلت الارض وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج واما ام النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر والام الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك والله يجعل العاقبة إلى خير فما أقدر أصف هذه النار).[166]

* * * * * * * * * *

165 / مسلم بشرح النووي – (27/18) .

166 / البداية والنهاية ج 17 ص 329.

المبحث الثالث

الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى وإحياء الموتى

المطلب الأول : الموازنة بين معجزتي النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى .

المحور الأول : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي عيسى عليه السلام .

المحور الثاني : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي النبي ﷺ.

المطلب الثاني : الموازنة بين معجزتي النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام في إحياء الموتى .

المحور الأول : بيان معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام .

المحور الثاني : بيان معجزة إحياء الموتى للنبي صلى الله عليه وسلم .

في هذا المبحث سنتناول بإذن الله تعالى الحديث عن معجزتي عيسى علسه السلام في شفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله ثم نذكر ما أعطيه نبينا صلى الله عليه وسلم في مقابل ذلك وسترى أنه أوفر وأعظم مما أوتيه عيسى عليه السلام ، وذلك من خلال أربعة محاور في مطلبين .

المطلب الأول

الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى

المحور الأول : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي عيسى عليه السلام :

تلك معجزة منصوص عليها في القرآن كما قال تعالى حاكياً خطاب عيسى عليه السلام لبني إسرائيل **(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**آل عمران (49)

قال في التفسير الوسيط :

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن في قوله تعالى : **(وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)**

وَأُبْرِئُ : أى أشفي يقال: برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه.

والأكمه : هو الذي يولد أعمى. يقال كمه كمها إذا ولد أعمى، فهو أكمه وامرأة كمهاء.

والأبرص : هو الذي يكون في جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التي عجز الأطباء عن شفائها.

والمعنى : أن عيسى- عليه السّلام- قال لقومه: والمعجزات التي تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص، وأعيد الحياة إلى من مات. ولا أفعل كل ذلك بقدرتي وعلمي وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره.

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله- تعالى- على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا لا يعجزه شيء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها في الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله- تعالى- وقوله (**وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ**) فيه تدرج من الصعب إلى الأصعب، لأن مما لا شك فيه أن إحياء الموتى خارق عظيم، يدل دلال قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هي المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية- كما يقول الماديون- وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة، وهي إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه.

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله: للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته.

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حي يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح 9اهـ

*** **** ***

وقال ابن كثيررحمه الله تعالى:

(بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام. وأما عيسى فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ **وكذلك محمد صلّى الله عليه وسلّم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا، وما ذاك إلا أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق)** اهـ.

*** **** ***

المحور الثاني : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي النبي صلى الله عليه وسلم .

قال العلماء: من المعجزات التي أكرم الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم حصول الشفاء على يديه للكثير من أصحابه ببركته ودعائه، مما كان له كبير الأثر في تثبيت نفوسهم، وزيادة إيمانهم.

1/ فمن تلك المواقف ما حصل مع الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر، حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : **(لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)** ، فبات الناس تلك الليلة يتساءلون عن صاحب الراية، وفي الصباح انطلقوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – لمعرفة الفائز بهذا الفضل، فإذا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – يسأل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فذكروا له أنه مصاب بالرَّمد، فأرسل – صلى الله عليه وسلم – في طلبه، ولما حضر عنده بصق في عينيه ودعا له، فشفاه الله ببركة النبي صلى الله عليه وسلم، واستلم الراية، ثم قاتل حتى فتح الله على يديه، والحديث بتمامه في الصحيحين .

2/ والأعجب من ذلك ما رواه الإمام الطبراني عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه قاتل يوم أحد، فأصابه سهمٌ أخرج إحدى عينيه من مكانها، فسعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحملها في يده، فأخذها – صلى الله عليه وسلم – وأعادها إلى موضعها ودعا له، فعادت إلى طبيعتها، وكانت أجمل عينيه و أقواهما إبصاراً.

3/ ومن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - شفاء المصاب ببركة نفثه عليه، كما حدث مع الصحابي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فعن يزيد بن أبي عبيد قال : **رأيت أثر ضربة في ساق سلمة ، فقلت : يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة ، (فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة)** رواه البخاري.

ولم تقف معجزاته صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد، بل كان يمسح على الكسر فيجبر، كما حصل مع الصحابي عبد الله بن عتيك رضي الله عنه حينما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم لقتل أبي رافع اليهودي، فانكسرت ساقه أثناء تلك المهمّة، فطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يبسط قدمه، فمسح عليها، فجبر الكسر الذي أصابه واستطاع أن يمشي عليها من لحظته، والقصة رواها الإمام البخاري.

ومن بركاته - صلى الله عليه وسلم -، ما رواه البخاري أن السائب بن يزيد رضي الله عنه كان يشكو من وجع، فمسح النبي - صلى الله عليه وسلم – على رأسه ودعا له بالبركة، ثم توضّأ فشرب السائب من وضوئه، فزال عنه الألم، ويذكر المؤرّخون أن السائب بن يزيد طال عمره حتى زاد عن التسعين عاماً وهو محتفظ بصحّته ولم تظهر عليه آثار الشيخوخة، وذلك ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه مرض مرضاً شديداً ألزمه الفراش حتى لم يعد يميز من حوله، فزاره النبي – صلى الله عليه وسلم – بصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودعا عليه الصلاة والسلام بماء فتوضأ منه ثم رش عليه، فأفاق من مرضه) رواه البخاري و مسلم.

وإلى جانب علاج الأمراض الحسّية، كان للنبي صلى الله عليه وسلم تأثيرٌ في علاج الأمراض المعنوية، ومن ذلك قصة الشاب الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنا، فوضع النبي عليه الصلاة والسلام يده على صدره وقال : (قال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه) رواه أحمد ، **فأزال الله من قلبه طغيان الشهوة فلم يعد يلتفت إلى النساء.**

تلك المو اقف وغيرها تدل على ما أكرم الله عزوجل به رسوله صلى الله عليه وسلم من الكرامات العظيمة، والمنح الكثيرة، تأييداً لدعوته، وتصديقا لنبوته.

*** **** ***

المطلب الثاني

الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في إحياء الموتى

المحور الأول : بيان معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام :

تلك منصوص عليها في القرآن كما قال تعالى حاكياً خطاب عيسى عليه السلام لبني إسرائيل **(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)**آل عمران (49).

قال في التفسير الوسيط :

والمعنى : أن عيسى- عليه السّلام- قد حكى الله- عنه أنه قال لبنى إسرائيل: لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته، ولآمركم بإخلاص العبادة له، وقد أعطانى- سبحانه- من المعجزات ما يقنعكم بصدق فيما أبلغه عن ربي، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئا صورته مثل صورة الطير، فأنفخ في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته.

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال:

ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه.

أما الثالث فهو من صنع الله- تعالى- وحده ألا وهو خلق الحياة في هذه الصورة التي صورها عيسى ونفخ فيها. وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس في عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها. ولذا حكى الله- تعالى- عنه أنه قال: بِإِذْنِ اللَّهِ.

أى أنى ما فعلت الذي فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره، واللام في قوله لَكُمْ للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بي.والكاف في قوله كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بمعنى مثل وهي نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئا مثل هيئة الطير، والهيئة هي الصورة والكيفية.والضمير في قوله فَأَنْفُخُ فِيهِ يعود إلى هذا المفعول المحذوف.

وقوله (بِإِذْنِ اللَّهِ) متعلق بيكون، وجيء به لإظهار العبودية، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكا الله في خلق الكائنات.

* * * * * * * * * *

قال القرطبي رحمه الله تعالى :

(**وأحيي الموتى بإذن الله**) قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر : وكان صديقا له ، وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح، فالله أعلم . فأما العاذر فإنه كان قد توفي قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له ، وأما ابن العجوز فإنه مر به يحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله . وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها .

فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحيي لنا سام بن نوح . فقال لهم : دلوني على قبره ، فخرج وخرج القوم معه ، حتى انتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانكم شيب ؟ فقال : يا روح الله ، إنك دعوتني فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسي . فسأله عن النزع فقال : يا روح الله إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتي ; وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة ، فقال للقوم : صدقوه فإنه نبي ; فآمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا : هذا سحر).

وقال السعدي رحمه الله تعالى :

وأيُّ آية أعظم من جعل الجماد حيوانا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان.

* * * * * * * * * *

المحور الثاني :بيان معجزة إحياء الموتى للنبي صلى الله عليه وسلم :

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

(وقال شيخنا العلامة ابن الزملكاني ، رحمه الله تعالى : وأما معجزات عيسى ، عليه السلام ، فمنها إحياء الموتى ، وللنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كثير ، وإحياء الجماد أبلغ من إحياء الميت ، وقد كلم النبي صلى الله عليه وسلم الذراع المسمومة ، وهذا الإحياء أبلغ من إحياء الإنسان الميت من وجوه :

أحدها : أنه إحياء جزء من الحيوان دون بقية بدنه ، وهذا معجز لو كان متصلا بالبدن .

الثاني : أنه أحياه وحده منفصلا عن بقية أجزاء ذلك الحيوان مع موت البقية .

الثالث : أنه أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل ، ولم يكن هذا الحيوان يعقل في حياته فصار جزؤه حيا يعقل .

الرابع : أنه أقدره الله على النطق والكلام ولم يكن الحيوان الذي هو جزؤه مما يتكلم ، وفي هذا ما هو أبلغ من حياة الطيور التي أحياها الله لإبراهيم صلى الله عليه وسلم) .

*** **** ***

قلت - القائل ابن كثير - : وفي حلول الحياة والإدراك والعقل في الحجر الذي كان يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام عليه ، كما روي في " صحيح مسلم " من المعجز ما هو أبلغ من إحياء الحيوان في الجملة ، لأنه كان محلا للحياة في وقت ، بخلاف هذا حيث لا حياة له بالكلية قبل ذلك ، وكذلك تسليم الأحجار والمدر عليه ، وكذلك الأشجار والأغصان وشهادتها بالرسالة ، وحنين الجذع إليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

قال شيخنا ، رحمه الله تعالى : وقد جمع ابن أبي الدنيا كتابا فيمن عاش بعد الموت ، وذكر منها كثيرا ، وقد ثبت عن أنس ، رضي الله عنه ، أنه قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض يعقل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه وسجيناه ، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت إليها

بعضنا ، وقال : يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله . فقالت : وما ذاك ؟ أمات ابني ؟ قلنا : نعم . قالت : أحق ما تقولون ؟ ! قلنا : نعم . فمدت يديها إلى الله تعالى فقالت : اللهم إنك تعلم أني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تغيثني عند كل شدة ورخاء فلا تحملني هذه المصيبة اليوم . قال : فكشف الرجل عن وجهه وقعد ، وما برحنا حتى أكلنا معه) [167]اهـ

*** **** ***

167 / البداية والنهاية 391/9

المبحث الرابع

الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام في ثلاثة مواطن وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ

المطلب الأول : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند ولادته وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم ولادته .

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عيه وسلم يوم ولادته .

المطلب الثاني : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند موته وما يقابل ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم موته .

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم موته .

المطلب الثالث : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند يوم البعث وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ .

المحور الأول : بيان ما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام عند يوم البعث.

المحور الثاني : بيان ما أكرم الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم عند يوم البعث .

مما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام أنه تحدث في المهد وكان حديث إخباراً عن إكرام الله تعالى في ثلاثة مواطن يكون فيها الإنسان في غاية من الضعف والفقر إلى الله تعالى ، وهي يوم ولادته ويوم موته ويوم مبعثه في الآخرة ، حيث أخبر عليه السلام أن الله تعالى سلمه في تلك المواطن ، وقد أكرم الله نبينا محمد صلى عليه وسلم في هذه الثلاث أيما إكرام كما سيتبين ، وإليك بيان ذلك من خلال ثلاثة مطالب :

المطلب الأول

الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند ولادته وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم ولادته :

قال الله تعالى حاكياً قول عيسى عليه السلام (**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) سورة مريم (33) .

قال الامام القرطبي رحمه الله :

أي السلامة عليّ من الله تعالى. قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام. وقوله: (**وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ**) يعني في الدنيا. وقيل: من همز الشيطان.

(**وَيَوْمَ أَمُوتُ**) يعني في القبر(**وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) يعني في الآخرة؛ لأن له أحوالاً ثلاثة: في الدنيا حياً، وفي القبر ميتاً، وفي الآخرة مبعوثاً؛ فسلم في أحواله كلها.

وقال الامام الشوكاني رحمه الله :

قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة أي: السلامة عليّ يوم ولدت، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت ولا أغواني عند الموت ولا عند البعث؛ وقيل: المراد به التحية.

قال أبو مسلم العربي رحمه الله : الأقوال السابقة هي التي عليها مدار تفاسير العلماء لهذه الآية وسأتناول بتوفيق الله بعض هذه الأقوال بشيء من التفصيل عن طريق ربطها ببعض الآيات والأحاديث الشريفة التي توضح المقصود من ذلك .

- ما معنى قول المفسرين (السلامة عند الولادة من طعن الشيطان) في تفسير قوله تعالى (وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ)؟

الجواب : المعنى السابق لقول المفسرين يوضحه الحديث الذي ورد في الصحيحين فقد روى الامام البخاري (3286)عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم (**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غيرعيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب**). والمراد بالحجاب الجلدة التي فيها الجنين أو الثوب الملفوف على الطفل).

عن سعيد بن المسيب قال قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان غير مريم و ابنها**) ثم يقول أبو هريرة : (**و إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**) رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث : قوله صلى الله عليه و سلم (**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد**)أي في المشيمة التي فيها الولد .

قال القرطبي رحمه الله :

هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط، فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: (**إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**) ولم يكن لمريم ذرية غير عيسى عليه السلام .

ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم " إلا نخسه الشيطان " قوله: (**فيستهل صارخا من مس الشيطان**) في رواية معمر المذكورة " من نخسة الشيطان " أي سبب صراخ الصبي أول ما يولد الألم من مس الشيطان إياه، والاستهلال الصياح.

قال السعدي رحمه الله : أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً .

*** **** ***

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عيه وسلم يوم ولادته :

أما ما ورد في حق النبي صلى الله عليم وسلم في ميلاده الشريف:

1/ حفظه صلى الله عليم وسلم من الشيطان : يدل على ذلك ما ظهر من الحوادث التي يرتبط ظهورها بمولده ، يقول بديع الزمان سعيد النورسي : (ويُعدّ كل منها معجزة من معجزاته وهي كثيرة جداً، الاّ اننا سنورد هنا امثلة مشهورة قبلها ائمة الحديث. وثبتت لديهم صحتها.

الأول : ما رأته امه صلى الله عليه وسلم من النور الذي خرج معه عند ولادته" ورأته ام عثمان بن العاص وام عبد الرحمن بن عوف اللتان باتتا عندها ليلة الولادة. فقد قلن: رأينا نوراً حين الولادة اضاء لنا ما بين المشرق والمغرب.

الثاني : انتكاس معظم الاصنام التي كانت في الكعبة.

الثالث : ارتجاج ايوان كسرى وسقوط شرفاته الاربعة عشرة.

الرابع : غيض بحيرة ساوة تلك الليلة وهي التي كانت تقدَّس ،وخمود نار فارس وكان لها الف عام لم تخْمد" حيث كانت توقد في اصطخراباد ويعبدها المجوس.

فهذه الحوادث الأربعة انما هي اشارات الى أن ذلك المولود الجديد سيحظر عبادة الاصنام وسيدمّر سلطنة فارس، وسيحرم تقديس مالا يأذن به الله.

الخامس : حادثة الفيل: وهي مع انها ليست من حوادث تلك الليلة الاّ انها قريبة الحدوث للولادة، لذا فهي من الارهاصات ايضاً، وقد بينّها القرآن الكريم في قوله تعالى. (**أَلَمْ تَرَ كَيفَ فعَلَ رَبُّك باصحاب الفيل**) ... الآية.

السادس : كثرة الرجم بالشهب السماوية بعد مجئ النبي صلى الله عليه وسلم للدنيا، ولا سيما ليلة مولده : أن المراد من سقوط الشهب السماوية هو الاشارة الى قطع رصد الشياطين والجن عن السماء ومنعهم من استراق السمع.فما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد برز بالوحي الى العالم اجمع لزم اذاً ان تمنع اقوال الكهان ومن يتكلم عن الغيب من اقوال الجن الملفقة بالكذب وخلاف الواقع حتى

لا يلتبس الوحيُ بغيره ولا تكون هناك اية شبهة كانت في امر الوحي. فلقد كانت الكهانة كثيرة جداً قبل النبوة، ولكن بعد نزول القرآن الكريم حظرت بتاتاً، حتى أن كثيرين منهم آمنوا، لأنهم لم يجدوا مخبريهم من الجن ليتنبأوا لهم الاخبار الغيبية. فسدَّ القرآن الكريم اذاً الطريق عليهم.

*** **** ***

تنبيهان :

الأول : في تحديد يوم مولده ومكانه صلى الله عليه وسلم :

قال ابن القيم رحمه الله : " لا خلاف أنه ولد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجوف مكّة ، وأن مولده كان عامَ الفيل ." [168]

قال الأستاذ محمد الخضري – رحمه الله : (وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي - عالم فلكي مصري ، له باع في الفلك والجغرافيا والرياضيات وكتب وأبحاث ، توفي عام 1885م - : أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل- نيسان -، سنة 571 من الميلاد ، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل ، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم) [169]

الثاني : حفظ الله النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان طوال حياته :

تبين مما سبق أن الله تعالى حفظ الله النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان في مولده بصورة أجلى وأوضح من حفظ عيسى عليه السلام ، أقول وزاد الله نبيه صلى الله عليه وسلم حفظه من شر الشيطان طوال حياته .

ورد ذلك في حديث صحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن**) قالوا وإياك يا رسول الله قال : (**وإياي ولكن ربي أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**) رواه مسلم .

---

168 / زاد المعاد في هدي خير العباد - لابن القيم - (1 / 76)

169 / نور اليقين في سيرة سيد المرسلين – للخضري بك- (ص 9)، وينظر: الرحيق المختوم - للمباركفوري (ص 41).

وفي مفهوم هذا الحديث : قولان للعلماء :

القول الأول : أن الشيطان انقاد للنبي صلى الله عليم وسلم دون أن سدخل في الإسلام : وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله : (في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليم وسلم أنه قال : (**ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن قالوا و إياك يا رسول الله قال و إياي ولكن ربي أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**) .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله أو معي؟ شيطان قال (نعم) قالت : ومع كل إنسان؟ قال : نعم ،قالت : ومعك يا رسول الله قال : (نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم) .

والمراد في أصح القولين استسلم وانقاد لي ومن قال :"**حتى أسلم أنا** " فقد حرف معناه ، ومن قال:" **الشيطان صار مؤمنا**" فقد حرف لفظه) .[170]

قلت : قوله (فقد حرف لفظه) يريد أن الحديث ليس فيه كلمة (حتى) وإنما لفظف بالفاء (فأسلم).

* * * * * * * * * *

القول الثاني : أن قرينه صلى الله عليم وسلم قد أسلم أي دخل في الإسلام : وهو قول بعض العلماء ومنهم النووي حيث قال رحمه الله في شرح مسلم (فأسلم) برفع الميم وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال : معناه : أسلم أنا من شره وفتنته ، ومن فتح قال : إن القرين أسلم ، من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير ، واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " فلا يأمرني إلا بخير " ، واختلفوا على رواية الفتح ، قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد ، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم **(فاستسلم)** وقيل : معناه صار مسلما مؤمنا ، وهذا هو الظاهر .

---

170 / منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية - لشيخ الإسلام ابن تيمية - (271/8) .

قال القاضي : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه . وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان)اهـ .

وقال أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى : (قيل أسلم أي آمن ، فيكون عليه السلام مختصا بإسلام قرينه وإيمانه) [171] .

وعلى هذا يكون إسلام القرين من خصائص النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. وعليه فإنه لا يشرع للمسلم أن يدعو الله بإسلام قرينه ؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء بسؤال الله ما هو من خصائصه صلى الله عليه وسلَّم ، ولأن الصحابة وهم أحرص الناس على الخير و أقرب إليه منا لم يُنقل عنهم الدعاء والتوجه لله حتى يسلم قرناؤهم من الجن ، ولا استعانوا بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلَّم لما سمعوا منه ذلك الحديث ، فهذا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهم من هم من علو الهمة لم ينقل عنهم أنهم فعلوا ذلك ولا أبناؤهم ونحن يجب علينا اتباع هدي هؤلاء الصحابة الكرام لأنهم فهموا هذا الدين من مصدره وتعلموه مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم غضًّا طرياً ، ولا يجوز لنا اتباع غير سبيلهم قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) النساء (115) [172].

*** **** ***

171 / دلائل النبوة - لأبي نعيم الأصبهاني – (185/1) .

172 / انظر موقع الإسلام سؤال وجواب

المطلب الثاني

الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند موته وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ

المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم موته .

المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم موته .

المحور الأول

إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم موته

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره :

وقوله (**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) يقول : والأمن من الله عليَّ من الشيطان وجنده يوم ولدت أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة ، من الطعن فيه ، ويوم أموت ، من هول المطلع ، ويوم أبعث حياً يوم القيامة أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم.

وبمثل هذا المعنى قال جمع من المفسرين ، ولكن مما له علاقة بوفاة عيسى عليه السلام مما يخشى من الغلط في فهمه قوله تعالى (**إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) آل عمران (55).

وخشية الغلط هو أن يقول قائل أن عيسى عليه السلام توفي ولن ينزل آخر الزمان ، ولذا أحببت أن أذكر الفهم الصواب - من كلام المفسرين – وهو أنه رفع إلى السماء ولم يمت و أنه سينزل آخر الزمان :

- **قال الامام الطبري رحمه الله** - بعد ذكره عددا من الأقوال في تفسيرها - : وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «**يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ**» ثُمَّ يَمْكُثُ فِي الأَرْض مُدَّةً ذَكَرَها اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت، فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

- **وقال الامام القرطبي رحمه الله** : والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك.

*** **** ***

ومما سبق من أقوال المفسرين تعلم أن قوله { **ويوم أموت** } ليس معناه أنه قد مات ، وإنما معناه أنه عند موته – وذلك بعد نزوله وقتله للدجال كما ثبت في الأحاديث – فإنه يسلم من الموت على غير الإيمان بالله تعالى ، ولا شك أنه سيموت ، لكن كما دلت الآية الأخرى التي سقتها ، فإنه لم يمت بالقتل أو الصلب ، وإنما رفعه الله إليه ، وسيموت بعد نزوله من السماء ، وقتله للدجال.

وقد يسأل سائل : إذا كان عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء و لم يمت فما هي الآية الكريمة التي تدل على موت عيسى عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان ؟؟

الجواب في قوله تعالى :**(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)** النساء(159) .

ففي الآية دلالة واضحة على أن عيسى عليه السلام سوف ينزل آخر الزمان وسوف يؤمن به أهل الكتاب ، وقد اختلف أهل العلم في مرجع الضمير في قوله { موته } على قولين:

القول الأول : أن مرجع الضمير إلى عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعلى هذا يكون معنى الآية ، أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا سيؤمن بعيسى عليه السلام ، وذلك قبل موته – أي عيسى - ، فإنه إذا نزل من السماء ، وقتل الدجال ، فإنه يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وحينها يؤمن أهل الكتاب به ، قبل موته صلى الله عليه وسلم ، ويعلمون أنه حق ، وأنه لم يمت من قبل ، فالكلام في الآية عن علامة من علامات الساعة ، وشرط من أشراط يوم القيامة ، سيكون بعد نزول عيسى ، وأنه قبل أن يموت في ذلك الزمان سيؤمن به أهل الكتاب . وقد ورد ما يؤيد هذا القول من قول أبي هريرة رضي الله عنه بعد روايته للحديث الدال على نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)** النساء/159) . البخاري 3192 مسلم 220.

*** **** ***

القول الثاني : أن مرجع الضمير إلى الكتابي نفسه ، وعلى هذا يكون معنى الآية ، أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا سيؤمن بعيسى عليه السلام ، وأنه حق ، وأنه لم يمت ، وذلك عندما يعاين سكرات الموت ، ويرى الحقائق والبراهين ، فعند موت ذلك الكتابي سيعلم أن ما كان عليه هو الباطل ، لكن لا ينفعه ذلك الإيمان حينئذ.

وعلى كلا القولين السابقين فليس في الآية دليل أو إشارة إلى موته صلى الله عليه وسلم ، وإنما الكلام – في القول الأول – على أمر غيبي سيحصل في المستقبل ، وهو بلا شك سيموت عليه السلام ، لكن بعد نزوله كما سبق ، وعلى القول الثاني : فالمراد بقوله (قبل موته) أي موت الكتابي نفسه.

وقد رجح الطبري و ابن كثير وغيرهما من أئمة التفسير القول الأول .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : (**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**) النساء/159 " ، قال ابن جرير : (**قَبْلَ مَوْتِهِ**) يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام **وعن ابن عباس** قال : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، قال : قبل موت عيسى بن مريم عليه السلام .

وعن الحسن (**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**) قال : قبل موت عيسى والله إنه لحي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ..... قال ابن جرير : وقال آخرون : يعني بذلك قبل موت صاحب الكتاب ، ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، في الآية ، قال : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ..... وقال ابن عباس : لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى .... وعن ابن عباس ، قال : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله.

قال ابن جرير رحمه الله : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن كذلك ،

وإنما شبه لهم ، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه ، وإنه باق حي ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة ، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ... فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ، ولهذا قال : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض " [173].

*** **** ***

173 / تفسير ابن كثير – (1 / 762) و انظر موقع الإسلام سؤال وجواب .

المحور الثاني

إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم موته

عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل فقال: (**يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي**)، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: (**السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى**)، قال: ثم أقبل عليَّ فقال: (**يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي عزوجل والجنة**) قال: قلت: بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: (**لا. والله. يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي عزوجل والجنة**)، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبُدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي قضاه الله عز وجل فيه حين أصبح) رواه أحمد – حديث (15567)، الدارمي (78)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، وقال: (**إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**)، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا). رواه البخاري (3654)، مسلم (2382)

وتقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: (**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخيَّر**)، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: (**اللهم في الرفيق الأعلى**)، فقلت: (**إذًا لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا**). رواه البخاري (4437).

*** **** ***

اختلف العلماء في مراده صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى على أقوال:

فقيل : الله عز وجل، وقيل: ملائكته، وقيل: أنبياؤه، وقيل: الجنة، ولكل منها دليل.

قال ابن حجر: "قال الجوهريّ: الرّفيق الأعلى الجنّة، ويؤيّده ما وقع عند أبي إسحاق: الرّفيق الأعلى الجنّة, وقيل: بل الرّفيق هنا اسم جنس يشمل الواحد وما فوقه، والمراد الأنبياء ومن ذكر في الآية،

وقد ختمت بقوله: (**وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**) وزعم بعض المغاربة أنّه يحتمل أن يراد بالرّفيق الأعلى اللّه عزّ وجلّ لأنّه من أسمائه، كما أخرج أبو داود من حديث عبد اللّه بن مغفّل رفعه: (**إنّ اللّه رفيق يحبّ الرّفق**) كذا اقتصر عليه، والحديث عند مسلم عن عائشة فعزوه إليه أولى.

قال: والرّفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم، أو صفة فعل. قال: ويحتمل أن يراد به حضرة القدس, ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورون في آية النّساء، ومعنى كونهم رفيقًا تعاونهم على طاعة اللّه وارتفاق بعضهم ببعضٍ, وهذا الثّالث هو المعتمد، وعليه اقتصر أكثر الشّرّاح).[174]

وأما دليل من قال بأن المقصود هم الملائكة فهو قوله صلى الله عليه وسلم في رواية ابن حبّان: (**أسأل اللّه الرّفيق الأعلى الأسعد، مع جبريل وميكائيل وإسرافيل**) رواه ابن حبان (555/14) ، وظاهره أنّ الرّفيق المكان الّذي تحصل المرافقة فيه مع المذكورين.

قال ابن حجر: **(وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعاً... ثم عند ابن إسحاق والجمهور أنها في الثاني عشر منه، وعند موسى بن عقبة والليث والخوارزمي و ابن زبر مات لهلال ربيع الأول، وعند أبي مخنف والكلبي في ثانيه ورجحه السهيلي**) [175]. وهذا الأخير هو الذي اعتمده الحافظ.

* * * * * * * * * *

174 / فتح الباري (137/8)

175 / فتح الباري (736/7)

المطلب الثالث

الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم البعث وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ

في هذا المطلب سنذكر الموطن الثالث الذي نطق به عيسى عليه السلام وهو في المهد (ويوم أبعث حياً) ثم نذكر ما يقابل ذلك مما أعطيع النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : بيان ما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام في يوم البعث :

جاء في تفسير قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلا (ويوم أبعث حياً) أي الأمنة يوم أبعث حيا يوم القيامة أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم .

قال أحد الباحثين : و يدخل في ذلك أيضا الأمنة حين يلهم الجواب على سؤال الله سبحانه وتعالى له عندما يسأله يوم القيامة عن عبادة الناس (النصاري) له واتخاذهم له إلها من دونه سبحانه كما جاء في قوله تعالى :

{وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} سورة المائدة (116-118)

و الدليل على ما قلت ما جاء في تفسير الامام الشوكاني حيث يقول :

(وقد أخرج الترمذي. وصححه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجته والله لقاه في قوله: **{وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ}** قال أبو هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فلقاه الله سبحانه: **{مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ}** الآية) .

و معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد لقنه الحجة للإجابة على هذا السؤال الصعب في أصعب الأوقات و أصعب الأحوال و هو حال الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى للجزاء والحساب و هو الوقت الذي أحوج ما يكون فيه الإنسان للأمن و السلام و قد تحقق ذلك لعيسى عليه السلام بتلقينة الحجة للجواب. و الله أعلم) اهـ.

*** **** ***

قال في تفسير المنار:

(إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله ، فأثبت بهذا إنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته ، وانتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس له بحق ، فقال (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) أي ليس من شأني ولا مما يصح وقوعه مني أن أقول قولا ليس لي أدنى حق أن أقوله; لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل . ولا يخفى أن هذا أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول ، وإنكاره إنكارا مجردا; لأن نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفيا مؤيدا بالدليل ، فهو بتنزيه الله تعالى أولا أثبت أن ذلك القول الذي سئل عنه تمهيدا لإقامة الحجة على من اتخذوه وأمه إلهين قول باطل ليس فيه شائبة من الحق ، ثم قفى على ذلك بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول ما ليس له بحق ، فنتيجة المقدمتين الثابتتين إنه لم يقل ذلك القول) اهـ.

لا ينبغي أن يظن ظان أن عيسى عليه السلام لن يشفع لقومه بل الشافعة منفية عن الكفار فقط أما من كان موحداً فلا بد أن تحصل له الشفاعة من الأنبياء قفد قال العلماء :

ومن إكرام الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه قبول شفاعتهم فيمن يشفعون له ممن سبقت لهم الرحمة، فيتقدمون بطلب شفاعتهم إلى ربهم في إخراج أقوام من النار دخولها بذنوبهم ليخرجوا منها .

وقد ثبتت هذه الشفاعة بما جاء في الصحيحين من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: (**فيقول الله عزوجل: شفعت الملائكة, وشفع النبيون, وشفع**

المؤمنون. ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً)

وليس معنى هذا أن الله يخرجهم من النار وهم كفار؛ بل المعنى أنهم لم يعملوا خيراً سوى التوحيد ولولاه لما خرجوا؛ شأنهم شأن غيرهم من الكفار .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يُحْمَلُ النَّاسِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَتَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ ، فَيُنْجِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، ثُمَّ إِنَّهُ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ لِلْمَلائِكَةِ ، وَالنَّبِيِّينَ ، وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، فَيَشْفَعُونَ ، وَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ) أخرجه أحمد وابن أبي عاصم في كتاب السنة برقم (693).

وقال الشيخ رشيد رضا رحمه الله (في تفسير آخر سورة المائدة) :

(وقد علم مما بيناه أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه ، ويؤيد هذا عدة أحاديث :

منها : حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم صلى الله عليه وسلم (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني) (سورة إبراهيم : 36) الآية . وقول عيسى عليه السلام : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي . وبكى فقال الله عزوجل : يا جبرائيل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله :(يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) .

ومنها حديث ابن عباس في صحيح البخاري قال فيه : (ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي) ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) إلى قوله : (الحكيم) قال فيقال : (إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم).وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره بهذا المعنى زيادة (**فأقول بعدا لهم وسحقا**) .

وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث في الصحاح والسنن في ألفاظها بعض اختلاف لا يغير المعنى . منها أن هؤلاء الذين أحدثوا بعده صلى الله عليه وسلم يذادون ، أي يطردون عن الحوض . واختلف العلماء فيهم ، فقيل : هم ارتدوا بعده عن الإسلام وقاتلهم أبو بكر ، وقيل : هم المنافقون ، وقيل : هم المبتدعة .

ومنها : حديث أبي ذر عند أحمد والنسائي وابن مردويه " أنه صلى الله عليه وسلم قام بهذه الآية (**إن تعذبهم فإنهم عبادك**) إلخ . حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال : (**إني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئا**) .

فهذه الأحاديث تدل على أن مقام التفويض غير مقام الشفاعة وأن الشفاعة لا تنال أحدا يشرك بالله تعالى شيئا ، وفاقا لما جاء به الوحي على لسان عيسى صلى الله عليه وسلم كما تقدم في هذه السورة ، وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في آيتين من سورة النساء .

ووفاقا للآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة بإطلاق أو تنفي قبولها ، أو تقيدها على تقدير حصولها بمثل قوله تعالى : (**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)** (سورة الأنبياء : 28).

* * * * * * * * * *

المحور الثاني : بيان ما أكرم الله تعالى به النبي ﷺ في يوم البعث :

تبين مما سبق أن إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام في يوم بعثه هو أن يسلمه من العذاب وأن يلهمه الدفاع عن نفسه مما ألصقه به النصارى من الاتهامات ومن عبادتهم إياه .

وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد شرفه الله تعالى وكرمه في ذلك الوقت - يوم بعثه - بفضائل وخصه بخصائص انفرد بها عن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام يضيق المقام عن إحصائها ولذا سأذكر بعضها هنا :

1/ ومن هذه الفضائل التي أكرم الله عزوجل بها نبينا ﷺ :أنه أول من يدخل الجنة، فعن أنس بن مالك . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : (آتي باب الجنةِ يوم القيامة

فأستفتِحُ، فيقولُ الخازِنُ: مَنْ أنت؟، فأقول: محمدٌ، فيقول: بك أُمرتُ لا أفتحَ لأحدٍ قبلَك) رواه مسلم، وفي رواية الطبراني : (**ولا أقوم لأحد بعدك**)، فرضوان خازن الجنة لا يفتحها إلا لنبينا . صلى الله عليه وسلم ، ولا يفتحها لغيره من الأنبياء وغيرهم، وإنما يتولى ذلك غيره من الخزنة، وهي فضيلة عظيمة له . صلوات الله وسلامه عليه ، وفيها **إظهارلفضله وعلو منزلته.**

2/ ومن عظيم فضائله وخصوصياته صلوات الله وسلامه عليه : الشفاعة، والوسيلة والفضيلة وهي أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا عبد واحد من عباد الله، وهو رسولنا محمد . صلى الله عليه وسلم ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنه . أنه سمع رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) رواه مسلم.

قال الحافظ ابن كثير: " **الوسيلة** " عَلَمٌ عَلَى أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . "

3/ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: (**إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثا** - على ركبهم- **كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**) رواه البخاري .

قال ابن عباس . رضي الله عنه : " المقام المحمود ": مقام الشفاعة . "

وقال ابن بطال : " والجمهور على أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة.."

4/ ولرسول الله ﷺ شفاعات كثيرة، منها:شفاعته في استفتاح باب الجنة، وشفاعته في تقديم من لا حساب عليه لدخول الجنة، وشفاعته في ناس من الموحدين عندهم معاصٍ وذنوب استحقوا دخول النارألا يدخلوها، وشفاعته في ناس موحدين دخلوا النارأن يخرجوا منها.

*** **** ***

5/ ومن فضائل النبي ﷺ وخصائصه الكوثر، وهو نهر عظيم وعده الله به في الجنة، وهو المراد في قول الله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) سورة الكوثر الآية: (1).

وعن أنس رضي الله عنه قال: (بينما نحن عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: نزلت عليَّ سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) إلى آخرها ،ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير, وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة)،

وفي رواية الترمذي: (الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت).

وفي رواية أحمد: (ذاك نهر أعطانيه الله أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل).

6/ وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . : (أنا فرطُكُمْ - سابقكم - على الحوض، من وردَه شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأْ بعدَه أبداً) رواه البخاري.

هذه بعض فضائل وخصائص نبينا . صلى الله عليه وسلم .، الذي اختاره الله . عز وجل . ليكون خاتم الرسل والنبيين، ورحمة للخلق أجمعين، فنسأل الله أن يجمعنا به، وألا يحرمنا شفاعته، وأن يسقينا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبدا

*** **** ***

الفصل الرابع

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لنوح عليه السلام

مدخل : لمحة من مناقب وخصائص سيدنا نوح عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين توكل نوح عليه السلام وتوكل النبي ﷺ في مواجهة الكفار.

المطلب الأول : بيان أن توكل نوح عليه السلام في مواجهة الكفار من المعجزات .

المطلب الثاني : بيان أن توكل النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة الكفار من المعجزات .

المبحث الثاني : الموزانة بين دعاء نوح عليه السلام ودعاء النبي ﷺ على الكفار.

المطلب الأول : دعاء نوح عليه السلام على الكافرين واستجابة الله له.

المطلب الثاني : دعاء النبي صلى اله عليه وسلم على الكافرين واستجابة الله له .

المبحث الثالث : الموزانة بين معجزة سيفنة نوح عليه السلام وما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك.

المطلب الأول : بيان معجزة سيفنة نوح عليه السلام.

المطلب الثاني : بيان ما أعطي النبي ﷺ مقابل معجزة السفينة .

مدخل

لمحة من مناقب وخصائص سيدنا نوح عليه السلام

مما اختص الله به نوحا عليه السلام فقد جاهد في الله حق جهاده وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم, واجتيال الشيطان لهم، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً, سراً وجهاراً، صابراً على أذى قومه، لا تثنيه عن الدعوة إلى ربه سفاهاتهم وتعدياتهم، قال سبحانه: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**) [العنكبوت: 14 - 15].

وقال سبحانه في نوح عليه السلام : (**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**)[نوح: 5 -10].

وقال سبحانه عن قوم نوح : (**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**) [هود: 32-33].

*** **** ***

المبحث الأول

الموازنة بين توكل نوح عليه السلام وتوكل النبي ﷺ في مواجهة الكفار

مدخل .

المطلب الأول : بيان أن توكل نوح عليه السلام في مواجهة الكفار من المعجزات.

المطلب الثاني : بيان أن توكل النبي ﷺ في مواجهة الكفار من المعجزات .

مدخل

كانت مواجهة نوح عليه السلام لقومه إحدى معجزاته وذلك : أنه واجه قومه بل أهل الأرض قاطبة في زمانه ، وبادأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم ، وقد حملوا من بغضه، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك ، فعُلِم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون - كما قال السعدي

وقد واجه سيدنا رسول الله صلى اله عليه وسلم في بداية الدعوة إلى الله تعالى من الكفار بمثل ما واجه نوح عليه السلام قومه وكان جوابهم له أشد وأغلظ من جواب قوم نوح لنوح عليه السلام - كما سيأتي بيانه – ومن هنا أحببت أن أبين كيف كان توكلهما على الله تعالى في تلك الفترة العصيبة من فترت دعوتهما إلى اله تعالى ، وذلك في مطلبين :

*** **** ***

المطلب الأول

بيان أن توكل نوح عليه السلام في مواجهة الكفار من المعجزات

قد نوه الله بتلك المعجزة وذلك التوكل العظيم في قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ) سورة يونس (71)

قال صاحب تفسير المنار:

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة ، وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس ، ودرجة إيمان الأنبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل ، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه ، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم ، وحسن وعظه لهم بوحي ربه تعالى فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولمن آمن معه من الضعفاء والفقراء ، ولما يعتز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة ، والجزم بإهلاك المصرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له بجعلهم خلائف الأرض وأصحاب السلطان فيها. صورت الآية لأهل مكة البلغاء هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم - المشهور في تواريخ الأمم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع أهل الأرض - بأن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به واكتفاء أمره والاستراحة من دعوته ، مطالبة القوي العزيز المذل ببأسه ، والمعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والكسبية ، إذ أمرهم في المرتبة الأولى بإجماع أمرهم بالعزيمة الصادقة وقوة الإرادة الجازمة ، حتى لا يكون شيء من موجباتها متفرقا بينهم ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية الكسبية قوة الإيمان المعنوية بشركائهم وآلهتهم ، ولما كانت العزيمة الصادقة المجمعة قد يعرض لها الوهن أو العلل المقتضية للفسخ قبل التنفيذ ، نهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك) اهـ

قال في ظلال القرآن:

قوله تعالى **(إن كان كبر عليكم مقامي)** أي إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم; وتذكيري لكم بآيات الله. فأنتم وما تريدون. وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله ،

(فعلى الله توكلت) عليه وحده فهو حسبي دون النصراء والأولياء. فأجمعوا أمركم وشركاءكم .. وتدبروا مصادر أمركم وموارده، وخذوا أهبتكم متضامنين :

(ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) بل ليكن الموقف واضحا في نفوسكم، وما تعتزمونه مقررا لا لبس فيه ولا غموض، ولا تردد فيه ولا رجعة .

(ثم اقضوا إلي) فنفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دبرتم، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذي لا تردد فيه.

(ولا تنظرون) ولا تمهلوني للأهبة والاستعداد، فكل استعدادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه .

إنه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعا؟

كان معه الإيمان.. القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير. وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه. فليس هذا التحدي غرورا، وليس كذلك تهورا، وليس انتحارا. إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله.. وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض. وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان !

ولن يضرهم الطاغوت إلا أذى - ابتلاء من الله لا عجزا منه سبحانه عن نصرة أوليائه، ولا تركا لهم ليسلمهم إلى أعدائه. ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف. ثم تعود الكرة للمؤمنين. ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح) اهـ

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان أن توكل النبي ﷺ في مواجهة الكفار من المعجزات

ورد في حق النبي صلى الله عليه وسلم فهو قوله تعالى : **(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)** الأعراف (196) .

قال ابن كثير :أي : الله حسبي وكافي ، وهو نصيري وعليه متكلي ، وإليه ألجأ ، وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي . وهذا كما قال هود ، عليه السلام ، لما قال له قومه : **(إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** [هود : 54 - 56] .

وكقول الخليل عليه السلام **(أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)** [الشعراء : 75 - 80] الآيات ، وكقوله لأبيه وقومه **(نَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)** [الزخرف : 26 - 28] .

قال الألوسي: قوله تعالى (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين) .

تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق - يعني السياق - انفهامًا جليًا، و(أل) في (الكتاب) للعهد والمراد منه القرآن، ووصفه سبحانه بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية، وكأنه وضع نزل الكتاب موضع أرسلني رسولًا ولا شك أن الإرسال يقتضي الولاية والنصرة، وقيل: إن في ذلك إشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم لأن وليي هو الله تعالى الذي نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم.

وقوله سبحانه وتعالى: **{وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين}** تذييل مقرر لمضمون ما قبله، أي ومن عادته جل شأنه أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم وقال الطيبي: إنما خص اسم الذات بتنزيل الكتاب وجعلت الآية تعليلًا للدلالة على تفخيم أمر المنزل وأنه الفارق بين الحق والباطل وأنه المجلي لظلمات

الشرك والمفحم لألسن أرباب البيان والمعجز الباقي في كل أوان وهو النور المبين والحبل المتين وبه أصلح الله تعالى شؤون رسوله صلى الله عليه وسلم حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأفسد به الأباطيل المعطلة، ومن ثم جيء بقوله سبحانه وتعالى: {وَهُوَ} إلخ كالتذييل والتقرير لما سبق والتعريض بمن فقد الصلاح بالخذلان والمحق.

والمعنى (**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ**) المشهور الذي تعرفون حقيقته ومثله يتولى الصالحين وبخذل غيرهم، ولا يخفى أن ما ذكر أولًا في أمر الوصفية أنسب بالمقام وأمر التذييل مما لا مرية فيه، وهذه الآية مماجربت المداومة عليها للحفظ من الأعداء وكانت ورد الوالد عليه الرحمة في الأسحار وقد أمره بذلك بعض الأكابر في المنام، والجمهور على تشديد الياء الأولى من {وَلِيِّ} وفتح الثانية ويقرأ بحذفها في اللفظ لسكونها وسكون ما بعدها، وبفتح الأولى ولا ياء بعدها وحذف الثانية من اللفظ تخفيفًا) اهـ

*** **** ***

ومن هنا كان توكله على ربه قوياً لا نظير له ولذا ظهرت شجاعته ﷺ في مو اقف كثيرة ، منها:

1/عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا ، فانهه عن أذانا ، فقال : يا عقيل : ائتني بمحمد ، فأتيته به ، فقال : يا ابن أخي ، إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم ، فانته عن ذلك ، قال : فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره إلى السماء فقال : أترون هذه الشمس ؟ قالوا : نعم ، قال : (**ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك من أن تشعلوا منها شعلة) ، قال : فقال أبو طالب : ما كذبنا ابن أخي ، فارجعوا**)قال ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية 372/4 (إسناده حسن) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: 194/1

2/ ما ثبَت عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزِع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلَق الناس قِبَل الصوت، فاستقبَلهم النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - قد سبق الناسَ إلى الصوت وهو يقول: (**لن تُراعوا، لن تُراعوا، لقد وجَدناه بحرًا**)، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ، في عُنقه سيف" متفق عليه .

وشجاعته - صلى الله عليه وسلم - تتجلَّى في هذا الحديث في أنه من شِدة عجَلته في الخروج إلى العدو قبل الناس جميعًا، خرَج على هذا الفرس الذي انقلَب بفضل الله - عز وجل - إلى أسرع ما يكون بعد أن كان معروفًا بالبُطء، وخرج - صلى الله عليه وسلم - ما عليه سَرج، ولم يَخش من الخروج وحْده لكشْف الحال؛ لكي يُطَمئِن أصحابه - صلى الله عليه وسلم.

3/ ومن أمثلة شجاعته أيضًا: ما سجَّله التاريخ من صُور شجاعته في أثناء الحروب؛ حيث كان يتقدَّم الجنود، ويَثبُت إذا اشتدَّ الموقف وفرَّ مَن حوله، مثلما حدث يوم حُنين؛ إذ وقَف على بَغلته والناس يَفرُّون عنه، وأبو سفيان بن الحارث آخِذٌ بزِمامها، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: **(أنا النبي لا كَذِب، أنا ابن عبدالمطلب)** رواه البخاري 2930، ومسلم 1776

4/ وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: "**رأيتني يوم بدرونحن نَلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو، وكان - صلى الله عليه وسلم - من أشد الناس يومئذٍ بأسًا**" [176].

*** **** ***

176 / رواه أحمد (1/ 86 - 654)، إسناده صحيح ورجاله ثِقات: رجال الشيخين غير حارثة بن مُضَرِّب؛ (تعليق شعيب الأرناؤوط).

المبحث الثاني

الموزانة بين دعاء نوح عليه السلام ودعاء النبي ﷺ على الكفار

المطلب الأول : دعاء نوح عليه السلام على الكافرين واستجابة الله له .

المطلب الثاني : دعاء النبي ﷺ على الكافرين واستجابة الله له .

المطلب الأول

دعاء نوح عليه السلام على الكافرين واستجابة الله له

لقد دعا نوح عليه السلام على قومه بالهلاك بعد أخبره الله تعالى بقوله **(أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** هود (36) . فاستجاب الله له وأهلكهم بالطوفان فحكى الله تعالى ذلك في كتابه فقال تعالى:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) سورة القمر.

موضع الشاهد من الآيات قوله تعالى:(فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) حيث ذكر الله تعالى أنه استجاب دعاء نوح عليه السلام وأهلك قومه ، وحول كيفية الإهلاك أنقل كلام العلامة السعدي في تفسير ه لهذه الآيات حيث يقول:

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، فلم يزدهم ذلك إلا عنادا وطغيانا، وقدحا في نبيهم، ولهذا قال هنا: فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعا وعقلا فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، وقوله: وازدجر أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم -قبحهم الله- عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم .

فعند ذلك دعا نوح ربه فقال: أني مغلوب لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، فانتصر اللهم لي منهم.

وقال في الآية الأخرى: **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)** سورة نوح (26-27) .

فأجاب الله سؤاله، فانتصر له من قومه، قال تعالى: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر أي: كثير جدا متتابع .

وفجرنا الأرض عيونا فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلا عن كونه منبعا للماء، لأنه موضع النار .

(**فالتقى الماء**) أي: ماء السماء والأرض على أمر من الله له بذلك، قد قدر أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين .

(وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ) أي: ونجينا عبدنا نوحا على السفينة ذات الألواح والدسر أي: المسامير التي قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها .

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر ، وكلاءة منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل.

جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه راد، ولا صده عن ذلك صاد، كما قال تعالى عنه في الآية الأخرى: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك الآية .

*** **** ***

المطلب الثاني

دعاء النبي ﷺ على الكافرين واستجابة الله له

لقد ذكر أهل العلم أن الله أعطي نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مثل أعطى نوحاً عليه السلام من أجابة دعائه على الكفار وذلك في مواطن كثيرة :

قال ابن كثيررحمه الله:

وقال الامام الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد في كتاب دلائل النبوة : ذكر ما أوتي نوح عليه السلام من الفضائل، وبيان ما أوتي محمد صلى الله عليه وسلم مما يضاهي فضائله ويزيد عليها، إن قوم نوح لما بلغوا من أذيته والاستخفاف به، وترك الايمان بما جاءهم به من عند الله، دعا عليهم فقال: **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)** [نوح: 26] فاستجاب الله دعوته، وغرق قومه، حتى لم يسلم شئ من الحيوانات والدواب إلا من ركب السفينة، وكان ذلك فضيلة أوتيها، إذ أجيبت دعوته، وشفى صدره بأهلاك قومه .

قلنا: وقد أوتي محمد صلى الله عليه وسلم مثله حين ناله من قريش ما ناله من التكذيب والاستخفاف، فأنزل الله إليه ملك الجبال وأمره بطاعته فيما يأمره به من إهلاك قومه، فأختار الصبرعلى أذيتهم، والابتهال في الدعاء لهم بالهداية .

قلت - القائل ابن كثير - : وهذا أحسن، وقد تقدم الحديث بذلك عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في قصة ذهابه إلى الطائف، فدعاهم فآذوه فرجع وهو مهموم، **فلما كان عند قرن الثعالب ناداه ملك الجبال فقال: يا محمد إن ربك قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد أرسلني إليك لافعل ما تأمرني به، فإن شئت أطبقت عليهم الاخشبين - يعني جبلي مكة اللذين يكتنفانها جنوبا وشمالا، أبو قبيس وزر، فقال:(بل استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك بالله شيئا)**[177]

177 / البدايه والنهاية- الجزء السادس.

وقال أبو نعيم: (آيته – يعنى نوحاً عليه السلام - التي أوتي إجابة دعوته وإغراق قومه بالطوفان وكم لنبينا صلى الله عليه وسلم من دعوة مستجابة، وزاد نبينا على نوح بأنه في مدة عشرين سنة آمن به ألوف كثيرة، ودخل الناس في دينه أفواجا، ونوح أقام في قومه ألف سنة الا خمسين عاما، فلم يؤمن به الا دون المائة نفس).[178]

*** **** ***

1/ أن النبي ﷺ قام يصلي عند الكعبة، وجمع من كفرة قريش في مجالسهم، قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق فأخبر فاطمة، -وهي جويرة- فأقبلت تسعى رضي الله عنها، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً، حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: (**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**) ثم سمى: (**اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد**) قال ابن مسعود الراوي: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**وأتبع أصحاب القليب لعنة**) رواه البخاري.

2/عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (**إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى قريشا استعصوا عليه قال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة فأحصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة وقال أحدهما العظام قال وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم قال فهذا لقوله يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم**) رواه الترمذي.

178 / سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد – للصالحي - (265/10)

هذا وقد نبه أهل العلم إلى أنه كما يجوز الدعاء للكفار فإنه يجوز الدعاء عليهم ولكن الدعاء عليهم مشروط بما إذا وقع منهم أذى على المسلمين ، وبناءاً عليه يمكننا القول أن الدعء للكافرين أو عليهم له حلالات .وإليك بيان ذلك :

قال الأستاذ نايف اليحيى[179] :

الحالة الأولى: الدعاء لهم بالهداية:

الأصل جواز الدعاء لعموم الكفار بالهداية، أما إذا كان الكافر مسالماً غير محارب، ولم يصدر منه أذى للمسلمين فإنه أولى وأحرى بالدعاء له بهدايته؛ لأن في ذلك إنقاذاً له من النار، ودخولاً في طاعة الله جل وعلا، وهذا غاية ما يقصده المسلم ويرجوه، وما بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كما أخبر المرسل سبحانه بذلك، ومما يدل على ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل على الصبي اليهودي الذي كان يخدمه وهو يجود بنفسه على مشارف الموت جعل يلقنه الشهادة، فلما نطق بها خرج عليه الصلاة والسلام مستبشراً يقول: (**الحمد لله الذي أنقذه من النار**) أخرجه البخاري.

* * * * * * * * * *

ومما ورد في السنة من الدعاء للكافر بالهداية:

1/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اللهم اهد دوسا وأت بهم» أخرجه البخاري. وهذا من فقه البخاري كما يقول ابن حجر أن بوب عليه بـ"باب الدعاء للمشركين."

2/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأمه فقال «**اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**» أخرجه مسلم . وكانت إذ ذاك مشركة، بل كانت تؤذي أبا هريرة إذا دعاها للإسلام، وسبت النبي صلى الله عليه وسلم عنده قبل أن تسلم.

179 / مقال بعنوان أحوال الدعاء على الكافر – موقع صيد الفوائد .

3/ عن جابر رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم. قال: **"اللهم اهد ثقيفا"**أخرجه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح غريب، **وكانوا إذ ذاك محاربين .**

4/ عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب" أخرجه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح غريب. وكانا من أشد الناس أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ففيه والحديثين قبله جواز الدعاء حتى للمحارب.

قال العيني: (لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ومع هذا كان يحب دخول الناس في الإسلام، فكان لا يعجل بالدعاء عليهم ما دام يطمع في إجابتهم إلى الإسلام، بل كان يدعو لمن يرجو منه الإنابة)اهـ.[180]

*** **** ***

الحالة الثانية: الدعاء عليهم :

الدعاء على الكفار غالب ما ورد عند أذيتهم للمسلمين ومحاربتهم لهم، والسخرية بدينهم وشعائرهم، فيدعى عليهم بالهلاك وأن يكفى المسلمون شرهم، **قال النووي:** وقد أخبرَ الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة معلومة من القرآن عن الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم بدعائهم على **الكفّار)** اهـ[181]

وقد بوب البخاري رحمه الله بباب: (الدعاء على المشركين) وأورد فيه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» وحديث: «اللهم عليك بأبي جهل»، ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، وفيه: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم».

---

180 / عمدة القاري (14 / 208) .

181 / الأذكار (ص305)، وينظر: أحكام القرآن لابن العربي (1 / 645) .

ودعاؤه يوم الخندق: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وكذلك دعاؤه على قريش: (**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**) ، ثُمَّ سَمَّى: (**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعُمَارَةَ بْنِ الوَلِيدِ**) .[182]

ومما ورد أيضاً: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: (**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة**)أخرجه الشيخان .

وكان سكانها في ذلك الوقت يهود. كما قال الخطابي والعيني، "ففي الحديث جواز الدعاء على الكفار بالأمراض والهلاك" [183]. وفيه الدعاء على غير المحارب أيضاً، وأنه لا بأس به، فاليهود أول الهجرة غير محاربين.

الجمع بين الدعاء بالهداية والدعاء بالهلاك:

للجمع بين ما ورد في الأحاديث من الدعاء للكافر والدعاء عليه، قال ابن حجر رحمه الله : كان [صلى الله عليه وسلم] تارة يدعو عليهم وتارة يدعو لهم، **فالحالة الأولى:** حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، **والحالة الثانية:** حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم كما في قصة دوس)[184] .

182 / ينظر: صحيح البخاري (8 / 84).

183 / ينظر: شرح الزرقاني على الموطأ (4 / 363)، عمدة القاري (23 / 8).

184 / فتح الباري – لابن حجر- (6 / 108).

وممن قال بهذا الجمع وارتضاه: المهلب وابن بطال والعيني، ومن المتأخرين: الشيخين ابن باز وابن عثيمين، رحم الله الجميع وغفر لهم[185].

لكن لا يجوز الدعاء بأن يميته الله كافراً، أو بأن يحرمه الهداية ؛ لأنه مخالف لمقصود الشارع من طلب إسلامهم ودعوتهم؛ ولأن فيه طلب البقاء على الكفر والموت عليه، ولا يجوز الرضا بما لا يرضي الله سبحانه، ويفارق الدعاء عليهم بالهلاك بأنه دعاء بالاستراحة من شرهم وأذاهم[186].

*** **** ***

185 / شرح صحيح البخاري لابن بطال (5/ 112) (3 / 7)، عمدة القاري (14 / 208)، مجموع فتاوى ابن باز (26 / 131)، فتاوى إسلامية (4 / 185).

186 / ينظر: الفروق للقرافي (4 / 296)، تهذيب الفروق (4 / 293)، درر الحكام شرح غرر الأحكام (1 /324)

المبحث الثالث

الموزانة بين معجزة سيفنة نوح عليه السلام وما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك

المطلب الأول : بيان معجزة سيفنة نوح عليه السلام.

المطلب الثاني : بيان ما أعطي النبي ﷺ مقابل معجزة السفينة .

بيَّنَّا في المبحث السابق كيف استجاب الله تعالى لنوح عليه السلام وأهلك أعداءه ولتكتمل الصورة لا بد من ذكر كيف نجى الله تعالى نوحاً عليه السلام والمؤمنين به ، وكان ذلك بأن أيده الله تعالى بمعجزة السفينة ، وهل حدث مثل هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ،هذا ما سنعرفه في هذا المبحث ، وذلك من خلال مطلبين :

المطلب الأول

بيان معجزة سفينة نوح عليه السلام

لأن قصة نجاة نوح عليه السلام مع من آمن به مشهورة معلومة فسوف أجتزئ منها مشهد السفينة وكيف تمت النجاة لأهل الإيمان والإهلاك لأهل الكفران:

قال الله تعالى : (**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)** سورة هود.

أما مشهد إهلاك الكافرين فقد قال فيه العلماء :

يدل صريح القرآن الكريم على أن جميع من على الأرض أغرقوا بالطوفان ، ولم ينج من البشر ولا من الحيوان إلا مَن حمله نوح عليه السلام معه في السفينة. قال الله تعالى : (**فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ**) الشعراء/119-120.

وقال عز وجل : (**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**) هود/40.

وقال تعالى : (**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**) يونس/73.

كما جاء النص في القرآن الكريم على أن الأرض إنما عمرت بعد ذلك من نسل ذرية نوح عليه السلام فقط ، وأما المؤمنون الذين نجوا معه في السفينة فلم تبق لهم ذرية ، فجميع أهل الأرض الآن من ذرية نوح عليه السلام .

وأما تفاصيل المشهد من الآيات المذكورة أعلاه نبينه من كلام السيد محمد رشيد رضا رحمه حيث قال في تفسير المنار:

(**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**) هذا تصوير لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارئ أو السامع ، أي تجري في أثناء موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه وامتداده ، وهو ما يحدث في ظاهر البحر عند اضطرابه من التموج والارتفاع بفعل الرياح ، واحده موجة وجمعه أمواج ، وأصل الموج الاضطراب ومنه : (**وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض**) (الكهف : 99) .

ومن عرف ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج عندما تهيجها الرياح الشديدة ، رأى أن المبالغة في هذا التشبيه غير بعيدة ، وصف لي بعضهم سفره في المحيط الهندي في زمن رياح الصيف التي يسمونها الموسمية بما معناه : كنت أرى السفينة تهبط بنا في غور عميق ، كواد سحيق ، نرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، فإذا بها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها في شاهق جبل تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها ،

وراجع وصف البحر في تفسير قوله تعالى : (**هو الذي يسيركم في البر والبحر**) (يونس : 22) (**وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ**) عند الركوب في السفينة وقبل جريانها .

وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه، رأى نوح ابنه كنعان، وكان هذا الابن في مكان منعزل، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بنى اركب معنا في السفينة، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب. ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور، بل رد على أبيه: (**قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ**).

(**وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ**) أي : مكان عزلة وانفراد دون أهله الذين ركبوا فيها ودون الكفار (**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا**) **أي** : مع والدك وأهلك الناجين (**وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**) المقضي عليهم بالهلاك .

(**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**) أي : سألجأ إلى جبل عال يحفظني من الماء أن يصل إلي فأغرق .

(**قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ**) أي : لا شيء في هذا اليوم العصيب يعصم أحدا من أمر الله الذي قضاه ، فليس الأمر والشأن أمر ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد ، فيتقي الحازم ضره بما يقدر عليه من الأسباب ، وإنما هو أمر انتقام عام من أشرار العباد ، الذين أشركوا بالله وظلموا وطغوا في البلاد ، لكن من رحم الله منهم فهو يعصمه ويحفظه . وقد اختص بهذه الرحمة من أمر بحملهم في هذه السفينة (**وحال بينهما الموج**) وكان قد بدأ يرتفع في أثناء هذا الحديث حتى حال بين الولد ووالده (**فكان من المغرقين**) الهالكين .

وأما مشهد نجاة المؤمنين مع سيدنا نوح عليه السلام فقد ختم الله به القصة بقوله تعالى : (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) هود (48) .

قال في التفسير الوسيط:

كان مقتضى الظاهر أن يقال: قال يا نوح اهبط بسلام.. ولكن جاء التعبير بقيل، مسايرة للتعبيرات السابقة في أجزاء القصة، مثل قوله- سبحانه- **وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ**.. وقوله: **وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**.

وقوله **اهْبِطْ بِسَلامٍ**.. فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط في ضيافة الله ورعايته، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم.

والتعبير بقوله (مِنَّا) لزيادة التكريم، وتأكيد السلام. أى: انزل بسلام ناشئ من عندنا، وليس من عند غيرنا لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا.

وقوله (**عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ متعلق بسلام وبركات**).وفي هذا إشارة إلى أنه- سبحانه- سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين، أمما كثيرة تكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : كانوا عشرة.

*** **** ***

وقال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعا ، وهو الذي عند أهل الكتاب ، وقيل : ثمانين ذراعا ، وعَمَّ جميع الأرض طولها والعرض ، سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير. قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملؤوا السهل والجبل) .

قال الرازي رحمه الله :

(قال أهل التحقيق : إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بإيصال السلامة والبركات منه إليه ؛ لأنه قال : **(بسلام منا)** وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث إنها نعمة ، ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث إنها من الحق ، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق ، وطلبهم للحق ، وتوجههم إلى الحق ، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى ، فإن الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بالسلامة والبركة من حيث إنهما من الحق غير.

والأول : نصيب عامة الخلق .

والثاني : نصيب المقربين ؛ ولهذا السبب قال بعضهم : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ، ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول .

وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم : (**وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم**) فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا ، فدل ذلك على خساسة الدنيا ، فإنه تعالى لما ذكر أحوال

المؤمنين لم يذكر ألبتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا ، ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا ، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب في المقامات الروحانية) اهـ.

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان ما أعطي النبي ﷺ مقابل معجزة السفينة

معلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يركب البحر في حياته ولهذا ما أعطيه صلى الله عليه وسلم مقابل تلك المعجزة لم يكن في شخصه العظيم بل كان كرامة لبعض أفراد أمته وكل كرامة لولي من أولياء هذه الأمة فهي معجزة له صلى الله عليه وسلم ، ولقد سجل العلماء عددا من كرامات ركوب البحر ، وإليك بعضها:

القصة الأولى : قصة سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية:

في فتوح العراق، كان الفرس قد فروا بكمالهم إلى المدائن، وتحصنوا بها. وقد فروا إليها عن طريق نهر دجلة وأخذوا كل سفنهم معهم. فلما وصل سعد بن أبي وقاص قائد المسلمين في فتوح العراق إلى شاطئ دجلة لم يجد شيئا من السفن، ورأى دجلة قد زادت زيادة عظيمة وأسود ماؤها.

فوقف سعد رضي الله عنه يخطب في المسلمين على شاطئ دجلة وقال في خطبته (وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصدكم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم).

و افق الجند على خوض البحر مع سعد رضي الله عنه. فانتدب لذلك كتيبة تسمى في كتب التاريخ بكتيبة الأهوال. وهي كذلك بالفعل. وكانت هذه الكتيبة تتكون من ستين فارس من ذوي البأس، وكان عاصم بن عمرو أميرا عليها.

ثم أمر سعد بقية الجيش بالنزول في الماء، وذلك بعد تحصن الجانب الآخر بوجود نقاط الارتكاز الإسلامية فيه.

وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه. حسبنا الله ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) [187].

187 / البداية والنهاية: 53/7

يقول المؤرخون: وسار الناس في النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملؤوا ما بين الجانبين. فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة. وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده. فكان ذلك معجزة بكل المقاييس.

*** **** ***

القصة الثاني : قصة العلاء بن الحضرمي في البحرين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (لما بعث النبي صلى الله عليه و سلم العلاء بن الحضرمي إلى البحرين تبعته فرأيت منه ثلاث خصال لا ادري أيتهن أعجب انتهينا إلى شاطئ البحر فقال سموا واقتحموا قال فسمينا واقتحمنا فعبرنا فما بل الماء إلا أسافل خفاف إبلنا فلما قفلنا صرنا معه بفلاة من الارض وليس معنا ماء فشكونا إليه فصلى ركعتين ثم دعا فاذا سحابة مثل الترس ثم ارخت غزالها فسقينا واستقينا ومات فدفناه في الرمل فلما سرنا غير بعيد قلنا يجيء سبع فيأكله فرجعنا فلم نره).[188]

وجاءت الرواية في البداية والنهاية ببعض الزيادات:

ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم ، فقال : يا عليم ، يا حليم ، يا علي ، يا عظيم ، إنا عبيدك ، وفي سبيلك ، نقاتل عدوك ، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلا . فدخلنا البحر فلم يبلغ الماء لبودنا ، ومشينا على متن الماء ولم يبتل لنا شيء . وذكر بقية القصة ، قال : فهذا أبلغ من ركوب السفينة ، فإن حمل الماء للسفينة معتاد ، وأبلغ من فلق البحر لموسى ، فإن هناك انحسر الماء حتى مشوا على الأرض ، فالمعجز انحسار الماء وها هنا صار الماء جسدا يمشون عليه كالأرض ،

188 / أخرجها الطبراني في الاوسط 15/4 والكبير 95/18 و ابن أبي شيبة في مصنفه 420/10 و ابن كثير في البداية والنهاية 172/6 وغيرهم.

و إنما هذا منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبركته . انتهى ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوح عليه السلام. [189].

*** **** ***

القصة الثالثة : أبي عبد الله الثقفي يقتحم نهر دجلة:

عن سليمان بن مروان الاعمش عن بعض أصحابه، قال: انتهينا إلى دجلة وهي مادة، والاعاجم خلفها، فقال رجل من المسلمين: بسم الله، ثم اقتحم بفرسه فارتفع على الماء، فقال الناس: بسم الله، ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء، فنظر إليهم الاعاجم وقالوا: ديوان، ديوان - أي مجانين - ثم ذهبوا على وجوههم، قال فما فقد الناس إلا قدحا كان معلقا بعذبة سرج، فلما خرجوا أصابوا الغنائم واقتسموا، فجعل الرجل يقول: من يبادل صفراء ببيضاء ؟ وقد ذكرنا في السيرة العمرية وأيامها، وفي التفسير أيضا: أن أول من اقتحم دجلة يومئذ أبو عبيدة النفيعي أمير الجيوش في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنه ينظر إلى دجلة فتلا قوله تعالى: **(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا)** [آل عمران: 145] ثم سمى الله تعالى واقتحم بفرسه الماء واقتحم الجيش وراءه، ولما نظر إليهم الاعاجم يفعلون ذلك جعلوا يقولون: ديوان ديوان: أي مجانين مجانين، ثم ولوا مدبرين فقتلهم المسلمون وغنموا منهم مغانم كثيرة).[190]

*** **** ***

القصة الر ابعة :قصة أبي مسلم الخولاني ومشيه على نهر دجلة:

عن سليمان بن المغيرة: أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى دجلة وهي ترمي الخشب من مدها فمشى على الماء والتفت إلى أصحابه، وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئا فندعو الله تعالى ؟

---

189 /البداية والنهاية 0 (6/ 312)

190 / روى الخبر وصححه البيهقي في الدلائل 6 / 51 – 53 وابن كثير في البداية والنهاية (6 /292(

وقال ابن كثير في رو ايته:

وقد رواه ابن عساكر .يعني أثر الخولاني . عن حميد بن هلال العدوي: حدثني ابن عمي أخي أبي قال: خرجت مع أبي مسلم في جيش فأتينا على نهر عجاج منكر، فقلنا لاهل القرية: أين المخاضة ؟ فقالوا: ما كانت ههنا مخاضة ولكن المخاضة أسفل منكم على ليلتين، فقال أبو مسلم: اللهم أجزت بني إسرائيل البحر، وإنا عبيدك وفي سبيلك، فأجزنا هذا النهر اليوم، ثم قال: اعبروا بسم الله، قال ابن عمي: وأنا على فرس فقلت: لادفعنه أول الناس خلف فرسه، قال: فو الله ما بلغ الماء بطون الخيل حتى عبر الناس كلهم، ثم وقف وقال: يا معشر المسلمين، هل ذهب لاحد منكم شئ فأدعو الله تعالى يرده ؟)[191]

ثم قال ابن كثير معلقاً على هذه الكرامات:

(فهذه الكرامات لهؤلاء الاولياء، هي معجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم تقريره، لانهم إنما نالوها ببركة متابعته، ويمن سفارته، إذ فيها حجة في الدين، أكيدة للمسلمين، وهي مشابهة نوح عليه السلام في مسيره فوق الماء بالسفينة التي أمره الله تعالى بعملها، ومعجزة موسى عليه السلام في فلق البحر، وهذه فيها ما هو أعجب من ذلك، من جهة مسيرهم على متن الماء من غير حائل، ومن جهة أنه ماء جار والسير عليه أعجب من السير على الماء القار الذي يجاز، وإن كان ماء الطوفان أطم وأعظم، فهذه خارق، والخارق لا فرق بين قليله وكثيره، فإن من سلك على وجه الماء الخضم الجاري العجاج فلم يبتل منه نعال خيولهم، أو لم يصل إلى بطونها، فلا فرق في الخارق بين أن يكون قامة أو ألف قامة، أو أن يكون نهرا أو بحرا، بل كونه نهرا عجاجا كالبرق الخاطف والسيل الجاري، أعظم وأغرب) اهـ[192]

*** **** ***

191 / البداية والنهاية (6 / 293)

192 / البداية والنهاية (6 / 293)

الباب الخامس

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعدد من الأنبياء عليهم السلام

الفصل الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لآدم عليه السلام.

تمهيد : لمحة في بيان بعض مناقب آدم عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين خَلْق آدم عليه السلام وخَلْق النبي ﷺ.

المبحث الثاني:الموازنة بين تشريف آدم عيه السلام بسجود الملائكة له وتشريف النبي ﷺ بالصلاة عليه.

المبحث الثالث : الموازنة بين علم آدم عليه السلام بالأسماء وعلم النبي صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثاني : الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليوسف عليه السلام.

المبحث الأول : الموازنة بين تمام النعمة للنبي ﷺ وليوسف عليه السلام.

المبحث الثاني : الموازنة بين تأويل النبي ﷺ للرؤى وتأويل يوسف عليه السلام .

المبحث الثالث : الموازنة بين جمال النبي ﷺ وجمال يوسف عليه السلام.

المبحث الرابع : الموازنة بين ما جري للنبي ﷺ وما جرى ليوسف عليه السلام من الإيذاء.

الفصل الثالث : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود وسليمان عليهما السلام.

المبحث الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود عليه السلام.

المبحث الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود وسليمان عليه السلام.

الفصل الرابع: الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لهود ويحيى عليهما السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لهود عليه السلام.

المبحث الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليحيى عليه السلام.

الفصل الأول

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لآدم عليه السلام

مدخل : لمحة في بيان بعض مناقب سيدنا آدم عليه السلام .

المبحث الأول : الموازنة بين خَلْق آدم عليه السلام وخَلْق النبي ﷺ .

المطلب الأول : بيان ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام في خَلْقه .

المطلب الثاني : بيان ما شرف الله تعالى به النبي ﷺ في خَلْقه .

المبحث الثاني : الموازنة بين تشريف آدم عيه السلام بسجود الملائكة له وتشريف النبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه.

المطلب الأول : بيان تشريف الله تعالى آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له.

المطلب الثاني : بيان تشريف الله تعالى للنبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه.

المبحث الثالث : الموازنة بين علم آدم عليه السلام بالأسماء وعلم النبي ﷺ.

المطلب الأول : بيان علم آدم عليه السلام بالأسماء .

المطلب الثاني : بيان تفوق علم النبي ﷺ على علم آدم عليه السلام .

مدخل

لمحة في بيان بعض مناقب آدم عليه السلام

مما هومعلوم أن الله تعالى قد شرف آدم ومنَّ عليه بكثير من العطايا والهبات ، فقد خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء واصطفاه نبياً وجعل في ذريته الأنبياء والصالحين ،

ومن مناقبه أنه قد ثبت تكليم الله تعالى له عليه السلام في كتاب الله، في نحو قوله سبحانه: **(قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ)** [البقرة: 33]. وقوله: **(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)** [البقرة: 35]. وقوله: **(فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)** [طه: 117]. وما بعدها، وظاهر هذا أنه كان كفاحاً بغير واسطة الملك.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي سأل فيه النبي صلى الله عليه وسل عن عدد الأنبياء والرسل ثم سأله عن آدم: (أنبي مكلم هو؟ فقال(نعم نبي مكلم) .[193]

ونحن في منهجنا في هذا الكتاب نذكر أهم ما امتاز به آدم عليه السلام على الأنبياء ثو نذكر ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم مما يقابل ذلك ، ولذا سنجري الموازنة في ثلاثة أشياء مما تميز بها آدم عليه السلام وهي : كون أنّ الله خلقه بيده وكونه أسجد له الملائكة وكونه علمه الأسماء وذلك من خلال المباحث الآتية :

*** **** ***

193/ رواه ابن حبان في " صحيحه " (14 / 69) وصححه شعيب الأرناؤط محقق الكتاب

المبحث الأول

الموازنة بين خَلْق آدم عليه السلام وخَلْق النبي مدخل

المطلب الأول : بيان ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام في خَلْقه .

المطلب الثاني : بيان ما شرف الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم في خَلْقه .

لما أراد الله تعالى أن يعمر الأرض بالنوع الإنساني لحكمة باهرة خلق آدم عليه السلام ليكون هو أصل البشرية ، ومن هنا لم يكن خلقه كبقية الكائنات بل كان في إخراجه من العدم إلى الوجود فيه نوع تكريم وتشريف على كثير من المخلوقات ، ومن هنا كان لا بد من الحديث عن هذا التشريف والتكريم الإلهي لأبينا آدم عليه السلام ثم ذكر ما أكرم الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم مقابل ذلك .

المطلب الأول

بيان ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام في خَلْقه

قال تعالى : **(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** سورة ص (71-74) .

قال السعدي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى : **(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ)** أي: مادته من طين.فإذا سويته أي: سويت جسمه وتم، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالا لربهم، وإكراما لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد استكبر عن أمر ربه، واستكبر على آدم وكان من الكافرين في علم الله تعالى.

فقال الله موبخا ومعاتبا: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أي: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

قال الآلوسي رحمه الله تعالى :

قال - عز وجل - على سبيل الإنكار والتوبيخ: (**يا إبليس ما منعك أن تسجد**) أي من السجود لما خلقت أي للذي خلقته (**بيدي**) وهذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه - عليه السلام - معتنى بخلقه، فإن من شأن المعتنى به أن يعمل باليدين، ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب

وأم، وكونه جسما صغيرا انطوى فيه العالم الأكبر، وكونه أهلا لأن يفاض عليه ما لا يفاض على غيره إلى غير ذلك من مزايا الآدمية)

وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:(لمّا صوّر الله آدم عليه السّلام في الجنّة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنّه خلق خلقاً لا يتمالك).

وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة أنّ النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - قال:(خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً)، وبعد أن خلق الله سبحانه وتعالى جسد آدم بهذا الشّكل، وسوّاه ونفخ فيه الرّوح، وذلك كما قال سبحانه وتعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) الحجر/29.

وروى أحمد في المسند عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - قال☹إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسّهل والحزن وبين ذلك)، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وصحّحه الألباني رحمه الله.

وفي حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام ما يدل على أن المخلوقية بها وصف تعظيم، حيث قال له موسى :(أنت آدم الذي خلقك الله تعالى بيده) ، وكذلك في حديث الشفاعة أن أهل الموقف يأتون آدم ويقولون له: أنت آدم أبو الناس خلقك الله تعالى بيده.

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان ما شرف الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم في خَلْقه

أريد في بداية هذا المطلب أن أجيب على شبهة قد يظن البعض أنها صحيحة ألا وهي : الزعم بأن النبي صلى الله عليه وسلم مخلوق من نور ، وأن الأنبياء خلقوا من نوره ؟

وللجواب عن هذه الشبهة أنقل ما قاله العلماء[194] لنفي هذه الشبهة نفياً تاماً :

اعلم أولاً : النبي صلى الله عليه وسلم بشر من ذرية آدم، كما قال الله تعالى: **(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)** [الكهف: 110].

وقال: **(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)** سورة الأنبياء: (7، 8) .

وقال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)**الفرقان (20)

وهذا في الجواب عن شبهة المشركين، وقولهم فيما حكاه الله عنهم: **(قَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)** سورة الفرقان (7)

ومقتضى هذه البشرية أنه يصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون، ويتعرضون للابتلاء كما يتعرض غيرهم من البشر، بل هم أشد الناس بلاء.

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال التي يمارسها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول صلى الله عليه وسلم بالتجارة قبل البعثة، ورعي الأنبياء للغنم، وكون نبي الله داود عليه السلام حداداً، ونبي الله زكريا عليه السلام نجاراً.لكنهم أفضل البشر، اختارهم الله تعالى واصطفاهم وصنعهم على عينه ، هذا أولاً .

*** **** ***

194 / قال بعنوان : الرد على من زعم أن النبي عليه الصلاة والسلام خلق من نور- موقع الشبكة الإسلامية، ركن الفتوى .

واعلم ثانياً : قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم (أن الملائكة خلقت من نور، وأن الجن خلق من نار، وأن آدم خلق مما وُصف لنا)، وهو: التراب، والحديث رواه مسلم. قال الله تعالى: **(كمثل آدم خلقه من تراب)** سورة آل عمران: (59) .

فمن زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خلق من نور، فقد زعم أنه ملك، وشابه المشركين الذين استبعدوا واستنكروا أن يكون بشر رسولاً. قال الله تعالى: **(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا)** [الإسراء: 94].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم بشر لا ملك، وقد أمره الله أن يصرح بذلك: **(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا)** [الإسراء 93].

واعلم ثالثاً : أنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يوجب الخروج عن هذه الحقيقة: أنه بشر من ذرية آدم، وقد خلق آدم من التراب لا من النور .

وقد ذهب بعض أهل الغلو إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم خلق من نور، وأن من نوره خلق الله الأنبياء، والجنة والنار، والعرش والكرسي...الخ؛ وهذا من الكذب والافتراء الواضح البين، مع مصادمته لنصوص القرآن والسنة .

وقد اعتمدوا في ذلك على حديث مكذوب، وهو ما يروى عن جابر رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره... فلما أراد الله أن يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء: فخلق من الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء....الخ .

وكثير من الناس يعرف أول الحديث ولا يعرف آخره، ولو اطلعوا على آخره لما شكوا في بطلانه .

* * * * * * * * * *

قال الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري :وهو حديث موضوع، لو ذكره بتمامه لما شك الو اقف عليه في وضعه، وبقيته تقع في نحو ورقتين من القطع الكبير مشتملة على ألفاظ ركيكة ومعان منكرة) [195].

وبين السيد رشيد رضا (في فتاواه 447/2) :

أنه حديث لا أصل له، وقد سبق إلى ذلك السيوطي، فقد سئل عن هذا الحديث، كما في الحاوي للفتاوى جـ1 ص 323، فقال: الحديث المذكور في السؤال ليس له إسناد يعتمد عليه. انتهى.

وأما ما نحن بصدده من الكشف عن الموازنة في تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على آدم في الخلْق يأتي من جهة أخرى أشار إليها الزرقاني - في شرح المواهب - بقوله : (فآدم عليه الصلاة والسلام أعطي أن الله خلقه بيده، فأعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شرح صدره، تولى الله شرح صدره بنفسه، وخلق فيه الإيمان والحكمة، وهو الخلق النبوي، فتولى من آدم الخلق الوجودي ومن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الخلق النبوي) اهـ.[196]

قلت : وهناك حديث يدل على أفضلية نبينا صلى الله عليه وسلم على أبينا آدم عليه السلام في هذا الجانب ألا وهو ما ورد عن العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته**) [197] .

*** **** ***

وقد تحدث العلماء عن الحِكَم التي تستفاد من اختصاص ذكر نبوته صلى الله عليه وسلم مع ذكر خلق آدم عليه السلام - في هذا الحديث - وذلك من خلال عدة أمور[198]:

---

195 / المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير - للغماري .

196 / انظر سبل الهدى والرشاد للصالحي والخصائص الكبرى للسيوطي .

197 / رواه الإمام أحمد ، وروي معناه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، ومن وجوه أخر مرسلة ، وخرج الحاكم أيضا حديث العرباض ، وقال : صحيح الإسناد وو افقه الذهبي

198 / موقع طريق الإسلام – مقال بعنوان : ذكر نبوته صلى الله عليه وسلم.. وآدم منجدل في طينته (باختصار شديد) .

الأول: أن سياق الحديث متعلق بذكر المحددات القدرية لنبوته صلى الله عليه وسلم.. بداية من أبي البشر آدم عليه السلام، ومرورًا بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، حتى عيسى عليه السلام، ثم أم نبينا وإضاءة قصور الشام بمولده صلى الله عليه وسلم.. كَمَا فِي الحَدِيثِ..

فَكَتَبَ اللهُ وَقَدَّرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَفِي تِلْكَ الْحَالِ أَمْرَ إِمَامِ الذُّرِّيَّةِ.. كَمَا كَتَبَ وَقَدَّرَ حَالَ الْمَوْلُودِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بَيْنَ خَلْقِ جَسَدِهِ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ.. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الحديث؛ روى البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: أي رَبِّ نُطْفَةً! أي رَبِّ عَلَقَةً! أي رَبِّ مُضْغَةً! فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» متفق عليه .

فكما يكون تقدير الهداية المحددة للمصير « أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ » لكل مولود من أبناء آدم قبل أن تدب فيه الروح.. كذلك يكون تحديد نبوته صلى الله عليه وسلم الواردة في هذا الحديث قبل أن تدب روح آدم في جسده.

الأمر الثاني: أن ذكر نبوته صلى الله عليه وسلم في هذا التوقيت، يعني إثبات المناسبة بين تقدير النبوة قبل خلق آدم -وهو أول الأنبياء- وبين الميثاق الذي أخذه الله على جميع الأنبياء: **(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ)** وقد سبق الكلام عليها في الباب الأول .

الأمر الثالث: أن فترة بقاء آدم جسدًا قبل نفخ الروح فيه تمثل البداية التي حاول إبليس فيها أن ينشئ في آدم طبيعة الغواية، ارتكازًا على طبيعة خلقه كما في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك**) مسند أحمد ح13516. **وتركه كان في نفس الوقت الذي كان منجدلًا في طينته بين الروح والجسد.**

فكان ذكر تقدير نبوته صلى الله عليه وسلم في هذا الوقت إثباتًا للرحمة المقابلة لفتنة إبليس.. باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعلى درجات الرحمة المقابلة لإبليس وهو أشد أسباب الفتنة.

ومن هنا كان قول ابن تيمية رحمه الله في شرح هذا الحديث: رُوِيَ فِي الأَثَرِ: "إِنَّهُ مَا مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ إِلَّا يُبْدَأُ فِيهِ بِإبليس، ثُمَّ يَصْعَدُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَمَا مِنْ نَعِيمٍ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا يُبْدَأُ فِيهِ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلى غَيْرِهِ."فَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين أُثِيبَ...عَلَى أَنَّهُ إِمَامٌ مُطْلَقٌ لِجَمِيعِ الذُّرِّيَّةِ وَأَنَّ لَهُ نَصِيبًا مِنْ إيمَانِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين؛ كَمَا أَنَّ كُلَّ ضَلَالٍ وغواية فِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لإبليس مِنْهُ نَصِيبٌ؛ فَهَذَا يُحَقِّقُ الْأَثَرَ الْمَرْوِيَّ وَيُؤَيِّدُ مَا فِي نُسْخَةِ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا قَالَ: « بُعِثْت دَاعِيًا وَلَيْسَ إلَيَّ مِنْ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ، وَبُعِثَ إبْلِيسُ مُزَيِّنًا وَمُغْوِيًا وَلَيْسَ إلَيْهِ مِنْ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ » [199].

*** **** ***

الأمر الرابع: فهو العلاقة القدرية المباشرة بين خلق آدم -بصفته أول الأنبياء- وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم -بصفته آخر الأنبياء.والتي تتبع قاعدة الربط بين بداية الأمور ونهايتها، إذا جمعها سياق موضوعي واحد، وهو هنا سياق قدر النبوة من بدايتها حتى نهايتها.. إثباتًا للحكمة الربانية وأن الله غالب على أمره.

والمثال الواضح على هذه القاعدة.. هو وحي الله ليوسف وهو في البئر؛ بأنه سيخبر إخوته بما فعلوه به، إذ إن إخبار يوسف لإخوته كان بعد التمكين له، الذي بدأ تحقيقه بإلقائه في البئر: **(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)** سورة يوسف: (15) .

فكان الإلقاء في البئر هو البداية.. والتمكين هو النهاية؛ لذا لزم الإخبار بالنهاية عند البداية.ففي دقة البداية جاء حَدِيثُ مَيْسَرَةَ الْفَجْرِ قَالَ: "قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ متى كُنْتَ نَبِيًّا؟ - وَفِي رِوَايَةٍ - مَتَى كُتِبْت نَبِيًّا؟ فَقَالَ: « **وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**» [200].

---

199 / أسباب رفع العقوبة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (9/1).

200 / قال الألباني في (السلسلة الصحيحة 4 /471): أخرجه أحمد في المسند (5 / 59) وفي السنة (ص 111) و أبو نعيم في الحلية - (53/ 9).

مما لزم كتابتها قبل نفخ الروح.. حتى لا تكون حياة البشر قد بدأت ولو للحظة واحدة دون إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم التي تمثل الأساس الممتد لهذه الهداية.

وكما كانت دقة البداية كانت دقة النهاية.. حيث جاء قوله صلى الله عليه وسلم: «**إني عند الله مكتوب: خاتم النبيين** » [201]

ولعله من خلال ما سبق اتضح لنا أن التشريف والتكريم الذي صحب إخراج النبي صلى الله عليه وسلم من العدم إلأى الوجود أعظم بكثير مما ناله آدم عليه السلام . والله أعلم .

*** **** ***

201 / شرح السنة، للبغوي.

المبحث الثاني

الموازنة بين تشريف آدم عليه السلام بسجود الملائكة له وتشريف النبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه

المطلب الأول : بيان تشريف الله تعالى آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له.

المطلب الثاني : بيان تشريف الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة والسلام عليه.

إن من أعظم ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام أنه أسجد له الملائكة ، وقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم من ذلك ألا وهو صلاة الله وملائكته وعباده المؤمنين وسلامهم عليه، وسنبين ذلك من خلال مطلبين :

المطلب الأول

بيان تشريف الله تعالى آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له

وقد ذهب أجمع المفسرون إلى أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة وطاعة لله، وقربة يتقربون بها إليه وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم.

وقد نقل شيخ الإسلام رحمه الله إجماع أهل الملل على سجود الملائكة لآدم عليه السلام وذلك في معرض رده على الفلاسفة الذين يزعمون أن الملائكة هي التي أبدعت جميع المصنوعات حيث قال:

(ولأن ما اتفق عليه أهل الملل من أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام يبطل قول هؤلاء: إن أضعف العقول – التي هي الملائكة عندهم – هو مبدع جميع البشر، ورب كل ما تحت فلك القمر) اهـ[202] .

وقد بين رحمه الله أن هذا السجود كان لآدم عليه السلام على الحقيقة فقال: (السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله ،وذلك للرد على من زعم أن السجود كان لله، وإنما جعل آدم عليه السلام قبله للملائكة يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة، وليس في هذا تفضيل له عليهم؛ كما أن السجود إلى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله.

ثم ذكر رحمه الله الأدلة على صحة ما ذهب إليه، وفساد قول هؤلاء وذلك من عدة وجوه:

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى قال: **(اسْجُدُواْ لآدَمَ)** [البقرة: 34]، ولم يقل: إلى آدم. وكل حرف له معنى، ومن التمييز في اللسان أن يقال: سجدت له، وسجدت إليه، كما قال تعالى: **(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِوَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)** [فصلت: 37].

---

[202] / بغية المرتاد: ص243

وقوله تعالى : **(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** [الرعد: 15]، وأيضاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى عنزة، ولا يقال لعنزة، وإلى عمود وشجرة، ولا يقال لعمود، ولا لشجرة.

والساجد للشيء يخضع له بقلبه، ويخشع له بفؤاده، وأما الساجد إليه فإنما يولي وجهه وبدنه إليه ظاهراً، كما يولي وجهه إلى بعض النواحي إذا أمه، كما قال تعالى: **(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)** [البقرة: 144]

الثاني : أن آدم عليه السلام لو كان قبلة لم يمتنع إبليس من السجود، أو يزعم أنه خير منه، فإن القبلة قد تكون أحجاراً؛ وليس في ذلك تفضيل لها على المصلين إليها، وقد يصلي الرجل إلى عَنَزَة وبعير، وإلى رجل؛ ولا يتوهم أنه مفضل بذلك، فمن أي شيء فر الشيطان؟ هذا هو العجب العجيب.

الثالث : أنه لو جعل آدم قبلة في سجدة واحدة؛ لكانت القبلة وبيت المقدس أفضل منه بآلاف كثيرة، إذ جعلت قبلة دائمة في جميع أنواع الصلوات، فهذه القصة الطويلة التي هي من أفضل النعم عليه، والتي رفعه الله بها، وامتن بها عليه؛ ليس فيها أكثر من أنه جعله كالكعبة في بعض الأوقات، مع أن بعض ما أوتيه من الإيمان والعلم، والقرب من الرحمن أفضل بكثير من الكعبة؛ والكعبة إنما وضعت له ولذريته؛ أفيجعل من جسيم النعيم عليه أو يشبه به في شيء نزر قليل جداً؟. هذا مالا يقوله عاقل .

*** **** ***

وهذا السجود كان من جميع الملائكة؛ ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وهذا ما قرره رحمه الله عندما سئل: هل سجد ملائكة السماء والأرض، أم ملائكة الأرض خاصة؟.

فأجاب رحمه الله: (بل أسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: **(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)** فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق.

فإن قوله: (**الْمَلَائِكَةُ**) يقتضي جميع الملائكة؛ فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم؛ فهو رب جميع الملائكة.الثاني: (كلهم) وهذا من أبلغ العموم .الثالث: قوله: **أَجْمَعُونَ** وهذا توكيد للعموم) [203]اهـ

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام:

اعلم أنه قد اتفقت كلمة العلماء رحمهم الله تعالى على أن الملائكة عليهم السلام سجدوا لآدم عليه السلام.والذي يدل على ذلك ما نقوله من الإجماع على أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن سجود عبادة.**قال أبو بكر بن العربي رحمه الله: (اتفقت الأمة على أن السجود لآدم عليه السلام لم يكن سجود عبادة).**

وقال الفخر الرازي رحمه الله: (**أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة**).

وقرر ذلك القرطبي رحمه الله بقوله: (واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة).

وهذا السجود كان لآدم عليه السلام على الحقيقة، خلافاً لمن زعم أن السجود كان لله وإنما جعل آدم عليه السلام قبلة، فقد أخرج الطبري عن قتادة رحمهما الله في تفسير قوله تعالى: **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ)** [البقرة: 34] أنه قال: (فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته)[204]

لعل القارئ الكريم يقول لقد أطلت الكلام على تشريف آدم عليه السلام بذلك السجود أقول : عمداً فعلت ذلك ليعرف قدر هذه الخصوصية التي خُصّ بها أبونا آدم عليه السلام وأظن أنها الآن أخذت حجمها في قلبك أخي الكريم . والله أعلم.

*** **** ***

---

203 / مجموع الفتاوى : 4/358 وما بعدها

204 / نقلاً عن موقع الدرر السنية - الموسوعة العقدية

المطلب الثاني

بيان تشريف الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه

وأما ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم مقابل هذا التكريم لآدم هو أن الله تعالى صلى وسلم عليه - صلى الله عليه وسلم - وممن أشار إلى ذلك الزرقاني حيث قال رحمه الله : (وعن أبي عثمان الواعظ، فيما حكاه الفاكهاني قال: سمعت الإمام سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرف الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}** [الأحزاب: 56] ، أجمع من تشريف آدم عليه الصلاة والسلام بأمر الملائكة له بالسجود، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة) انتهى.[205]

وقال السيوطي رحمه الله تعالى : (وَأما السُّجُود فَقَالَ بعض الْعلمَاء فِي قَوْله تَعَالَى {إِن الله وَمَلَائِكَته يصلونَ على النَّبِي} الْآيَة هَذَا التشريف الَّذِي شرف بِهِ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أتم وأعم فِي الْإِكْرَام من تشريف آدم عَلَيْهِ السَّلَام حَيْثُ أَمر الْمَلَائِكَة بِالسُّجُود لَهُ من وَجْهَيْن:

أَحدهمَا : أَن ذَاك وَقع وَ انْقطع وتشريفه صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بِالصَّلَاةِ مُسْتَمر أبدا.

وَالثَّانِي : أَن ذَاك حصل من الْمَلَائِكَة لَا غير وتشريفه صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بِالصَّلَاةِ حصل من الله وَالْمَلَائِكَة وَالْمُؤمنِينَ) اهـ[206]

قلت : ولا بأس من توسيع الكلام في قوله تعالى: **(إنَّ الله وملائكَتَه يُصلُّون على النَّبي ياأيُّها الَّذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً)** الأحزاب (56)

وقبل أن أذكر بعض ما يقال في تفسيرها أقول : هذه الآية لجلالتها وعظمتها قد تحتاج إلى مجلد كامل حتى يستوعب المفسر لها من جميع جوانبها وقد أطال بعض العلماء الكلام عليها في الكتب وخاصة الكتب التي أُلفت في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم .

---

[205] / شرح المواهب (7/ 80)
[206] / الخائص الكبرى – الجزء الثاني

ومن لطائف التفسير في هذه الآية الكريمة:

اللطيفة الأولى: قوله تعالى: (إنَّ الله وملائكَتَه يُصلُّون على النَّبي).

ورد ذكر الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة، فجاء الخبر مؤكدا بـ { **إن** } اهتماما به، وجيء بالجملة اسمية لإفادة الدوام، وكانت الجملة إسمية في صدرها، {**إن الله**} فعليه في عجزها {**يصلون**} للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام، فتدبر هذا السر الدقيق.

اللطيفة الثانية: قد يقول قائل: إذا صلى الله وملائكته عليه فأي حاجة إلى صلاتنا عليه؟

نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه السلام ليثيبنا الله تعالى عليه، ولهذا قال عليه السلام: «من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا» فصلوات ربي وسلامه عليه.

اللطيفة الثالثة: قال الإمام الفخر: الصلاة الدعاء، يقال في اللغة صلى عليه: أي دعا له، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى، فإنه لا يدعو له، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث، والجواب: أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا، وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وهذا مذهب الشافعي رحمه الله، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار، وهما يشتركان في العناية بحال المرحوم، والمستغفر له، والمراد هو القدر المشترك.

اللطيفة الرابعة : أمرنا الله بالصلاة على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكان يكفي أن نقول صلينا عليه أو يقول الإنسان: أصلي عليه، فلماذا نقول عند الصلاة عليه: اللهم صل على محمد؟

والجواب: أن الله لما أمرنا بالصلاة عليه، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك، أحلناه على الله تعالى، وقلنا: اللهم صل أنت على محمد، لأنك أعلم بما يليق به، فنحن عاجزون عن توفيته حقه، وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره، وقد أوكلنا الأمر إليك. فتدبر سر هذه الجملة اللهم صل على محمد فإنه نفيس ودقيق.

اللطيفة الخامسة: قال بعض العلماء: معنى قولنا: اللهم صل على محمد أي عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وإعطائه المقام المحمود.

*** **** ***

قال أحد العلماء:

- **يبدو مقام النبي الكريم عليه أفضل الصَّلاة و أتمُّ التسليم** في هذه الآية أشدَّ ما يكون تألُّقاً وزهوّاً، وهو يحظى بالمواصلة والرحمة من ربِّ العالمين، والدعاء والتشريف من قِبَلِ جميع الملائكة الأبرار .

- **أمر الله تعالى المؤمنين بالصَّلاة على النبي الكريم زيادة في تكريمه وتشريفه، ولينالوا بها بركة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته، ولكي ينهلوا بها من معين روحانيته الربَّانية الَّذي لا ينضب، وليتحلَّوا بأخلاقه المحمَّدية السامية.**

- **تشير الآية الكريمة إلى كرامة النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم منزلته عند الله تعالى**؛ فهو محلُّ الهبات الإلهية، ومستودع العطاء الربَّاني، فالله تعالى يُوْدِعُ أنواره القدسية في قلب النبي صلى الله عليه وسلم ووجدانه وعقله، ولا يزال يظلله بالرحمة إلى يوم الدِّين، ويجعل الملائكة تدعو له بالرحمة والبركات. وحقٌّ على المؤمنين تجاهه أن يملؤوا قلوبهم بمحبَّة النبي صلى الله عليه وسلم لكي يدركوا كُنْهَ العطاء السماوي الَّذي حمله إليهم من خلال رسالة الإسلام، فهو صلة الوصل النورانية الروحية بين العباد وخالقهم. وبمقدار انفتاح القلب على النبي بالسَّلام والمحبَّة، بمقدار ما يرشف من رحيق الحبِّ الإلهي رشفاً، من شلالات فيضه النبوي، الَّذي أسبغه الله تعالى عليه.

*** **** ***

-وتأكيداً لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى، كان الله سبحانه أوَّل من صلَّى عليه صلاة الرحمة، ثمَّ ثنَّى بصلاة الملائكة؛ وهي الاستغفار، ثمَّ أمرنا أن نصلِّي عليه بقوله: {يا أيُّها الَّذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما}، أي الدعاء له بالمغفرة والتعظيم لشأنه صلى الله عليه وسلم ، والالتزام بحسن اتِّباعه والانقياد لأوامره. وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي صلى الله عليه

وسلم تشريفهم بذلك، حيث اقتدوا بالله عزَّ وجلَّ في الصَّلاة على الرسول وتعظيمه، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رسالة الإسلام جامعة للخيرات شاملة للعطايا الَّتي تغمر الإنسانية كلَّها، و أنه صلى الله عليه وسلم هو الوسيلة الَّتي تمَّ تبليغ الإسلام من خلالها إلى البشر.

ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته صلى الله عليه وسلم فهم يطلبون من الملك القادر أن يكافئه، وهذا هو السرُّ في قولهم: «اللهمَّ صلِّ على محمَّد». وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أكثروا من الصَّلاة عليَّ في كلِّ يوم جمعة، فإن صلاة أمتي تُعرض عليَّ في كلِّ يوم جمعة فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة كان أقربهم مني منزلة» (رواه أبو داود بإسناد صحيح)؛ وهذا مقام المقتدي بأعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدق وثبات.

*** **** ***

المبحث الثالث

الموازنة بين علم آدم عليه السلام بالأسماء وعلم النبي ﷺ

المطلب الأول : بيان علم آدم عليه السلام بالأسماء.

المطلب الثاني : بيان تفوق علم النبي رضي الله عنه على علم آدم عليه السلام .

المطلب الأول

بيان علم آدم عليه السلام بالأسماء

قد نص الله تعالى على علو كعب آدم في العلم حتى صار في مقام في الأستاذ للملائكة حيث أمر الله تعالى أن يخبرهم بأسماء الأشياء بعد أن عجزوا عن معرفتها ، وذلك مقام رفيع ولذا أثبته الله تعالى في كتابه فقال : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33)** سورة البقرة .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة ، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك ، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك ، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)**

وقال السدي ، عمن حدثه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)** قال : عرض عليه أسماء ولده إنسانا إنسانا ، والدواب ، فقيل : هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس .

وقال الضحاك عن ابن عباس : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)** قال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وسماء ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها) اهـ .

*** **** ***

وقال الطاهر ابن عاشوررحمه الله تعالى : (باختصار شديد)

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) إن تعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم إني أعلم ما لا تعلمون أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض .

وآدم : اسم الإنسان الأول أبي البشر في لغة العرب وقيل منقول من العبرانية لأن " أداما " بالعبرانية بمعنى الأرض وهو قريب لأن التوراة تكلمت على خلق آدم وأطالت في أحواله فلا يبعد أن يكون اسم أبي البشر قد اشتهر عند العرب من اليهود وسماع حكايتهم.

والأسماء : جمع اسم وهو في اللغة لفظ يدل على معنى يفهمه ذهن السامع فيختص بالألفاظ سواء كان مدلولها ذاتا وهو الأصل الأول ، أو صفة أو فعلا فيما طرأ على البشر الاحتياج إليه في استعانة بعضهم ببعض ، فحصل من ذلك ألفاظ مفردة أو مركبة وذلك هو معنى الاسم عرفا إذ لم يقع نقل .

والظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها ، أو استحضارها ، أو إفادة حصول بعضها مع بعض ، وهي - أي الإفادة - ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداء أسماء الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية ، وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة ، وملك ، وآدم ، وحواء ، و إبليس وشجرة وثمرة .

ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى ولذلك نرجح أن لا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني والأحداث ثم طرأت بعد ذلك فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات قرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء برد أي ماء بارد ثم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك فقال الماء بارد أو برد الماء . وهذا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصادر صنف دقيق من نوع الأسماء ، وقد دلنا على هذا قوله تعالى ثم عرضهم كما سيأتي .

* * * * * * * * * *

وتعريف الأسماء يفيد أن الله علم آدم كل اسم ما هو مسماه ومدلوله ، والإتيان بالجمع هنا متعين إذ لا يستقيم أن يقول وعلم آدم الاسم ، وما شاع من أن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع في المعرف باللام كلام غير محرر ، وأصله مأخوذ من كلام السكاكي وسنحققه عند قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب في هذه السورة .

و (**كلها**) تأكيد لمعنى الاستغراق لئلا يتوهم منه العهد فلم تزد كلمة " كل " العموم شمولا ولكنها دفعت عنه الاحتمال . و " كل " اسم دال على الشمول والإحاطة فيما أضيف هو إليه ، وأكثر ما يجيء مضافا إلى ضمير ما قبله فيعرب توكيدا تابعا لما قبله ويكون أيضا مستقلا بالإعراب إذا لم يقصد التوكيد بل قصدت الإحاطة وهو ملازم للإضافة لفظا أو تقديرا ، فإذا لم يذكر المضاف إليه عوض عنه بالتنوين ولكونه ملازما للإضافة يعتبر معرفة بالإضافة فلا تدخل عليه لام التعريف .

وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إما بطريقة التلقين بعرض المسمى عليه ، فإذا أراه لقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أن ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضروري .

أو يكون التعليم بإلقاء علم ضروري في نفس آدم بحيث يخطر في ذهنه اسم شيء عندما يعرض عليه فيضع له اسما بأن ألهمه وضع الأسماء للأشياء ليمكنه أن يفيدها غيره وذلك بأن خلق قوة النطق فيه وجعله قادرا على وضع اللغة كما قال تعالى خلق الإنسان علمه البيان وجميع ذلك تعليم ؛ إذ التعليم مصدر علمه إذا جعله ذا علم مثل أدبه فلا ينحصر في التلقين وإن تبادر فيه عرفا . وأيا ما كانت كيفية التعليم فقد كان سببا لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير .

وكان ذلك أيضا سببا لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم ، فالإنسان لما خلق ناطقا معبرا عما في ضميره فقد خلق مدركا أي عالما ، وقد خلق معلما .

وهذا أصل نشأة العلوم والقوانين وتفاريعها لأنك إذا نظرت إلى المعارف كلها وجدتها وضع أسماء لمسميات وتعريف معاني تلك الأسماء وتحديدها لتسهيل إيصال ما يحصل في الذهن إلى ذهن الغير .

وكلا الأمرين قد حرمه بقية أنواع الحيوان ، فلذلك لم تتفاضل أفراده إلا تفاضلا ضعيفا بحسن الصورة أو قوة المنفعة أو قلة العجمة بله بقية الأجناس كالنبات والمعدن.

وبهذا تعلم أن العبرة في تعليم الله تعالى آدم الأسماء حاصلة سواء كان الذي علمه إياه أسماء الموجودات يومئذ أو أسماء كل ما سيوجد ، وسواء كان ذلك بلغة واحدة هي التي ابتدأ بها نطق البشر منذ ذلك التعليم أم كان بجميع اللغات التي ستنطق بها ذرياته من الأمم ، وسواء كانت الأسماء أسماء الذوات فقط أو أسماء المعاني والصفات ، وسواء كان المراد من الأسماء الألفاظ الدالة على المعاني أو كل دال على شيء لفظا كان أو غيره من خصائص الأشياء وصفاتها وأفعالها كما تقدم ؛ إذ محاولة تحقيق ذلك لا طائل تحته في تفسير القرآن .

ولعل كثيرا من المفسرين قد هان عندهم أن يكون تفضيل آدم بتعليم الله متعلقا بمعرفة عدد من الألفاظ الدالة على المعاني الموجودة فراموا تعظيم هذا التعليم بتوسيعه وغفلوا عن موقع العبرة وملاك الفضيلة وهو إيجاد هاته القوة العظيمة التي كان أولها تعليم تلك الأسماء ، ولذلك كان إظهار عجز الملائكة عن لحاق هذا الشأو بعدم تعليمهم لشيء من الأسماء .

ولو كانت المزية والتفاضل في تعليم آدم جميع ما سيكون من الأسماء في اللغات لكفى في إظهار عجز الملائكة عدم تعليمهم لجمهرة الأسماء وإنما علم آدم أسماء الموجودات يومئذ كلها ليكون إنباؤه الملائكة بها أبهر لهم في فضيلته .

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان تفوق علم النبي ﷺ على علم آدم عليه السلام

بعد أن بينا في المطلب السابق ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام من العلوم أردنا أن نبين ما شرف الله تعالى به نبينا صلى الله عليه وسلم من علوم هي أوسع بكثير من علم آدم عليه السلام، وقد أجرى بعض أهل العلم الموازنة بين علميهما عليهما الصلاة والسلام .

قال الزرقاني رحمه الله تعالى في شرح المواهب اللدنية:

(وأما تعليم آدم أسماء كل شيء، فروى الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي رافع" والحاكم، والديلمي أيضًا من قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها" فكما أن آدم عليه الصلاة والسلام علم أسماء العلوم كلها كذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، وزاد عليه -واصل الله صلاته وسلامه عليه- بعلم ذواتها .

ولله در الأبوصيري حيث قال:

لك ذات العلوم من عالم الغيـ ـب ومنها لآدم الأسماء

ولا ريب أن المسميات أعلى رتبة من الأسماء لأن الأسماء يؤتى بها لتبين المسميات، فهي المقصودة بالذات وإليه الإيماء بقوله: ذات العلوم، والأسماء مقصودة لغيرها فهي دونها، ففضل العلم بحسب فضل معلوم).

قلت : وقد تقدم - في الباب الثالث - ذكر ما فضل الله به النبي صلى الله عليه وسلم من العلوم على جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .وأزيد هنا على ما مضى ما قاله الشيخ عبد الله سراج الدين في بيان ما حازه عليه الصلاة والسلام من العلوم حيث يقول رحمه الله تعالى :

ورد في الصحيحين ما يدل على علمه الشامل العام وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (**سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم**) و (**شيء**) نكرة في سياق النفي فهي للعموم ومع كل ذلك كان يزداد

علوماً من الله عز وجل بشكل دائم فقد ورد في صحيح مسلم (إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا) .

* * * * * * * * * *

وبيان سعة علوم النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أربعة أدلة [207]:

الدليل الأول : هذا القرآن الذي أقرأه الله إياه وجمعه له في صدره وعلمه إياه وبينه له قال الله عز وجل: (إن علينا جمعه وقرآناه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) ومعناها (إن علينا) أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك وعلينا إثبات قراءته في لسانك ثم نتكفل لك ببيانه.

ثم إن هذا القرآن فيه كل شيء كما قال الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وكما قال الله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) فهو وإن كان قليلاً في حجمه وعدد أوراقه ولكن من إعجاز الله عز وجل في قرآنه أنه في أوراقه القليلة يجمع العلوم والفنون ،قال الله عز وجل: (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة)

وإليه يشير قوله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) سورة لقمان (27) .

وقد قال سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه سعيد بن منصور: (من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن) .

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حرف حدّ ولكل حدّ مُطّلَع) رواه الطبراني والبغوي وابن حبان.

كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: (لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرت سبعين جملاً) .

---

[207] / من كتاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة خصاله المجيدة – لمؤلفه العلامة عبد الله سراج الدين (ملخصا) .

قال الزركشي رحمه الله تعالى : (في القرآن علم الأولين والآخرين وما من شيء إلا ويمكن استخراجه لمن فهمه الله تعالى حتى إن بعضهم استنبط عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقون }ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها { فإنها رأس ثلاثٍ وستين سورة) .

وإذا ماقرأنا في السنة النبوية المطهرة فإننا سنجد إشارات من المصطفى صلى الله عليه وسلم تشير إلى خصائص الكلمات القرآنية وآياته ، ومن الأمثلة ما ورد في فضل آخر آيتين من سورة البقرة حيث قال عليه الصلاة والسلام (**لايقرأ بهن في دار فيقربها شيطان**) قال الحاكم:صحيح على شرط مسلم ، وكخصائص سورة البقرة ،وكالعشر الأوائل والأواخر من سورة الكهف وأنها تعصم من الدجال فيما رواه مسلم .

*** **** ***

الدليل الثاني: السنة النبوية التي أنزلها الله تعالى عليه :

قد نص الله تعالى في كتابه على أنه هو الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم ما يصدر عنه من أقوال في سنته المطهرة فقال تعالى (**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**) سورة النساء (113).

وقال تعالى (**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا**) سورة الأحزاب (34).

والحكمة هي السنة النبوية كما نَقل الحافظ ابن كثير عن جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم كما أن السنة تشمل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله وإقراره .

وفيما تقدم دليل على أن السنة نزلت بالوحي وهو مصداق قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلى وحي يوحى إن هو) – أي مانطقه – (**إلا وحي يوحى**) أي يوحيه الله إليه.

ويؤيده ما رواه أبو داوود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) [208]، والمراد بـ (ومثله معه) السنة كما ذكر جمهور كثير من العلماء .كما يؤيده ما رواه البيهقي بإسناده عن حسان بن عطية قال: (كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها كما يعلمه القرآن) .

وكثيراً ما وردت روايات صحيحة يُسأل فيها النبي صلى الله عليه وسلم سؤالاً فينزل عليه الوحي وتظهر عليه أعراضه حتى إذا سري عنه أجاب بما هو سنة وليس بقرآن.

*** **** ***

الدليل الثالث: إظهاره صلى الله عليه وسلم على المغيبات:

قال الله تعالى: **(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** (27)) سورة الجن .

و قال تعالى : **(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)** سورة التحريم(3) .

و قد كان إظهاره ﷺ على المغيبات من عدة وجوه :

منها : اطلاعه صلى الله عليه و سلم على بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار ففي الصحيحين عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : (**قام رسول الله صلى الله عليه و سلم فينا مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه و جهله من جهله**).

---

208 / جزء من حديث ونصه كاملاً : عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ، لا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه ، ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليّ ، ولا كلّ ذي نابٍ من السَّبُعِ ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها ، ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه ، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه) صححه الألباني في صحيح أبي داود – رقم (4604) .

قال سيدنا حذيفة رضي الله عنه : و قد كنت أرى الشيء قد كنت نسيته فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب فرآه فعرفه وفي رواية للبخاري (**قام ..... فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار**).

ولمسلم (**فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة**) ولأبي داود عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه (**و الله ما ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا سماه لنا باسمه و اسم أبيه و اسم قبيلته**)

ومن وجوه إظهاره ﷺ على المغيبات إطلاعه على العوالم الأخرى كما صح في أحاديث الإسراء والمعراج من حديثه صلى الله عليه و سلم عن عالم السماوات و عالم العرش و عالم الكرسي و عالم البرزخ و صفات الملائكة فقد قال صلى الله عليه و سلم **(أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام خفقان الطير السريع**) .

رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح أبي داود .

روى الترمذي و أحمد و غيرهما عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: (إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز و جل فقال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري) و فيه أن الله تعالى أفاض على النبي صلى الله عليه و سلم العلوم حتى قال (**فتجلى لي كل شيء و عرفت**) وفي رواية: (**فعلمت ما في السماوات و ما في الأرض**) وفي رواية الطبراني : (**فعلمني كل شيء**) وفي رواية له: (**فما سألني عن شيء إلا علمته ثم قال لي يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت في الكفارات و الدرجات**).

الدليل الرابع : علمه ﷺ بأصناف المخلوقات و أنواع أمم الحيوانات وتفصيل أمورها:

روى الطبراني باسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال **(لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلا ذكر لنا منه علماً).**

ونكتفي بهذه الإشارات البسيطة إلى سعة علم النبي صلى الله عليه وسلم لأننا لو استعرضنا شواهد السيرة النبوية والسنة المطهرة على سعة علم النبي صلى الله عليه وسلم لكتبنا الكثير الكثير.

الفصل الثاني

الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليوسف عليه السلام

المبحث الأول : الموازنة بين تمام النعمة للنبي صلى الله عليه وسلم وتمامها ليوسف عليه السلام.

المطلب الأول : بيان تمام النعمة في حق سيدنا يوسف عليه السلام .

المطلب الثاني : بيان تمام النعمة في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني : الموازنة بين تأويل النبي ﷺ للرؤى وتأويل يوسف عليه السلام .

المطلب الأول : علم سيدنا يوسف عليه السلام بتعبير الرؤى.

المطلب الثاني : علم النبي صلى الله عليه وسلم بتعبير الرؤى .

المبحث الثالث : الموازنة بين جمال النبي ﷺ وجمال يوسف عليه السلام.

المطلب الأول : بيان ما أوتيه سيدنا يوسف عليه السلام من جمال الصورة.

المطلب الثاني : بيان ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من جمال الصورة .

المبحث الرابع : الموازنة بين ما جري للنبي ﷺ وما جرى ليوسف عليه السلام من الإيذاء.

مدخل

مما اشتهر في قصة يوسف عليه السلام وعد الله له بإحسان علم تعبير الرؤى وبتمام النعم على لسان والده يعقوب عليه السلام ، واشتهر أيضاً بجمال صورته الحسية وحسن سيرته وسريرته ، وأيضا اشتهر بمعاناته وتغربه عن أسرته ،وحسد إخوته ومحاولاتهم لقتله ، وغير ذلك مما هو معلوم من خلال سورة يوسف ، ولا شك أن ذلك مما يرفع درجته عند ربه ويعلي مقامه ، فهل كان للنبي صلى الله عليه وسلم حظ مما اشتهر به يوسف عليه السلام ؟ هذا ما سنعرض له من خلال المباحث الآتية:

*** **** ***

المبحث الأول

الموازنة بين تمام النعمة للنبي ﷺ وسلم وليوسف عليه السلام

المطلب الأول : بيان تمام النعمة في حق سيدنا يوسف عليه السلام .

المطلب الثاني : بيان تمام النعمة في حق النبي صلى الله عليه وسلم .

أخبرالله تعالى يوسف عليه السلام – أيام صباه بعد الرؤيا التي رآها - على لسان والده بقوله **(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** سورة يوسف(6).

بينما وعد الله النبي صلى الله عليه وسلم وعداً صادقاً سطره في كتابه فقال له : **(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**) سورة الفتح (2) فما هو تمام النعمة في حق كليهما عليهما الصلاة والسلام يتبن ذلك من خلال من مطلبين:

المطلب الأول

بيان تمام النعمة في حق سيدنا يوسف عليه السلام

أما في حق يوسف عليه السلام فأحسن من تكلم في تفسير الآية المذكورة هو الفخر الرازي حيث قال :قوله : **(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ)** .اعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا وإلا لزم التكرار ، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة .

أما سعادات الدنيا : فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والحشم ، وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد . **وأما سعادات الآخرة** : فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى . وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية ، فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور :

الأول : أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان :

وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة ، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة .

والثاني : قوله : كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) : ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة .

واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء ، وذلك لأنه قال : (**وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ**) وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب . ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبقى معمولا به في حق أولاده .

وأيضا أن يوسف عليه السلام قال : (**يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ**)يوسف (4). وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ، ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض ، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى ، وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام ؟

قلنا : ذاك وقع قبل النبوة ، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها .

القول الثاني : أن المراد من قوله : (ويتم نعمته عليك) خلاصه من المحن ، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحاق عليهما السلام هو إنعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحاق بتخليصه من الذبح .

والقول الثالث : أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعمة الآخرة بأن جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة .

واعلم أن القول الصحيح هو الأول ، لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها . ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله : (**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) فقوله : (**عليم**) إشارة إلى قوله : (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**) [الأنعام : 124] وقوله : (**حكيم**) إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث ، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية.

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان تمام النعمة في حق النبي صلى الله عليه وسلم

إن الله تعالى أتم نعمته النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الإشارة إليه في آية الفتح **(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)** وكانت تلك بشارة بشره بها قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية وكانت تلك أحب سورة أنزلها الله تعالى عليه .

بل وأتم الله تعالى النعمة على أمته حيث قال سبحانه **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)** المائدة/3 . وذلك يقابل تمام النعمة على آل يعقوب في حق يوسف عليه السلام ، كما سبق ذكره .

أما آية سورة الفتح فللمفسرين فيها أقوال نعرضها هنا باختصار:

قال ابن عاشوررحمه الله تعالى:

وإتمام النعمة : إعطاء ما لم يكن أعطاه إياه من أنواع النعمة مثل إسلام قريش وخلاص بلاد الحجاز كلّها للدخول تحت حكمه ، وخضوع من عانده وحاربه ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** [المائدة : 3] فذلك ما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وحصل بعد سنين.

قال في التفسير الوسيط:

وقوله- تعالى-: **(وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)** معطوف على ما قبله. أى: ويتم- سبحانه- نعمه عليك- أيها الرسول الكريم- بأن يظهر دعوتك، ويكتب لها النصر، والخلود، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء، فضلا عن غيرهم.

قال الرازي رحمه الله تعالى : وقوله تعالى : (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) يحتمل وجوها :

أحدها : هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج ، وهو آخر التكاليف ، والتكاليف نعم .

ثانيها : يتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك ، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار ، فإن بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح .

ثالثها : ويتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح ، وفي الآخرة بقبول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) قال ابن عباس : في الجنة . **وقيل** : بالنبوة والحكمة . **وقيل** : بفتح مكة والطائف وخيبر . **وقيل :** بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر .

قلت : وتلك الأقوال لا تعارض بينها ولهذا فالاية الكريمة تحتملها كلها . بل لقد ظهر تمام نعمته عليه صلى الله عليه وسلم بما آتاه من الفضائل والمحامد ما لا يخطر على بشر .

وأما تمام نعمته تعالى على أمة النبي صلى الله عليه وسلم فهو المشار إليه في قوله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).

وقبل نقل كلام المفسرين أقول : لا شك أن هذه الخصال الثلاث المذكورة في الآية كلها من نعم الله تعالى على أمة الإسلام بل هي من أجل النعم ولم يكن ذلك لأمة قبلها .

*** **** ***

والآن إليك بعض ما قاله أهل التفسير:

قال في التفسير الوسيط :

قوله تعالى (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) ، بأن أزلت دولة الشرك من مكة، وجعلت كلمتكم هي العليا وكلمة أعدائكم هي السفلى، (وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)، بأن اخترته لكم من بين الأديان. وجعلته الدين المقبول عندي، فيجب عليكم الالتزام بأحكامه وآدابه وأوامره ونواهيه قال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ) وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصا

قبل اليوم ثم أكمله، وإنما المراد أن من أحكامه قبل اليوم ما كان مؤقتا في علم الله قابلا للنسخ. ولكنها اليوم كملت وصارت مؤبدة وصالحة لكل زمان ومكان، وغير قابلة للنسخ) .

وقال السعدي رحمه الله :

قوله تعالى : (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**) بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

(**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**) الظاهرة والباطنة ، (**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**) أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين تأويل النبي ﷺ للرؤى وتأويل يوسف عليه السلام

المطلب الأول : علم سيدنا يوسف عليه السلام بتعبير الرؤى .

المطلب الثاني : علم النبي صلى الله عليه وسلم بتعبير الرؤى .

المطلب الأول

علم سيدنا يوسف عليه السلام بتعبير الرؤى

قلنا سابقاً أن الله تعالى وعد يوسف عليه السلام - على لسان والده – أن يعلمه تأويل الأحاديث كما في قوله تعالى : **(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** سورة يوسف (6).

قال في تفسير المنار :

(**وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**) أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها ، أي تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه في الوجود .

-وتعليم الله التأويل ليوسف إيتاؤه إلهاما وكشفا للمراد منها أو فراسة خاصة فيها ، أو علما أعم منها ، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن :**(لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)** سورة يوسف (37) .

وروي عن ابن زيد أنه قال في تأويل الأحاديث : تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس ، وقال الزجاج ، تأويل أحاديث الأمم السالفة والكتب المنزلة.

قال الرازي : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وفيه وجوه :

الأول : المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام ، يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم . قالوا : إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية .

والثاني : تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

*** **** ***

والثالث : الأحاديث جمع حديث ، والحديث هو الحادث ، وتأويلها مآلها ، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته ، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته.

قلت : والذي عليه أكثر المفسرين أن المراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤى ودل على ذلك ما جاء في ثنايا السورة حيث عبر يوسف عليه السلام رؤيا السجنين ورؤيا الملك بل ورؤياه هو نفسه كما جاء في ختام السورة : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) سورة يوسف الآية (100) .

قال المفسرون :

(**وقال**) يوسف متحدثا بنعمة الله **(يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا) :** أى: وقال يوسف لأبيه: هذا السجود الذي سجدتموه لي الآن، هو تفسير رؤياي التي رأيتها في صغرى. فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقا، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل.

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة.

والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن في مطلع هذه السورة في قوله (يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) يوسف (4).

* * * * * * * * * *

المطلب الثاني

علم النبي صلى الله عليه وسلم بتعبير الرؤى

لقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم الحظ الأوفر من تعبير الرؤى بل ولقد اهتم بها اهتماماً بالغاً وحرص عليها حرصا شديدا، فكان إذا صلى الصبح أقبل على أصحابه بوجهه فقال:**(هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟)** رواه البخاري 457/12، أو قال: **(من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له)** رواه مسلم 15/35.

وكما نص الله تعالى على رؤيا يوسف عليه السلام نص الله تعالى على رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى **(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)** سورة الفتح(27) .

قال السعدي:

يقول تعالى: **(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)** وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم **قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال:" أخبرتكم أنه العام؟" قالوا: لا قال:(فإنكم ستأتونه وتطوفون به)** قال الله هنا: **(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)** أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، وعدم الخوف، فعلم من المصلحة والمنافع ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك الدخول بتلك الصفة فتحا قريبا.

وقد جمع الأستاذ أبو إسلام أحمد بن علي الرؤى التى أولها سواء لنفسه صلى الله عليه وسلم أو لأصحابه في كتاب سماه (**الرؤى النبوية**)فكانت قريباً من الخمسين ، وإليك عدد يسير منها لضيق المقام:

1/ عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **(بينما أنا نائم إذ أتيت بقدح لبن فشربت منه ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب قالوا فما أولته يا رسول الله قال العلم)** . سنن الترمذي ج4:ص539

2/ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما يبلغ أسفل من ذلك فعرض علي عمر وعليه قميص يجره قالوا فما أولته يا رسول الله قال الدين)**.سنن الترمذي ج4:ص539

3/ عن عبد الله بن عمر عن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر قال :(**رأيت الناس اجتمعوا فنزع أبو بكر ذنوبا أو ذنوبين فيه ضعف والله يغفر له ثم قام عمر فنزع فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن**) رواه الترمذي وقال : حديث صحيح غريب .

4/ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**رأيت في المنام كأن في يدي سوارين من ذهب فهمني شأنهما فأوحى إلي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كاذبين يخرجان من بعدي يقال لأحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء**) . سنن الترمذي ج4:ص542

5/ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت في المنام كأن أبا جهل أتاني فبايعني) فلما أسلم خالد بن الوليد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد صدق الله رؤياك يا رسول الله هذا كان إسلام خالد، فقال (ليكونن غيره) حتى أسلم عكرمة بن أبي جهل وكان ذلك تصديق رؤياه)صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

6/ عن أنس بن مالك عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت : نام النبي صلى الله عليه وسلم يوما قريبا مني ثم استيقظ يتبسم فقلت : ما أضحكك ؟ قال : **(أناس من أمتي عرضوا علي يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة) قالت : فادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها ثم نام الثانية ففعل مثلها فقالت مثل قولها فأجابها مثلها ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : (أنت من**

الأولين) فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت). صحيح البخاري .

*** **** ***

تنبيهان:

الأول : بعد ما سبق ذكره من النصوص التي أوضحت ما أوتيه كل منهما عليهما الصلاة والسلام من علم بالتعبير أقول : لقد زاد صلى الله عليه وسلم على سيدنا يوسف عليه السلام بشيئين :

1/ أنه صلى الله عليه وسلم عبر عددا كبيراً من الرؤى تفوق أضعاف ما عبره يوسف عليه السلام ولا شك أن الممارسة لأي علم تجعله يرسخ ويزداد ويكون الحامل له أوفر حظاً فيه من غيره .

2/ أنه صلى الله عليه وسلم علَّم عدداً من أصحابه تعبير الرؤى ومن أولئكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابنته عائشة رضي الله عنها ، وهكذا علم الصحابة من بعدهم التابعين وعلم التابعون من بعدهم وهكذا إلى زماننا فصار هذا من العلم الموروث عنه عليه الصلاة والسلام إضافة إلى علم العلماء بأسس التعبير المذكورة عن يوسف عليه السلام في القرآن الكريم ، وهذا كله ما لم يرد في حق يوسف عليه السلام.

لعله بهذا التنبيه تبين لنا الفرق الكبير بين علمهما عليهما الصلاة والسلام بالتعبير.

الثاني : نختم القول بأن :هذا الحرص منه والوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم يدل علي أهمية تعبير الرؤيا في زماننا؛ لانقطاع الوحي، ولحاجتنا للمبشرات، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة.)** رواه البخاري (6990)

*** **** ***

المبحث الثالث

الموازنة بين جمال النبي ﷺ وجمال يوسف عليه السلام

المطلب الأول : بيان ما أوتيه سيدنا يوسف عليه السلام من جمال الصورة .

المطلب الثاني : بيان ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من جمال الصورة .

المطلب الأول

بيان ما أوتيه سيدنا يوسف عليه السلام من جمال الصورة

اشتهر جمال يوسف عليه السلام بين العام والخاص حتى ظن الكثيرون ألا أحد أجمل منه عليه السلام وذلك بناءاً على قوله تعالى : (**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**) يوسف(31).

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ).

جاء في تفسيرها :

إن امرأة العزيز لما سمعت الكلام كثر في وسط المدينة، عملت وليمة للنساء وجمعتهن -من المعلوم أن كيد الشيطان ضعيف، أما كيد المرأة فعظيم: **إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** [يوسف:28] أعظم من كيد الشيطان! إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم -ودبرت خطة: بأن أعطتهن ثمرة الأترج والسكاكين ليقطعن الأترج، ثم أمرت سيدنا يوسف بالخروج عليهن، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة فلما رأينه أكبرنه، أى: أعظمنه، ودهشن لهيئته، وجمال طلعته وحسن شمائله.

(وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) أى: جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التي في أيديهن دون أن يشعرن بذلك، لشدة دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف..

وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً وحاش فعل ماض، واللام في «لله» للتعليل، والمراد بهذه الجملة الكريمة التعبير عن عجيب صنع الله في خلقه أى: وقلن عند ما فوجئن بخروج يوسف عليهن: ننزه الله- تعالى- تنزيها كبيرا عن صفات العجز، ونتعجب تعجبا شديدا من قدرته- سبحانه- على خلق هذا الجمال البديع، وما هذا الذي نراه أمامنا بشرا كسائر البشر، لتفوقه في الحسن عنهم، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تخلب الألباب.

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز في الطباع من تشبيه ما هو مفرط في الجمال والعفة بالملك وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

(وقال بعض العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم : **(فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن)** رواه مسلم ، قالوا معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه).

وقال في موضع آخر: (قد جاء في حديث الإسراء فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ،قال السهيلي وغيره من الأئمة معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان في غاية نهايات الحسن البشري ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ويوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام).

*** **** ***

المطلب الثاني

بيان ما أوتيه النبي ﷺ من جمال الصورة

اشتهر جمال يوسف عليه السلام بين العام والخص حتى ظن الكثيرون ألا أحد أجمل منه عليه السلام ، وهذا حق لكن باستثناء النبي صلى الله عليه وسلم كما سنبينه .

فها هم عماء الإسلام يقررون هذه الحقيقة ألا وهي أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان أجمل الخلق على الإطلاق؛ فلا يجوز اعتقاد كون يوسف أجمل منه، ولا كون داود أحسن صوتا منه، ففي الصحيحين وغيرهما عن أنس . رضي الله عنه . أنه صلى الله عليه وسلم: كان أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس... وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب . رضي الله عنه . أنه سئل: أكان وجه النبي صلى الله عليه وسلم مثل السيف، قال: لا بل مثل القمر.

وقال صاحب قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار:

وكان أجمل الورى و أكملا خلقا وخلقا بل لعمري أفضلا

وقال الحافظ القسطلاني رحمه الله تعالى في المواهب اللدنية : (اعلم أن من تمام الإيمان به صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح من عظيم خلق نفسه الكريمة وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس).

وقال المناوي رحمه الله تعالى : (وقد صرحوا بأن كمال الإيمان اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن إنسان من المحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه صلى الله عليه وسلم والمحاسن الظاهرة آيات الباطنة ولا أكمل منه في هذا المدلول فكذا في الدال)[209]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى وهو يشرح حديث المعراج عند قوله صلى الله عليه وسلم في يوسف: (أوتي شطر الحسن) ، لكن روى الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه: (**ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتا)**، فعلى هذا فيحمل حديث

209 / المواهب اللدنية 238/5 ، 239 ، شرح الشمائل للمناوي 18/1) .

المعراج على أن المراد غير النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه، وأما حديث الباب فقد حمله ابن المنير على أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم. والله أعلم. انتهى.

وقال ملا علي القري رحمه الله تعالى : (وكان نبيكم أحسنهم وجها، وأحسنهم صوتا صلى الله تعالى عليه وسلم) أي من الكل فيشتمل حسن صورة يوسف وصوت داود باعتبار الصباحة والملاحة وزيادة البلاغة والفصاحة، هذا وقد قيل يوسف أعطي شطر حسن آدم وقيل شطر حسن جدته سارة لأنها لم تفارق الحور إلا فيما يعتري الآدمية من الحيض وغيره، وقد أعطي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كمال الجلال والجمال من تمام الصباحة فما رآه أحد إلا هابه ومن تمام الملاحة فما رآه أحد إلا أحبه)[210] اهـ

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

فائدة : قول النبي صلى الله عليه وسلم عن يوسف "**أوتى شطر الحسن** " قالت طائفة المراد منه أن يوسف أوتي شطر الحسن الذي أوتيه محمد فالنبي صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية في الحسن، ويوسف بلغ شطر تلك الغاية، قالوا ويحقق ذلك ما رواه الترمذي من حديث قتادة عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **(ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا) .**

والظاهر أن معناه أن يوسف عليه السلام اختص على الناس بشطر الحسن، واشترك الناس كلهم في شطره فانفرد عنهم بشطره وحده، وهذا ظاهر اللفظ فلمإذا يعدل عنه واللام في الحسن للجنس لا للحسن المعين والمعهود المختص بالنبي صلى الله عليه وسلم وما أدري ما الذي حملهم علي العدول عن هذا إلى ما ذكروه.

وحديث أنس لا ينافي هذا بل يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الأنبياء وجها وأحسنهم صوتا، ولا يلزم من كونه أحسنهم وجها أن لا يكون يوسف اختص عن الناس بشطر الحسن واشتركوا هم في الشطر الآخر.

---

210 / شرح الشفا - للملا علي القاري (1/ 330)

ويكون النبي صلى الله عليه وسلم شارك يوسف فيما اختص به من الشطر وزاد عليه بحسن آخر من الشطر الثاني. والله أعلم[211].

أما الأحاديث في كونه صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أو التي تشير إلى حسنه صلى الله عليه وسلم فكثيرة منها .

1/ في الحديث المتفق عليه عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا) وعن البراء أيضا : (لَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ) متفق عليه . وفي رواية النسائي (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحَدًا هُوَ أَجْمَلُ مِنْهُ) .

2/ وفي حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى الْقَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْ الْقَمَرِ)[212] .

ثم قَالَ سَأَلْتُ مُحَمَّدًا قُلْتُ لَهُ حَدِيثُ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ الْبَرَاءِ أَصَحُّ أَوْ حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ فَرَأَى كِلا الْحَدِيثَيْنِ صَحِيحًا .

3/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ) رواه الترمذي بإسناد حسن وهو عند ابن حبان بإسناد صحيح.

وفي حديث آخر عنه (أحسن الناس صفة وأجملها) وعنه أيضا " لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم"

*** **** ***

شبهة وجوابها : وقد يقال: إذا كان الله قد أعطى محمداً صلى الله عليه وسلم الحسن كله فلماذا لم تتعرض له امرأة قط؟! بينما يوسف عليه السلام الذي أعطى نصف الحسن قد تعرضت له النساء ؟

---

211 / بدائع الفوائد لابن القيم (3/ 206) نقلا عن موقع الشبكة الإسلامية - مركز الفتوى - رقم الفتوى:(274036) .

212 / رواه الترمذي 118/5 ح 2811 والنسائي في الكبرى 476/5 ح 9640 ، والحاكم 186/4 وصححه و أقره الذهبي والدارمي 44/1 ح 57) وقَالَ الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيثِ الأَشْعَثِ..

فالجواب: أن الله جل وعلا حينما كسا محمداً بالجمال كسا جمال محمد بالهيبة والجلال والوقار، فما كان أحد يجرؤ على أن يملأ عينيه من نور وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولذلك دخل أعرابي والنبي صلى الله عليه وسلم يتعبد لله جل وعلا فارتعد الأعرابي واصفر لونه، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ويقول له: (**هون عليك يا أخي! أنا لست ملكاً من الملوك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في مكة**) وهذا هو التواضع، وهو من أعظم أخلاقه صلى الله عليه وسلم. فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أعطى الحسن كله.

إذاً: كان النبي صلى الله عليه وسلم جميلاً ولكن جماله كساه الله بالجلال والوقار، فصلى الله عليه وسلم.

وورد في صحيح البخاري : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سُر. يعني. سعد وفرح فانظر إلى وجهه- فكأن وجهه قطعة من القمر).

*** **** ***

المبحث الرابع

الموازنة بينما جري للنبي ﷺ وما جرى ليوسف عليه السلام من الإيذاء

المطلب الأول : بيان ما أصاب يوسف عليه السلام من الإيذاء .

المطلب الثاني : بيان ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الإيذاء .

المطلب الأول

بيان ما أصاب يوسف عليه السلام من الإيذاء

مما هو معلوم أن إخوة يوسف عليه السلام قد آذوه وأخرجوه من بين أبويه وعشيرته وبسبب هذا الإخراج تغرب سنين طويلة بعيداً عن بلده ثم ابتلي الشهوة والرغبة وفتنة النساء فأخلصه الله لطاعته ، واختاره لنبوته ،واصطفاه لرسالته، ونجاه من السوء والفحشاء . ثم جمع الله شمله بأسرته ، ولم يكن ذلك في سبيل الله ، ثم اجتمع بهم يوسف في دار الغربة ، ثم ابتلي بالسيادة والقيادة حيث صار عزيز مصر.

فمما جاء في هذا المقام قوله تعالى : (**لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ. يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ**) سورة يوسف .

يقول أحد العلماء :

(تبدأ ابتلاءات يوسف عليه السلام برؤياه التى رأى بها احد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين، فحذّره أبوه يعقوب عليه السلام أن يقصّها على أخوته خوفا من أن يحسدوه، فقد كانت الرؤيا إشارة تكريم له وتشريف ، فكان حسدهم له اول ابتلاءاته :(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين) والحسد آفة الافات ،وكثيرا مايتعرض بعضنا له فكيف عالجه يوسف عليه السلام ؟ لقد امتثل لنصيحة والده فلم يتباهى امام أخوته ،بها بل التزم الصمت ،وعاشرهم بالاحسان والمودة والتودد، ليستل مافي قلوبهم من حسد ،وهكذا ينبغي لأحدنا أن يفعل اذا وجد من غيره حسدا على نعمة أن يتعاهده بالمودة والاحسان، ويحذر من التباهي والتفاخر عليه فهذا مما يوغر الصدور ويولد الحسد.

وتمضي الابتلاءات بيوسف عليه السلام ليتعرض لابتلاء الاعتداء والتآمر عليه والالقاء في الجّب من أقرب الناس اليه ، وكان ابتلاءا شديدا ان يتعرّض للاذى من أقرب الناس اليه ، وصدق الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد

ويلقى عليه السلام بالجّب وحيدا فريدا لا أنيس ولاصديق، في ظلمة الجب ووحشته "فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون" عندها لاملجأ الا الى الله ،ولامعين الا الله، ولاأنيس الا الله ،جاءته البشارة من الله لتطمئن قلبه ،وتهديء من روعه، وهذا هو السبيل- عباداللّه -عند اشتداد البلاء ووقوع الظلم والاذى أن يلجأ المؤمن الى الله، فبذكر الله تطمئن القلوب، وبتقوى الله تفرّج الكروب ،وبالتوكل على الله تزال الخطوب. **(ومن يتوكل على فهو حسبه).**

*** **** ***

وليس ابتلاء أشد من الاستعباد والّذل وتقييد الحرية، بعد الشرف والرفعة والسيادة، وهذا هو الابتلاء الثالث الذي تعرض له يوسف عليه السلام ، مرّت قافلة سيارة فأدلى ساقيهم دلوه في البئر فتشبث به يوسف، فلما استخرجه صاح بقومه مبشّرا بما لقيه فأسّروه بضاعه، وباعوه بثمن بخس :**(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)** سورة يوسف (20) وهو الكريم ابن الكريم سليل الانبياء يباع كالعبيد ،ولكنه عليه السلام صبر لهذا البلاء ،فالصبر زاد لاينفد وعلاج لايفشل ،لاسيما من كان صبره لله وبالله ومع الله :(**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)** النحل (127) فاز الصابرون بمعية الله وكفايته فالله مع الصابرين ، فكيف يبأس من كان الله معه ؟ .

وينتقل يوسف عليه السلام من تلك المحن المتتابعة الى احوال جديدة ، انتقل من وحشة البئر الى سعة القصر ،يخدم في بيت عزيز مصر وزير الملك الذي يحسن اليه ويكرم مثواه ليعيش حياة فيها سعة في الرزق ورفاهية في العيش ،فهل انتهت الابتلاءات وهل تحقق المقصود وهل تمت الرسالة؟

فما لبث يوسف عليه السلام أن تعرض لايتلاء شديد قلّ من ينجو منه ، انه ابتلاء الشهوة والرغبة ، ابتلاء الاغراء والاغواء وفتنة النساء ، فقد حاز عليه السلام على جمال الصورة، فقد أوتي شطر الحسن، وبلغ من الفتوة والرجولة مابلغ، ثم هو غريب لايعرفه احد تُسهَّل الفاحشة عليه، والادهى من ذلك وأمّر أن تدعوه سيدته لذلك، بل تهيء الاجواء وتغلّق الابواب و تراوده عن نفسه .

واسمعوا للقرآن يحكي هذا الابتلاء :(**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) سورة يوسف (23) فتنة عظيمة وابتلاء شديد فكيف نجا منه يوسف عليه السلام ، وهل توقفت الابتلاءات عنه ،هذا كما نعلمه في سياق السورة

لقد نجى الله تعالى نبيه الكريم يوسف عليه السلام من ابتلاء فتنة النساء لأنه أخلص لله تعالى في عبادته ،فأخلصه الله لطاعته ، واختاره لنبوته ،واصطفاه لرسالته، ونجاه من السوء والفحشاء ،**قال تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)** سورة يوسف(24) **لقد همّت هي بالسوء، أما هو فقد رأى برهان ربه فلم يهّم بسوء واستعصم بالله تعالى ،كما شهدت هي بذلك وقالت للنساء (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ)** سورة يوسف (32).

فمن اتقى الله حفظه وكفاه، كما أوصى رسول لله صلى الله عليه وسلم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: (احفظ الله يحفظك) [213]اهـ

*** **** ***

213 / ملخصا من خطبة للشيخ :يحيى سليمان العقيلي - في الانترنت .

المطلب الثاني

بيان ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الإيذاء

أما ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الإيذاء فهو أعظم بكثير مما أصاب يوسف عليه السلام والفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم أخرج لأجل الدين واجتمع شمله بعد الهجرة بعشيرته وكانوا قد أسلموا.

ومع أن ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخفى على أحد من المسلمين ، لكن لا بد من ذكر شئ من ذلك لتتم الموازنة ولتتضح الصورة في ذهن القارئ الكريم ، ويمكنني أن أقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام : ما قبل الهجرة ، وعند الهجرة ؟،وما بعدها:

القسم الأول : الأذى الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة :

وهذا القسم يقابل ما أصاب يوسف عليه السلام قبل وصوله إلى مصر،وسننقل فيما يلي بعض المواقف التي يتبين فيها شدة ما لاقاه صلى الله عليه وسلم من الأذى في سبيل الله تعالى من أقاربه وسادات قريش على وجه الخصوص:

1/ أبو لهب وزوجته يؤذيان النبي صلى الله عليه وسلم:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**) الشعراء(214) صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي؛ لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: (**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي**) قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: (**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت: (**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**) (المسد:1-2) رواه البخاري .

2/ وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره أن هبار بن الأسود **قال**: "كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه في ربه - سبحانه - ، فانطلق حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذي دنى فتدلى، فكان قاب

قوسين أو أدنى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**اللهم ابعث إليه كلباً من كلابك**)، ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بني ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: (**اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك**) قال: يا بني والله ما آمنُ عليك دُعاءه، فسرنا حتى نزلنا الشراة (وهي مأْسَدَة)، ونزلنا إلى صَوْمَعة راهب.

فقال الراهب: يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأسْدُ فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوةً والله ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، و افرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها، ففعلنا؛ فجاء الأسد فَشَمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تَقَبّض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمة فَفَضخ رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد"أ. هـ

3/ وعن ربيعة بن عباد الديلي وكان جاهليا أسلم : فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: (**أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**)، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: (**أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**) إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول: أنه صابئ كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب، قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً قال: لا والله إني يومئذ لأعقل" [214]

4/ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**}(المسد:1) جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله إنها امرأة بذيئة، وأخاف أن تؤذيك فلو قمت، قال: (**إنها لن تراني**) فجاءت فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك

214 / رواه أحمد في المسند برقم (16066) وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (4219) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه

هجاني، قال: لا وما يقول الشعر، قالت: أنت عندي مصدق وانصرفت، فقلت: يا رسول الله لم ترك؟ قال: **(لا، لم يزل ملك يسترني عنها بجناحه)** [215]

5/ وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : "قال ابن إسحاق: وكان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته: أبو لهب، والحكم بن أبى العاص بن أمية، وعقبة بن أبى معيط، وعدي بن الحمراء، وابن الأصداء الهذلي، وكانوا جيرانه لم يُسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص، وكان أحدهم فيما ذُكر لي يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان إذا طرحوا شيئاً من ذلك يحمله على عود ثم يقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق " .

ثم قال رحمه الله: (وعندي أن غالب ما روى مما تقدم من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه وهو يصلى، كما رواه ابن مسعود، وفيه أن فاطمة جاءت فطرحته عنه، وأقبلت عليهم فشتمتهم، ثم لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على سبعة منهم، وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو بن العاص من خنقهم له عليه السلام خنقاً شديداً) اهـ [216].

ومن الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النضر بن الحارث و أبو جهل وعقبة بن أبي معيط وغيرهم لكن اقتصرت على ما سبق ذكره خشية الإطالة .

*** **** ***

القسم الثاني : الأذى الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم عند الهجرة :

أ/ أما عند الهجرة فلأن الحدث جلل وخطير فقد بينه الله تعالى بقوله : **(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)** الأنفال (30).

---

215 / رواه ابن حبان في صحيحه برقم (6511) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح بشواهده ورواه الحاكم برقم (3376) وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

216 / السيرة النبوية لابن كثير (148/2) بتصرف يسير .

قال في تفسير المنار:

وأما قصة مكرهم الذي ترتب عليه هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وظهور الإسلام ، وخذلان الشرك ، ففيها روايات أوفاها رواية ابن إسحاق في سيرته ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم ، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنه بألفاظ متقاربة .

ننقل ما أورد السيوطي في الدر المنثور منها :

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (وإن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا، ليدخلوا دار الندوة واعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم مني رأي ونصح ، قالوا : أجل فادخل فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم في أمركم بأمره ، **فقال قائل** : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدهم.

فقال عدو الله الشيخ النجدي (الشيطان) : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظرا في غير هذا الرأي ، **فقال قائل :** فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وكان أمره في غيركم .**فقال الشيخ النجدي :** لا والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ، ويقتل أشرافكم ، قالوا : صدق والله فانظروا رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي لا أرى غيره ، قالوا : وما هذا ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأي ، القول ما قال الفتى لا أرى غيره . وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له .

فأتى جبريل - عليه السلام - النبي صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة ، وأذن الله عند ذلك في الخروج ، وأمرهم بالهجرة ، وافترض عليهم القتال فأنزل الله : **(أذن للذين يقاتلون)** سورة التوبة (39) الآية : فكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل في الحرب ، وأنزل بعد قدومه المدينة ، يذكره نعمته عليه وإذ يمكر بك الذين كفروا الآية اهـ. وسائر خبر الهجرة معروف .

قال عز وجل : **(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)** سورة الأنفال (30) أي: واذكر أيها الرسول في نفسك ، ما نقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك؛ لأنه حجة لك على صدق دعوتك، ووعد ربك بنصرك .

اذكر ذلك الزمن الغريب الذي يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك . بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الإيقاع بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك فأما الإثبات فالمراد به الشد بالوثاق والإرهاق بالقيد ، والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام ، وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التي لا يكون ضررها فيهم عظيما ، وهو ما بينته الرواية الآتية عنهم ، وأما الإخراج فهو النفي من الوطن.

القسم الثالث : الأذى الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة :

يتمث أى المشركين له صلى الله عليه وسلم في الحروبات التي شنوها عليه وعلى صحبه الكرام كأحد والأحزاب وغيرهما وآذاه اليهود بقبائلهم الثلاثة بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع بالحرب ومحاولة اغتياله صلى الله عليه وسلم . هذا كله أعظم مما أصاب يوسف عليه السلام في مصر بعد غربته عن وطنه وأهله وعشيرته ، ومما يدل على ذلك أن الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا هم أهله وعشيرته الذين تربى بينهم واحسن إليهم بينما الذين آذوا يوسف عليهم فهم غرباء عنه.

*** **** ***

الفصل الثالث

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود وسليمان عليهما السلام

المبحث الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود عليه السلام.

المبحث الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لسليمان عليه السلام.

المبحث الأول

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود عليه السلام

قال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية – بزيادات بذكر الأحاديث وشئ من التتوضيح - :

1/ أوتي داود عليه السلام تسبيح الجبال، ونظير ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم تسبيح الحصا وتسليم الحجر والجبال والشجر عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن**) رواه مسلم.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال (**كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله**) رواه الترمذي و الدارمي ، وصححه الألباني .

بل النبي صلى الله عليه وسلم سبح له الطعام صلى الله عليه وسلم ،فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (**كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فقلّ الماء ، فقال اطلبوا فضلة من ماء ، فجاءوا بإناءٍ فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حيّ على الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيتُ الماءَ ينبع من بين أصابعِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل**) رواه البخاري ، وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح تسبيح العنب والرطب والحصى .

2/ وأوتي داود عليه السلام تسخير الطير،كما قال تعالى (**نَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**) سورة ص (18-19) .

* * * * * * * * * *

قال أهل التفسير:

إنا سخرنا الجبال لتسبح مع داود عند تسبيحه لنا، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا.والتعبير بقوله مَحْشُورَةً يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه،

حتى لكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله- تعالى- وتقديسه.وتلك معجزة لأن شأن الطير النفور من الإنس.

وأوتي النبي صلى الله عليه وسلم نحو ذلك : ودليله ما أورده ابن كثير عن الأئمة [217]:

روى أبو داود الطيالسي: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فدخل رجل غيطة فأخرج بيضة حمرة فجاءت الحمرة ترف على رسول الله وأصحابه فقال: (**أيكم فجع هذه؟**)فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضتها.فقال: **(رده رده رحمة بها)**.

وروى البيهقي عن الحاكم وغيرهم عن الأصم عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله في سفر فمررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما.قال: فجاءت الحمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تفرش.- أي تطير حوله - فقال: (**من فجع هذه بفرخيها؟**)قال: فقلنا: نحن.قال: (**ردوهما**) فرددناهما إلى موضعهما فلم ترجع.

حديث آخر في ذلك وفيه غرابة: رواه البيهقي - في كتاب الدعوات الكبير - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الحاجة أبعد.قال: فذهب يوما فقعد تحت سمرة ونزع خفيه.قال: ولبس أحدهما فجاء طير فأخذ الخف الآخر فحلق به في السماء فانسلت منه أسود سالخ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**هذه كرامة أكرمني الله بها، اللهم إني أعوذ بك من شر من يمشي على رجليه ، ومن شر من يمشي على أربع ، ومن شر ما يمشي على بطنه**).

قلت : وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت **الحمُّرة تعرش** فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: من حرق هذه ؟ قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)**رواه أبو داود بإسناد صحيح .

* * * * * * * * * *

[217] / البداية والنهاية –(43/6) .

3/ **وأوتي داود عليه السلام إلانة الحديد وقد لينت الحجارة لنبينا صلى الله عليه وسم وصم الصخور حين استتر من المشركين يوم أحد،** مال برأسه الى الجبل ليخفي شخصه عنهم، فلين الله تعالى له الجبل حتى أدخل رأسه، وذلك ظاهر باق يراه الناس، وكذلك في بعض شعاب مكة حجر أصم استروح إليه صلى الله عليه وسلم في صلاته فلان له الحجر، حتى أثر فيه بذراعيه وساعديه وذلك مشهور، وهذا أعجب، لان الحديد يلينه النار ولم تر النار تلين الحجر،

4/ **وأوتي داود عليه السلام الحكمة، وفصل الخطاب،** وقد كانت الحكمة التي أوتيها نبينا صلى الله عليه وسلم، والشريعة التي شرعت له أكمل من كل حكمة وشرعة كانت قبله من الانبياء،

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (**أعطيت جوامع الكلم**) رواه مسلم . ووصفته أم المؤمنين عائشة . رضي الله عنها . بقولها : (**ما كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يسرد سردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه**) رواه الترمذي .

ولا شك أن العرب أفصح الامم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصحهم لفظا، وأجملهم لكل خلق جميل مطلقا .

5/ **وأوتي داود عليه السلام سرعة القراءة وحسن الصوت، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم حسن الصوت بتلاوة القرآن،** قال جبير بن مطعم: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغرب بالتين والزيتون فما سمع صوتا أطيب من صوته، وكان يقرأ ترتيلا كما أمره الله تعالى.

*** **** ***

المبحث الثاني

الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه سليمان عليه السلام.

عطاء الله تعالى لسيدنا سليمان عليه السلام مذكور في قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)) سورة النمل .

وفي قوله تعالى : (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة ص (34-39) .

وقد وقف العلماء مع هذه العطاءات الربانية لسيدنا سليمان عليه السلام وأجروا الموازنة بينها وبين عطائه تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم و أنا سأذكر ما أورده العلامة الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية:

1/ وأما ما أعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير: أي: نطقه مصدر مضاف لفاعله، أي: أن سليمان علم منطق الطير المعتاد له، لا أن الطير نفسه خرج عن عادته، فنطق بالعربية.

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله : (وعِلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها . وفائدة هذا العلم أن الله جعله سبيلاً له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القُوى الكثيرة ، وللطير دلالة في تخاطب أجناسها واستدعاء أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته ، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار وردها ونحو ذلك) .

وقد وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام نظير ذلك كما في الحديث الذي رواه أبو داود بلفظ: عن ابن مسعود قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش -أي تدنو- من الأرض، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**) ورواه الحاكم وصححه .

*** **** ***

2/ وأما تسخير الريح لسليمان عليه السلام : **كما قال: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً} الآية، أي: لينه حيث أصاب، أي: أراد {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} ، " فالريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر، تحمله أين أراد من أقطار الأرض**: سيرها من الغدوة بمعنى الصباح إلى الزوال "شهر" أي: مسيرته، ورواحها" أي سيرها من الزوال إلى الغروب "شهر تحمله أين أراد من أقطار الأرض" قال الحسن: كان يغدو من دمشق، ويقيل باصطخر، وبينهما شهر للراكب المسرع، ثم يروح من اصطخر، فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر

فقد أعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم البراق الذي هو أسرع من الريح، بل أسرع من البرق الخاطف، فحمله من الفرش إلى العرش في ساعة زمانية، وأقل مسافة في ذلك سبعة آلاف سنة، وتلك مسافة السماوات، وأقل مسافة في ذلك سبعة آلاف سنة، لأن بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وسمك كل سماء خمسمائة، فهي سبعة آلاف.

ورفع إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله ، وفي الشامية أعطي البراق سارية، مسيرة خمسين ألف سنة في أقل من ثلث ليلة، انتهى، وهذا كله على أحد القولين: أن العروج إلى السماوات كان على البراق، والصحيح الذي تقرر من الأحاديث الصحيحة؛ كما قال السيوطي وغيره: إنه كان على المعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، ولذا قال ابن كثير: لما فرغ من أمر بيت المقدس، نصب له المعراج، وهو السلم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق، كما قد يتوهم بعض الناس بل كان البراق مربوطًا على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة.

وبناءاً عليه نقول : الريح سخرت لسليمان لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا صلى الله عليه وسلم زويت له الأرض -أي جمعت- حتى رأى مشارقها ومغاربها، وفرق بين من يسعى إلى الأرض, وبين من تسعى له الأرض.

*** **** ***

3/ وأما ما أعطيه من تسخير الشياطين : كما قال تعالى : **(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)** الآية، أي: من أن يفسدوا ما عملوا، لأنهم إذا فرغوا من العمل قبل الليل أفسدوه، إن لم يشتغلوا بغيره.

وكما قال تعالى : **(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)** سورة ص(37-38) أي: يبني الأبنية العجيبة، وغواص في البحر يستخرج اللؤلؤ، ومقرنين مشدودين في الأصفاد: القيود بجمع أيديهم إلى أعناقهم ليكفوا عن كالبناء والغوص يعملون له ما يشاء من محاريب، وهي أبنية مرتفعة، يصعد إليها بدرج .

فما أوتيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مقابل ذلك أعظم : فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الشيطان عرض لي، فشد عليّ ليقطع الصلاة عليّ، فأمكنني الله منه فذعته، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قول سليمان: (رَبِّ اغْفِرْلِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) الآية، فرده الله خاسئًا ،

وأخرجه مسلم والبخاري أيضًا بلفظ: (**إن عفريتا من الجن تفلَّت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة**) ... فذكره، وهذا ظاهر في أن المراد غير إبليس، كما قال الحافظ: وهو نص في أنه تمكن منه، لكنه لم يربطه مراعاة لسليمان, وذعته : أي خنقته خنقًا شديدًا،

وخيرمما أوتيه سليمان من ذلك" التسخير "إيمان الجن بمحمد صلى الله عليه وسلم، فسليمان استخدمه ولم يؤمنوا به، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أسلوما على يديه وآمنوا به - ولا شيء أعلى من الإسلام - ودليل ذلك قوله تعالى : **(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ**

مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سورة الأحقاف (29-32) .

قال في التفسير الوسيط :

قال المفسرون : لما مات أبو طالب، خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف، يلتمس من أهلها النصرة، ويدعوهم إلى الإيمان ... أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به..

فانصرف صلّى الله عليه وسلّم عنهم، حتى إذا كان ببطن نخلة- وهو موضع بين مكة والطائف- قام يصلى من الليل، فمر به نفر من جن نصيبين- وهو موضع قرب الشام- فاستمعوا إليه وقالوا: أنصتوا.

وهناك روايات أخرى كثيرة في عدد هؤلاء الجن، وفي الأماكن التي التقوا فيها مع النبي صلّى الله عليه وسلّم وفيما قرأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليهم، وفيمن كان مع النبي صلّى الله عليه وسلّم خلال التقائه بهم ، ويبدو لنا من مجموع هذه الروايات أن لقاء النبي صلّى الله عليه وسلّم بالجن قد تعدد، وأن هذه الآيات تحكى لقاء معينا، وسورة الجن تحكى لقاء آخر.

وقوله تعالى : **(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)** سورة الجن (1-4) .

* * * * * * * * * *

4/ أما عد الجن من جنود سليمان عليه السلام : في قوله تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ) سورة النمل: (17) **فقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم ما هو خير منه : ألا وهو قتال الملائكة معه بل ومعهم جبريل عليهم السلام :**

فقد ثبت قتالهم في بدر كما في قوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)سورة الأنفال (9-14) .

وبهذا ثبت أن الملائكم من جملة أجناده عليه الصلاة والسلام باعتبار الجهاد وباعتبار تكثير السواد على طريقة الأجناد.

*** **** ***

5/ أما عد الطير من جملة أجناد سليمان عليه السلام في قوله تعالى : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) سورة النمل (17).

فقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم ما هو خير منه وأعجب منه ألا وهو حمامة الغار وتوكيرها في الساعة الواحدة، وحمايتها له من عدوه، والغرض من استكثار الجند إنما هو الحماية، وقد حصلت من أعظم شيء بأيسر شيء.

وبالجملة نقول : كلام الطير والوحش لسليمان عليه السلام فنبينا صلى الله عليه وسلم كلمه الحجر، وسبح في كفه الحصى، وهو جماد، وكلمه ذراع الشاة المسمومة -كما تقدم في غزوة خيبر ،وهو قوي في الإعجاز، أبلغ من إحياء الإنسان الميت، لأنه جزء حيوان دون بقيته، فهو معجزة لو كان متصلا بالبدن، فكيف وقد أحياه وحده منفصلا عن بقيته مع موت البقية، وأيضًا فقد أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل، ولم يكن يعقل في حياته، فصار جزؤه حيًا عاقلا، وأقدره الله على النطق والكلام، ولم يكن حيوانه يتكلم.

*** **** ***

الفصل الرابع

الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لهود ويحيى عليهما السلام

المبحث الأول : الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لهود عليه السلام.

المبحث الثاني : الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليحيى عليه السلام.

المبحث الأول

الموازنة بين بين عطاء الله للنبي صلى الله عليه وسلم وعطائه لهود عليه السلام

أوتي هود عليه السلام شيئان :

الأول : أوتي عليه السلام معجزة من أعجب المعجزات ألا وهو تحدي قومه في كونهم لن يصلوا إليه بسوء متوكلاً على ربه مع أنه رجل واحد وهم مئات الألوف : فإن الله تعالى لقد أمد هوداً بقوة المواجهة لقومه وصدق توكله تلك معجزته قبل إنزال الهلاك بالريح على قومه ، قال تعالى (**إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) سورة هود (54-56) .

قال في التفسير الوسيط:

(أى: لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم، وها أنذا في مواجهتكم، فانضموا إلى آلهتكم، وحاربونى بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إمهال، فإنى لن أكف عن الجهر بدعوتي، ولن أتراجع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه.

وهذا- كما يقول صاحب الكشاف- من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم) اهـ

وقال القرطبي رحمه الله تعالى :

(وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى . وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : فكيدوني جميعا . وكذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لقريش . وقال نوح - صلى الله عليه وسلم - فأجمعوا أمركم وشركاءكم الآية) اهـ

*** **** ***

وأوتي النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وأعظم ألا وهو مجابهة أهل مكة بأجمعهم فلم يقبل منهم الترغيب ولم يخف من ترهيبهم :

قال السيد رشيد رضا :

(قال عتبة بن ربيعة يوما وهو جالس في نادي قريش والنبي عليه الصلاة والسلام جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم كفرَّت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**قل يا أبا الوليد أسمع**»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: (فاسمع مني)، قال: أفعل، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم: {حم تَنزِيلٌ مّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَبٌ فُصّلَتْ ءايَتُهُ قُرْءانا عَرَبِيّا لّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرا وَنَذِيرا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} (فصلت:1 - 4). **ثم مضى رسول الله فيها يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) .**

*** **** ***

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

لقد ظن أبو الوليد في بادىء الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ما يعرضه عليه من مال وجاه وملك فأظهر له استعداد قريش لمنحه كل ما يبغي على ألا يتعرض لدينهم ولا يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام، ظن ذلك لأن الإنسان ولا سيما الفقير المحتاج يطمع في المال وتغره أبهة الملك فيتشبث بهما ويسعى إليهما ما وجد للسعي سبيلا، ولو كان أبو الوليد عرض ذلك كله أو بعضه على غير النبي صلى الله عليه وسلم لاغتبط به واتفق مع قريش في الحال وأراح نفسه وأصحابه من العناء والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل في كل وقت.

ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن طامحا إلى شيء من ذلك أصلا ولم يكن في وسعه أن يتنحى عن الدعوة إلى الإسلام مهما حاولت قريش صرفه عنها، ألا ترى أنه قال لعمه أبي طالب: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، وما ذلك إلا لأن الله سبحانه قد أمره بنشر الدعوة حيث قال: {**يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ**} (المدثر: 2، 1)، وقال عزّ شأنه: {**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**} (المدثر: 7)، أي: اصبر على مشاق التكاليف وأذى المشركين، فكيف بعد هذا الأمر الإلهي تخور عزيمته وتفتر قوته ولا يصبر على كل ما يصيبه من الإيذاء؟ بل كيف يغتر بحطام الدنيا وينخدع لما تعرضه عليه قريش من ملك وجاه ومال).[218]

*** **** ***

[218]/ من كتاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - تأليف السيد رشيد رضا

الثاني : لقد نصر الله تعالى هودا عليه السلام بالريح الصرصر كما في قوله تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)

قال الرازي : الصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل : الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر ، فهي تحرق بشدة بردها .

وأما العاتية ففيها أقوال:

القول الأول : قال الكلبي : عتت على خزنتها يومئذ ، فلم يحفظوا كم خرج منها ، ولم يخرج قبل ذلك ، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم ، قال عليه الصلاة والسلام : طغى الماء على خزانه يوم نوح ، وعتت الريح على خزانها يوم عاد ، فلم يكن لها عليها سبيل ، فعلى هذا القول : هي عاتية على الخزان.

القول الثاني : قال عطاء عن ابن عباس : يريد الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو استناد إلى جبل ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم.

القول الثالث : أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان ، إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ، ومنه قولهم : عتا النبت ، أي بلغ منتهاه وجف ، قال تعالى : (**وقد بلغت من الكبر عتيا**) (مريم : 8) فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة.

وأوتي النبي صلى الله عليه وسلم مثل معجزة تلك الريح التي أوتيها هود عليه السلام وأعظم ألا وهو أنه نصره الله تعالى يوم الأحزاب: فقال تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)**سورة الأحزاب (9-10) .

وقصة غزوة الأحزاب معروفة وهي مذكورة بطولها في كتب السيرة النبوية وما يهمنا هو كيف نصر الله النبي صلى الله عليه وسلم بالريح فق ورد عن حذيفة بن اليمان قال :(يا ابن أخي ، والله لو رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ، ثم

التفت فقال : (مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟) يشرط له النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع (أدخله الله الجنة " . قال : فما قام رجل .

ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال : " من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة " . فما قام رجل من القوم; من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد .

فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال : (يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا).

قال : فذهبت فدخلت [في القوم] ، والريح وجنود الله ، عزوجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح الذي ترون . والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي : " ألا تحدث شيئا حتى تأتيني " ثم شئت ، لقتلته بسهم) .

هذه رواية محمد بن إسحاق وقد رواها مسلم في صحيحه مختصرة .

* * * * * * * * * *

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور).

قال ابن حجر رحمه الله : قوله (بالصَّبا) ، يقال لها القبول - بفتح القاف - لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس ، وضدها الدبور وهي التي أهلكت بها قوم عاد .

ومن لطيف المناسبة كون **القَبول** نصرت أهل القبول وكون **الدَّبور** أهلكت أهل الإدبار ، وأن الدبور أشد من الصبا لما سنذكره في قصة عاد أنها لم يخرج منها إلا قدر يسير ومع ذلك استأصلتهم ، قال الله تعالى فهل ترى لهم من باقية .

ولما علم الله رأفة نبيه - صلى الله عليه وسلم - بقومه رجاء أن يسلموا سلط عليهم الصبا فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة ، ومع ذلك فلم تهلك منهم أحدا ولم تستأصلهم . ومن الرياح أيضا الجنوب والشمال ، فهذه الأربع تهب من الجهات الأربع ، وأي ريح هبت من بين جهتين منها يقال لها النَّكْباء) اهـ [219].

*** **** ***

219 / فتح الباري شرح صحيح البخاري – شرح الحديث رقم (988) .

المبحث الثاني

الموازنة بين بين عطاء الله للنبي صلى الله عليه وسلم وعطائه ليحيى عليه السلام

أولاً: عطاء الله تعالى لسيدنا يحيى عليه السلام أَخْذ الكتاب بقوة :

ما يلفت الإنتباه في قصة يحيى عليه السلام ما ورد في سورة مريم **(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)** مريم (12).

قال في أضواء البيان:

(أي : خذ التوراة بقوة ، أي : بجد واجتهاد ، وذلك بتفهم المعنى أولا حتى يفهمه على الوجه الصحيح ، ثم يعمل به من جميع الجهات ، فيعتقد عقائده ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويتأدب بآدابه ، ويتعظ بمواعظه ، إلى غير ذلك من جهات العمل به ، وعامة المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا : التوراة ، وحكى غير واحد عليه الإجماع) .

وقال السعدي رحمه الله تعالى:

لما وصل عليه السلام إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره ولهذا قال: { **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** } أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه.

وكما ترى هذا أمر من الله بالقول لسيدنا يحيى عليه السلام أن يأخذ الكتاب بجد واجتهاد وأن يعمل به.

*** **** ***

وأما عطاء الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم مما يقابل ذلك :

فقد أُمر صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ الكتاب بالفعل لا بمجرد الخطاب القولي ،وهو أقوى في هذا المقام، وقد ورد ذلك في حديث بدء الوحي في صحيح البخاري ، ونصه:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : (**أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم فرجع بها رسول الله**) ... الخ

و أيضاً من الفارق بين ما أمر به سيدنا يحيى عليه السلام في الأخذ الكتاب أن أمره جاء مجملاً

وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد أمره الله تعالى أن يأخذ بتفاصيل الكتاب ،

ومن ذلك : قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَوَأْمُرْبِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف (199) .

قال في التفسير الوسيط:

(خُذِ الْعَفْوَ)العفو: يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه. أى: خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس، وارض منهم بما تيسر من أعمالهم وتسهل من غير كلفة. ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا، وكن لينا رفيقا في معاملة أتباعك، فإنك **(لَوْكُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) .**

وأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) أى: مر غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال، وهو كل ما عرف حسنه في الشرع، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير، فإن النفوس حين تتعود الخير الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال، يسلس قيادها، ويسهل توجيهها.

(وَأْعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ) الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والكلمات فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء لأن الرد على أمثال هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدى إلى خير، ولا تنتهي إلى نتيجة. والسكوت عنهم احتزام للنفس، واحترام للقول، وقد يؤدى الإعراض عنهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها.

وهذه الآية على قصرها تشتمل- كما قال العلماء- على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وهي طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار، وقد جاءت في أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله- تعالى- وأبطال الشرك والشركاء، لكي تبين للناس في كل زمان ومكان أن التحلي بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد، الفرد الصمد.

*** **** ***

وقال القرطبي رحمه الله تعالى : هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله **خُذِ الْعَفْوَ** دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ** الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغنياء، وغير ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة.

ثانياً : عطاء الله تعالى لسيدنا يحيى عليه السلام الحكم صبياً :

في قوله: (**وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**) أى: وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا الْحُكْمَ أى: فهم الكتاب والعمل بأحكامه، وهو في سن الصبا.قيل: كان سنه ثلاث سنين، وقيل سبع سنين.

قال الآلوسى رحمه الله تعالى : «أخرج أبو نعيم، وابن مردويه، والديلمي، عن ابن عباس، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال في ذلك: (**أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين**) .

شبهة وجوابها حول هذا التفسير:

قال الجمل رحمه الله في حاشيته الجلالين : فإن قلت: كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟.

قلت: لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات- إذا ثبت هذا - فلا تمنع صيرورة الصبي نبيا.

وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير.

والذي تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا: العلم النافع مع العمل به، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها.

وهو ماأشار إليه ابن كثير بقوله : (**وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**) أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث.

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقت ، قال : فلهذا أنزل الله : (**وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**) .

وأما عطاء الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم مما يقابل ذلك :

يكفي في هذا المقام أن نعلم ما جرى له صلى الله عليه وسلم في طفولته من حادثة شق الصدر:

فقد ثبت شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات: والذي يهمنا هنا هو الأول وكان في طفولته عند حليمة لنزع العلقة التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك، والحديث في ذلك ثابت صحيح أخرجه مسلم وغيره ولفظ مسلم (**عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئيره- فقالوا إن محمداً قد قتل.**

فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: أرى أثر المخيط في صدره). والظئير المرضعة وهي هنا حليمة كما هو معلوم.

*** **** ***

الفوائد المستفادة من شق صدره صلى الله عليه وسلم :

استنبط بعض العلماء عدداً الفوائد ، ومن ذلك :

1/ كان ذلك من دلائل نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، ومن الإرهاصات والمقدّمات لبعثته.

2/ فيه إعداد للعصمة من الشرّ ومن عبادة غير الله :فلا يحلّ في قلبه شيء إلاّ التّوحيد، وقد دلّت أحداث صباه على تحقّق ذلك، فلم يركب الآثام، ولم يعبد الأصنام من صغره.

فقد كان هناك طائفةً من العرب بقيت على ملّة إبراهيم، وعُرِفوا بالحنفاء، ومن أشهرهم زيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد رضي الله عنه أحدِ العشرة المبشّرين بالجنّة.

إنّه زيد الّذي قال فيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم - فيما رواه أحمد والطبراني عن سعيد زيد(**إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً**) ومنهم قُسّ بن ساعدة الإيادي الذي كان يصعد على ظهر الكعبة ويدعو النّاس إلى التّوحيد.

ولكنّ هؤلاء جميعهم عبدوا في صغرهم ومرحلة شبابهم الأصنام. أمّا سيّد الأنام، محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ما سجد لصنم قط، وما عبد صنما قط.

روى الإمام أحمد عَنْ الزّبير بن العوّام قَالَ: حَدَّثَنِي جَارٌ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: (**أَيْ خَدِيجَةُ ! وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ! وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ أَبَدًا**).

3/ وإنّ الله كان يربّيه على مكارم الأخلاق، فقد روى البخاري ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ، وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: **يَا ابْنَ أَخِي ! لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الْحِجَارَةِ ! قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا صلّى الله عليه وسلّم.**

4/ وقال بعض العلماء :

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكر، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فنأى عن الخرافات والأباطيل، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك فيه وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعُزَّى.

*** **** ***

الخاتمة

لم يدر بخلدي عند ابتدائي في تأليف هذا الكتاب أن يصل إلى هذا العدد من الصفحات إلا أن الأمر لا يُستغرب لأن مادته مأخوذة من كتاب الله تعالى وهو كتاب لا ينفد عطاؤه (**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**) الكهف (109) **ولا تنقضي عجائبه** ،(**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**) سورة الجن (1).

لقد احتوى الكتاب من حيث لم أقصد تفصيلاً حسناً وعلماً وافراً عن مناقب سادات الأنبياء والرسل وفضائلهم ومعجزاتهم ، وما أكرمهم الله تعالى به من العطاءات الربانية وإنما كان القصد الإشارة إلى هذه الأشياء ثم بيان ما أكرم الله تعالى به نبينا وأسوتنا محمداً صلى الله عليه وسلم ليتجلى للقارئ الكريم علو قدر وسمو منزلته عند ربه تعالى بل لتتجلى تلك العناية الإلهية والمواهب الربانية التي نالها ولم ينلها أحد من النبيين عليهم السلام فضلاً عن بقية البشر أجمعين.

ومهما كتب المؤلفون في معرفة تلك المنزلة التي نالها صلى الله عليه وسلم فإنهم لن يبلغوا عشر معشار ذلك كيف لا وقد قال الله تعالى في حقه (نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) سورة القلم (1-4) .

وقال تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) سورة النجم(1-11) .

تقول الأستاذة أمل حميد محمد العوفي :

لم يكتب لأحدٍ من البشر من الأثر والخلود والعظمة ما كتب لصاحب الخلق الكريم - صلى الله عليه وسلم،ولقد دونت في سيرته الكتب، ودبجت في مديحه القصائد، وعمرت بذكره المجالس، وبقيت عظمته قمة سامقة لاتطالها الظنون تقلبت به صروف الحياة من قوة وضعف، وغنى وفقر، وكثرة وقلة، ونصر وهزيمة، وظعن وإقامة، وجوع وشبع، وحزن وسرور، فكان قدوة في ذلك كله، وحقق عبودية الموقف لربه كما ينبغي له. ظل في مكة ثلاث عشرة سنة، وما آمن معه إلا قليل، فما تذمّر ولا ضجر، وجاءه أصحابه يشتكون إليه ويسألونه الدعاء والاستنصار فحلف على نصر الدين وتمام

الأمر، وأنكر عليهم أنهم يستعجلون، فكان الأمر كما وعد، علماً من أعلام نبوته، ونصراً لأمر الله، لا للأشخاص. وكان من نصره أن تأتيه وفود العرب من كل ناحية مبايعة على الإسلام والطاعة فما تغير ولا تكبّر، ولا انتصر لنفسه من قوم حاربوه وآذوه وعاندوا دينه.

وصدق القائل :

هُوَ النَّبِيُّ الذي آياتُهُ ظَهَرَتْ منْ قبلِ مظهرِهِ للنَّاسِ في القِدَمِ

مُحَمَّدُ المُصْطَفى المُخْتَارُ من خُتِمَتْ بمجدهِ مُرْسَلو الرحمنِ للأُمَمِ

فذكرُهُ قدْ أتى في هلْ أتى وسبا وفضلُهُ ظاهرٌ في النُّونِ والقَلَمِ

إذا رأتهُ الأعادي قال حازمهم حتَّامَ نَحْنُ نُساري النَّجْمَ في الظُّلَمِ

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله علي النبي الأمي محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

*** **** ***

تَـمَّ الكـتابُ ولِلَّـهِ الحَمْـدُ والمِـنَّـةُ

أهم المراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن :

1/ الإكليل في استنباط التنزيل - للعلامة عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي .

2/ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – للعلامة محمد الأمين الشنقيطي .

3/ تفسير القرآن العظيم المشهور بـ "تفسير ابن كثير"، للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير .

4/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) – للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

5/ التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب – للفخر الرازي .

6/ التفسير الوسيط للقرآن الكريم - للدكتور محمد سيد طنطاوي .

7/ تفسير المنار – للسيد محمد رشيد رضا .

8/ تتمة أضواء البيان – للشيخ عطية محمد سالم .

9/ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) – للعلامة محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

ثانياً : كتب الحديث النبوي وشروحها .

1/ صحيح البخاري .

2/ صحيح مسلم .

3/ سنن الترمذي .

4/ سنن أبي داود .

5/ مسند الإمام أحمد بن حنبل .

6/ فتح الباري شرح صحيح البخاري - للعلامة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

7/ جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم– لابن رجب الحنبلي .

8/ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - للعلامة الملا على القاري .

م	الموضوع	صفحة

الغماري .

10/ مشكاة المصابيح - للعلامة محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب التبريزي .

ثالثاً : السيرة النبوية والتراجم والتاريخ :

1/ البداية والنهاية – للعلامة ابن كثير .

2/ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني.

3/ خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء - للعلامة الصادق بن محمد بن إبراهيم .

4// نضرة النعيم في أخلاق النبي الكريم – لمجموعة من العلماء .

رابعاً : مواقع الشبكة العنكبوتية :

1/ الإسلام سؤال وجواب .

2/ الشبكة الإسلامية (إسلام ويب) .

3/ موقع الدرر السنية .

8/ موقع ملتقى أهل التفسير .

فهارس الموضوعات

1	المقدمة	4
2	تمهيد : بيان مفهوم الموازنة والخصائص والفضائل والمعجزات .	15
3	الباب الأول :بيان أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشروما لهم من الخصائص .	22
4	الفصل الأول: ذكر الأدلة على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر على الإطلاق .	23
5	المبحث الأول : دلالة القرآن الكريم على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر على الإطلاق.	24
6	المبحث الثاني : دلالة السنة والنظر الصحيح على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل البشر.	27
7	الفصل الثاني: بيان الخصائص التي اختص الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام(15 خصوصية).	31
8	الباب الثاني : بيان أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام .	41
9	الفصل الأول : حكم التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام .	42
10	الفصل الثاني : الأدلة على أن النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء (23دليلاً) .	46
11	الباب الثالث : الموازنة بين النبي ﷺ وبين جميع الأنبياء في الفضائل المشتركة	62
12	مدخل .	63
13	الفصل الأول :الموازنة بين الميثاق المأخوذ من الأنبياء عليهم السلام والميثاق المأخوذ من النبي ﷺ .	64
14	الفصل الثاني : الموازنة بين وحي الله تعالى للأنبياء عليهم السلام ووحيه للنبي ﷺ .	68
15	ا المبحث الأول : وحي الله تعالى للأنبياء عليهم السلام .	69
16	المبحث الثاني : اختصاص النبي ﷺ بأن الله جمع له في الوحي مراتب عديدة .	71
17	الفصل الثالث: الموازنة بين علم الأنبياء عليهم السلام وعلم النبي ﷺ .	74
18	المبحث الأول : بيان ما يتعلق بعلوم بعض الأنبياء عليهم السلام .	75
19	المبحث الثاني : بيان فضل علم النبي ﷺ على جميع علوم الأنبياء عليهم السلام .	77
20	الفصل الرابع: الموازنة بين رحمة النبي ﷺ ورحمة الأنبياء السابقين .	84
21	المبحث الأول : بيان اتصاف الأنبياء عليهم السلام بالرحمة .	85
22	المبحث الثاني : بيان اتصاف النبي ﷺ بالرحمة .	87
23	الفصل الخامس: الموازنة بين خُلق النبي صلى ﷺ وخُلق الأنبياء عليهم السلام.	97
24	المبحث الأول : حديث القرآن عن خُلُق الأنبياء عليهم السلام .	98

25	المبحث الثاني : بيان كريم أخلاق النبي ﷺ مما لا يحيط به وصف .	102
26	الفصل السادس: الموازنة بين أتباعه ﷺ وبين أتباع الأنبياء في الدنيا والآخرة.	113
27	مدخل .	114
28	المبحث الأول : ذكر نموذجين من تعامل أصحاب الأنبياء عليهم السلام .	115
29	المبحث الثاني : صور من تعامل الصحابة الكرام مع نبينا ﷺ .	122
30	الفصل السابع: الموازنة بين استغفار الأنبياء عليهم السلام واستغفار النبي ﷺ .	130
31	المبحث الأول : ما ورد من الاستغفار في حق الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم .	131
32	المبحث الثاني : ما ورد من الاستغفار في حق النبي ﷺ .	135
33	الفصل الثامن : الموازنة بين أدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم السلام .	144
34	المبحث الأول :الموازنة بين دعائه ﷺ لأمته وبين دعاء كل نبي لأمته .	145
35	المبحث الثاني : الموازنة بين استجابة الله لأدعية النبي ﷺ وأدعية الأنبياء عليهم السلام .	150
36	المطلب الأول : استجابة الله تعالى لأدعية الأنبياء عليهم السلام .	151
37	المطلب الثاني : استجابة الله تعالى لأدعية النبي صلى الله عليه وسلم .	156
38	المطلب الثالث :دعاء الأنبياء عليهم السلام على الكفار.	161
39	الباب الرابع : الموازنة بين عطاء الله تعالى للنبي ﷺ وعطائه لأولي العزم .	164
40	مدخل .	166
41	الفصل الأول : الموازنة بين عطاء الله تعالى للنبي ﷺ وعطائه لإبراهيم عليه السلام .	167
42	مدخل : لمحة في بيان ما ذكر في القرآن في علو منزلة الخليل عليه السلام .	169
43	المبحث الأول : الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقام الهداية .	171
44	المطلب الأول : امتنان الله تعالى على الخليل عليه السلام بالهداية .	172
45	المطلب الثاني : امتنان الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية .	174
46	المبحث الثاني : الموازنة بين إبراهيم الخليل ونبينا عليهما الصلاة والسلام في مقامات الكفاية والرعاية والحماية .	179
47	المطلب الأول : رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وكفايته.	180
48	المطلب الثاني : رعاية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وكفايته .	183
49	المطلب الثالث : رعاية الله تعالى للخليل عليه السلام وحمايته من شر الأعداء .	190
50	المطلب الرابع : رعاية الله تعالى للنبي ﷺ وحمايته من شر الأعداء،	193
51	المبحث الثالث : الموازنة بين النبي والخليل عليهما الصلاة والسلام في مقامي الخلة والمحبة.	197

52	المطلب الأول : بيان مقام الخلة التي أعطيها إبراهيم عليه السلام .	198
53	المطلب الثاني : بيان مقام الخلة التي أعطيها النبي ﷺ وثمارها (11فضيلة)	207
54	المبحث الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام ربه وإعطاء الله للنبي ﷺ دون سؤال.	218
55	المطلب الأول : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (ولا تخزني يوم يبعثون) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) .	219
56	المطلب الثاني : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) .	222
57	المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) وبين عطاء الله للنبي ﷺ :(ورفعنا لك ذكرك).	226
58	المحور الأول : دعا الخليل عليه السلام ربه بقوله : (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) .	226
59	المحور الثاني : الله تعالى أخبر النبي ﷺ بقوله (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .	228
60	المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال الخليل عليه السلام (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وبين عطاء الله للنبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)	231
61	المحور الأول : سأل الخليل عليه السلام ربه المغفرة في قوله تعالى .	232
62	المحور الثاني : أخبر الله تعالى النبي ﷺ بقوله (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .	236
63	المبحث الخامس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من المعجزات الحسية وبين ما أعطيه النبي ﷺ من جنس ذلك .	238
64	المطلب الأول : الموازنة بين معجزة تكسير الخليل عليه السلام للأصنام وتكسير ﷺ لها .	239
65	المحور الأول : ما ورد في شأن تكسير الخليل عليه السلام للأصنام .	239
66	المحور الثاني : ما ورد في شأن تكسير النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام .	243
67	المطلب الثاني : الموازنة بين معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار وما أعطيه النبي ﷺ مقابلها.	245
68	المحور الأول : معجزة إلقاء الخليل عليه السلام في النار .	245
69	المحور الثاني : ما أعطيه النبي ﷺ مقابل إلقاء الخليل عليه السلام في النار.	247
70	المبحث السادس : الموازنة بين ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض وبين ما أعطيه النبي ﷺ مما يقابل ذلك	250
71	المطلب الأول : بيان ما أعطيه الخليل عليه السلام من معرفة ملكوت السموات والارض .	251

72	المطلب الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ من معرفة ملكوت السموات والارض .	258
73	الفصل الثاني :الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لموسى عليه السلام.	263
74	مدخل : في التعريف بمنزلة موسى الكليم عليه السلام وكثرة أعداد أمته ومعاناته معهم .	265
75	المبحث الأول : الموازنة بين مقامي الرعاية والمحبة اللتين أعطيهما النبي ﷺ واللتين أعطيهما موسى عليه السلام .	271
76	المطلب الأول : الموازنة بين مقام الرعاية التي أعطيها النبي ﷺ والتي أعطيها موسى عليه السلام .	272
77	المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام الرعاية .	273
78	المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم في مقام الرعاية .	275
79	المطلب الثاني : الموازنة بين مقام المحبة التي أعطيها النبي ﷺ موسى عليه السلام.	279
80	مدخل .	280
81	المحور الأول : بيان ما أعطيه موسى عليه السلام في مقام المحبة .	280
82	المحور الثاني : بيان ما أعطيه النبي ﷺ في مقام المحبة .	282
83	المبحث الثاني : الموازنة بين معجزات موسى عليه السلام ومعجزات النبي ﷺ .	293
84	المطلب الأول : الموازنة بين معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر ومعجزة النبي ﷺ في انشقاق القمر.	294
85	المحور الأول : بيان ما كان من معجزة موسى عليه السلام في انفلاق البحر.	295
86	المحور الثاني : بيان ما كان من معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في انشقاق القمر .	298
87	المطلب الثاني : الموازنة بين الآية الكبرى والآيات التي أعطيها النبي ﷺ والآية الكبرى والآيات التي أعطيها موسى عليه السلام .	302
88	مدخل .	303
89	المحور الأول : الآية الكبرى في حق موسى عليه السلام .	303
90	المحور الثاني : الآية الكبرى في حق النبي صلى الله عليه وسلم .	305
91	المطلب الثالث : الموازنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات موسى عليه السلام الحسية .	310
91	المبحث الثالث :الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه وعطاء الله للنبي ﷺ قبل أن يسأل	321
92	مدخل .	322
93	المطلب الأول : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام انشراح صدره وبين شرح الله لصدر النبي ﷺ دون سؤال .	323

94	المحور الأول : سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره .	324
95	المحور الثاني : بيان أن الله تعالى شرح للنبي ﷺ صدره دون سؤال .	328
96	المطلب الثاني :الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام التيسير وبين تيسير الله النبي ﷺ دون سؤال.	334
97	المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه التيسير.	335
98	المحور الثاني : بيان أن الله تعالى يسر للنبي ﷺ أمره قبل السؤال .	335
99	المطلب الثالث : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام حل عقدة من لسانه وبين تيسير الكلام للنبي ﷺ دون سؤال .	342
100	المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه .	343
102	المحور الثاني : بيان تيسير الله تعالى الكلام للنبي ﷺ دون سؤال .	347
103	المطلب الرابع : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه وبين رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج دون سؤال.	351
104	المطلب الخامس : الموازنة بين سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا وبين إرضاء الله للنبي ﷺ دون سؤال .	356
105	المحور الأول : بيان سؤال موسى عليه السلام ربه الرضا .	357
106	المحور الثاني : بيان أن النبي ﷺ قد أعطاه ربه الرضا قبل أن يسأل .	359
107	المبحث الرابع :الموازنة بين وصف الشرع الذي أعطيه النبي ﷺ ووصف الشرع الذي أعطيه موسى عليه السلام .	361
108	المطلب الأول : الموازنة بين وصف شرعي النبي ﷺ وموسى السلام من حيث التيسير والتشديد .	362
109	المحور الأول : بيان ما ورد في شريعة موسى عليه السلام من التشديد على بني إسرائيل.	362
110	المحور الثاني : بيان ما ورد في شريعة النبي صلى الله عليه وسلم من اليسر ورفع الحرج.	365
111	المطلب الثاني:الموازنة بين وصف شرعيهما عليهما الصلاة والسلام من حيث الحفظ من التحريف.	370
112	المحور الأول : بيان ما دخل في شريعة موسى عليه السلام من التبديل والتحريف	371
113	المحور الثاني: بيان أن الله تعالى تكفل بحفظ شريعه عليه الصلاة والسلام من التحريف والتغيير.	373
114	الفصل الثالث :الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعيسى عليه السلام .	378
115	مدخل : بيان الخصائص التي اختص الله تعالى بها عيسى عليه السلام .	380

116	المبحث الأول : الموازنة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحواري عيسى عليه السلام.	382
117	المطلب الأول : بيان كيف تعامل الحواريون مع عيسى عليه السلام .	383
118	المطلب الثاني : بيان كيف تعامل الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا النبي ﷺ .	386
119	المبحث الثاني: الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في الإخبار بالغيبيات.	389
120	المطلب الأول : بيان ما ورد في معجزة إخبار عيسى عليه السلام بالغيبيات .	390
121	المطلب الثاني : بيان ما ورد في معجزة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيبيات .	392
122	المبحث الثالث : الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى وإحياء الموتى .	402
123	المطلب الأول: الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في شفاء المرضى	402
124	المحور الأول :بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي عيسى عليه السلام .	403
125	المحور الثاني : بيان معجزة شفاء المرضى علي يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	405
126	المطلب الثاني : الموازنة بين معجزتي النبي ﷺ وعيسى عليه السلام في إحياء الموتى.	407
127	المحور الأول : بيان معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام .	407
128	المحور الثاني : بيان معجزة إحياء الموتى للنبي صلى الله عليه وسلم .	409
129	المبحث الرابع : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام في ثلاثة مواطن وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ .	411
130	المطلب الأول : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند ولادته وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ .	412
131	المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم ولادته .	412
132	المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عيه وسلم يوم ولادته .	414
133	المطلب الثاني : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند موته وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ .	418
134	المحور الأول : إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم موته .	419
135	المحور الثاني : إكرام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم موته .	423
136	المطلب الثالث : الموازنة بين إكرام الله تعالى لعيسى عليه السلام عند يوم البعث وما يقابل ذلك في حق النبي ﷺ .	425
137	المحور الأول : بيان ما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام عند يوم البعث.	425

138	المحور الثاني : بيان ما أكرم الله تعالى به ﷺ عند يوم البعث .	428
139	الفصل الرابع : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لنوح عليه السلام .	431
140	مدخل : لمحة من مناقب وخصائص سيدنا نوح عليه السلام .	432
141	المبحث الأول :الموازنة بين توكل نوح عليه السلام وتوكل النبي ﷺ الخاتمة في مواجهة الكفار.	433
142	مدخل	434
143	المطلب الأول : بيان أن توكل نوح عليه السلام في مواجهة الكفار من المعجزات .	435
144	المطلب الثاني : بيان أن توكل النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة الكفار من المعجزات .	438
145	المبحث الثاني : الموزانة بين دعاء نوح عليه السلام ودعاء النبي ﷺ على الكفار.	441
146	المطلب الأول : دعاء نوح عليه السلام على الكافرين واستجابة الله له .	442
147	المطلب الثاني : دعاء النبي صلى اله عليه وسلم على الكافرين واستجابة الله له .	444
148	المبحث الثالث : الموزانة بين معجزة سيفنة نوح عليه السلام وما أعطيه النبي ﷺ مما يقابلها.	450
149	المطلب الأول : بيان معجزة سفينة نوح عليه السلام.	451
150	المطلب الثاني : بيان ما أعطي النبي ﷺ مقابل معجزة السفينة .	456
151	الباب الخامس :الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لعدد من الأنبياء عليهم السلام .	460
152	الفصل الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لآدم عليه السلام.	461
153	مدخل : لمحة في بيان بعض مناقب آدم عليه السلام .	462
155	المبحث الأول : الموازنة بين خَلْق آدم عليه السلام وخَلْق النبي ﷺ .	463
156	المطلب الأول : بيان ما شرف الله تعالى به آدم عليه السلام في خَلْقه .	464
157	المطلب الثاني : بيان ما شرف الله تعالى به النبي ﷺ في خَلْقه .	466
158	المبحث الثاني : الموازنة بين تشريف آدم عيه السلام بسجود الملائكة له وبتشريف النبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه.	472
159	المطلب الأول : بيان تشريف الله تعالى آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له .	473
160	المطلب الثاني : بيان تشريف الله تعالى للنبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه .	476
162	المبحث الثالث : الموازنة بين علم آدم عليه السلام بالأسماء وعلم النبي ﷺ .	480
162	المطلب الأول : بيان علم آدم عليه السلام بالأسماء .	481
163	المطلب الثاني : بيان تفوق علم النبي ﷺ على علم آدم عليه السلام .	485

164	الفصل الثاني : الموازنة بين بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليوسف عليه السلام.	490
165	مدخل .	491
167	المبحث الأول : الموازنة بين تمام النعمة للنبي ﷺ وليوسف عليه السلام.	492
168	المطلب الأول : بيان تمام النعمة في حق سيدنا يوسف عليه السلام .	493
169	المطلب الثاني : بيان تمام النعمة في حق النبي صلى الله عليه وسلم	495
170	المبحث الثاني : الموازنة بين تأويل النبي ﷺ للرؤى وتأويل يوسف عليه السلام.	498
171	المطلب الأول : علم سيدنا يوسف عليه السلام بتعبير الرؤى .	499
172	المطلب الثاني : علم النبي صلى الله عليه وسلم بتعبير الرؤى .	501
173	المبحث الثالث : الموازنة بين جمال النبي صلى الله عليه وسلم وجمال يوسف عليه السلام.	504
174	المطلب الأول : بيان ما أوتيه سيدنا يوسف عليه السلام من جمال الصورة .	505
175	المطلب الثاني : بيان ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من جمال الصورة .	507
176	المبحث الرابع : الموازنة بين ما جري للنبي ﷺ وما جرى ليوسف عليه السلام من الإيذاء .	511
177	المطلب الأول : بيان ما أصاب يوسف عليه السلام من الإيذاء .	512
178	المطلب الثاني : بيان ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الإيذاء .	515
179	الفصل الثالث : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود وسليمان عليهما السلام .	520
180	المبحث الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود عليه السلام .	521
181	المبحث الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لداود وسليمان عليهما السلام .	524
182	الفصل الرابع: الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه لهود ويحيى عليهما السلام .	529
183	المبحث الأول : الموازنة بين عطاء الله للنبي صلى الله عليه وسلم وعطائه لهود عليه السلام.	530
184	المبحث الثاني : الموازنة بين عطاء الله للنبي ﷺ وعطائه ليحيى عليه السلام .	534
185	الخاتمة.	542
186	أهم المراجع .	544
187	فهارس الموضاعات .	546